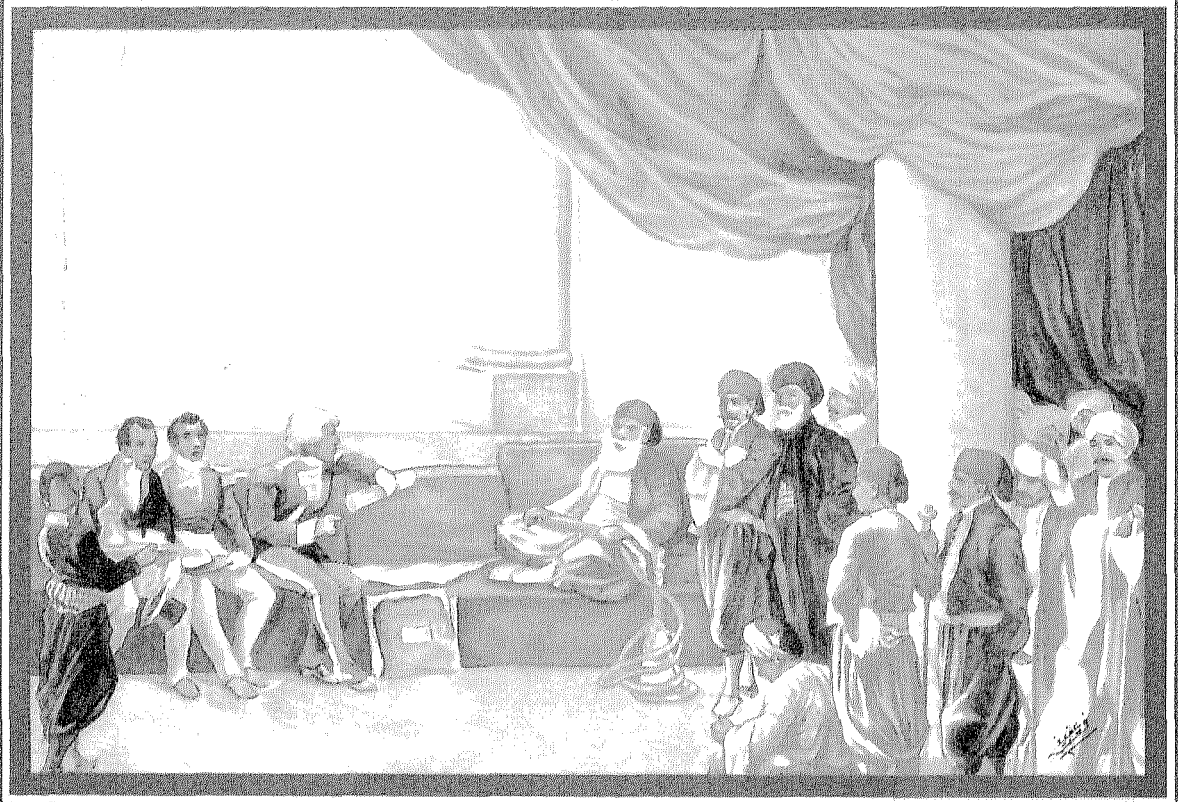


تاريخ الوزير محمد علي باشا للشيخ خليل بن احمد الرجبى



تحقيق
 د. دانيال كريسيليوس
 حمزة عبدالعزيز بدر د. حسام الدين اسماعيل





بَارِئُ خَلْقِ الْفَرَجِ عَزَّ وَجَلَّ يَا شَيْبَا



فتح الوزير محمد علي باشا

للشيخ خليل بن أحمد الرجبى

تحقيق وتعليق ودراسة

د. دانيال كريسيلىوس

أستاذ تاريخ الشرق الأوسط

جامعة ولاية كاليفورنيا - لوس أنجيلوس

د. محمد حسام الدين إسماعيل

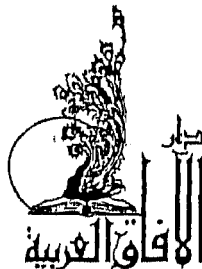
مدرس الآثار الإسلامية

جامعة الإسكندرية

عبدالعزیز بدر

الإسلامية المساعد

جنوب الوادى



الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م
جميع الحقوق محفوظة للناسر

٥٥ شارع محمود طلعت من شارع الطيران - مدينة نصر

القاهرة - ت: ١٦٤٠٢٦١



إهداء

إلى آبائنا وأمهاتنا الذين وضعوا خطانا على طريق العلم والتعلم.

المحققون

شكر وتقدير

يتقدم المحققون لهذا الكتاب بعظيم الشكر وخالص التقدير لهيئة فولبرايت وخاصة الدكتورة آن رضوان مديرة هيئة فولبرايت بالقاهرة والسادة العاملين بهيئة فولبرايت لحسن تعاونهم ومساندتهم لكي يخرج هذا العمل إلى حيز الوجود.

كما يتقدمون بالشكر لمركز البحوث الأمريكي بمصر وخاصة السيد مارك إيستون مدير مركز البحوث الأمريكي والسيد إبراهيم صادق نائب مدير المركز لتقديمهم الدعم المادى والفنى واستخدام الامكانيات المتوفرة بالمركز وخاصة مركز الكمبيوتر، بمساعدة السيد ياسر حمدى الذي بذل جهداً كبيراً في الإعداد الفنى لهذا العمل في شكله النهائي، كما بذل جهداً كبيراً في إعداد الفهارس.

ويتقدم المحققون بخالص الشكر والتقدير للعاملين بالمكتبات الآتية

دار الكتب المصرية

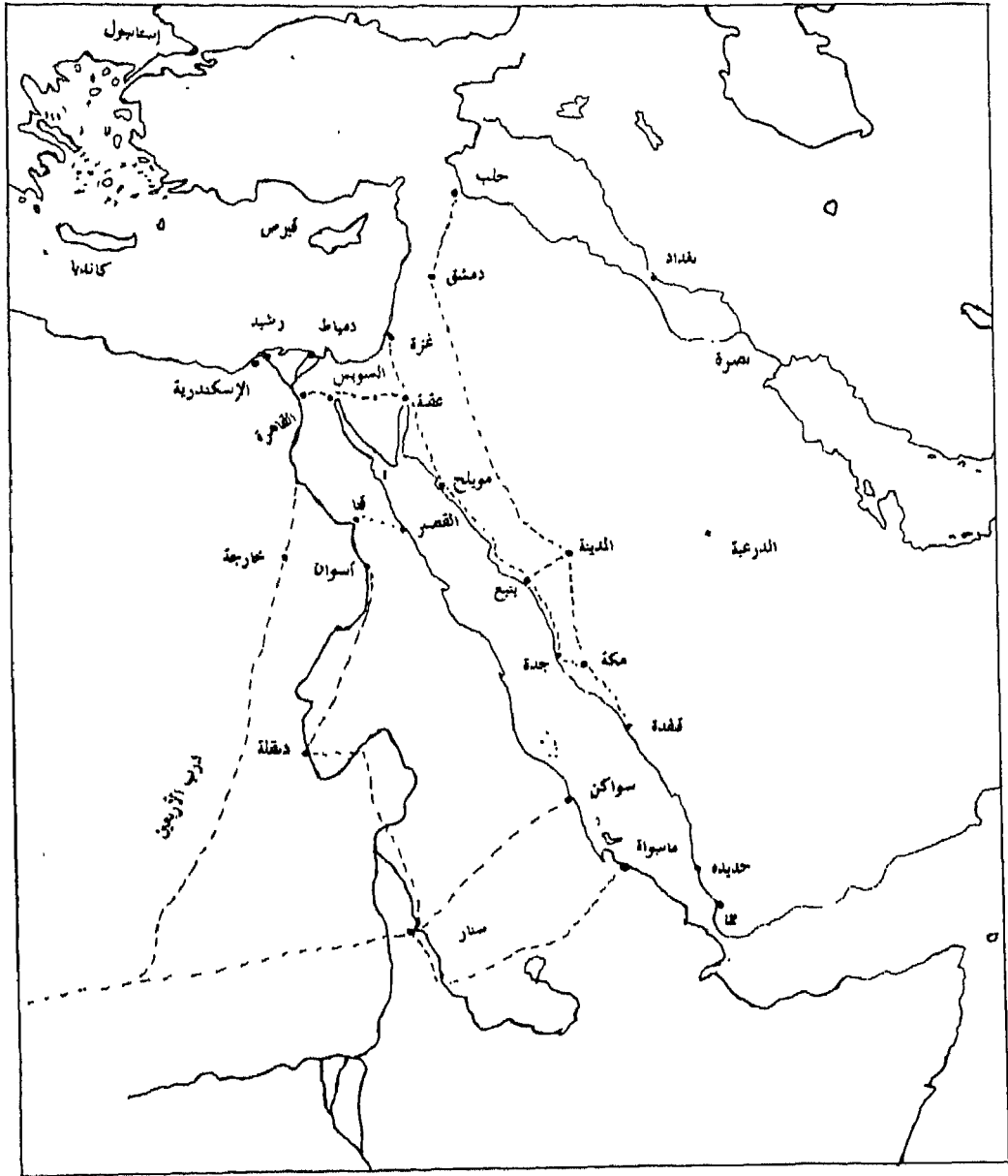
معهد المخطوطات العربية بالقاهرة

الجامعة الأمريكية بالقاهرة

مركز البحوث الأمريكي بمصر

جامعة ولاية كاليفورنيا (لوس أنجلوس)

كما يتقدم المحققون بالشكر لأسرهم التي أقتطعوا من وقتها الكثير لإنجاز هذا العمل.



مصر والشرق الأدنى

المحتويات

٧	مقدمة
٥٥	تاريخ الوزير محمد علي باشا
٥٨	مقدمة في كيفية مصر وما كانت عليه قبل الفرنسيين
٨٣	المقالة الأولى في بعض صفاته ومحاسن أخلاقه الجليلة الجميلة
٩٣	المقالة الثانية في ذكر إخراج المفسدين في مصر وأقطارها، وإزالة شوكة الضالين من مصر ومن أرض الحرمين وأقطار الحجاز من الوهاية وغيرهم، وفي ذكر قمع المعتدين من الفلاحين والعرب أجمعين بقطر مصر أيضاً
٩٤	الفصل الأول في إخراج المالك وأمراء المرادية والإبراهيمية وأتباعهم من مصر وأقطارها بالكلية
١١٥	الفصل الثاني في قمع شوكة الضالين وإزالة الطوائف المفسدين الفاسقين، وهم الوهاية وإخراجهم من بلاد الحرمين ومدينة الدرعية وإزالة رسومهم وإبطال آثارهم قبحهم الله
١٦٦	الفصل الثالث في قمع شوكة المفسدين من طوائف أحلاف الفلاحين والعربان بقطر مصر وإذلالهم
١٧٧	المقالة الثالثة في ذكر تعمير حضرة أفندينا للقطر المصري وإحياء أرضه وبلاده بالزروع والثمار
١٨٣	المقالة الرابعة في ذكر بعض آثار حضرة أفندينا من الأبنية والعمارات بمصر وسائر جهاتها
٢٠٩	المقالة الخامسة في إعادة دولة كتبة المسلمين

المحتويات

٢١٥	المقالة السادسة في ذكر بعض أحوال تنبيء عن عظيم همته وكبير قوته من إنشاء مراكب بحرية وآلات حربية، وما أنشأه من الترع والأنهار والبلاد والديار والأقطار
٢٣١	المقالة السابعة في الشأن الأكبر والتدبير الباهي الأبهري في ذكر إختراع حضرة أفندينا للعساكر الجهادية وما في ذلك من جليل الخزم وعظيم المزية
٢٥٧	فائدة مراسلة من قران الروسية إلى مولانا السلطان عبد المجيد
٢٥٨	جواب حضرة الخاقان الأعظم والدستور المكرم
٢٦١	المصادر والمراجع
٢٧١	الفهارس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة*

اختلفت الآراء في إصلاحات محمد علي، وذهب الباحثون والمؤرخون في تأويل أعماله ونواياه كل مذهب، غير أنه مما لا شك فيه أن محمد علي هو باني مصر الحديثة، وصانع مجدها التليد، وأنه هو القائد الخنك الذي إنتقل بها حقاً من حالة العصور الوسطى إلى دولة حديثة، ووصل بها إلى مصاف الدول العظمى في وقته، وأنه قد حمل على كاهله من الأعباء ما تنوء به العصبة أولى القوة من عظماء الرجال، فقد تولى حكم مصر في فترة من أحلك فترات تاريخها وهى الفترة التي أعقبت خروج

* تم إنجاز تحقيق هذا المخطوط بتدعيم من لجنة التبادل التعليمي والثقافي بين الولايات المتحدة الأمريكية وجمهورية مصر العربية (هيئة فولبرايت)، التي أتاحت للدكتور حمزة عبد العزيز بدر والدكتور محمد حسام الدين إسماعيل عبد الفتاح، القيام بأبحاثهم في لوس أنجلوس في الفترة من سبتمبر ١٩٩٥ إلى مارس ١٩٩٦، كما أتاحت للدكتور دانيال كريسيوليوس البحث في القاهرة في الفترة من إبريل إلى يونيو ١٩٩٦، كما ساهم مركز البحوث الأمريكي بالقاهرة بمنحة للدكتور دانيال كريسيوليوس من يوليو إلى ديسمبر ١٩٩٦. جميع الآراء الواردة بهذه الدراسة مسؤولة الباحثين وليس هيئة فولبرايت أو مركز البحوث الأمريكي بالقاهرة.

الفرنسيين في أكتوبر سنة ١٨٠١م، وهى فترة إنتابت مصر فيها حالة من الفوضى والإضطراب في مختلف مناحي الحياة، وهى إستمرار للفوضى التى إعتورت مصر قبيل الحملة الفرنسية وأدت إلى مجيء الفرنسيين وإحتلالهم مصر زهاء ثلاث سنوات، وعقب إنسحابهم إنقسم المماليك إلى طوائف عدة متناحرة وتحول الكثير منهم من حكام ورجال دولة إلى رجال عصابات، كما أن الجنود الأتراك من الأرمنوط والألبان وغيرهم الذين قدموا إلى مصر للمساعدة في طرد الفرنسيين منها تحولوا إلى القتل والسرقة والنهب، وإمتلأت عاصمة مصر وقراها ومدنها المختلفة بعصابات من الأتراك والمماليك والبدو، وإفتقد الأمن على الأموال والأنفس والممتلكات، ووقعت مصر فريسة صراعات بين طوائف عدة متناحرة تحكمها أهوائها ومصالحها الخاصة، وتحرك الشعب يقوده كبار رجال الدين وقادة الرأي في ذلك الوقت وجلهم من علماء الأزهر، وأدرك محمد علي -الذي كان قد قدم إلى مصر سنة ١٨٠١م على رأس طائفة من الجند الألبان أرسلتهم الدولة العثمانية ضمن جيشها لإخراج الحملة الفرنسية، وللمساهمة في وضع حد للفوضى التى أثارته صراعات المماليك التى لا تنتهي بينهم وبين بعضهم البعض، وبينهم وبين الباشا العثماني وعساكره- أدرك بحس صادق أن شمس الحكم العثماني توشك أن تغيب، وأن مصر على شفا مرحلة جديدة من تاريخها لن تكون فيها للسلطان العثماني من الحكم إلا الاسم، فقاد دفعة الأمور بدهاء سياسي لا يبارى حتى إنتهى الأمر بجلوسه على دست الحكم، ولم تكن مصر ولاية عثمانية عادية، فهى ذات المكانة والإمكانات الهائلة، وهى ذات التاريخ الحافل وسلطنة المماليك منذ أمد ليس ببعيد، وعمل محمد علي منذ اليوم الأول لتوليته الحكم على أن يوطد أركانه، ثم على أن ينفذ عن كاهل تلك الأمة ما ران عليها من غبار الجهل والتخلف، تقوده في ذلك طموحات كبيرة وآمال عراض.

وإذا كان البعض يرى أن إصلاحات محمد علي تصب جميعها في بوتقة واحدة هى الجيش، وأن قدرات الشعب المصري ومقدراته سُخرت جميعها لخدمة غرض

واحد هو صنع مجد شخصي لمحمد علي، وتكوين إمبراطورية مترامية الأطراف يحكمها هو وأبناؤه من بعده، فإننا نسوق رأي أحد معاصري محمد علي، وهو الشخص الذي أشرف على إصلاحاته في مجال التعليم الطبي والصحة العامة، حيث يقول كلوت بيك "لست أدعو أحداً إلى إعتبار والي مصر واحداً من رسل الحضارة والمدنية، بل أدعو إلى وجوب إعتباره من فحول الرجال والعبقريين، وإنه مع كونه لم يعلم شيئاً من شئون الأمة التي ظهر بينها أمره، ولم يجد منها تشجيعاً ولا مؤازرة على العمل، قد سلك مسلكاً مبنياً على الخدق وحسن التدبير، رام به الإستيلاء على زمام الحكم أولاً ثم الإحتفاظ به بعد ذلك".^١

ويرى كلوت بيك أن جيش مصر في عصر محمد علي وما إرتبط به من الفروع العديدة هما اللذان دفعا بمصر في تيار حركة المدنية التي ما برحت تسوقها إلى الأمام، كما يرى أيضاً أن محمد علي هو الذي أثار حركة الإصلاح وأيقظها من خمودها، وأن الشعب المصري لم يساهمه قط في شيء ما من التصميمات التي أقرها، ولا في إختيار الوسائل التي إستحسنها لتنفيذها، بل ألقى في طريقه كل ما إستطاع أن ينشره فيه من الصعوبات والمعاثر لتعطيلها^٢. غير أن كلوت بيك يضيف أيضاً أنه لا تثريب على المصريين في ذلك إذ أن "الأمم في أدوار إرتكاسها وتنكسها كلما ظهر من بينها مصلح يريد الأخذ بيدها والنهوض بأمرها والسمو بها إلى الغايات العالية في الحضارة والرفاهية، تعرضت له بالعمل على إحباط مساعيه وألقت في طريقه العقبات والمصاعب"، ويضيف أنه "لم يذكر التاريخ مثلاً لأمة نهضت بدافع من نفسها لبناء صرح المدنية وإقامة معالمة، وإنما الذين تعرضوا لذلك أفراد إمتازوا بذاتية متينة وعبقورية عالية، فدعوا إلى مشاركتهم في عملهم أبناء وطنهم، وكثيراً ما لجأوا في تنفيذ

^١ - كلوت بيك: لمحة عامة الى مصر، ترجمة محمد مسعود، ٤ أجزاء، القاهرة سنة ١٩٨٢-١٩٨٤،

ج٣، ص١٧٥-١٧٦.

^٢ - كلوت بيك: لمحة، ج٣، ص١٧٦.

مقاصدهم، إذا أرهقتهم من هؤلاء نزع الجلود على القديم إلى وسائل العنف والشدة"^١.

أدرك محمد علي بفكر ثاقب أن نهضة الأمة المصرية لن تكون إلا بسواعد أبنائها، وأن جيش مصر يجب أن يكون مصرياً لحمة وسداة، فعمد إلى تكوين جيش جديد يقوم على تجنيد المصريين، ويتبع أحدث الأساليب الأوروبية ويزود بأحدث الأسلحة، وهو ما عرف بأسم "النظام الجديد"، وإذا كان محمد علي قد نجح في القضاء على نفوذ رجال الدين وتخلص من زعامة المشايخ والعلماء الذين وصل دورهم السياسي إلى ذروته في مطلع القرن التاسع عشر، إلا أنه لم يتخلص من تأثيرهم على عامة الشعب، فلم يتحمس رجال الدين لإصلاحات محمد علي، بل رفضوها وتهكموا عليها وسخروا منها وإتهموا "النظام الجديد" بأنه بدعة مرددين الحديث الشريف "كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار"^٢، وإزدرى الأهالي النظام العسكري الجديد ونفروا منه ولقبوا محمد علي "باشا النصارى"، لإستخدامه معلمين أوروبيين مسيحيين في تشكيلات الجيش المصري^٣، ورغم الصعوبات والعراقيل نجح محمد علي سريعاً في تكوين جيش مصري حديث قوامه الفلاح المصري^٤، ويذكر كلوت بيك -الذي عاصر نشأة النظام الجديد- أنه ربما كان المصريون من أصلح أهل الأرض لأن يكونوا أفضل الجنود وأحسنهم^٥، غير أن عدم تحمس رجال الدين لإصلاحات محمد علي -بل والنفور منها وإزدرائها- كان خطراً يهدد كل آماله وطموحاته، ونحن إزاء آراء اثنين من رجال الدين علماء الأزهر هما

١ - كلوت بيك: لمحة، ج ٣، ص ١٧٧.

٢ - رجب حراز: المدخل إلى تاريخ مصر الحديث، القاهرة سنة ١٩٧٠م، ص ٢٢٦.

٣ - كلوت بيك: لمحة، ج ٣، ص ٢٦٥-٢٦٦.

٤ - كلوت بيك: لمحة، ج ٣، ص ٢٦٥-٢٦٦.

٥ - كلوت بيك: لمحة، ج ٣، ص ٢٢٤.

الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ومؤلفه ذائع الصيت "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" الذي إنتقد فيه كثيراً من إصلاحات محمد علي، وتحدث عنها بمرارة شديدة، بل وسخر من نظامه الجديد وعساكره "ذوي الملابس المقمطة"، وعالم آخر من علماء الأزهر هو الشيخ خليل بن أحمد الرجي ومؤلفه "تاريخ الوزير محمد علي" الذي تقدمه للقاري الكريم -على الرغم من أسلوبه الركيك- لنقيم الدليل على أنه في أحلك أوقات الظلام كان بالأزهر الشريف علماء مستنيرين تفهموا إصلاحات محمد علي وبُعد أهدافها، على الرغم من قسوة وطأتها على الشعب المصري في ذلك الوقت.

ولسنا في مجال الحكم على إصلاحات محمد علي وجيش مصر في عصره وحروبه العديدة ومدى إتفاق ذلك مع مصالح الشعب أو مع تعاليم الدين الحنيف، بل إننا نقدم رأياً آخر معاصراً كتبه أحد أبناء الأزهر مثله في ذلك مثل الجبرتي، ولكنه يرى في محمد علي رأياً آخر.

التعريف بالمخطوط وخطة تحقيقه

هو كتاب "تاريخ الوزير محمد علي"، توجد لهذا المخطوط عدة نسخ، الأولى بمكتبة رفاة الطهطاوي بسوهاج تحت رقم ١٠٥ تاريخ، وتحفظ دار الكتب المصرية بعدة نسخ، الأولى تحت رقم ٥٠٢ تاريخ، والثانية تحت رقم ٥٨٥ تاريخ، والثالثة تحت رقم ١١٤٩ تاريخ تيمور، كما يوجد أيضاً بقسم المخطوطات بدار الكتب المصرية نسختين أخريين كل منهما تحت أرقام ٩٤٨١ تاريخ و ٣٩٥١ تاريخ، غير أن كل منهما صورة ضوئية من المخطوط رقم ٥٠٢ تاريخ، كما يحتفظ معهد المخطوطات العربية بصورة من نسخة سوهاج تم تصويرها سنة ١٩٤٨م من مكتبة رفاة الطهطاوي بسوهاج التي كانت تعرف آنذاك بمكتبة الأمير فاروق. وتوجد نسخة أخرى من هذا المخطوط بمكتبة بلدية الإسكندرية تحت رقم ٩٦٢ تاريخ، لم نستطع إستخدامها لظروف إعداد مكتبة الإسكندرية الجديدة.

أولاً - نسخة سوهاج

تقع نسخة سوهاج في ٢٢٦ صفحة قياس ٢١×١٤ سم، وصفحاتها غير مرقمة، وكل صفحة تحتوي على سبعة عشر سطراً، وكل سطر تتراوح كلماته ما بين ست وثمانين كلمات، والصفحة الأولى من المخطوط مزخرفة ومذهبة، وجميع صفحات كل منها داخل إطار مستطيل، وتفصل بين الجمل فواصل زخرفية، وقد دُون على صفحة العنوان "هذا تاريخ في شأن الوزير محمد علي باشا لخليل بن أحمد الرجي الشافعي الشاذلي والذي بعثه على ذلك الشيخ محمد العروسي رحم الله الجميع وتجاوز عنهم أمين"، وتحت العبارة السابقة كتب "ملك ولي النعم الحاج إبراهيم سر عسكر" عدد ١٠٨، مما يشير إلى أن نسخة سوهاج كانت ضمن مقتنيات مكتبة إبراهيم باشا سر عسكر، أي قبل أن يصبح حاكماً لمصر في جمادى الأولى سنة ١٢٦٤هـ/أبريل سنة ١٨٤٨م، أما الرقم ١٠٨ أسفل العبارة السابقة فرمما يشير إلى رقم الكتاب في مكتبة إبراهيم باشا. وقد خصص صفحة في بداية المخطوط لفهرست الكتاب، وينتهي المخطوط بالمقالة السابعة التي خصصها الرجي "لإختراع محمد علي للعساكر الجهادية"، ولا يتضمن المخطوط اسماً لناسخ أو تاريخاً للنسخ، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن نسخة سوهاج هي النسخة الأصلية، خاصة وأنها نسخة إبراهيم باشا التي أضيفت لمكتبته في حياته في الفترة التي كان فيها قائداً للجيش المصرية، أي قبل سنة ١٨٤٨م.

أما تاريخ كتابة هذا المخطوط فقد ورد ضمناً في المقالة الثالثة في معرض حديث الرجي عن سياسة محمد علي الزراعية، فقد ذكر العبارة التالية "فصارت البلاد من ست وعشرين إلى وقتنا هذا وهو عام ثمانية وثلاثين بعد المائتين وألف على غاية العمارة"^١. ونرجح أن تاريخ سنة ١٢٣٨هـ/١٨٢٢م هو أيضاً تاريخ كتابة نسخة

^١ - المخطوط، ص ١٣٣.

سوهاج، وحيث لم يدون بها إسماً لناسخ، فربما كانت من نسخ المؤلف نفسه، وهى النسخة التي إعتمدناها للنشر مع مقارنتها بنسخة دار الكتب رقم ٥٠٢ تاريخ.

ثانياً - نسخ دار الكتب

١ - النسخة رقم ٥٠٢ تاريخ

تقع هذه النسخة في ٢٠٤ صفحة، وصفحاتها مرقمة، وكل صفحة منها تحتوي على تسعة عشر سطراً، وكل سطر منها تتراوح كلماته ما بين ثمانى وتسع كلمات، وقد دون أسفل العنوان "مشتري من حضرة حسين بيك ناظر مطبعة بولاق".

ولا تحتوي هذه النسخة على فهرست مثل نسخة سوهاج، كما أن بداية المخطوط لا تتضمن الزخارف والتذهيبات التي تزين نسخة سوهاج، وينتهي هذا المخطوط بعبارة تتضمن تاريخ النسخ، "تمت كتابته آخر يوم من شعبان سنة ١٢٩٣هـ ثلاثة وتسعين ومائتين بعد الألف". وقد أضيف إلى المخطوط بعد ذلك أربع صفحات تحت عنوان "فائدة" تتضمن نص رسالة تهديد من أمبراطور روسيا إلى السلطان عبد المجيد (١٩ ربيع ثاني سنة ١٢٥٥-١٧ ذي الحجة ١٢٧٧هـ/٢ يوليو ١٨٣٩-٢٦ يونيو ١٨٦١م)^١، ورد السلطان عبد المجيد على تلك الرسالة. وقد كتبه عناوين المقالات والفصول بالمداد الأحمر، وتحمل هذه النسخة في هوامشها بعض جمل لا تخرج عن كونها إما عبارات سقطت من الناسخ وأضافها على الهامش، أو عبارة قصد منها التنبيه على خطأ وقع في نسخ صفحة في غير موضعها.

^١ - ابراهيم حليم: تاريخ الدولة العثمانية العلية، بيروت سنة ١٩٨٨، ص ٢١٣-٢١٧.

٢ - النسخة رقم ٩٤٨١ تاريخ

تقع هذه النسخة في ٢٢١ صفحة، وهى منسوخة حديثاً من النسخة ٥٠٢ تاريخ، إذ دون في نهايتها "تم بحمد الله وعونه على يد المتوسل بصاحب البلاغ عبد العزيز الصباغ، نسخه على نفقة دار الكتب الملكية المصرية في يوم الأحد الموافق ٢٥ مارس سنة ١٩٤٥/١١ من ربيع الثاني ١٣١٤ تحت رقم ٥٨٥ تاريخ وهذا الكتاب في شأن الوزير محمد علي باشا والله تعالى أسأل أن ينتفع به كل من طالع له إنه سميع مجيب الدعاء أمين".

٣ - النسخة رقم ١١٤٩ تاريخ تيمور

تقع هذه النسخة في ١٥٠ صفحة، وهى من مقتنيات المكتبة التيمورية، وهى كالنسخة السابقة نسخت حديثاً من نسخة دار الكتب رقم ٥٠٢ تاريخ. وكلا النسختين السابقتين (٩٤٨١ تاريخ - ١١٤٩ تاريخ تيمور) نسخ حديثاً (١٩٤٥) من نسخة دار الكتب رقم ٥٠٢، وبهما نفس الاختلافات بين نسخة سوهاج ونسخة دار الكتب رقم ٥٠٢ تاريخ، كما توجد ثلاث نسخ أخرى تحت أرقام ٥٨٥ و ٣٩٥١ و ٩١٨٤ تاريخ، هى مجرد صور ضوئية مختلفة من النسخة رقم ٥٠٢ تاريخ. ولذلك فقد إعتدنا فقط النسخة رقم ٥٠٢ لمقارنتها بنسخة سوهاج، التي تعتبر أقدم النسخ السابقة.

خطة التحقيق

١ - مراجعة نص نسخة سوهاج مع نسخة دار الكتب، مع إعتبار نسخة سوهاج هى الأصل ووضع أي إضافة وردت في نسخة دار الكتب بين حاصرتين، والإشارة إلى ذلك وإلى الاختلاف بين النسختين في موضعه.

٢ - مراجعة المعلومات الواردة في هذا المخطوط مع المصادر الأخرى العربية والأجنبية، وخاصة تاريخ الجبرتي، فكلاهما معاصر لنفس الفترة من حكم محمد علي،

وإن كان الرجحي قد كتب تاريخه هذا في سنة ١٢٣٨ هـ بعد أن توقف الجبرتي عن الكتابة في تاريخه "عجائب الآثار" بنحو عامين فقط. وكذلك أيضاً تقارير المعاصرين لمحمد علي من قناصل الدول الأجنبية الذين تعتبر تقاريرهم وثائق رسمية يرسلونها إلى حكوماتهم، وهى تقارير سرية لا تخضع بأي حالة من الأحوال لميول أو اتجاهات الحاكم في البلد الذي يمثل القنصل دولته بها. وبعض هذه التقارير نشر في مراجع أجنبية، بل وترجم في بعض المصادر العربية أيضاً، ومنها تقرير المندوب الأمريكي وليم هودجسون سنة ١٨٣٤م^١، وتقرير المندوب الإنجليزي جون بورنج سنة ١٨٣٧م^٢، وبعض هذه التقارير لم ينشر بعد، ومنها تقرير القنصل الأمريكي جورج جليدون سنة ١٨٣٧م^٣.

^١ - قدم وليم هودجسون تقريرين عن مصر إلى وزارة الخارجية الأمريكية، أحدهما في سنة ١٨٣٤م والآخر سنة ١٨٣٥م. أنظر: محمد فؤاد شكري وآخرون: بناء دولة، مصر محمد علي، القاهرة سنة ١٩٤٨، ص ٢٠٩.

^٢ - أنظر نص تقرير بورنج: محمد فؤاد شكري: بناء دولة، ص ٣٧٧-٧٠٤.

^٣ - استخدمنا نسخة من تقرير جورج جليدون مصورة على ميكروفيلم تحتفظ بها جامعة CAL. STATE L. A. بكاليفورنيا، وهو تقرير على درجة من الأهمية، يقع في أكثر من خمسين صفحة، وقد كان مستر جليدون والد جورج جليدون تاجراً إنجليزياً قام بأعمال القنصل الأمريكي بمصر ومقره مدينة الإسكندرية وقت زيارة هودجسون لمصر سنوات ١٨٣٤ و ١٨٣٥م، وكان ابنه جورج كاتب هذا التقرير يعمل وكيلاً لوالده القنصل بمدينة القاهرة.

ومن الطريف أن مستر جليدون تقابل مع المندوب الأمريكي وليم هودجسون الذي كان مكلفاً بزيارة مصر وإعداد تقرير عنها سنة ١٨٣٤م، وشكا له من ضعف راتبه، وطالب بمنحه الجنسية الأمريكية، إذ كان حتى ذلك الوقت ما يزال أحد الرعايا البريطانيين ويخضع للقانون الإنجليزي، ويظهر تقرير جورج جليدون تفهماً كبيراً لإصلاحات محمد علي رغم قسوتها خاصة على الفلاحين، وذكر جليدون أنه يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار أن مصر دولة في حالة انتقال "Egypt"

"is in a state of transition." وأنه في حالة محمد علي ومشروعاته الضخمة فإن الغاية تبرر

الوسيلة "The end justifies the means."

٣ - ضبط أسماء الأعلام والمواقع والبلدان والتعريف بالألفاظ الإصطلاحية والوظائف في حواشي الكتاب.

٤ - ضبط التواريخ الهجرية ومقارنتها بالتواريخ الميلادية.

٥ - حرصنا على تقديم النص كما وضعه المؤلف، فقد دأب على بسط الكلمات المهموزة مثل "العجائب" "الغائب" "استيلاوهم" "المطمينون"، كما دأب أيضاً على إسقاط الهمزات في نهاية الكلمات، مثل "العلماء" "الأمراء"، كما أسهب المؤلف في استخدام السجع والمحسنات اللفظية المختلفة.

المؤلف

هو خليل بن أحمد الرجي الشافعي الشاذلي، لا نعرف تاريخ مولده، واختلفت الآراء في تاريخ وفاته، فيذكر البغدادي في إيضاح المكنون^١ وهدية العارفين^٢ أنه توفي سنة ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م، بينما يذكر كحالة في "معجم المؤلفين" أنه كان حياً سنة ١٢٤٥هـ/١٨٢٩م، وأنه كان مؤرخاً متكلماً صوفياً أديباً، وأنه صنف بالإضافة إلى تاريخ الوزير محمد علي باشا مؤلفاً آخر في علم التوحيد هو "وسيلة المريد في علم التوحيد"^٣، ونستطيع أن نضيف أن الرجي كان أيضاً شاعراً، فقد ورد بهذا المخطوط وفي مواضع عدة أبيات من الشعر أشار الرجي ضمناً إلى أنها من نظمه^٤.

أما عن الحالة الإقتصادية للشيخ الرجي فنستطيع أن نقرر أنه كان ميسور الحال، فقد ذكر في هذا المخطوط أنه كان له إلتزامين لم يحدد جهة أي منهما. ونرجح

١ - البغدادي، إسماعيل باشا، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، استانبول سنة ١٣٦٦هـ/١٩٤٧، المجلد الثاني، ص ٧٠٨.

٢ - البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين - أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، استانبول سنة ١٩٥١، ج ١، ص ٣٥٦.

٣ - عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، دمشق ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م، ج ٤، ص ١١١.

٤ - المخطوط، ص ٨٤، ١٠٤، ١٢٦.

أن الرجحي كان مدرساً للتوحيد بالجامع الأزهر، إذ أنه ألف مخطوطه هذا بناء على طلب من شيخ الإسلام محمد العروسي، الذي تولى مشيخة الجامع الأزهر من سنة ١٢٣٣هـ/١٨١٧م حتى وفاته سنة ١٢٤٥هـ/١٨٢٩م^١، وكان الشيخ العروسي على علاقة وطيدة بمحمد علي منذ بداية توليه حكم مصر، فقد كان العروسي ثالث ثلاثة سعوا في الصلح بين محمد علي وأمراء المماليك في الصعيد، هم الشيخ محمد العروسي وابن الشيخ الأمير والسيد محمد الدواخلي بأمر محمد علي^٢.

وقد أشار الجبرتي إلى تولي العروسي مشيخة الأزهر سنة ١٢٣٣هـ/١٨١٧م من غير منازع وإجماع أهل الوقت، غير أنه أضاف عبارة لا تخلو من الغمز، فذكر "أنه (محمد العروسي) لبس الخلع من بيوت الأعيان، مثل البكري والسادات وباقي أصحاب المظاهر ومن يحب التظاهر"^٣.

ويشير تكليف العروسي للشيخ خليل بن أحمد الرجحي بكتابة تاريخ للوزير محمد علي، إلى أن الشيخ محمد العروسي كان أكثر تفهماً من غيره لإصلاحات محمد علي، رغم ثقل وطأتها على المصريين آنذاك، وذلك رغم معارضة كبار رجال الدين لإصلاحات محمد علي وخاصة معارضتهم لنظام الجيش الجديد عماد تلك الإصلاحات، ومن هؤلاء الجبرتي الذي وصف عساكر هذا النظام بأنهم "ذوي الملابس المقمطة" وأنهم مثل "عساكر النصارى"، وردد العلماء أن النظام الجديد

^١ - الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن، ت ١٢٤٩هـ/٢٤-١٨٢٥م: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، أربعة أجزاء، الطبعة الأولى، بولاق سنة ١٣٢٢هـ، ج ٤، ص ٢٩٤؛ أمين سامي: تقويم النيل وعصر محمد علي، الجزء الثاني، القاهرة سنة ١٩٢٨م، ص ٢٤٩.

^٢ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٣؛ محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر، ١٨٠١-١٨١١، ثلاثة أجزاء، القاهرة سنة ١٩٥٨، ج ٢، ص ٦٢٥، ٦٢٧، ٦٢٩-٦٣٢.

^٣ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٩٤.

^٤ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٢٢؛ كلوت بيك: لحة، ج ٣، ص ٢٦٦.

بدعة، وإستشهدوا بالحديث الشريف "كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار"^١، وأطلق على محمد علي "باشا النصارى"، وكانت المقاومة السلبية من أهم الأخطار التي تتهدد مشروع محمد علي برمته^٢.

ولم تكن إنتقادات الجبرتي اللاذعة في تاريخه "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" بغائبة عن محمد علي، فقد كان من عادته حب الإطلاع على ما يكتب في الصحف، ويذكر كلوت بيك أنه كان يشدد على المترجمين بالعناية في نقل ما تكتبه الصحف إليه، وأنه كثيراً ما يقرأها بنفسه، وإن كان قد تعلم القراءة بعد أن جاوز الخامسة والأربعين، ويضيف كلوت بيك أنه "لا يعبأ بما يذاع عنه من التراهاث والأباطيل"^٣، وبالرغم من أنه قد أمر بترجمة عدد كبير من المؤلفات التي قامت بطبعها "جمعية نشر الثقافة النافعة Society for the Diffusion of Useful Knowledge"^٤، كما أمر بترجمة وطبع كتاب للجبرتي نفسه وهو "مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسييس"، إلا أن مؤلف الجبرتي الآخر "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" وما حواه من إنتقادات شديدة لمحمد علي^٥ وإصلاحاته تصل إلى حد السخرية والتهكم في كثير من الأحيان، كان ذلك سبباً كافياً لحجب الكتاب ومنعه من النشر حتى أذن الخديوي توفيق بطبعه سنة ١٢٩٧هـ/١٨٨٠م^٦. ولا شك في أن محمد علي قد أحيط علماً بما دونه الجبرتي من إنتقادات لشخصه ولبطانته ولكثير من أعماله، ويبدو أن

^١ - محمد فواد شكري: بناء دولة، ص ١٤٩.

^٢ - كلوت بيك: لحة، ج ٢٦٦؛ محمد فواد شكري: بناء دولة، ص ١٦٢.

^٣ - كلوت بيك: لحة، ج ١، ص ٧٩.

^٤ - تقرير بورنج، ضمن كتاب بناء دولة، ص ٦٨٧.

^٥ - هنري دودويل: محمد علي مؤسس مصر الحديثة، ترجمة أحمد محمد عبد الخالق وعلي أحمد

شكري، الطبعة الثانية، القاهرة (٢٠٠٥)، ص ٢١٨.

^٦ - محمود الشرقاوي: مصر في القرن الثامن عشر، القاهرة سنة ١٩٥٧م، ج ١، ص ٣١.

محمد علي قد حاول إستمالة الجبرتي إليه فمنح ابنه خليل -وربما الجبرتي نفسه في أواخر حياته- وظيفة ميقاتي للصلاة وهلالي رمضان وشوال في قصر شبرا، غير أن ذلك لم يثن الجبرتي عن حياده ولم يصرفه عن نقد ما رآه من وجهة نظره مستحقاً للنقد، فطلب محمد علي وربما ابنه إبراهيم^٢ من شيخ الأزهر محمد العروسي تكليف أحد العلماء بكتابة تاريخ يؤيد فيه إصلاحات محمد علي، ويوضح إتفاق تلك الإصلاحات مع أحكام الشريعة الإسلامية، وبالفعل كلف الشيخ العروسي خليل بن أحمد الرجبي لكتابة هذا المخطوط، وشتان بين تاريخ الجبرتي وتاريخ الرجبي، غير أننا -وبغض النظر عن تمكن أيهما من حرفة كتابة التاريخ وأدواتها- نجد أنفسنا أمام رأيين متناقضين تماماً في محمد علي وإصلاحاته، كلاهما من علماء الأزهر، وكلاهما معاصر لمحمد علي.

بين الرجبي والجبرتي

بينما يذكر الجبرتي عن كتابه "عجائب الآثار" أنه "لم أقصد بجمعه خدمة ذي جاه كبير أو طاعة وزير أو أمير، ولم أداهن فيه دولة بنفاق أو مدح أو ذم، مباين للأخلاق لميل نفساني أو غرض جسماني"^٣، نجد الرجبي ينص صراحة على أنه قد صنف هذا الكتاب بناء على تكليف من شيخ الأزهر محمد العروسي، الذي طلب منه "تصنيف كتاب لطيف وتلخيص مجموع شريف يتضمن أخبار حضرة الصدر العلي ذي العز والفخر الجلي سيد وزراء الأقطار ٠٠ حضرة سيدنا الوزير محمد علي"، كما حدد له الشيخ العروسي الغرض من تأليف الكتاب "وأن يكون الكتاب مخيراً عن بعض آثاره مظهراً ما له من مظهر الهمم ورفعة مناره، وذلك على طريقة الإجمال، لأن

^١ - محمود الشرقاوي: مصر في القرن الثامن عشر، ص ١٥.

^٢ - وجدت النسخة الأصلية من المخطوط وقد دون عليها مكتبة الحاج إبراهيم سر عسكر.

^٣ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ١، ص ٦.

تفصيل ذلك يعجز عنه فحول الرجال"^١، وقد لبس الرجبي أمر شيخه شيخ الأزهر ووعده بكتابة "مرقوم تبهر نفاسته لطائف الطبائع" على حد قوله^٢.

وبينما يصف الرجبي محمد علي بأنه "سيد وزراء الأقطار والمشرف على جميع أولي الوقار، صاحب الهمم الكسروية والأخلاق الجميلة البهية"، وأنه "المحمود صنعه لدى كل إنسان، بادى النتائج ومظهر المراحم"، وهو "الصدر الذي جمع البأس والندى، وطلع على الأقطار بدر هدى"^٣ إلى غير ذلك من عبارات الثناء والمديح التي يفيض بها هذا المخطوط، نجد الجبرتي يصف محمد علي بأنه "شاب مغرور جاهل وظالم غشوم"^٤.

وبينما يتحدث الرجبي عن كرم محمد علي و"فأؤه بالوعد"، وإنه "يعطي الألف والألوف الكثيرة المتزايدة في الكثرة التي لا تدرك لوزير ولا لأمير صغير ولا كبير"، وأن كرمه "فاق به كعب بن مامه وحاتم الطائي ومعز بن زائدة والرشيد وجعفر"^٥، وأن من أخلاقه أنه "يعطي العطاء الكثير الجزيل لمن صنع في خدمته الشيء التافه القليل"^٦. نجد الجبرتي يصفه بأن "من طبعه الحقد والحسد والتطلع لما في أيدي الناس"^٧، وأنه "غدار لا يفي بعهد ولا بوعده ولا ير في عيّن ولا يصدق في قول"^٨.

^١ - المخطوط، ص ٦.

^٢ - المخطوط، ص ٧.

^٣ - المخطوط، ص ٧.

^٤ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٩٥.

^٥ - المخطوط، ص ٣١-٣٢.

^٦ - المخطوط، ص ٢٤.

^٧ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١١١.

^٨ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٤٩.

وبينما يتحدث الرجبي عن حب محمد علي لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإرجاعه الحكم في الأمور جليلها وحقيرها إلى الشرع الشريف^١، يذكر الجبرتي أنه في دولته تمت المنادة على الربا جهاراً في الأسواق من غير إحشام ولا مبالاة، وأن ذلك من غرائب الحكم^٢.

ويصف الرجبي محمد علي بأن "من أخلاقه الجلييلة التي تميز بها عن الأمراء والملوك والوزراء عدم محبته لسفك الدماء، فإنه لا يرغب في ذلك أصلاً بل يعفو ويصفح، ولا يقع منه ذلك إلا لمن كان مستحقاً لذلك المعنى"^٣.

أشار الرجبي كذلك إشارة مقتضبة إلى مذبح القلعة، وإكتفى بالقول بأن ذلك "من المراتب المعرفة المشاهدة عند أهل مصر وقطرها التي لا حاجة إلى ذكرها للعلم بها والإحاطة من كل الناس بتفاصيلها"^٤، ولا يظهر الرجبي أي تعاطف مع المماليك، ويذكر صراحة أنه لم يرى "فيهم صاحب تدبير ولا إنساناً له الناس بالكمال تشير، بل كانوا مغفلين ظالمين"^٥. أما الجبرتي فقد أورد وصفاً مسهباً لمذبح القلعة، وذكر أن هذه الحادثة قتل فيها أكثر من ألف إنسان، أمراء وأجناد وكشاف ومماليك، وإنهم كانوا يُلقون في حفر من الأرض فوق بعضهم البعض، وأن هذه الحادثة من أبشع الحوادث التي لم يتفق مثلها. ويضيف الجبرتي أن عسكر محمد علي "أسرفوا في قتل

^١ - المخطوط، ص ٣٢، ٢٥.

^٢ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٨٣.

^٣ - المخطوط، ص ٢٨.

^٤ - المخطوط، ص ٤٦.

^٥ - المخطوط، ص ٤٧-٤٨. يرجع تحامل الرجبي على المماليك -الذي وصل إلى درجة سبهم ووصفهم بإحط الصفات في كثير من المواضع بالمخطوط- إلى تعرض الرجبي نفسه لظلم المماليك، فقد ذكر في صفحة ٤٨ من المخطوط "وكنتم ممن ظلموه، حيث كانت لي حصة إلترام في بلد كان بها كفايتي وكفاية أهلي، فإنتهبها بالظلم والقهر عثمان أغا شقيق لاجين بيك وجهة أخرى أخذها ذو الفقار أغاة البينكشارية".

المصريين (المماليك) وسلب ما عليهم من الثياب، ولم يرحموا أحداً وأظهروا كامن حقدهم"^١. ويدي الجبرتي تعاطفاً مع المماليك وحزناً على قتلهم، فقد ذكر أن الله ختم "للجميع بالخير، فإنه بلغني ممن عاينهم بالحبوس وفي حال القتل أنهم كانوا يقرءون القرآن وينطقون بالشهادتين والإستغفار، وبعضهم طلب ماء وتوضأ وصلى ركعتين قبل أن يُرمى عنقه، ومن لم يجد ماء تيمم"^٢.

ومن المواقف التي يتضح فيها تباين آراء كل من الرجبي والجبرتي في محمد علي الحملة الإنجليزية الفاشلة على مصر سنة ١٨٠٧م، إذ يتحدث الرجبي عن شجاعة محمد علي في التصدي للإنجليز الذين هزمهم محمد علي "وطردهم بقوته المشهورة، وردهم أذلاء بعد تمكنهم من ثغر رشيد"، وكيف إنه "عمهم قتلاً وأسراً في واقعة الحماد"^٣. أما الجبرتي فقد ذكر أن محمد علي عندما بلغه نبأ نزول الإنجليز بالإسكندرية -وكان آنذاك يحارب المماليك بالصعيد- إرتعدت فرائصه و"إنحلت عزائمه" و"ثبت في يقينه إستيلاء الإنكليز على الديار المصرية" فعزم على الفرار إلى الشام^٤. أما معركة الحماد فنجد الجبرتي ينسب الإنتصار فيها إلى العامة وأهل البلاد الذين تنادوا بالجهاد وهجموا على الإنجليز من كل ناحية، ويعلق الجبرتي على ذلك بقوله "وليت العامة شكروا على ذلك أو نسب إليهم فعل، بل نسب كل ذلك للبasha وعساكره، وجوزيت العامة بضد الجزاء بعد ذلك"^٥.

ومن الموضوعات التي رأى فيها الرجبي رأياً مناقضاً تماماً للجبرتي الضرائب والمغارم العديدة التي فرضها محمد علي على طوائف الشعب المختلفة خاصة في الفترة

^١ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١٢٨.

^٢ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١٣١.

^٣ - المخطوط، ص ١٤٨.

^٤ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٥٤.

^٥ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٥٥.

الأولى من حكمه، فبينما يذكر الرجبي أن من الأخلاق التي إنفرد بها محمد علي "عدم تمكنه أحداً من الظلم للناس في مصر وسائر أقطارها، ولا يرضى لإحد من الحكام في مصر ولا في أقاليمها وبلادها قراها أن يظلم أحداً من التجار ولا من المزارعين ولا من الفلاحين"، وأنه قد "حصل بذلك العمار التام، وإرتاح الخاص والعام، وبطل ما كان يقع في الزمن السابق من حكام مصر والأمراء المتقدمين (المماليك) الذين أخرجوا البلاد وأضروا بالعباد"، "وإرتاحت مصر وأهلها وكثرت الأشياء من كل نوع"^١.

هكذا تحدث الرجبي عن راحة العباد وعمار البلاد، أما الجبرتي فنجدته يتحدث عن "توالي مرور العساكر آناء الليل وأطراف النهار بطلب الكلف واللوازم وأشياء يكل القلم عن تسطيرها ويستحي الإنسان من ذكرها ولا يمكن الوقوف على بعض جزئياتها، حتى خربت القرى وإفتقر أهلها وجلّوا عنها، وأما غالب بلاد السواحل فإنها خربت وهرب أهلها وهدموا دورها ومساجدها وأخذوا أخشابها"^٢.

ويشير الجبرتي إلى أن سياسات محمد علي أدت إلى "غلاء الأسعار في كل شيء وخصوصاً الأقوات التي لا يستغنى عنها الغني والفقير في كل وقت، بسبب الإحداثات والمكوسات التي ترتبت على كل شيء"^٣. ويشير الجبرتي في موضع آخر إلى إبتداعات محمد علي وإجتهاده في تحصيل الأموال من كل وجه وأي طريق^٤.

والواقع أن البون شاسع بين الرجبي والجبرتي، فالجبرتي مؤرخ متمكن من أدواته، يرصد ويحلل وينتقد ما يراه موجباً للنقد ويؤيد ما يراه مستحقاً للتأييد من وجهة نظره، بينما يبدو الرجبي مؤيداً لمحمد علي على طول الخط، محاولاً إظهاره بمظهر الحاكم العادل المستنير الذي تنطبق كل أفعاله وأقواله مع الشرع والصالح العام.

^١ - المخطوط، ص ٢٩-٣٠.

^٢ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٦٢.

^٣ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١٥٦.

^٤ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٦٩-٢٧٣.

وعلى الرغم من أن الرجبي قد كُلف بكتابة هذا المخطوط وحددت له أهدافه سلفاً فجاء مليئاً بعبارات المديح والثناء، إلا أن بعض فصوله لا تخلو من المعلومات التي ينفرد بها، ومنها ذلك الفصل الخاص بالحركة الوهابية، وأيضاً الفصل الثالث الخاص بقضاء محمد علي على نفوذ العربان وقطاع الطرق وإقراره الأمن في الأقاليم، إذ بينما يرصد الجبرتي إفتقاد الأمن في مدينة القاهرة قبيل محمد علي وفي بداية حكمه، نجد الرجبي ينفرد بتخصيص فصل كامل لإفتقاد الأمن في نفس الفترة في ريف مصر وأقاليمها المختلفة. كذلك ينفرد الرجبي بتسجيله لكثير من الأحداث التي كان شاهداً عليها، ومنها نقل أجزاء المراكب من بولاق إلى السويس، أو حفر ترعة المحمودية، أو الطريق الصخري الموصل بين قلعة الجبل والقلعة التي أنشأها محمد علي أعلى جبل المقطم، وغير ذلك من الأحداث^١.

منهج الرجبي ومصادره

إتبع المؤلف المنهج الموضوعي، وهو منهج يتسق وفكرة تدوين كتاب يسجل فيه أعمال محمد علي، إذ لم يكن الرجبي مهتماً بتدوين الأحداث الهامة التي وقعت في عهد محمد علي قدر إهتمامه بتسجيل إصلاحات محمد علي، والتنبيه على مدى أهمية تلك الإصلاحات، ومن ثم لم تكن هناك ضرورة لإتباع المنهج الحولي وهو ما يقتضيه الترتيب الزمني للأحداث^٢.

^١ - المخطوط، ص ١٥٢.

^٢ - عرف هذا النمط من الكتابات التاريخية في العصر الإسلامي، فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد في عصري سلاطين المماليك في مصر عدة كتب منها على سبيل المثال: - ابن عبد الظاهر، محيي الدين: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض سنة ١٩٧٦.

- ابن عبد الظاهر، محيي الدين: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور "المنصور قلاوون" ٦٧٨-٦٨٩هـ، تحقيق مراد كامل، القاهرة سنة ١٩٦١.

أما مصادر الرجبي فلا نستطيع أن نتبين في أي جزء من المخطوط اعتماد الرجبي على مصادر مخطوطة معاصرة له أو سابقة عليه، وعلى الرغم من ذلك وعلى الرغم من أن الرجبي يكتب عن عشرين أو ثلاثين سنة سابقة عليه إلا أنه يستخدم المصطلحات الفنية الخاصة بالماليك ووظائفهم مثل خشداش وتابع وصوباشي إستخداماً صحيحاً. غير أن إشارته إلى كل من أحمد بن طولون وأبي المسك كافور الإخشيدي بلقب "سلطان" تدل على ضعف معلوماته عن تاريخ مصر المبكر.

أما المصادر الأساسية التي إعتد عليها الرجبي في تدوين مصنفه هذا فلا تخرج عن كونها مصادر شفوية، وهى معلومات يستقيها من التجار أو الجند، أو معاينته الشخصية للأحداث، فقد كان الرجبي شاهداً على الفترة الأولى من عهد محمد علي، وهو ما يكسب هذا المخطوط كثيراً من الأهمية على الرغم من أسلوبه الركيك ومماثلته لمحمد علي. ومن العبارات التي تدل على إعتماده على المشافهة تلك العبارة التي أوردها في حديثه عن لجوء بعض أمراء الماليك إلى ليبيا فراراً من محمد علي، فقد أشار إلى ذلك صراحة بقوله "كما أخبرني الثقة ممن كان هناك من التجار"^١. ومن العبارات التي تدل أيضاً على إعتماده على المشافهة مصدراً لمعلوماته تلك العبارة التي أوردها في نهاية حديثه عن علاقة محمد بيك الألفي بالعربان، حيث ذكر "وما هو إلا ما ذكرته ورقمته، كما صرح به ثقة النقلة منهم حين سأله"^٢، كما أورد عبارة مماثلة في

- الشجاعى، شمس الدين: تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده، تحقيق برباره شيفر، القاهرة سنة ١٩٧٨م.

- العيني، بدر الدين: السيف المهند في سيرة الملك المؤيد "شيخ الحمودي"، تحقيق فهميم محمد شلتوت، القاهرة سنة ١٩٦٧.

^١ - المخطوط، ص ٤٧.

^٢ - المخطوط، ص ١٨١.

حديثه عن إنتصار حسن بيك الشماشرجي على بدو سيوة سنة ١٢٣٥هـ / ١٨٢٠م، حيث قال "كما أخبرني بذلك المخبر بسكندرية"^١.

إعتمد الرجي أيضاً على مشاهداته الشخصية في تسجيله لكثير من الأحداث، ومن ذلك تلك العبارة التي سجل فيها رأيه عن المماليك "وبالجملة فقد شاهدتهم سابقاً (المماليك) وهم في دولتهم وعزهم وكبير صولتهم، وكثرة عسكرهم وأجنادهم، وهم في مصر وأقطارها السنين العديدة والمديدة، فما رأيت فيهم صاحب تدبير ولا إنساناً له الناس بالكمال تشير، بل كانوا مغفلين ظالمين، وكنت ممن ظلموه"^٢. كذلك حديثه عن سد الإسكندرية "وكنت في ذلك الزمان ممن سافر لرؤيته مع رفقة من الإخوان، فشاهدته ومررت عليه فتأملت من جانيه ومكثت سايراً راكباً نحو ساعتين ثم نزلت في آخره للراحة"^٣.

وذكر أيضاً في معرض حديثه عن حفر ترعة المحمودية "وكنت في ذلك الحين بإسكندرية أخرج للتفرج على هذه الكيفية، فشاهدت همماً تعجز عنها الأكاسرة وأفعالاً لا تدركها القياصرة"^٤، ويؤكد مشاهدته بقوله "فإنه أمر لا يدرك معناه إلا من شاهده بنظره وليس الإخبار به كالعيان بل هو شيء من أثره"^٥.

المخطوط ومحتوياته

قسم الرجي كتابه "تاريخ الوزير محمد علي باشا" إلى مقدمة وسبع مقالات، تناول في المقدمة كيف أن صلاح الدين والدنيا لا يدرك إلا بوجود العدل وظهوره،

^١ - المخطوط، ص ١٨٢.

^٢ - المخطوط، ص ٤٧-٤٨.

^٣ - المخطوط، ص ١٥٢.

^٤ - المخطوط، ص ١٥٥-١٥٦.

^٥ - المخطوط، ص ١٥٧.

وأن العدل لا يُنصب ميزانه إلا على أيدي حاكم "قوي مطاع أمين"، وأن هذا الحاكم لا بد أن يجمع بين الهمة والشجاعة والذكاء والأخلاق، وأن تكون بطاقته على شكله ورسمه، ويرى الرجبي أن محمد علي قد توافرت فيه كل تلك الصفات، ثم يتناول بعضاً من محاسن مصر وكيف آل حكمها إلى طوائف الغز (أمراء المماليك).

ويصف أحوال مصر قبيل الحملة الفرنسية وكيف إقتسم حكمها إبراهيم بيك ومراد بيك فعاثوا في الأرض فساداً وإفتقد الأمن في سائر أنحاء البلاد بعد أن إقتسم المماليك إلى طوائف وجماعات متناحرة، حتى أن أتباع كل من مراد بيك وإبراهيم بيك كانوا يخالفونهم في كثير من الأحكام، وأن كل أمير من أمراء المماليك أصبح هو الحاكم للخط الذي يقيم به ولا يقدر المحتسب أو حتى رئيس الشرطة على أداء مهمته في مثل تلك الأحياء، وإقتصر مرورهم وحكمهم على الشارع السلطاني وما شابهه من الشوارع الكبار، وترتب على ذلك أن افتقد الأمن وظهر الفساد حتى ملأ البر والبحر.

ويورد الرجبي معلومات مهمة عن تحالفات بين بعض الأمراء وقطاع الطرق من العربان و الفلاحين، كذلك عن الإبحار النهري وتعرض المراكب لأعمال القرصنة. وتذخر المقدمة بكثير من التفاصيل عن القرصنة النيلية، وهو ما يتفق مع ما ذكره الرحالة الألماني نيبور من أن زيارة القاهرة كانت في ذلك الوقت نوعاً من المغامرة المحفوفة بالأخطار.

كما يورد الرجبي كثيراً من التفاصيل عن نقص الأمن في العاصمة نفسها، ويتحدث عن هجمات متكررة لأهل المنسر من العربان على حارات القاهرة وفي أيديهم المشاعل المضئية بالنار، ومن المعلومات المهمة التي ذكرها قوله أن أمراء مصر في ذلك الوقت كانوا على ثلاثة أقسام: أمراء مصريون (المماليك)، وأمراء فلاحون، وأمراء من العرب، ويشير إلى أن من الفلاحين والعربان من أصبحوا رؤساء عصابات يبلغ عدد كل منها ألف أو ألفين أو أكثر من ذلك، ويخلص من ذلك أن الفوضى

عمت بمصر فارتفع الأمن وزاد الحزن والخوف وكثر الفسق، ويرى الرجبي أنه نتيجة لذلك "إضطرب أمر حكام الأقاليم، ولم يزل هذا الأمر على هذه الصفات حتى تسبب عن ذلك مجيء الفرنسيين"، وأن المماليك لم يمكنوا معهم في الحرب ساعة واحدة.

ثم يصف الرجبي دخول الأتراك مصر بقيادة قبطان باشا بأنهم عساكر الإسلام الذين أجلوا الفرنسيين وأدخلوا الأمن والطمأنينة وحصل بهم السرور للمسلمين، وأن بهم كمل نظام الموحدين وعمر القطر وصلحت البلاد، ويذكر الرجبي أن الاستقرار بعد خروج الفرنسيين لم يستمر كثيراً، إذ سرعان ما دخلتها طوائف الغز المماليك ثانية وأشاعوا الفوضى والإضطراب.

ويضيف الرجبي أن تلك الفوضى استمرت حتى تولى وزارة مصر محمد علي، فأعاد عمران القطر بعد الإضمحلال، وصنع أشياء جليلة يعجز عنها كل رئيس من أمير ووزير على حد قوله. وبالرغم من أن الرجبي قد عاصر تلك الأحداث، وبالرغم من أنه أحد علماء الأزهر ومدرس التوحيد به إلا أنه لم يتعرض من قريب أو بعيد لدور العلماء في تعيين محمد علي، وإكتفى بقوله أن إبتداء شأنه كان يوم الجمعة ١٠ صفر سنة ١٢٢٠هـ/ ١٠ مايو ١٨٠٥م بمنزلة سعيد أغا وكيل دار السعادة، وهو يختلف في ذلك عما أورده الجبرتي الذي ذكر أن دور سعيد أغا إقتصر على السعي بين محمد علي وبين العلماء الذين قادوا الشعب الذي كان يردد الهتافات مثل "يا رب يا متجلي إهلك العثماني" و"شرع الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم"، ويورد الجبرتي كثيراً من التفاصيل عن تلك الحوادث التي أفضت إلى تعيين محمد علي حاكماً على مصر، منها حصار الشعب لخورشيد باشا بالقلعة، وإجتماع المشايخ والعامة ببيت القاضي، وقد حاول خورشيد باشا أن يدفع الجنود الدلاة-الذين كان سلفه خسرو باشا قد إستقدمهم- للتعاون معه، وأرسل إليهم فرماناً يذكر لهم أنه "يجب عليهم معاونته صيانة لعرض السلطنة وإقامة لناмосها وناموس الدين، وأن الفلاحين

محاصرونه ومانعون عنه الأكل والشرب"^١. وقد ظل خورشيد باشا سجيناً بالقلعة حتى وصل فرمان بعزله وتعيين محمد علي إبتداء من ٢٠ ربيع الأول سنة ١٢٢٠هـ/ ٩ يوليو ١٨٠٥م، "حيث رضي بذلك العلماء والرعية وأن أحمد باشا معزول عن مصر، وأن يتوجه إلى إسكندرية بالإعزاز والإكرام"^٢ ونرى الجبرتي أكثر تحريماً للدقة فقد ذكر أن العلماء توجهوا ومعهم سعيد أغا من بيت القاضي إلى منزل محمد علي بالأزبكية، حيث قالوا له لا نرضى إلا بك والياً علينا بشروطنا لما تنوّمه فيك من العدالة والخير. وكان رأي الجبرتي في سعي المشايخ والعامّة في عزل الباشا وتعيين محمد علي أنها "قضية مشكلة بين أوباش مختلفة وطباع معوجة منحرفة"^٣.

أما المقالة الأولى من هذا الكتاب فيتضح من عنوانها "في بعض صفات ومحاسن أخلاقه الجليلة الجميلة" أن الكاتب قد إكتفى لنفسه بموقف المادح لما رآه من محاسن الأخلاق، ونشير إلى إشادة الرجبي بكرم محمد علي وقوله أن "من أخلاقه أن يعطي العطاء الكثير لمن صنع في خدمته الشيء النافه القليل"^٤، ويتحدث الرجبي عن تلقي العلماء مرتبات عينية ومادية من محمد علي، فلا عجب أن يطلب شيخ الأزهر من أحد علمائه كتابة تاريخ الوزير محمد علي، وأن يأتي ذلك التاريخ على هذا النحو من المبالغة في المديح. ويناقش الرجبي تدعيم محمد علي لكثير من المنشآت والأنشطة الدينية وعلى رأسها رعايته للمساجد والأضرحة ومكاتب الأيتام.

وعلى أية حال فقد تناول في هذا الفصل بالإضافة إلى عبارات المديح والإطراء العديدة عدداً من الموضوعات المهمة التي سجلها الرجبي، منها بداية نظام الشورى في مصر، حيث عمل محمد علي على أن يحل نظام الشورى محل البيروقراطية الإدارية،

^١ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ٣٣٣.

^٢ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ٣٣٦.

^٣ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ٣٢٩-٣٣٠.

^٤ - المخطوط، ص ٢٤.

وأن يقوم ذلك على إشراك رجال الحكومة في البحث والرأي، فقد ذكر الرجبي الذي دون مخطوطه في نهاية سنة ١٢٣٨هـ/١٨٢٣م أن من أخلاق محمد علي أنه كان في كل حين من الشهور يرسل للحكام ويأمرهم بالحضور بين يديه ويسألهم عن البلاد وأحوالها وعن المزارعين، ويشير عليهم بما فيه النفع للعام والخاصة، ويرجعون ممثلين لأوامره مبادرين إلى تنفيذ أغراضه^١، وقد كان ذلك بداية تأسيس الدواوين وأهمها المجلس العالي أو الديوان الخديوي، إذ لم يمضي عام ونصف على ما ذكره الرجبي من اجتماع محمد علي بكبار موظفيه حتى أصدر أمراً بتأسيس الديوان الخديوي وذلك في ٥ ربيع الثاني سنة ١٢٤٠هـ/٢٧ نوفمبر ١٨٢٤م، وقد أطلق على هذا الديوان أسماء عديدة منها "مجلس القلعة" و"الجمعية العمومية" و"مجلس العموم" و"مجلس المشورة" أو "مجلس الشورى"، وكان محمد علي يعتبر هذا الديوان أو المجلس ديوانه المفضل، ويتفق هذا مع ما ذكره بورنج في تقريره على لسان محمد علي نفسه "إن بي حاجة إلى النصيحة الخالصة، ولهذا أتلفت حولي باحثاً عنها، وأمني أن يكون لدي مجلس شورى من الرجال الأمناء"^٢. وكان محمد علي قد سبق وأنشأ عدة دواوين لكل منها اختصاص بعينه، منها ديوان الكتخدا (وكيل الوالي) وديوان التفتيش، وديوان البيوعات وغير ذلك، ويعلق الرجبي على ذلك بقوله "إنه قد حصل بهذا إنسجام وإصلاح للناس وراحة كبيرة"^٣.

يتحدث الرجبي في هذا الفصل عن كيفية إختيار محمد علي لحكامه وكبار موظفيه، وتحريه عنهم قبل توليتهم المنصب وأثناء قيامهم به، وكيف إنه "لا يولي منصباً ولا حكماً لأحد في كل نوع من أنواع المصالح والخدم إلا بعد معرفة حاله وضبطه، وإنه يصلح لمثل هذا المنصب، وفي كل وقت يسأل عنه وعن أحواله وكيفية

^١ - المخطوط، ص ٣٠-٣١.

^٢ - تقرير بورنج ضمن: محمد فواد شكري: بناء دولة، ص ٦٩٠.

^٣ - المخطوط، ص ٣١.

صنيعه"^١، والواقع أن محمد علي كان يشكو دائماً من عدم وجود العدد الكافي من الأشخاص الذين يعتقدون آراءه ومراميه بحماسة وإخلاص^٢، وقد ناشد محمد علي موظفيه في كتاب دوري أصدره سنة ١٨٤٣م العمل بكل طاقتهم، فقال "إن من حسن الطالع أن ننعم بأرض كأرضنا لا مثيل لها بين أراضى العالم، وعندي أن التقاعس عن بذل كل ما يمكن بذله من الجهود في سبيل مضاعفة يسرها ورخائها لدليل العقوق الذي لا يمكن أن يرضاه قلبي ويستحيل أن أقره، فلا محيص لي من أن أناشدكم في كل حين بأن تسهروا على أداء واجباتكم لكي تصل إلى الغاية التي جعلناها نصب أعيننا وحنار من التكاثر والإهمال"^٣. كما يذكر كلوت بيك أن محمد علي كان أول من أرسى في مصر قواعد إدارة حكومة تعتبر وحدتها وقوتها من أهم الشروط الحيوية المحافظة على كيانها^٤. ويذكر الرجبي في مخطوطه هذا أنه قد حصل بسبب ذلك إنسجام حال المصالح، وانتظام أمر أربابها وحكامها، ويتحدث الرجبي في هذا الفصل عن إصلاح محمد علي لنظام القضاء، ويورد بعض المعلومات المهمة عن قضاء الإسكندرية وكيف أن ذلك القضاء كان يتم شراؤه سنوياً من استانبول، فألقى محمد علي ذلك وأمر بأن يكون قاضيه من علمائها و"له ما يكفيه يعطيه حضرة المحافظ بالثغر"^٥.

حرص الرجبي كذلك في نفس الفصل على تأكيد حب محمد علي لللسنة المطهرة وإرجاعه الحكم في الأمور كلها إلى الشرع الشريف، وهو يؤكد ما ذكرناه آنفاً من أن ذلك كان هو القصد من وراء تصنيف هذا الكتاب. وقد ذكر بورنج في

^١ - المخطوط، ص ٣١.

^٢ - محمد فؤاد شكري وآخرون: بناء دولة، ص ٦٩٠.

^٣ - دودريل: محمد علي، ص ٢٢٤.

^٤ - كلوت بيك: لحة، ج ٤، ص ١٨.

^٥ - المخطوط، ص ٢٨.

هذا الصدد في تقريره أن تصريف الشئون القضائية في مصر أكثر سرعة وأقل تعرضاً للأهواء منه في أغلب البلاد الإسلامية^١.

يشير الرجبي أيضاً في هذا الفصل إلى تنظيمات المشايخ والنقباء ورعاية محمد علي لها، وهى النقابات التي ذكر عنها بورنج في تقريره أن القاهرة بها ما لا يقل عن ١٦٤ نقابة تتولى حماية ما تمثله من مختلف الحرف، وأن شيخ الحرفة كان يشترى مركزه من الحكومة وله على الجميع سلطة تامة، وأنه بفضل هذا النظام تسيطر الحكومة على جماعات كثيرة من الأفراد عن طريق الشيخ^٢.

أما الباب الثاني من هذا المخطوط فيتناول إلتصار محمد علي على المماليك وإخراجه لهم من مصر، ويدي الرجبي تفهماً كبيراً لموقف محمد علي من المماليك ويصفهم بأنهم قوم "أغراهم الشيطان على الخيانة" وأن محمد علي عرف أنه لا خير فيهم^٣، ويصف الرجبي شاهين بيك الألفي الذي تزعم المماليك بعد وفاة محمد بيك الألفي بسخافة العقل وإنه "رجل لامروءة له، بل هو حقير مهين"^٤، ونجد الرجبي في أكثر من موضع من هذا المخطوط يكيل السباب للمماليك، ويهون الرجبي من مذبحه القلعة ويصفها وصفاً موجزاً، كما أن معلوماته عن مفاوضات محمد علي مع المماليك قبل مذبحه القلعة تعوزها الدقة، والتفاصيل التي يذكر بها تاريخ الجبرتي فينما يذكر الرجبي أن حسن باشا طاهر أدار جولة من المفاوضات مع شاهين بيك وسليم بيك المحرجي^٥، يذكر الجبرتي أن تلك المفاوضات كانت بين حسن باشا وإبراهيم بيك

^١ - أنظر نص تقرير بورنج: محمد فواد شكري: بناء دولة، ص ٦٢٨.

^٢ - أنظر نص تقرير بورنج: محمد فواد شكري: بناء دولة، ص ٦١٧.

^٣ - المخطوط، ص ٣٥.

^٤ - المخطوط، ص ٤٤.

^٥ - المخطوط، ص ٣٩.

الكبير بعد أن انضم إليه شاهين بيك الألفي^١، كما يتحدث الرجبي أيضاً عن قيادة محمد علي للمعركة ضد المماليك بنفسه في ٥ جمادى الأولى سنة ١٢٢٥هـ/ ٨ يونيو ١٨١٠م، ويورد الجبرتي نفس المعركة بتفصيلات أكثر دقة، فيذكر أن محمد علي لم يذهب بنفسه بل أرسل جيشاً بقيادة كبار ضباطه حسن باشا طاهر و عابدين بيك و محو بيك و دبوس أغلي و صالح قوج^٢.

ولا شك أن المראה التي يتحدث بها الشيخ الرجبي عن المماليك كان ورائها تجرعه شخصياً لظلم المماليك بإستيلاء بعضهم على التزامين له، فقد ذكر في صفحة ٤٧ من المخطوط "فقد شاهدتهم سابقاً وهم في دولتهم وعزهم وكبير صولتهم وكثرة عساكرهم وأجنادهم وهم في مصر وأقطارها السنين العديدة والمديدة، فما رأيت فيهم صاحب تدبير ولا إنساناً له الناس بالكمال تشير، بل كانوا مغفلين ظالمين وكنت ممن ظلموه، حيث كانت لي حصة إلتزام في بلد كان بها كفايتي وكفاية أهلي، فإنتهبها بالظلم والقهر عثمان أغا شقيق لاجين بيك، وجهة أخرى أخذها ذو الفقار أغا الينكشارية". والواقع أن هذا الفصل من المخطوط شديد الإيجاز، يصف فيه المؤلف المماليك بإحاط الصفات، بينما يصف محمد علي بأنه كالأسد الضاري والفارس الغضنفر والشجاع القصور.

أما الفصل الثاني من المقالة الثانية فقد إختص به المؤلف حروب محمد علي مع الوهابيين، ويصف إنتصاره عليهم وإستعادة محمد علي للحرمين الشريفين وتدميره للدرعية بأنها "حسنة له على جبين الدهر مسطرة، وحديقة زهر بشميم عرفها أفئدة المؤمنين ووجوههم مبهجة معطرة باقية مخلدة بوجه الزمان غرة لاتزال"^٣.

^١ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١١٢-١١٥.

^٢ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١١٥، ١١٦، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢٣.

^٣ - المخطوط، ص١١٢.

والواقع أن هذا الفصل من أهم فصول المخطوط لما يحويه من معلومات ينفرد بها الرجعي، خاصة تلك التي يتحدث فيها عن بداية الحركة الوهابية وانتصارهم على العربان وسيطرتهم على الدرعية وإمتداد نفوذهم حتى سيطروا على الطائف وأرض الحرمين الشريفين وأطراف اليمن^١.

وإذا قارنا بين موقف الرجعي من الوهابيين وموقف الجبرتي من نفس الحركة، نجد أن الشيخ الرجعي يشير إلى مشروعية حرب الوهابي لخروجه على ولي الأمر وهو السلطان العثماني "ظل الله على رعيته وخليفته في خلقه" وأن السلطان "أرسل من حضرته أمراً مقبول الطاعة مسموع المضمون لدى أهل السنة والجماعة" يتضمن أمر محمد علي "بإنقاذ بلاد الحرمين الشريفين مكة والمدينة" و"أن يصد الوهابي وجيوشه بالحرب ويرفع ضرره"^٢، ويذكر الرجعي أن عبد الوهاب و عبد العزيز سارا في الناس سيرة حسنة حتى هلك، فقام بالأمر من بعد عبد الوهاب ابنه محمد وبعد عبد العزيز ابنه سعود، ويضيف الرجعي أن سعود إشتدت قوته وكثرة أمواله "فخرج عن قوانين أبيه وتحول في النعم ووقع منه الظلم والجور والتعدي على بلاد الحرمين"^٣، وأن خرافات دعوة ابن عبد الوهاب وهذيان عقيدته ظاهرة البطلان جلية البهتان والخذلان، ويصف عسكر محمد علي بأنهم "عسكر السنين"^٤، وكأنها معركة بين أهل السنة والخارجين عليها.

ولنا أن نقارن بين آراء كل من الرجعي والجبرتي، فكلاهما من علماء الأزهر، وكلاهما عاصر نفس الأحداث، فبينما يذكر الرجعي أن طوائف الوهابية إستولوا على المدينة المنورة وفعلوا بها "من الشر والقبائح ما يزيد عن الحد حتى صعد منهم العدد

^١ - أنظر أيضاً: محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ٣، ص ٩٨٥.

^٢ - المخطوط، ص ٦٠-٦١.

^٣ - المخطوط، ص ٥٨.

^٤ - المخطوط، ص ١٠٥.

الكثير والجم الغفير على سطح المسجد النبوي وأحاطوا بالقبة الشريفة وملأوا دوائرها جميعاً بالبول والغائط، وصار ذلك شعارهم قبحهم الله أجمعين"^١.

يذكر الجبرتي عن نفس الحادثة أن الوهابيين إستولوا على المدينة المنورة بعد حصارها نحو سنة ونصف من غير حرب، وأنهم "لم يحدثوا بها حدثاً غير منع المنكرات وشرب التنباك في الأسواق وهدم القباب ما عدا قبة الرسول صلى الله عليه وسلم"^٢. ويتفق كل من الرجبي والجبرتي على شدة حصار الوهابيين للمدينة المنورة قبل الإستيلاء عليها، فيذكر الرجبي أنهم "فحاصروها حصاراً شديداً حتى عدمت الأقوات بها بالمرّة، ثم أطاعوه من شدة الجوع والخوف"^٣، ويذكر الجبرتي أنهم "تخلقوا حولها وقطعوا عنها الوارد حتى بلغ الإردب الحنطة بها مائة ريال فرانسة، فلما إشتد بهم الضيق سلموها"^٤.

وبينما يذكر الرجبي أن الوهابية عقيدتهم زائفة باطلة، وإنه لم يوجد من منذ خمسمائة سنة طائفة غيرت الشريعة مثلهم" وأن لهم ردائل لا ينفك الواحد منهم عنها^٥، نجد الجبرتي يذكر أن ما ينسبه الناس إليه من الأقوال المخالفة لقواعد الشرع يتبرأ عنها^٦.

ويتحدث الرجبي عن إزدياد سطوة ونفوذ الوهابيين ونهبهم ل ذخائر الحجرة النبوية وإعتدائهم على المزارات المقدسة بالعراق ونهبهم لما بها من ذخائر من ذهب وفضة وجواهر نفيسة، ولا ينكر الجبرتي ذلك، فقد ذكر في حوادث ربيع الثاني سنة

^١ - المخطوط، ص ٥٩.

^٢ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ٣٤٦.

^٣ - المخطوط، ص ٥٨.

^٤ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ٣٤٦.

^٥ - المخطوط، ص ١١٢.

^٦ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٦٠.

١٢٢٢هـ/يونيو ١٨٠٧م أن "الوهابي أخذ كل ما كان في الحجرة النبوية من الذخائر والجواهر"^١، ويذكر في حوادث ذي الحجة سنة ١٢٢٣هـ/يناير ١٨٠٩م أن الوهابي إستولى على ما كان بالحجرة الشريفة وأنه "عبي أربعة سحاحير من الجوهر المحلاة بالأماس والياقوت العظيمة القدر، ومن ذلك أربع شمعدانات من الزمرد وبدل الشمعة قطعة من ألماس مستطيلة يضيء نورها في الظلام، ونحو مائة سيف قراباتها ملبسة بالذهب الخالص ومنزل عليها ألماس والياقوت، ونصابها من الزمرد واليشم ونحو ذلك وسلاحها من الحديد"، وبالرغم من أن الجبرتي يضيف أن كل سيف منها لا قيمة له، وإن عليها دمغات بأسم الملوك والخلفاء السالفين^٢، إلا أنه يحاول تبرير إستيلاء الوهابي عليها قائلاً أنها "أشياء أرسلها ووضعها خساف العقول من الأغنياء والملوك والسلطين الأعاجم"^٣، ويسوق الأدلة الشرعية من القرآن والسنة على عدم مشروعية كنز مثل تلك النفائس وأن "محبة الرسول بتصديقه وإتباع شريعته وسنته لا بمخالفة أوامره وكنز المال بمحجرته وحرمان مستحقه من الفقراء والمساكين"^٤.

ومن الجدير بالذكر أن هذه الذخائر هي التي إشتراط محمد علي في بداية مفاوضاته مع الوهابيين أن يقوم عبد الله بن سعود بتسليم ما إستولى عليه وأن يدفع ثمن ما إستهلك منها^٥.

وبينما نجد الرجي يهاجم ابن عبد الوهاب ويتهمه بفساد العقيدة ومنع الحجاج من أداء شعائهم، نجد الجبرتي ييدي تفهماً أكثر لدعوة الوهابي، ويذكر أن إنقطاع الحج الشامي والمصري سنة ١٢٢٣هـ/١٨٠٩م بسبب الوهابي ليس صحيحاً، وأنه "لم

^١ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٦٠.

^٢ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٨٦.

^٣ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٨٥.

^٤ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٨٦.

^٥ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١٨٠.

يمنع أحداً يأتي إلى الحج على الطريقة المشروعة، وإنما يمنع من يأتي بخلاف ذلك ومن البدع التي لا يميزها الشرع مثل المحمل والطبل والزمر وحمل السلاح"، ويضيف الجبرتي أنه قد وصلت "طائفة من حجاج المغاربة وحجوا ورجعوا في هذا العام (١٢٢٣هـ/١٨٠٩م) وما قبله، ولم يتعرض لهم أحد بشيء"^١.

والواقع أن الهوة شاسعة بين آراء الجبرتي وآراء الرجبي في الحركة الوهابية، وبعيداً عن ذلك نجد في هذا الفصل من مخطوط الرجبي هذا معلومات شديدة التفصيل عن إستعدادات محمد علي لتلك الحرب، وخاصة فيما يتعلق بنقل أجزاء السفن من ترسانة بولاق إلى السويس، مما يدفع إلى الاعتقاد بأن الرجبي كان شاهد عيان لتلك الأحداث خاصة وأنه معاصر لها، كما أنه لم يذكر في أي جزء من مصنفه إعماده على مصادر مكتوبة كما سبق أن ذكرنا.

ولا نستطيع أن نغفل ما أورده في هذا الفصل عن بزوغ الحركة الوهابية والمركة التي دارت في الدرعية بين الأعراب والوهابية والتي إنتهت بسيطرة أتباع عبد الوهاب على الدرعية وإنطلاقهم منها للسيطرة على القبائل المجاورة، والواقع أن هذا الجزء من مصنف الرجبي يزخر بتفصيلات شيقة عن الدرعية وتحصيناتها والحيلة التي إتبعها عبد الوهاب وعبد العزيز وأنصارهما للقضاء على الأعراب وبداية ظهور شأنهما، ولم يذكر الرجبي المصدر الذي إستقى منه معلوماته تلك. أما تتبعه للمعارك الحربية التي دارت بين الوهابية وقوات محمد علي بقيادة ابنه طوسون في البداية ثم بقيادة محمد علي نفسه، ثم أخيراً بقيادة إبراهيم باشا، وهى المعارك التي إنتهت بالقضاء على الوهابيين وتسوية عاصمتهم الدرعية بالأرض، فهو تتبع مثير للدهشة لما يحويه من تفاصيل دقيقة للمعارك والخطط والحيل الحربية وأبطال تلك المعارك، وهى تفاصيل لا نجد مثيلاً لها في حديث الرجبي عن معارك محمد علي مع المماليك في مصر نفسها، ونرجح أن الرجبي قد إستقى معلوماته من بعض ضباط أو جنود محمد

^١ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٨٥.

علي ممن شاركوا في تلك المعارك^١، فعلى سبيل المثال يتحدث الرجبي عن نجاح طلائع قوات إبراهيم باشا في التسلل ليلاً إلى داخل مدينة الدرعية وبدأهم المعارك من داخل الدرعية ذاتها، مما كان له عظيم الأثر في إنتصار إبراهيم باشا ونجاح قواته في الإستيلاء على المدينة فمحقهم بسيفه ومن درع درعتهم عراهم على حد قول الشيخ الرجبي نفسه^٢.

ولما وصلت البشارة إلى السلطان العثماني بإستعادة الحرمين الشريفين أرسل إلى مصر فرماناً سلطانياً "مضمونه الأمر للخطباء في المساجد يوم الجمعة على المنابر بأن يقولوا عند الدعاء للسلطان فيقولوا السلطان ابن السلطان بتكرير لفظ السلطان ثلاث مرات محمود خان ابن السلطان عبد الحميد خان ابن السلطان أحمد خان المغازي خادام الحرمين الشريفين، لأنه إستحق أن ينعت بهذه النعوت لكون عساكره إفتتحت بلاد الحرمين وغزت الخوارج (الوهابيين) وإخرجتهم منها، لإن المفتي أفتاهم بأنهم كفار لتكفيرهم المسلمين، ويجعلونهم مشركين، ولخروجهم على السلطان وقتلهم الأنفس، وأن من قاتلهم يكون مغازياً ومجاهداً وشهيداً إذا قتل"^٣.

ويصور الرجبي حرب محمد علي ضد الوهابيين بأنها حرب بين أنصار السنة "عسكر السنين" ضد الخارجين عليها من أتباع الوهابي وابن سعود^٤.

يلي ذلك فصل خاص أفرده الرجبي لرصد نجاح محمد علي في إستعادة الأمن المفقود في ربوع مصر، وجعل عنوانه "في قمع شوكة المفسدين من طوائف أجناس الفلاحين والعربان بقطر مصر وإذلالهم"، فقد عانى محمد علي في أوائل حكمه أشد

^١ - عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي لعصر محمد علي الكبير، القاهرة سنة ١٩٥٠، ص ٤٧-٨٨؛

عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي، الطبعة الرابعة، القاهرة سنة ١٩٨٢، ص ١٤٢-١٥٠.

^٢ - المخطوط، ص ١١٢.

^٣ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١٧٧-١٧٨.

^٤ - المخطوط، ص ١٠٥.

المعاناة من الفتن والقتال والثورات وما أتبع ذلك من إفتقاد الأمن وصعوبة المحافظة على الأرواح والأعراض والأموال، فقد تولى محمد علي باشا الحكم ومصر في حالة أقرب إلى الحرب الأهلية، فالصعيد جله تحت سيطرة المماليك يناوشونه الحرب ويثيرون القلاقل ويمنعون الوارد من المحاصيل إلى العاصمة، وتغور مصر ما تزال تحت سيطرة الأتراك بينما العاصمة نفسها تسلط عليها العسكر و"زاد فحشهم وقبحهم وتسلبهم على إيذاء الناس، وكثروا بالبلد وإنحشروا من كل جهة وتسلبوا على إيذاء الناس قهراً"^١، وخاصة الأرناؤط والدلاة ومن الأتراك الذين أرسلتهم الدولة العثمانية للمساعدة في طرد الفرنسيين من مصر، كلما تأخرت رواتبهم خرجوا إلى الأسواق ينهبون المتاجر ويفتكون بمن يتعرض لهم من الأهالي^٢، ويذكر الجبرتي حادثة دخول عساكر الدلاة إلى بولاق في صفر سنة ١٢٢٢هـ/أبريل ١٨٠٧م أنه "حصل منهم الإزعاج في أخذ الحمير والجمال قهراً من أصحابها، ونزلوا بنحيلهم على رب البرسيم والغلال الطائبة التي بناحية بولاق وجزيرة بدران وخلافها، فرعتها وأكلتها بهائمهم في يوم واحد، ثم إنتقلوا إلى ناحية منية السيرج وشبرا والزاوية الحمراء والمطرية والأميرية فأكلوا زروعات الجميع وخطفوا مواشيهم وفجروا بالنساء وإفتضوا الأبكار ولاطوا بالغلمان وأخذوهم وباعوهم فيما بينهم، حتى باعوا البعض بسوق مسكة وغيره، وهكذا تفعل المجاهدون. ولشدة قهر الخلائق منهم وقبح أفعالهم تمنوا مجيء الإفرنج من أي جنس كان وزوال هؤلاء الطوائف الخاسرة الذين ليس لهم ملة ولا شريعة ولا طريق يمشون عليها، فكانوا يصرخون بذلك. مسمع منهم، فيزداد حقدهم وعداوتهم، ويقولون: أهل هذه البلاد ليسوا مسلمين، لأنهم يكرهوننا ويحبون النصارى، ويتوعدونهم إذا خلصت لهم البلاد، ولا ينظرون لقبح أفعالهم"^٣، ويضيف

١ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ٣٤٧.

٢ - محمد فواد شكري: بناء دولة، ص ١٩٢.

٣ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٥١-٥٢.

الجبرتي عن ما يحدث من العساكر أنهم "أفحشوا في التعدي على الناس وغضب البيوت من أصحابها، فتأتي الطائفة منهم إلى الدار المسكونة ويدخلونها من غير إحشام ولا إذن ويهجمون على سكن الحريم بحجة أنهم يتفرجون على أعالي الدار فتصرخ الناس ويجتمع أهل الخطة ويكلمونهم فلا يلتفتون إليهم، فيعاجلونهم مرة بالملاطفة وأخرى بكثرة الجمع إن كان بهم قوة أو بمعونة ذي مقدرة، وإذا انفصلوا فلا يخرجون من الدار إلا بمصلحة أو هدية لها قدر ٠٠ فإذا إنصرفوا وظن صاحب الدار أنهم إنجلوا عنه فيأتيه بعد يومين أو ثلاثة خلافهم، ويقع في ورطة أخرى مثل الأولى أو أخف أو أعظم منها". ويضيف الجبرتي أن "هذا يقع لأعيان الناس" ويأخذون أثاث المنزل وموجوداته قائلين أن "الذي كان معنا إستهلك منا في السفر والجهاد ودفع الكفار عنكم وأنتم مستريحون في بيوتكم وعند حريمكم"، ثم أن العسكر تعدوا بعد ذلك "إلى الحارات والنواحي التي لم يتقدم لهم السكنى بها قبل ذلك، مثل نواحي المشهد الحسيني وخلف الجامع المؤيدي والخرنفش والجمالية، حتى ضاقت المساكن بالناس لقلتها"^١.

ومن طريف ما أورده الجبرتي أيضاً حادثة إستيلاء العسكر على منزل لإحد علماء الأزهر، وقول العسكر له بعد تجمع علماء الأزهر لطردهم "أنتم لستم بمسلمين لأنكم كنتم تتمنون تملك النصارى (الإنجليز) لبلادكم، وتقولون إنهم خير منا، ونحن مسلمون ومجاهدون طردنا النصارى وأخرجناهم من البلاد، فنحن أحق بالدور منكم"^٢.

بل أن منزل محمد علي نفسه بالأزبكية قد تعرض لإطلاق النار عليه من الأرمنوط والدلاة، عند مطالبتهم في إحدى المرات بمرتباتهم وعلائفهم المتأخرة، كما

^١ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٦٦-٦٧؛ محمد فواد شكري: مصر في مطلع القرن ١٩،

ج ٢، ص ٨٦٠-٨٦١.

^٢ الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٦٨.

أن محمد علي نفسه تعرض لمحاولة إغتيال على يدي إثنين من هؤلاء الجنود عند مروره بشارع سوق السلاح^١. والواقع أن محمد علي أحسن إستغلال تلك الإضطرابات للعمل على ترسيخ أركان حكمه، فبذل كل جهده لوقف إعتداءات العساكر ورد المنهوبات، وعمل على تسكين خواطر الأهالي حتى ترك الناس يسخطون على العسكر ويترضون عنه، فأنجذبت إليه قلوب الرعية وأكابر الدولة^٢. وفيض تاريخ الجبرتي الشهير بأمثلة لا حصر لها لفوضى العسكر وإنفراط عقدهم وإعتداءاتهم المتكررة على الأهالي الذين طفق بهم الكيل فتصدوا للعسكر بأنفسهم وقتلوا منهم ما طالت أيديهم، وإنتهى الأمر بالتفافهم حول محمد علي ووضعه على سدة الحكم في مصر. والواقع أن محمد علي عمل منذ اليوم الأول لتوليته حكم مصر على التخلص من مثيري الشغب من الجند خاصة الأرنبوط والدلاة، فعمد إلى إرسالهم في حملاته العديدة ضد المماليك، ثم إستخدمهم في حروبه ضد الوهابيين، وأخيراً إضطروا إلى قطع رواتب الطوائف الشديدة الشغب منهم وأصدر أوامره بنفيهم إلى بلادهم، ولم يكن ذلك بالأمر الهين أو اليسير على أكابرهم، فقد كانوا يتخبطون في بلادهم ويتكسبون بالصنائع الدنيئة، "ووصل كل صعلوك منهم" في مصر -على حد قول الجبرتي- "لما لا يخطر على باله أو يتوهمه أو يتخيله ولا في عالم الرؤيا"^٣، وصار ما من أحد منهم إلا وله عدة بيوت وزوجات وإلتزام بلاد وسيادة لم يتخيلها، ولم تخطر بذهنه ولا بفكره ولا يسهل به الإنسلاخ عن مصر والخروج منها ولو خرجت روحه^٤.

وإذا كان الجبرتي قد أمدنا بتفاصيل مدهشة عن إضطرابات العسكر وتعديهم على الأهالي، وإفتقاد الأمن على الأرواح والأعراض والممتلكات في العاصمة نفسها

^١ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٧٠، ٢٢٢.

^٢ - محمد فؤاد شكرى: بناء دولة، ص ١٩٥.

^٣ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ٣٤٧.

^٤ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١١.

قبيل تولي محمد علي وفي السنوات المبكرة من حكمه، فإن الرجبي في هذا الفصل من مؤلفه يمدنا بمعلومات لا تقل أهمية عن إفتقاد الأمن في الأقاليم، فيشير الرجبي إلى سيطرة عرب البحيرة على القرى، وكيف أن كل قرية كان لها أمير من هؤلاء العربان يسمونه "صديق"، يفرض حمايته على القرية، ويورد الرجبي أسماء العديد من قطاع الطرق من هؤلاء العربان الذين فرضوا سطوتهم على تلك الأقاليم، ويحدد أماكن نفوذهم، بل ويصف كثيراً منهم وصفاً يدل على أنه إستمد معلوماته من أشخاص عرفوهم معرفة مباشرة، ويرصد الرجبي إختلال الأمن في الأقاليم ويحلل النتائج التي ترتبت على سيطرة العربان وقطاع الطرق، فيذكر أنه "يتفرع من ذلك إنقطاع الطرقات وإرهاب السفار في كل الجهات ويرتفع الأمن من الأوطان ٠٠ فإحتل بهذا السبب القطر خللاً كبيراً وعم الإضرار ساير الناس كبيراً وصغيراً ٠٠ فقلل إيراد الجبايات الخراجية وتعطل معظم الأموال الميرية"^١، ويسجل الرجبي كيف نجح محمد علي في قمع هؤلاء الفجار "فأمنت المراكب في البحر وإرتاحت السايرون في البر، وخلت تلك الطرق من الأوباش، وحسن فيها السير لطلاب المعاش"^٢.

أما المقالة الثالثة من هذا المخطوط فقد خصصها الرجبي لسياسة محمد علي الزراعية، وجعل عنوانها "في ذكر تعمير حضرة أفندينا للقطر المصري وإحياء أرضه وبلاده بالزروع والثمار"، وقد كان الإهتمام بالزراعة من أهم عناصر التنمية الإقتصادية التي عمد إليها محمد علي، لأنها كانت المصدر الرئيسي للحياة الإقتصادية في ذلك الوقت، فكانت مصدر التمويل لمشاريعه المختلفة، وإرتكزت سياسة محمد

^١ - المخطوط، ص ١٢٢، ١٢٣.

^٢ - المخطوط، ص ١١٩.

علي الزراعية على ثلاث نقاط: هى إحتكار الأرض والإنتاج الزراعي، والإهتمام بمشاريع الري، والعمل على تنوع الإنتاج الزراعي^١.

وقد ذكر لنا الجبرتي والوثائق المعاصرة كيف سيطر محمد علي على الأراضي الزراعية، فألغى نظام الالتزام بالنسبة للأراضي الزراعية على مرحلتين، فقد أمر في سنة ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م بأخذ حصص الالتزام من أيدي النساء، ثم أصدر أمراً في سنة ١٢٢٩هـ/ ١٨١٤م يتضمن ضبط جميع الالتزام ورفع أيدي الملتزمين عن التصرف فيها، وكلف ابنه ابراهيم بمسح وقياس الأراضي بمصر سنة ١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م، وتكرر هذا الأمر عدة مرات في عهد محمد علي، وكانت هذه الخطوة إيذاناً بملكية محمد علي المباشرة للأراضي الزراعة والتحكم فيها وتنظيم زراعتها^٢.

وقد عمل محمد علي على إدماج مصر في الإقتصاد الأوروبي كمورد للسلع الزراعية، فأدخل إلى البلاد زراعة القطن طويل التيلة بعد أن حوله من نبات للزينة في معظم الأحيان الى نبات محصولي، وأحضر بذور القطن من الهند سنة ١٢٣٥هـ/ ١٨٢٠م على يد شوميل، وهو المحصول الذي أصبح بعد ذلك أساس ثروة مصر الزراعية^٣، وتوسع محمد علي في زراعة القطن، وحث الفلاحين على زراعته وشراؤه بأثمان مرتفعة في البداية، وبإجبارهم على زراعته بعد ذلك^٤. وقد أشار الرجبي في بداية

^١ - أحمد فارس عبد المنعم: السلطة السياسية والتنمية (منذ ١٨٠٥ وحتى الآن)، القاهرة سنة ١٩٩٣، ص ١٠-١١.

^٢ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٧، ص ٣٩، ١٥٥، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٨-٢٨٢، ٤٨٢؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج ٢، ص ٢١٣، ٢٣٦، ٢٤٤، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٩٠.

^٣ - كلوت بك: لحة، ج ١، ص ٨٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٤-١٧١، ١٧٤، ١٨٠، ١٨١، ١٨٣، ج ٤، ص ١٨، ٢٢، ٢٥، ٧٥؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج ٢، ص ٢٨١؛ عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي، ص ٤٩٧.

^٤ - الان ريتشاردز: التطور الزراعي في مصر (١٨٠٠/١٩٨٠)، ترجمة أحمد فؤاد سيف النصر، القاهرة سنة ١٩٩١، ص ٣٥-٣٦.

هذا الفصل إلى خصوبة الأراضي الزراعية في مصر، وكيف أن محمد علي قد تولى الحكم وزراعات مصر قد إضمحل أمرها بسبب ما كان بها من إفساد أمرائها والمقيمين بها من الأعراب وطوائف الفلاحين، فأمر بإعادة الجسور المحيطة بالبلاد والقرى، وإصلاح الترع وترميم السدود، وعين كثيراً من المهندسين لمباشرة أعمال الري وحفر الترع وعمل الجسور في مختلف الجهات^١، وأشار الرجى إلى إهتمام محمد علي بتعدد المحصولات، وإمداده الفلاحين بالبذور وأدوات الزراعة لتشجيعهم، وإهتمامه أيضاً بزراعات البساتين وأشجار الفاكهة، وغرس الأشجار في كل مكان بمصر، وقدر عدد الأشجار التي غرست بالوجه البحري والقاهرة بنحو ١٦ مليون شجرة، تنوعت في أصنافها بين أشجار الغابات والفاكهة وغير ذلك، وجلبوا سلالات من مختلف بلاد العالم، كما عنوا بإنشاء البساتين والحدائق والمزارع، ونشر زراعة القنب -التيل- لاستخدامه في صناعة الأقمشة، والأفيون والنيلة وجلب عدداً من الهنود والفرنسيين لتعليم الأهالي زراعتها^٢. وإذا كانت معظم المصادر المعاصرة للرجى ترى أن الفلاح لم يكن ثمار عمله بسبب سياسة الاحتكار والضرائب الباهظة التي كانت تلاحق الفلاح طوال العام^٣، بالإضافة إلى حرمان القرى من الشباب القادرين على العمل لإجبارهم على الدخول في التجنيد^٤، إلا أن الرجى -نجده رغم كل ذلك- يذكر أنه "لما صنع حضرة أفندينا ما ذكرناه عمرت البلاد وصارت الفلاحون في عدد ومدد من الغلال، يدفعون الخراج ويأكلون ويشربون، وإستقام شأن القطر"^٥.

١ - المخطوط، ص ١٢٨-١٢٩.

٢ - المخطوط، ص ١٢٨-١٣٥.

٣ - دودويل: محمد علي، ص ٢٤١.

٤ - كلوت بيك: لحة، ج ٣، ص ٢٦٤.

٥ - المخطوط، ص ١٣٢.

وفي المقالة الرابعة التي أفرد لها لذكر آثار محمد علي من الأبنية والعمارات بمصر وسائر جهاتها، تناول العديد من أعماله، فأورد تفاصيل لا بأس بها عن ذلك الطريق الصخري الذي أنشأه محمد علي ليوصل بين قلعة الجبل والقلعة النجمية التي أمر بإنشائها أعلى جبل المقطم، وتحدث الرجبي عن إنشاء محمد علي لسبيل ضخم بتلك القلعة الجديدة، وما أعد بالقلعة والسبيل من أجناد للحراسة وما شحن بها من ذخائر^١.

ويصف الرجبي بإعجاب كبير قصر وبستان شيرا، وما به نباتات وطيور وبرك صناعية وزوارق للتنزه، والواقع أن إهتمام محمد علي بفلاحة البساتين لم يكن مقصوراً على حدائقه الخاصة فقط بل إهتم بفلاحة البساتين بشكل عام، وأرسل جماعة من البستانيين إلى جزائر الهند الشرقية لجلب نباتات جديدة إلى مصر، وكانت حدائقه بمثابة حقول تجارب لتلك النباتات، ولم يكن ابنه إبراهيم أقل منه إهتماماً بإنشاء الحدائق وفلاحة البساتين، فقد أنشأ حدائق وبساتين لتجارب المحاصيل بالقصر العالي وقصر المغارة بالمنيل^٢.

و أشار الرجبي في هذا الفصل بإيجاز إلى القناطر الخيرية التي أمر محمد علي بإنشائها وأطلق عليها أسم "القناطر المحمدية الخيرية" نسبة الى السلطان عبد المجيد، وهي إحدى القناطر التي ساعدت محمد علي على إدخال تغيير جوهري على نظام الري في مصر لتحويله من ري الحياض إلى الري الدائم طوال العام، وقد بدأ العمل في تلك

^١ - المخطوط، ص ١٣٩.

^٢ - محمد فؤاد شكرى: بناء دولة، ص ٤٢٦-٤٢٧؛ محمد حسام الدين إسماعيل عبد الفتاح: وجه مدينة القاهرة من ولاية محمد علي حتى نهاية حكم إسماعيل، ١٨٠٥-١٨٧٩م، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية آداب سوهاج، جامعة أسيوط، سنة ١٩٩٤م، ص ١١٣-١١٤.

القناطر سنة ١٢٤٩هـ/١٨٣٤م، غير أنه لم يتم الإنهاء منها إلا في عهد الخديو إسماعيل^١.

وتناول في المقالة الرابعة أيضاً إنشاء محمد علي للعديد من المصانع في الوجهين البحري والقبلي، وجلبه لرؤساء الصنائع وأرباب المعارف من أقطار مختلفة لتعليم المصريين أسرار ودقائق الصناعات الجديدة التي أدخلها^٢. فقد إهتم محمد علي اهتماماً كبيراً بمختلف أنواع الصناعات التي تلي حاجة البلاد وخاصة حاجة الجيش، وكان محمد علي أول من أدخل بمصر المصنع الحديث بمعنى الكلمة، وقد بلغ عدد العاملين في مصانع القاهرة وحدها ١٥٠٠٠ عامل، هذا على الرغم من ارتفاع تكلفة الانتاج وعدم انتاج مصر للآلات اللازمة، وعدم وجود الوقود الكافي الرخيص وعدم وجود الصناع المدربين على الصناعات الكبيرة، وقد تغلب على ذلك بتعيين الأجانب لتشغيل تلك المصانع وتدريب المصريين، كما أرسل البعثات العلمية الى أوروبا لتدريب أبناء مصر على الصناعات المختلفة، حيث أراد محمد علي أن يجعل من الصناعة مصدراً من مصادر الدخل العام لدولته كالزراعة، ولكنه أخفق في ذلك، لأنه اعتمد عليها في تزويد جيشه باحتياجاته من أسلحة وذخيرة وملابس وغير ذلك^٣، وتقلصت معظم

^١ - الراجعي: عصر محمد علي ص ٤٩٣ ؛ محمد فؤاد شكري: بناء دولة، ص ٤٧ ؛ محمد حسام الدين إسماعيل: وجه مدينة القاهرة، ص ٢٢١، ٥٨.

^٢ - المخطوط، ص ١٤٤-١٤٦.

^٣ - كلوت بك: لحة، ج ٣، ص ٢١٠، ٢٣٥، ج ٤، ص ٤٢-٤٥ ؛ الراجعي: عصر محمد علي، ص ٣٢١، ٥٠٨ ؛ محمد فؤاد شكري: بناء دولة، ص ٧، ٨، ٢٧، ٧٩، ٨٢-٨٤، ٢٢٨، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٩، ٧٠٥-٧٠٧، ٧٣٣-٧٤٠، ٧٥٩، ٧٧٧-٧٨٢ ؛ هيلين آن ريفلين: الاقتصاد والادارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ومصطفى الحسيني، القاهرة سنة ١٩٦٨، ص ١٤٩-١٦٠، ٢٧٩، ٢٨٤، ٢٨٧-٢٩٠ ؛ عمر عبد العزيز: تاريخ مصر الحديث (١٥١٧-١٩١٩)، الاسكندرية سنة ١٩٩٣، ص ٢٧٤ ؛ أحمد فارس عبد المنعم: السلطة السياسية والتنمية، ص ١٢-١٣.

تلك الصناعات بل وأغلق الكثير منها بعد معاهدة لندن سنة ١٨٤٠م، التي خفض بموجبها عدد الجيش المصري إلى ١٨٠٠٠ جندي فقط^١.

ومن الموضوعات التي تناولها الرجبي في المقالة الرابعة أيضاً تجديد محمد علي لسور مدينة الإسكندرية وما يحيط بها من طوابي، وتحدث الرجبي عن تفقده شخصياً لسد الإسكندرية مع رفقة من أخوانه، وربما كان قد دعي إلى ذلك أثناء كتابته لهذا المخطوط^٢. ونلاحظ هنا أن رأي الجبرتي في همة محمد علي لم يختلف كثيراً عن رأي الشيخ الرجبي، غير أن الجبرتي تمنى بعد ذلك أن يوفق الله محمد علي لشيء من العدالة حتى يصبح أعجوبة زمانه^٣.

وإشار الرجبي أيضاً إلى حفر ترعة المحمودية -نسبة الى السلطان محمود- سنة ١٢٣٢هـ/١٨١٧م، التي أنشأها محمد علي لسرعة النقل بالسفن من وإلى الإسكندرية والاستفادة منها في الري، وانتهى حفرها سنة ١٢٣٥هـ/١٨٢٠م^٤، وذكر أنها من أعظم المفاخر التي أنجزت في عصر محمد علي، ويورد الرجبي معلومات شيقة عن حفر هذه الترعة، فيذكر أسباب إنشاء هذه الترعة، وكيف أن التجار والسفار كانوا بعد وصولهم إلى نهر الإسكندرية يتخذون طريقهم إلى رشيد -سواء الطريق البري أو البحري- ويعانون من مصاعب ملاحية عديدة في دخولهم البوغاز مما يؤدي إلى غرق كثير من السفن والركاب، وأنه مع تلك المشقة لم يكن هناك طريق إلى القاهرة سواه،

^١ - محمد فؤاد شكري: ناء دولة، ص ٢٠٢-٢٠٣؛ محمد فؤاد شكري: مصر والسودان، تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر ١٨٢٠-١٨٩٩، القاهرة ١٩٦٣، ص ١٦.

^٢ - المخطوط، ص ١٤٨-١٥٢.

^٣ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٥٨.

^٤ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٧٦، ٢٧٧، ٣٠١، ٣٠٤، ٣٠٦، ٣١١؛ عمر طوسون: تاريخ خليج الإسكندرية القديم وترعة المحمودية، الإسكندرية سنة ١٩٤٢، ص ٥٩-٧٢، ٧٧-

أما التفاصيل التي ذكرها عن كيفية حفر تلك التربة وأحوال العاملين بها، فقد كان الرجبي بنفسه شاهد عيان على ذلك، فقد ذكر في معرض حديثه عن حفر تلك التربة "و كنت في ذلك الحين بسكندرية أخرج للتفرج على هذه الكيفية"^١، وقدر الرجبي عدد العمال بنحو ٣٠٠ ألف عامل أو يزيد، وحوالهم الأمراء وكشاف الأقاليم، وأن الرجال جاءت من البلدان ومعهم الطبول والزمور وتصحبهم الكوسات، وكل مجموعة منهم مختصة بالعمل في منطقة بعينها، ويورد الرجبي تفاصيل كثيرة عن طريقة العمل في حفر التربة المذكورة.

وبينما يتحدث الرجبي عن عظمة مشروع حفر تربة المحمودية، وكيف أنها من مفاخر محمد علي، نجد الجبرتي يتحدث عن جمع الفلاحين وجرهم مصفدين في الأغلال لتسخيرهم في أعمال الحفر، وتعطل الزراعة وأحوالهم السيئة ودفن الموتى منهم في حفر، وكيف أن بعضهم من المرضى كانوا يدفنون وهم أحياء "وفيهم الروح" على حد قوله^٢. وأضاف الجبرتي أن أعمال الحفر إنتهت في أواخر ربيع الأول سنة ١٢٣٥هـ/يناير ١٨٢٠م ورجع المهندسون والفلاحون إلى بلادهم بعدما هلك معظمهم^٣، غير أن الجبرتي -رغم كل ذلك- يتفق مع الرجبي على نجاح هذا المشروع وعموم فائدته على التجار والمسافرين، فذكر أنهم "إستراحوا من وعر البغاز والسفر في المالح إلى الإسكندرية، والنقل والتجريم وإنتظار الريح المناسب لإقتحام البغاز والبحر الكبير"^٤.

ويشير الرجبي في المقالة الرابعة أيضاً إلى التجديدات التي أجراها محمد علي بكثير من المساجد والزوايا، وإلى المرتبات التي خصصها للقائمين على الأضرحة

^١ - المخطوط، ص ١٥٥.

^٢ الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٣٠٤.

^٣ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٣٠٦-٣٠٧.

^٤ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٣٠٧.

الكبرى مثل الحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسة والإمام الشافعي، كما أشار أيضاً إلى ما جددته من أسبلة وما بها من كتابات لتعليم الأطفال، وتحدث عن توصيله للمياه من النيل إلى أرض القرافة خاصة بعد أن أنشأ بها مدفناً لأسرته خلف ضريح الإمام الشافعي^١. وقد إتخذ محمد علي من تجديداته للمساجد والزوايا حجة للإستيلاء على أراضي وأعيان الأوقاف بحجة أن أموال الأوقاف لا تصرف في الأغراض الموقوفة عليها^٢.

أما المقالة الخامسة فقد خصصها الرجعي لإصلاحات محمد علي الإدارية، وجعل عنوانها "إعادة دولة كتبة المسلمين"، فذكر أن الأقباط إنفردوا بخدمة الأمراء، ولم يبق بأيدي كتبة المسلمين سوى كتابة الحرمين الشريفين وكتابة الصرة مع أمير الحج، ويقسم الرجعي الكتابة بمصر إلى ثلاثة أقسام، القسم الأول كتاب الأمراء المتكلمون على البلاد المتحكمون على المدن والقرى وهم الأقباط، والقسم الثاني كتاب الميري المسمى بالروزنامة وكبيرهم يعرف بالروزنامجي وهو من المسلمين، ومعه أتباع من طوائف الكتبة المسلمين، ويرى الرجعي أن الأقباط غلبت عليهم أيضاً، والقسم الثالث شهود البلاد وهم من فقراء المسلمين جعلتهم الأقباط مع الصيارف، ويذكر الرجعي أنهم كانوا يفرون من كتبة الأقباط فرار العصفور من الصقر، وذكر الرجعي أن محمد علي بدأ في تعيين المسلمين في تلك الوظائف، فرتب لكل خدمة رجالاً وعليهم رئيس، وأنهم شاركوا في كل الأعمال كتبة الأقباط^٣.

وقد أشار الجبرتي إلى رفع محمد علي لكثير من كتبة الأقباط من الخدمة ومصادرتهم في مواضع عديدة من تاريخه، وأن المصادرات كانت تشمل الكتبة من

^١ - المخطوط، ص ١٤٧-١٤٩.

^٢ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١٤٣-١٤٤، ٢٠٣-٢٠٤؛ محمد فؤاد شكرى: بناء دولة، ص ٣٠-٣١.

^٣ - المخطوط، ص ١٦٤-١٦٧.

الأقباط والمسلمين على حد سواء لما أصابوه من ثروات، لأن "من طبعه الحقد والحسد والتطلع لما في أيدي الناس"^١، وعلى سبيل المثال يذكر الجبرتي في حوادث ١٤ محرم سنة ١٢٢٥هـ/ ١٩ فبراير ١٨١٠م "أمر الباشا بالإحتياط على بيوت عظماء الأقباط"، وفي صفر/مارس من نفس العام "طلب الباشا ثلاثة أشخاص من كتبة الأقباط الذين كانوا متقيدين بقياس الأراضي بالمنوفية وضربهم وحبسهم لكونه بلغه عنهم أنهم أخذوا البراطيل والرشوات"، وفي حوادث ذي الحجة سنة ١٢٢٦هـ/ديسمبر ١٨١١م أمر برفع "المعلم منصور ومن معه من الكتبة من مباشرة ديوان ابنه إبراهيم بك الدفتردار وقيّدوا بدلمهم السيد غانم الرشيدى و محمد أفندى سليم ومن إنضم إليهم، وأظهر الباشا أنه يفعل ذلك لما علمه من خيانة الأقباط، والقصد الخفي خلاف ذلك، وهو الإستيلاء والإستحواز الكلي والجزئي وقطع منفعة الغير"، ويضيف الجبرتي أن من الناس من سمى هذا الديوان ديوان الفتنة^٢، أما الرجى فيذكر "أن هذه الحضرة الصدر من أكبر المفاخر يشهد بذلك كل مؤمن بالله واليوم الآخر"، وأنها سنة من أحيائها فكأنما أحيأ الناس جميعاً"^٣.

وتتناول المقالة السادسة "إنشاء مراكز بحرية وآلات حربية، وما أنشأه من الترع والأنهار والبلاد والديار والأقطار"، ونجد في هذه المقالة معلومات جيدة عن النشاط البحري المبكر لمحمد علي، ويتحدث الرجى عن إنشاء محمد علي لفرقاطة بالإسكندرية، مما يعني أن صناعة السفن بالإسكندرية بدأت قبل سنة ١٢٣٨هـ/ ١٨٢٢م (تاريخ كتابة المخطوط)، وهو تاريخ مبكر عما هو معروف من أن ترسانة الإسكندرية أنشئت سنة ١٢٤٥هـ/ ١٨٢٩م بإشراف الفرنسي سريزي، وهو يتفق أيضاً مع ما ذكره كلوت بيك من أنه لم يكن بالإسكندرية حتى ذلك التاريخ ترسانة

^١ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١١١.

^٢ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١٠٧، ١٠٩، ١٣٨.

^٣ - المخطوط، ص ١٦٩.

لبناء السفن، وغاية الأمر أنه كان بسيف البحر مكان قريب تبنى فيه سفينة من طراز الكورفيت وأخرى من طراز البريك وثلاثة ذات حجم عظيم حولت فيما بعد إلى فرقاطة^١، وربما كان كلوت بيك يشير إلى نفس الفرقاطة التي ذكر الرجبي أنه بعد إنشائها بالإسكندرية أرسلها محمد علي إلى إنجلترا فصفحت بالنحاس، ونستطيع من المصادر الأخرى أن نؤكد على معلومات الرجبي ونضيف إليها، فقد أنشأ محمد علي الفرقاطة المذكورة بالإسكندرية وأرسلها إلى لندن في إبريل سنة ١٨١٠م وعادت إلى الإسكندرية في يناير سنة ١٨١٢م، وقد سلحت بثلاثين مدفعاً وأطلق عليها اسم إفريقيا^٢.

ويقدر الرجبي عدد السفن الحربية في ذلك الوقت بنحو مائة سفينة من الأنواع المختلفة كاملة العدة والآلة^٣. والواقع أن إهتمام محمد علي بالبحرية كان عظيماً لإدراكه لأهميتها وخطر شأنها، سواء في التصدي للآستانة أو حروبه في قبرص وكرت وحروب اليونان وحرب الشام بعد ذلك^٤.

ويشير الرجبي في المقالة السادسة أيضاً إلى إهتمام محمد علي بإصلاح نظام الري، وقيامه بتطهير وصيانة الترعة القديمة وحفر بعض الترعة الجديدة، وتشبيده للعديد

^١ - كلوت بيك: لحة، ج ٣، ص ٢٣٧.

^٢ - Georges Durand-Viel, Les Campagnes Navales de Mohammed Aly et d'Ibrahim, Paris, 1937, Vol. I, 96-102.

^٣ - المخطوط، ص ١٧٤.

^٤ - أنظر عن البحرية المصرية في عصر محمد علي: كلوت بيك: لحة، ج ٣، ص ٢٣٦-٢٦٣؛ محمد محمود السروحي وآخرون: البحرية المصرية في العصر الحديث، ضمن تاريخ البحرية المصرية، الإسكندرية سنة ١٩٧٤، ص ٦١٥-٦٦٧.

من القناطر والجسور، وأثر ذلك في وزيادة الرقعة الزراعية وتعدد المحاصيل على مدار العام^١.

أما المقالة السابعة والأخيرة من هذا المخطوط فقد خصصها الرجعي للدفاع عن النظام الجديد الذي أدخله محمد علي لبناء جيش على النظم الحربية الحديثة، وجعل عنوانه "في الشأن الأكبر والتدبير الباهي الأبهري في ذكر إختراع حضرة أفندينا للعساكر الجهادية وما في ذلك من جليل الخزم وعظيم المزية"، ومن المعروف أن محمد علي عندما فشل في تجربة تجنيد السودانيين في الجيش إقبحه إلى تجنيد المصريين، ولم يكن ذلك أمراً هيناً، فلم يكن المصريون منخرطون في الجندية منذ آلاف السنين، فقاوموا ذلك مقاومة شديدة ولجأوا إلى الفرار من التجنيد الإجباري وتشويه أجسامهم بأساليب مختلفة، مثل قطع أصابع القدم أو اليد اليمنى أو فقاً العين اليمنى، بل ولجأت بعض الأمهات إلى تشويه أجساد أطفالهن لحمايتهم من الإنخراط في سلك الجندية مستقبلاً^٢، ووقف كثير من رجال الدين موقف العداء من إصلاحات محمد علي في هذا المجال، وأصدروا الفتاوى بأن النظام الجديد بدعة، وأن كل بدعة ضلالة^٣، مما يضفي صبغة شرعية على مقاومة التجنيد ويهدد كل مشروعات محمد علي الإصلاحية التي كان عمادها الجيش، ولجأ محمد علي إلى أسلوب التهيب والترغيب لحث أبناء مصر على الإنخراط في سلك الجيش^٤، فأمر بإتخاذ العديد من التدابير لإقناع الناس بشرعية النظام

١ - أنظر عن سياسة محمد علي الزراعية وإصلاحه لنظام الري: هيلين آن ريفلين: الاقتصاد والإدارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر.

٢ - محمد فؤاد شكرى: بناء دولة، ص ٤٧٥.

٣ - محمد فؤاد شكرى: بناء دولة، ص ١٤٩.

٤ - محمد محمود محمود السروجي: الجيش المصري في القرن التاسع عشر، القاهرة سنة ١٩٦٧، ص ٦٠؛ عبد الرحمن زكي: الجيش المصري في عهد محمد علي، القاهرة سنة ١٩٣٩، ص ٢٠-٢١.

الجديد، ومنها أنه أمر بقراءة الفاتحة قبل الشروع في أعمال التدريب^١، ويأتي مخطوط الرجي هذا في إطار تأييد ذلك النظام الجديد، إذ يشير الرجي في بداية المقال إلى أن عسكر النظام الجديد رسموا باسم "العساكر الجهادية"، فحبذا الاسم ونعمت الشهرة مشيراً إلى أنهم أعدوا للجهاد في سبيل الله. ويذكر الرجي في هذا المقال إلى أن الملة المحمدية لها قوانين وشروط ولها أركان معلومة، وأن أحد أركانها الجهاد في الكفار وفي معشر الطغاة من البغاة والفجار ونحو فرق الخوارج الضالين وجميع المفسدين، ثم يورد الرجي الآيات التي تحث على الجهاد في سبيل الله، والآيات التي نزلت في حق الفاسقين من البغاة والفجار المفسدين، ثم يورد بعد ذلك بعض ما جاء في السنة الشريفة من أحاديث تحض على الجهاد، وأشار إلى تكليف محمد علي لكتبخده محمد بيك لآل أوغلي للإشراف على النظام الجديد بأسوان، ثم إلى إشراف إبراهيم باشا على العسكر الجهادية بعد ذلك.

ويورد الرجي خمسة أدلة شرعية على وجوب إتخاذ العساكر الجهادية، مدعمة بآيات من القرآن وأدلة من السنة وغزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، وينتهي إلى أن إتخاذ العساكر الجهادية أمر شرعي وفريضة أوضح من الشمس، ويرد في خاتمة هذا الفصل على ما أثير في ذلك الوقت من عدم مشروعية توقيع العقاب البدني على الجنود، فيذكر أنه إذا خيف أن يلحق بالعساكر الضرر والخلل إذا أهملوا في شيء مخصوص لو لم يزعجوا بسببه ويعزروا من أجله فللحاكم حينئذ تنظيم وترتيب أمور من التعازير، أي من العقاب البدني، وكتابتها متى ترتب على ذلك الصلاح وتوقف عليه طريق النجاح، وله أن ينوع الأقوال في ذلك بما يراه مصلحة وإعانة على ضبطهم وإنسجامهم وتأديباً وزجراً لمن خالف من كبيرهم وصغيرهم^٢.

^١ - علي شلبي: المصريون والجندي في القرن التاسع عشر، القاهرة سنة ١٩٨٨، ص ٣٧.

^٢ - المخطوط، ص ٢١٧.

والواقع أن محمد علي إتخذ من القانون العسكري الفرنسي المعروف بقانون نابليون دستوراً للجيش المصري عرف باسم "سياسة نامة"، وذلك إعتباراً سنة ١٢٣٥هـ / ١٨٢٠م^١.

ويبدو الرجي في نهاية مؤلفه هذا فقيهاً مستتيماً، فيذكر صراحة أن هناك أموراً وأنواعاً من جزئيات الوقائع غير مصرح بخصوصها في كتب الفروع الشرعية، مثل تأخر جندي بلا عزر، أو إهماله في شيء من لوازم التعليم، أو مخالفته لفريقه في إقامة أو سفر أو حرب أو سلم وغير ذلك، وأنه إذا أهمل ذلك إنتشر الخلل وعم الفشل، ويرى الرجي أن للأمر أن يوقع عليهم من التعازير أي من العقاب البدني لكل ذنب نوعاً خاصاً من العقاب. ويبدو أن الرجي قد حضر أحد التمرينات العسكرية فسجل ذلك في نهاية هذه المقالة، كما تحدث أيضاً عن نظام تغذية الجنود وعلاجهم.

^١ - محمد فؤاد شكري: بناء دولة، ص ١٤-١٧، ١٨٣، ١٨٤؛ عبد الرحمن زكي: الجيش المصري، ص ٥٩-٦٢؛ علي شلبي: التجنيد والجنديّة، ص ١٨، ٢٢-٤٠.

تاريخ الوزير محمد علي باشا

(ص ٤) بسم الله الرحمن الرحيم^١ وبه تقي^٢

سبحانك اللهم مبدع العجايب، ومنشئ الغرائب باصناف الرغائب، تعاليت
متقناً صنع مسخرات أمرك، ومبرزاً بقدرتك ما اردته حتى انقادت الآثار لعلّي قهرك،
وتقدست بجمالك متعزراً بجلالك، وتفردت بإسداء كل جميل أنبا عن مظاهر كمالك،
فتجلت وحدتك على منصة صفحات وجود العالمين، وبهرت براهينها الباب العارفين
من مُقرّبي دين الملأين، فعرفك بالربوبية كل من (ص ٥) فاز، وسلك بعنايتك الى
سبيل النجاة أشرف مجتاز، فلك الحمد على هذه النعم التي ألحقت العاجز بالحازم،
ورقت بقدّم الألمي الخاضع فوق عنق الغي المتعاضم، وصلاة وسلاماً على أشرف
مبعوث بالدين والعدل، وأكرم مختار حففته بالكمال والفضل، سيدنا محمد المحمود
خلقه العظيم، المذكور بالحسنى على لسان كل نبي كريم، وعلى آله وأصحابه،
وأتباعه وأحبابه، صلاة وسلاماً دائماً دايماً متلازمين متواصلين واصلين الى يوم الدين.

^١ - وجد في نسخة [دار الكتب] في بداية الصفحة فوق هذا السطر بسملتين باللون الأحمر داخل إطار مستطيل.

^٢ - هذه العبارة غير موجودة في نسخة [دار الكتب].

أما بعد

فقد خاطبني شيخ الاسلام قدوة الأنام الخير الهمام السيد الامام، مولانا وسيدنا شيخ الطائفة، أفاض الله على حضرته من الكمال لطائفه، مولانا الشيخ محمد العروسي^١ أدام الله بقاءه أمين، حيث قال لي من اللازم الجازم، اللاحق بالذكي الحازم، تصنيف كتاب لطيف، وتلخيص مجموع شريف (ص ٦) يتضمن أخبار حضرة الصدر العلي، ذي العز والفخر الجلي، سيد وزراء الأقطار، والمشرّف على جميع أولي الوقار، صاحب الهمم الكسروية، والأخلاق الجميلة البهية، وزيرنا المشار اليه بالبنان واللسان، المحمود صنعه لدى كل إنسان، بادئ النتائج ومظهر المراحم، المشهورة هممه في المنح كما انه المؤيد في الملاحم، مهلب الصنع أحنفي الأخلاق، إياسي الروية غميري الارفاق، صاحب القدر العلي، حضرة سيدنا الوزير محمد علي، وأن يكون ذلك الكتاب مخيراً عن بعض آثاره، مظهراً ما له من مظهر الهمم ورفعة مناره، وذلك على طريقة الإجمال، لأن تفصيل ذلك يعجز عنه فحول الرجال، فقلت له أي سيدي أريد الكشف عن ذلك المصنف، والإفصاح عنم يلخص هذا إذ يؤلف، فقال أنت أنت المخاطب بهذه المطالب، وأنا الأمر لك بهذا الصنيع والمطالب، فقلت سمعاً للأمر (ص ٧) المطاع، وأبهاجاً بمرقوم تبهر نفاسته لطايف

^١ - الشيخ محمد العروسي: هو شمس الدين محمد بن أحمد العروسي، نسبة إلى منية عروس من قرى مركز أشمون جريس بالمنوفية، تعين للتدريس بالأزهر بعد موت أبيه في ٢١ شعبان سنة ١٢٠٨هـ/ ٢٤ مارس ١٧٩٤م، وأرسله محمد علي مع بعض المشايخ في ذي الحجة سنة ١٢٢٢هـ/ مارس ١٨٠٧م للسعي في الصلح بينه وبين أمراء المماليك في الصعيد، ولمتنع عن مشيخة الأزهر عقب وفاة الشيخ الشرقاوي في ٢ شوال سنة ١٢٢٧هـ/ ٩ أكتوبر ١٨١٢م، ثم تولى مشيخة الأزهر مثل أبيه أيضاً بعد وفاة الشيخ محمد الشنواني في ٢٤ محرم سنة ١٢٣٣هـ/ ٤ ديسمبر ١٨١٧م حتى توفي في ٩ صفر سنة ١٢٤٥هـ/ ١٠ أغسطس ١٨٢٩م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٢، ص ٢٥٤، ج ٤، ص ٢٣، ١٦٤، ٢٩٤؛ علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة وبلادها القديمة والشهيرة، عشرين جزء، بولاق سنة ١٣٠٦هـ، ج ١٦، ص ٧٠-٧١، أمين سامي: تقويم النيل، ج ٢، ص ٢٤٩؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ٢، ص ٦٢٥، ٦٢٧، ٦٢٩-٦٣٢.

الطباع، حيث تضمن أخبار فريد الوقت علاءً وسؤددًا، وواحدًا اشتمالاً على العز أبدأ، الصدر الذي جمع البأس والندى، وطلع على الأقطار بدر هدى، الجليل الذي تنتضيه حساماً، واللطيف الذي تحتليه بساماً، ذو فكرة خلصت خلوص التبر، ونفس منزهة، عن الخيلاء والكبر، فهو الذي تحتاجه الدول إحتياج الرياض للنسيم، وتفتقر اليه افتقار المصراع الى القسم، له همم تقاصر عن بعضها سابور، وشهامة عجز عن اظهارها ابن ذي يزن وتيمور، مع عز تنوسي عنده أنوشروان ذو الإيوان، وقوة عزم خجل منها بهرام وأنى يصل الشهاب الى رتبة البهرمان، متى أقدم أحجم عنزة العبسي، وان إفتخر أقصر عراة الأوسي، كيف لا وقد قرت عيون الأنام بما حاطهم به من ظلال الأمان، وحفهم بسرور الطمأنينة (ص ٨) في الأوطان بكل مكان، تغور بره بواسم، وجميع أوقاته مواسم، لم تنزل حضرته مطمحا للهمم، ومسرحاً لآمال الأمم، تسفح في ناديه ديم الكرم، ويفصح عن آياديه لسانا السيف والقلم، نافذ الكلمة حيثما قالها، أعظم حافظ للممالك وأوقى لها، وما هو في أرياب الصدارة الأنير فلكها، ولا شخصه بينهم الا كدايرة دولة حافة بملكها، أبقاه الله علماً للمسرات، ومنبعاً للمراحم والمبرات، وأدامه مغبوطاً ومحسوداً، وأمدّه بالعناية مشكوراً ومحموداً، آمين.

عن معانيه في معاليه حدث، موجزاً مطنباً بقول صريح تره حائزاً بلطف السجايا، من فنون الثناء كل صحيح، وقد عن لي أن أذكر اسمي عقب نعوته الجليلة، عسى أن يكون لتأكيد العطف منه ألطف وسيلة، ويحف هذا الكتاب اللطيف إقباله بالقبول، إذ هو مصنف لجمع نفائس أخباره يصقل مرآة العقول، (ص ٩) وأنا العبد الضعيف المفتقر لربه العلي، خليل ابن أحمد الرجبي الشافعي الشاذلي، وقد جعلت هذا الكتاب مضبوطاً بمقدمة، وسبع مقالات وخاتمة، المقدمة في كيفية مصر وما كانت عليه قبل الفرنسيين، وفي ذكر حكامها وشأنهم بها وأيهم كان هو الرئيس،

المقالة الأولى في ذكر بعض أخلاق الصدر العلي ذي العز والمجد والفضل الجلي،
 حضرة سيدنا العزيز الوزير محمد علي، **المقالة الثانية** في اخراجه للمفسدين وإزالة
 شوكة الضالين، وإخماد جموع الفاسقين من الأمراء والفلاحين، والأعراب أجمعين،
المقالة الثالثة في ذكر تعميره لقطر مصر وإحياء أرضه وبلاده بالزرع والثمار،
المقالة الرابعة في ذكر بعض آثاره من الأبنية والعمارات بمدينة مصر وبلادها
 وقراها، **المقالة الخامسة** في ذكر إحياء دولة الكتبة المسلمين^١ **المقالة السادسة**
 في ذكر بعض أحوال تنبئ عن عظيم همته، وكبير قوته، من إنشاء مراكب بحرية،
 وآلات حربية، وما أنشأه وإخترعه من التزع (ص ١٠) والأنهار، والبلاد والديار
 والأقطار، **المقالة السابعة** في المهم الأكبر، والتدبير الأزهر الأشهر، وهو إخترعه
 للعساكر الجهادية [وما في ذلك من جليل الحزم وعظيم المزية وعليه سبحانه وتعالى
 توكل في المبدأ والختام، فإنه لا حول ولا قوة إلا به، فمنه الإعانة وعلي التمام، لا
 رب غيره ولا خير إلا خيره، وهو حسبي ونعم الوكيل]^٢.

مقدمة

قد أطبق جمهور العالم، وأجمع خواص العقلاء من لدن آدم، من أرباب الشرائع
 والدين، والحكماء أجمعين، إلهيين وإشراقيين ومشائين، وكل من بدا له ذرة

^١ - مكتوب في نسخة [دار الكتب] فوق هذه الكلمة بخط أصغر كلمة "المؤمنين".

^٢ - ما بين الحاصرتين مكتوب في نسخة [سوهاج] فقط، والمكتوب في نسخة [دار الكتب]

"**الخاتمة** في ذكر جواب سؤال عن القوانين المرسومة لهم هل ذلك مطابق للشرع أم لا؟"، وما
 في ذلك من جليل الحزم وعظيم المزية، وعليه سبحانه وتعالى توكل في المبدأ والختام، فإنه لا حول
 ولا قوة إلا به فمنه الإعانة على التمام، لا رب غيره، ولا خير إلا خيره، وهو حسبي ونعم الوكيل".

نور^١ من هذا الجزء الاختياري في العالمين، على أن صلاح الدين والدنيا، ومدار درك الشرف والعليا، لا يدرك وجدانه، ولا يظهر عنوانه إلا بوجود العدل وظهوره، وكمال إشراق شمس نوره، وأن هذا لا يلوح لبصير، ولا يدرك لخبير، ولا يبدو قوام شعاره، ولا يستبين ضوء نهاره، إلا من ذي مظهر متين، قوي مطاع أمين، يتحتم أن يكون (ص ١١) ذا همة عليه، وشجاعة علويّه، ورأسه عباسية، ومعرفة قرشية، وفراصة إيباسية، وفكرة فارسية كسروية، وأخلاق لطف أحنفية، فصاحب هذه الأوصاف لا يكون منه إلا الخير، ولا يمكن في زمنه شيء من شؤون الضيم والضير، ولا سيما إذا كانت بطانته على شكله وكيفيته، وتخلقت بمحاسن رسومه وصورته، فإن الأمر يكمل تمامه، ويصح نظامه، ومن المعلوم عند الخاص والعام في جميع الأزمنة والأعوام، وإشتهر في سائر الأقطار، وظهر ظهور الشمس رابعة النهار، أن مصر كنانة الله في أرضه كما جاء الأثر بذلك، وعرف عند كل العالم لطف قطرها وما تشعب منه من تلك المسالك، فهي على الحقيقة محط رحال الظرف، ومركز دائرة الأنس واللطف، وشهرة قدرها تُغني عن الذكر، ومشاهدة مروجها أعظم موجب لسرور الفكر، والله القائل^٢

وطبني مصر وفيها وطري ولعيني مشتهاها مشتهاها
(ص ١٢) ولنفسى غيرها أن سكنت يا خليلي سلاها ما سلاها
وقال الآخر

إن مصرا الجنة الأرض طرا قول حق وليس فيه إلتباس
وإذا قستم عليها^٣ سواها كان بيني وبينك المقياس

^١ - مكتوب في نسخة [دار الكتب] في هامش الصفحة "ذرة منح".

^٢ - مكتوب في نسخة [دار الكتب] بخط مخالف لخط المخطوط كلمة "ابن الفارض".

^٣ - مكتوب في نسخة [دار الكتب] مكتوب "قستها بشيء".

وقد ملئت الكتب بفضائلها، وذكر ما إحتوت عليه من جمائلها وجمائلها، وحسن مآثرها وشمائلها وذكر نيلها المبارك، وما له وفيه من الخير المتدارك، وذكر ملوكها وأمرائها سالفاً ولاحقاً زمن الجاهلية والاسلام، بما لا يخفى على الخاص والعام، ومن كان بها من أساطين العلماء، وجهابذة الحكماء، حسبما بين وسطر في كتب الأخبار، وبالجملة فليس تحت قبة الخضراء، ولا على ظاهر وجه الغبرا، قطر يضاهيها، ولا بلد يباهيها، يعرف ذلك كل منصف محقق، ومتبع للحق ومدقق، ولازالت على هذه الصور الجليلة، والأحوال المستقيمة الجميلة، مصونة محفوظة، وبعين الاعتبار والهيبة ملحوظة، بسبب عظم أمرائها، وانتظام أمور علمائها، (ص ١٣) واستقامة رعاياها، حتى أراد الله وملكتها طوايف الغز المتأخرين، وبقايا ذلك السلف من المتنطعين، فكانت اذ ذاك دولتين مرادية وإبراهيمية، فإشتغلوا بالظلم والفجور، وتشاغلوا بالرفاهية عن عواقب تلك الأمور، فاضطربت الأحوال، وتوالت الأثقال، وتضاربت الأفعال، وانتقضت الرسوم الأول، وبطل نظام قانون الدول، فكان إبراهيم بيك الكبير^١ شيخ البلد^٢، يعني أنه أكبر الأمراء وأجل الحكام لأنه كالوكيل عن الدولة

^١ - إبراهيم بيك الكبير: مملوك محمد بيك أبو الذهب، ذو تاريخ حافل في مصر العثمانية، أصبح أميراً سنة ١١٨٢هـ/١٧٦٨-١٧٦٩م لما يقرب من ٤٨ سنة، عين أمير حاج سنة ١١٨٦هـ/١٧٧٣م، ثم عين دفتداراً سنة ١١٨٧هـ/١٧٧٣م، ثم تولى بعد ذلك مناصب عدة بعد موت أستاذه سنة ١١٨٩هـ/١٧٧٥م: شيخ البلد، وقائم مقام مصر نحو عشرة مرات، وقد أدت المشاحنات التي نشبت بينه وبين مراد بيك إلى قدوم حسن باشا القبطان بجيش في رمضان سنة ١٢٠٠هـ/أغسطس ١٧٨٦م، فتشفع عند الباشا ليتوسط لهم عند حسن باشا وأرسلوا وفداً إلى حسن باشا قابله في رشيد ولكنهم لم يثنوه عن عزمه في القضاء على إبراهيم بيك ومراد بيك، وتودد إبراهيم بيك للمشايخ حتى يضمن ولاء أفراد الشعب، وكان غير راغب في خروج مراد بيك لمقاتلة حسن باشا، وكان رأيه الإنتظار إلى حين وصول حسن باشا إلى القاهرة فيخلوها إن لم يقدروا على صده أو الصلح معه ويعودوا مرة أخرى بعد خروجه من مصر، وعند علمه بهزيمة مراد بيك أراد أن يستولي على قلعة القاهرة ولكنه لم يتمكن من ذلك، فخرج من القاهرة إلى الصعيد، وبعد عدة

معارك مع قوات حسن باشا صدر في ذي الحجة سنة ١٢٠١هـ/سبتمبر ١٧٨٧م مرسوم بالعفو عنه على أن يقيم بقنا. وقد سيطر إبراهيم بيك وخشداشه مراد بيك على مجريات الأمور في مصر حتى قدوم الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م، ومقاومته لها مع مراد بيك، ولجأ إلى الشام مع الباشا العثماني، ولجأ مراد بيك إلى الصعيد، ثم رجع إلى مصر مع الجيش العثماني في رجب سنة ١٢١٤هـ/ديسمبر ١٧٩٩م وهزم في موقعة عين شمس على يد الجنرال كليبر، ثم عاد مرة أخرى في سنة ١٢١٥هـ/١٨٠١م مع الجيش العثماني الإنجليزي لطرد الحملة الفرنسية. وفي فترة الفوضى التي أعقبت انسحاب الحملة الفرنسية سنة ١٢١٥هـ/١٨٠١م -وهي نفس السنة التي توفي فيها مراد بيك بالطاعون- بدأت الصراعات بين أمراء المماليك بينهم وبين بعضهم البعض، وبينهم وبين الدولة العثمانية التي أرادت التخلص منهم أو إخراجهم من مصر إلى ولايات عثمانية أخرى، فخرج مع باقي الأمراء إلى الصعيد في ٢٠ رمضان سنة ١٢١٦هـ/٢٤ يناير ١٨٠٢م، واتصل بالإنجليز لحل تلك الأزمة، كما اتصل بالفرنسيين عن طريق يعقوب القبطي الذي غادر مصر إلى فرنسا عند خروج الحملة الفرنسية من مصر، ثم تحالف مع محمد علي باشا لمقاومة القوات العثمانية، حيث عاد أمراء المماليك وتولى إبراهيم بيك قائمقام بعد مقتل طاهر باشا في صفر سنة ١٢١٨هـ/يونيو ١٨٠٣م -ولكن هذا التحالف كان يشوبه عدم الثقة بين الطرفين مما أدى إلى فشله- واتصل بالفرنسيين لمساندته، كما تدخل الإنجليز وحصل على عفو من الباب العالي وعين رسمياً شيخاً للبلد في منتصف جماد آخر ١٢١٨هـ/٢ أكتوبر ١٨٠٣م، وخرج من القاهرة إلى الصعيد في ذي القعدة ١٢١٨هـ/فبراير ١٨٠٤م عند فتنه مطالبة العساكر بعفوهم التي دبرها محمد علي، وتولى خورشيد باشا على مصر ثم تولى محمد علي باشا على مصر، وإنتهى الأمر بهروب إبراهيم بيك وما تبقى من أمراء المماليك من المعارك مع محمد علي ومذبحة المماليك سنة ١٢٢٦هـ/١٨١١م إلى دنقلة بالسودان، حيث توفي هناك في أواخر سنة ١٢٣١هـ/١٨١٥م تقريباً، فقد وصلت الأخبار بوفاته في ١ ربيع أول سنة ١٢٣١هـ/٣١ يناير ١٨١٦م، وقد أعيد جثمانه إلى القاهرة حيث استأذنت زوجته في إحضار جثته لتدفن في مصر، فجاءت في منتصف رمضان ١٢٣٢هـ/أول أغسطس ١٨١٧م ودفن بجوار ابنه مرزوق بيك بالقرافة الصغرى. أنظر: الرشيدى، الشيخ أحمد ت سنة ١١٧٨هـ/١٧٦٤م: حُسن الصفا والإبتهاج بذكر من ولى إمارة الحاج، تحقيق لىلى عبد اللطيف أحمد، القاهرة سنة ١٩٨٠م، ص ٢٢١؛ الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن، ت ١٢٤٩هـ/١٨٢٤-١٨٢٥م: مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين، تحقيق حسن محمد جوهر

وعمر الدسوقي، القاهرة سنة ١٩٦٩، ص ٢٥-٤٧، ٣٣٣؛ الجبرتي: عجائب الآثار، ج ١، ص ٣٣٥، ٤١٣، ٤١٣، ٤١٧، ج ٢، ص ٢، ٩، ١٠، ١١، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٥٩، ٧٣، ٧٤، ٧٩-٨٠، ٩٢-٩٣، ١٠٥، ١٠٧-١١٥، ١١٧، ١٢٠، ١٤٦، ١٥٥-١٥٦، ١٦٢، ١٦٣-١٦٤، ١٩١، ١٩٣، ١٩٥، ٢٢٦، ٢٣٩، ٢٥٨، ٢٦٧، ٢٨٢، ٢٨٥، ج ٣، ص ٣، ٦، ٧، ٨-١٠، ٨٢-٩٥، ١٦٧، ١٧٦-١٨٦، ج ٤، ص ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٦٣-٢٦٤، ٢٧٩؛ نيقسولا الترك: مذكرات، ترجمة جاستون فييت، حوليات مصر (١٧٩٨-١٨٠٤)، القاهرة، سنة ١٩٥٠، ص ١٢٩، ١٣٢-١٣٣، ١٣٥، ١٣٩، ١٥٧، ١٥٨، ١٨٤-١٨٧، ١٨٨-١٨٩؛ كلوت بيك: لمحة، ج ١، ص ٥٧؛ محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وظهور محمد علي، القاهرة ١٩٥٠، ص ٣٥-٤٢، ١٣٢-١٤٠؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ١، ص ٥٣-٥٤، ٦٠-٦١، ٦٥، ١١٣-١١٤، ١٣١، ١٣٥، ١٣٦، ١٥٤-١٥٥، ١٦٧، ١٧٦، ١٨٩-٢٤٥، ج ٣، ص ١٣٢٩، ١٣٣١.

٢ - شيخ البلد: إنترع الممالك السيطرة على الإدارة في مصر العثمانية من أيدي الموظفين العثمانيين والحامية العثمانية منذ بداية القرن الثامن عشر، حيث كانت الرئاسة (الإدارة) لكتخدا الإنكشارية، ثم أصبحت للبيك أو البكوات ذوي النفوذ في القاهرة، وأطلق على حاكم القاهرة من الممالك ألقاب عديدة، ثم أصبح مصطلح "شيخ البلد" هو اللقب الشائع منذ سنة ١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م تقريباً، وأصبحت المصادر تشير إلى ذلك بقولهم "وألت الرئاسة إلى .."، وأطلق على قائد الممالك ألقاب عدة، مثل "عزيز مصر"، "كبير القوم"، "الرئيس". أنظر: أحمد شلبي بن عبد الغني، ت ١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م: أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات، الملقب بالتاريخ العيني، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة ١٩٧٨، ص ٣-٢٠؛ عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت، ١٥١٦-١٧٩٨م، دمشق سنة ١٩٦٨، ص ٢٣٩-٢٩٥، ٣٩٦-٤١٧؛

Peter Holt, "The Pattern of Egyptian Political History from 1517-1798," in P.M. Holt, ed., Political and Social Change in Modern Egypt, London: Oxford University Press, 1968, 79-90.

العثمانية، ويقوم مقام الوزير الباشا المعين لمصر إذا غاب أو مات أو سافر قبل مجيء غيره^١، فيركب إبراهيم بيك في طقم الباشا ويجلس في القلعة، وتارة في داره^٢ ويختتم التقاسيط السلطانية^٣ والإفراجات^٤ ونحو ذلك، ويكون نافذ الحكم في مصر

^١ - قائم مقام: يتولى القائم مقام كل سلطات الحاكم في أثناء غيابه أو عزله، وبحلول القرن الثامن عشر أصبح عزل الحاكم وتعيين أحد المماليك قائمقاماً حيلة جاهزة يكسب بها المماليك سيطرتهم شكلاً شرعياً، كما كان الملتزمون أيضاً يعينون أشخاصاً في وظيفة "قائم مقام" يمثلونهم في إلزامهم. انظر عن مصطلح "قائم مقام":

Encyclopaedia of Islam; and Stanford J. Shaw, The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517-1798, Princeton: Princeton University Press, 1962, 53, 56-57, 135.

^٢ - دار إبراهيم بيك: كانت هذه الدار بمنطقة بركة الفيل، ودخلت مع سراي ابنه مرزوق بيك التي كانت تجاورها في سراي الخلية التي بناها عباس حلمي بن طوسون بن محمد علي سنة ١٢٦٧هـ/١٨٥١م الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ١٠؛ عبد الحميد بيك نافع: ذيل المقرري مخطوط بمكتبة الجامع الأزهر، رقم ٦٧٠٣، ورقة ٥٢، ٥٩، ٦٠؛ علي مبارك: الخطط، ج ١، ص ٨٤، ج ٢، ص ٣٨-٤٣، ١٢٦، ج ٤، ص ٦٠.

^٣ - التقاسيط السلطانية: هي ضريبة الأراضي في العصر العثماني، كان يقوم بجمعها وكلاء الملتزمين، إذ بعد دفع مبلغ معين للإدارة يصل في العادة إلى ستة أو سبعة أضعاف دخل الإلتزام الذي يرغب في الحصول عليه، يقوم الملتزم بإستلام صك رسمي موقع عليه من السلطات المختصة يؤكد حقوقه في الإلتزام الذي إشتراه. وهذا الصك الرسمي أو الوثيقة كانت تسمى "تقسيط ديواني" عبارة عن قطعة من الورق قياسها ٥×٣٤ سم تقريباً، مكتوبة بخط السياقت، ويدون بها الإسم وحجم وموقع الإلتزام والضرائب المقررة ومواقيت دفعها، وحقوق الملتزم وغير ذلك. أنظر:

Abd al-Wahhab Bakr, "Administrative and Judicial Rules Relating to Land and Property in Ottoman Egypt in the Eighteenth Century," Majallat Kuliyat al-Adab, Zagazig University, Vol. II, 1988, 1-20; Shaw, Organization, 53.

^٤ - الإفراجات: هي تلك الحجج والسندات التي تعطى لأصحاب حق الإنتفاع بأراضي الرزق كلما حدث تغيير في إستحقاق هذه الرزق بالوراثة أو غيرها، وذلك لإثبات حقهم في إستمرار

وأقطارها، وبالجملية فقد كان هو ألطف من جميعهم، وله أخلاق حسنة وفيه تحمل للعلما وسماع لكلامهم^١ وكان له من ممالিকে صناجق كل واحد منهم يسمى فلان بيك، يعني أنه بطرّخين، وكانت ممالিকে وأتباعه على (ص ١٤) شكله حالهم منسجم وظلمهم أقل من غيرهم، وكان يناظر إبراهيم بيك مراد بيك^٢ خَشْدَاشِيهِ^٣ كلاهما

الإنتفاع بها. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: الريف المصري في القرن الثامن عشر، القاهرة سنة ١٩٧٤، ص ٢٥٦.

^١ - مراد بيك: مملوك محمد بيك أبو الذهب، وخشداش إبراهيم بيك الكبير، لإشتراه محمد بيك أبو الذهب في سنة ١١٨٢هـ/١٧٦٨-١٧٦٩م، ثم سرعان ما أعتق وأمر وأصبح ذو قوة ونفوذ في مشيخة سيده محمد بيك أبو الذهب، وتزوج من فاطمة زوجة صالح بيك الكبير بعد قتله وسكن داره بمخبط الكبش، ثم تزوج الست نفيسة زوجة علي بيك بعد قتله، وسافر إلى الشام مع محمد بيك أبو الذهب لمحاربة ظاهر عمر، وعقب وفاة أبو الذهب سنة ١١٨٩هـ/١٧٧٥م بعكا تحالف مع إبراهيم بيك للسيطرة على الأمور في مصر كلها، تولى أمرة الحاج سنة ١١٩٣هـ/١٧٧٩م، وترك زمام الأمور لإبراهيم بيك وإنصرف للملذاته متنقلاً بين قصوره بالروضة وجزيرة الذهب وترسا وبستان الجنون والعادية، مع الإشتراك في مقاسمة الأموال وشئون الحكم، وكان مراد كريماً مع أمرائه وأتباعه فإنضم إليه أمراء علي بيك الكبير وغيرهم ممن مات أسيادهم، وتولى قائم مقام في ١٥ ذي الحجة ١١٩٨هـ/٣٠ أكتوبر ١٧٨٤م، وقد أدى عنف مراد بيك وممالিকে وطغيانهم على الأهالي، ومشاحتهم مع باقي الأمراء المماليك إلى قدوم حملة عثمانية بقيادة حسن باشا القبطان في رمضان ١٢٠٠هـ/يوليو ١٧٨٦م وخرج مراد بيك بجيش ليصد حسن باشا عند فوة، ولكنه إنهزم لإختلاف أمرائه مع بعضهم ولم يستطيعوا الوصول إلى فوة لوعورة الطريق وكثرة المتاريس، فانسحب جيش مراد بيك، وحاول التحصن عند بولاق، ثم خرج مراد بيك إلى الصعيد مع إبراهيم بيك وأتباعهم، وأرسل خلفهم حسن باشا قوات بحرية تقابلت معهم عند أسيوط ولكنهم لم يتمكنوا من الأمراء، ودارت بين الجانبين عدة معارك عند أسيوط وطهطا، وانسحب الجيش العثماني إلى القاهرة دون طائل بل وتقدم المماليك إلى بني سويف وأرسلوا في طلب الصلح، فإشترط حسن باشا أن يتولى مراد بيك وإبراهيم بيك مناصب يتعيشون منها في أي بلد غير مصر، وتقدم المماليك إلى الجيزة ثم انسحبوا واستقروا جنوباً عند طهطا، ثم توجه إليهم جيش آخر بقيادة

عابدي باشا فوقعت معركة بينهم في ٢٨ ربيع آخر ١٢٠١هـ/ ١٧ فبراير ١٧٨٧م وردوا المماليك إلى الجنوب، ثم صدر في ذي الحجة/سبتمبر من نفس العام مرسوم بالعفو عنه على أن يقيم بإسنا، ثم زحف شمالاً إلى المنيا وبني سويف وطلبوا إجراء مفاوضات للصلح، وإتفق محمد باشا عزت وعثمان بيك طبل مع المماليك، ورجع مراد بيك إلى القاهرة في أواخر ذي القعدة ١٢٠٥هـ/ يوليو ١٧٩١م، فأخذ مسكن إسماعيل بيك بالأزبكية وإستقر بقصره بالجيزة بعد تجديده وتوسيعه، وأنشأ بالجيزة ترسخانة عظيمة جمع بها صناعات الآلات الحربية والمدافع، وأنشأ مصنعاً للبارود، وأحضر صناعات مراكب وبخارة (قليوبجية) أجنب صنعوا له مراكب حربية، أخذها الفرنسيون بعد ذلك، وتقاسم مراد بيك الدواوين مع إبراهيم بيك، وأنشأ ديوان البدعة برشيد خاصاً بالغالل التي تحمل للأجنب، وكان هذا من أسباب مجيء الفرنسيين، وفعل كذلك بالإسكندرية على يد تابعه محمد كريم مما زاد العداوة مع الأجنب وخاصة الفرنسيين، وكان بينه وبين الفرنسيين إتفاقية تجارية منذ عام ١١٩٩هـ/ ١٧٨٥م للمحافظة على تجارتهم، وكان من أهم أعماله الخيرية تجديد جامع عمر بن العاص في رمضان سنة ١٢١٢هـ/ مارس ١٧٩٨م، ثم جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر، فخرج مراد بيك بمماليكه ومراكبه لمقابلتهم عند رشيد ولكن الفرنسيين تقدموا عن طريق دمنهور ورشيد وتقابلوا معاً وإنهزم مراد وإحتقرت مراكبه وآلاته، ورجع مراد إلى مصر حيث هزمه الفرنسيون هو وإبراهيم بيك بالجيزة، ثم لجأ إلى الصعيد ولم يتمكن الفرنسيين من السيطرة عليه، وإنتهى الأمر بمقابلة مراد في قصره بجزيرة الذهب للجنرال كليبر، وعقد إتفاقية صداقة، على أن يكون مراد بيك حاكماً للصعيد نيابة عن الفرنسيين، وأن يسلموه البلاد إذا حلوا عنها. توفي مراد بيك بالطاعون في سوهاج في ٤ ذو الحجة ١٢١٥هـ/ ٧ إبريل ١٨٠١م، حيث دفن بمسجد العارف هناك. وقد صنف معاصره الشيخ إسماعيل الخشاب تاريخاً مختصراً لمراد بيك. وهو خلاصة ما يراد من أخبار الأمير مراد، حققه وترجمه وعلق عليه حمزة عبد العزيز ودانيال كريسيوليوس، القاهرة سنة ١٩٩٢م؛ الرشيدى: حُسن الصفا، ص ٢٢٣، ٢٢٤؛ الجبرتي: عجائب الآثار، ج ١، ص ٤١٣، ٤١٤، ج ٢، ص ١١-٢، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤-٢٥، ٥١، ٥٢، ٥٨، ٥٩، ٦١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٩-٨٣، ٩٢، ١٠٢-١٠٣، ١٠٥، ١٠٧-١١٥، ١١٧، ١١٩، ١٢٠-١٢٢، ١٢٤-١٢٥، ١٣٠-١٣٣، ١٣٦-١٣٩، ١٤٦، ١٥٦-١٥٧، ١٧٢-١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٨٢، ١٩٢-١٩٥، ٢٢٦، ٢٣٩، ٢٥٧، ٢٥٩، ج ٣، ص ١٥٦، ١٦٧-١٧١؛ نيقـــــــــــــــــــــولا الترك: مذكرات، ص ٣١-٣٣، ٩٢-٩٣، ١٠٠، ١١٥؛ كلوت بيك: لحة، ج ١، ص ٥٢؛

مملوك محمد بيك الشهير بأبي الذهب^١، وكان لمراد بيك من ممالكه صناعق^٢ [أيضاً وكشاف^٣ ومعهم صناعق] من ممالك أبي الذهب، ورتبتهم مع رتبة ممالك إبراهيم

شكري: الحملة الفرنسية، ص ٧، ٣٥-٤٢، ٢٠٧-٢١١، ٢٤٢، ٢٥٠، ٢٥٥، ٢٧٣-٢٧٨؛ حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية، جزآن، القاهرة ١٩٤٦م، ج ١، ص ٢٦، ٣١؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ٢، ص ٣٥٩-٣٦٠.

٢ - خشداشية: هي العلاقات الوثيقة التي ساعدت على تقوية وشائج البيت المملوكي، تكشف عنها المصطلحات الجديدة التي توضح العلاقات داخل ذلك البيت، حيث يشير الممالك إلى سيدهم باللقاب "المولى" و"السيد" و"الأستاذ"، أو المصطلح المملوكي التقليدي "المقدم"، كما إستخدموا أيضاً مصطلح "الوالد"، كما كان السيد يشير إلى ممالكه الذين إشتراهم كأولاده. وكان ممالك السيد الواحد يشيرون إلى بعضهم البعض بإستخدام المصطلح الفارسي "الخشداش"، أو المصطلح العربي "إخوان". أنظر:

David Ayalon, "Studies in al-Jabarti I, Notes on the Transformation of Mamluk Society in Egypt under the Ottomans," Journal of the Economic and Social History of the Orient III (1960), 275-277, 285-288;

أحمد السعيد سليمان: تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، القاهرة ١٩٧٩، ص ٨٧-٨٨.

١ - محمد بيك الشهير بأبي الذهب: مملوك علي بيك الكبير، إشتراه سنة ١١٧٥هـ/١٧٦١م - ١٧٦٢م، قلده السنجقية سنة ١١٧٨هـ/١٧٦٤م - ١٧٦٥م، وسمي أبو الذهب لأنه عند لبسه الخلعة فرق البقشيش ذهباً، قاد جيش سيده في حملات ناجحة على صعيد مصر والحجاز وسوريا ما بين سنة ١١٨٣هـ/١٧٦٩م و ١١٨٥هـ/١٧٧١م. وعندما نفى سيده من مصر إلى فلسطين سنة ١١٨٦هـ/١٧٧٢م تبنى محمد بيك أبو الذهب خطط سيده لبناء دولة للممالك في مصر متضمنة الحجاز وفلسطين، وإستقرت البلاد بعد إخضاعه للعرب وقطاع الطرق، وعينت الدولة الباشا العثماني لمصر من جديد، بنى مدرسة له أمام الجامع الأزهر - أئر رقم ٩٨ - في الفترة من سنة ١١٨٧هـ/١٧٧٣م إلى سنة ١١٨٨هـ/١٧٧٤م على طراز جامع سنان باشا بيولاقي - أئر رقم ٣٤٩ - وألحق بها مكاناً للمتصوفة الأتراك - تكية - وسبيل وحوض لسقي الدواب، وعين بها للتدريس الشيخ أحمد الدردير مفتي المالكية والشيخ عبد الرحمن العريشي مفتي الحنفية والشيخ حسن الكفراوي مفتي الشافعية، والشيخ أحمد الراشدي خطيباً، ومعظم مشايخ الأزهر في ذلك الوقت، وألحق بها مكتبة كبيرة، ورتب بها الطلاب، وأوقف عليها الخوانيت التي بناها أسفلها وغير ذلك

من الأوقاف، غير أن الصرف على تلك المؤسسة توقف بعد وفاته لتوزيع أوقافه بين أتباعه. وتوفي أبو الذهب عقب مرض مفاجيء بالحمى في أثناء حملة فلسطين في ٨ ربيع ثان ١١٨٩هـ/ ٨ يونيو ١٧٧٢م بعد إستيلائه على يافا وعكا، وأحضر قادته جثته إلى القاهرة في ٢٤ ربيع ثان/ ٢٤ يونيو ودفن في مدفن أعد له في ذلك اليوم بمدرسته في الإيوان الشرقي. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج١، ص ٣٠٥-٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٣٥-٣٣٦، ٣٥١، ٣٦٤-٣٦٧، ٣٧١، ٣٧٦-٣٧٧، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٥، ٤١٣-٤١٤، ٤١٧-٤٢٠؛ حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد، ج١، ص ٣٥١-٣٥٦؛ دانيال كريسيليوس: جذور مصر الحديثة، ترجمة عبد الوهاب بكر، القاهرة سنة ١٩٨٥م؛

Daniel Crecelius, "The Waqfiyya of Muhammad Bey Abu al-Dhahab," *Journal of the American Research Center in Egypt* XV (1978), 83-105; XVI (1979), 125-146; "The Waqf of Muhammad Bey Abu al-Dhahab in Historical Perspective," *International Journal of Middle East Studies* 23 (February, 1991), 89-102.

٢ - صناعق: هي جمع صنحق، وهو قائد منطقة عسكرية عثمانية، كان يطلق عليه لقب "صنحق بيك" للصنحق (العلم) الذي كان يحمله معه لتعيين مرتبته، وفي مصر كان قواد مثل تلك المناطق يطلق عليهم ببساطة "صناعق" أو ما يوازيها في اللغة العربية "أمير اللواء الشريف السلطاني". وعلى عكس الأقاليم العثمانية الأخرى لم تقسم مصر إلى صناعق أو ألوية، وكان مصطلح "صنحق" أو "لواء" في مصر العثمانية يعني فقط رتبة عسكرية، وعقب فتح مصر سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م على يد سليم الأول (٩١٨-٩٢٧هـ/ ١٥١٢-١٥٢٠م) إلتخذ ٢٤ صنحق بيك لمساعدة الحاكم. وقد كان واحداً وعشرين من هؤلاء البكوات الصناعق يشغلون مناصب مثل "الدفتدار" و"أمير الحاج" و"أمير الصرة".. إلخ، ولهم الحق أن تدق لهم الطبول في مواكبهم، ولذلك السبب عرفوا أيضاً كصناعق طبلخانة، وبحلول القرن ١١هـ/ ١٧م أصبح أمراء المماليك في مصر يعينون في مرتبة "صنحق بيك"، وآل الأمر إلى خروج العثمانيين أنفسهم من تلك الرتبة، وإنتهى الأمر إلى أن أصبحت الصنحقية مركزاً للقوة العسكرية في مصر، وأصبح لبكوات المماليك السيطرة والمهيمنة على الإدارة العثمانية والمؤسسة العسكرية. أنظر: حسين أفندي الروزناجي: ترتيب الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية، تحقيق محمد شفيق غربال، بعنوان "مصر عند مفترق الطرق ١٧٩٨-١٨٠٠م"، حليات كلية الآداب، جامعة فواد (القاهرة)، مجلد ٤ جزء ١، سنة ١٩٣٦م، ص ١٤؛

بيك ومراد بيك وبعضهم تابع لهذا والآخر تابع لهذا، وكانوا جميعاً على غاية من الرفاهية والنظام في المأكل والمشرب والملبس إلا أنهم كالبهايم سوا بسوا، وكان كل واحد منهم لا ينقاد لإحد أبداً بحيث أن أتباع إبراهيم بيك يخالفونه في كثير من أحكامه ويعارضونه في ذلك، وكذلك أتباع مراد بيك، ولكن شأن أتباع إبراهيم بيك في المخالفة أقل من غيرهم، وكانت مصر في ذلك الوقت كالمرأة الجميلة الحسناء التي لها أزواج لا يحصون كثرة، وكانت كل حارة وسوق في حكم الذي كان يسكن فيه، فكل من كان ساكناً في خط من خطط مصر فهو حاكم ذلك المحل، بحيث لا يقدر المحتسب^١ يحكم فيه (ص ١٥) ولا يتكلم على من يبيع الخبز ولا الزيت ولا اللحم ولا

Stanford J. Shaw, Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution, Cambridge: Harvard University Press, 1966, 82; P.M. Holt, "The Beylicate in Ottoman Egypt during the Seventeenth Century," Bulletin of the School of Oriental and African Studies XXIV (1961), 219-225;

وأنظر أيضاً: عبد الرحيم عبد الرحمن: الإدارة في البلاد العربية في العصر العثماني، مجلة الدارة،

العدد الأول - السنة التاسعة، الرياض سنة ١٩٨٣، ص ١٠٩-١١٠.

٣ - كشاف: مفردا "كشاف"، وتجمع "كُشاف"، أمير مملوكي ذو رتبة أقل مباشرة من "صنحق بيك"، وقد كان هؤلاء الممالك حكاماً للأقاليم الصغيرة ومديرين للعديد من القرى في مصر، التي كانت تمنح للحكام كقرى خاصة بهم. أنظر:

Shaw, Organization, 3, 32, 60 ; French Revolution, 78-79.

٤ - ما بين الحاصرتين مكتوب في نسخة [دار الكتب] في هامش الصفحة الأيمن.

١ - المحتسب: يرجع نظام الحسبة إلى العصور الإسلامية المبكرة، وقد استمر هذا النظام في مصر طوال العصر العثماني، وكان يطلق على القائم بتلك الوظيفة "المحتسب" أو "أمين الإحتساب"، وكان المحتسب يقوم بجولات في أسواق القاهرة لمراقبة الأوزان والمقاييس والأسعار، وضبط المخالفين للأسعار التي يحددها سلفاً، كما كان يقوم أيضاً بضبط المخالفين للآداب العامة، ومن سلطاته توقيع عقوبات بدنية أو مالية أو غلق الحوانيت المخالفة ومصادرة البضائع، كما كان المحتسب أيضاً يتولى إلزام مقاطعة جمر الإحتساب في القاهرة ويسدد عنها ضريبة خراج لخزينة الدولة ويحتفظ بباقي الإيرادات التي يحصلها لنفسه، كما كان المحتسب يقوم بفرض مبالغ سنوية أو

الخضار أصلاً ولا يتمكن أحد من أطرافه أن يسئل أحداً من أوليك الناس بل كان أمرهم في الحكم والبلص والظلم لذلك الأمير وأتباعه، وكذلك كان أغاة الإنكشارية والوالي سوباشاً لا يتكلمون على تلك الخطط ولا يدخلونها إلا مروراً، وكان لهم

شهرية أو يومية على أبواب الحرف والباعة والزياتون والجزارون والخضرية والخبازون ونحوهم، وفي سنة ١٢٣١هـ/ ١٨١٦م رُفعت عنهم تلك المبالغ التي كانت تُودى للمحتسب وعوض عنها بخمسة أكياس كان يستوفونها في كل شهر من الخزينة. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٦٩؛ علي مبارك: الخطط، ج ٢، ص ٢٥، ٢٦؛ ليلي عبد اللطيف أحمد: الإدارة في مصر في العصر العثماني، القاهرة سنة ١٩٧٨م، ص ٢٣٥-٢٣٨.

١ - أغا الانكشارية: هو قائد تلك الفرقة وصاحب الصدارة على قواد بقية الفرق، وهو قائد جيش مصر ورئيس قوات حفظ الأمن في القاهرة وضواحيها، وفي القرن ١٢هـ/ ١٨م انتقلت السلطة الحقيقية في أوجاق الانكشارية إلى يد الكتخداء، وظل الأغا يحتفظ بسلطات البوليس الهامة التي كانت من اختصاصه من أوائل العصر العثماني، ولكنه كان يفوض تلك المسؤولية إلى الوالي أو الصوباشي، وكانت الإدارة العثمانية تمنح أغا الانكشارية نوعاً من التفويض العام بالسلطة في وقت الأزمات مما أدى إلى اتساع سلطته اتساعاً كبيراً. أنظر:

Shaw, Organization, numerous references ;

وأنظر أيضاً: ليلي عبد اللطيف: الإدارة، ص ٣٠١؛ أندريه ريمون: فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية، ترجمة زهير الشايب، القاهرة ١٩٧٤م، ص ٣١-٣٤.

٢ - سوباشا: هو رئيس شرطة القاهرة، كان يطلق عليه في ذلك العصر "والي" و"صوباشي"، أو "زعيم مصر"، أما الرئاسة العامة لشرطة القاهرة فقد كان يتولها أغا الإنكشارية الذي كان يقوم بجولات مستمرة في شوارع القاهرة في كوكبة من جنوده للمحافظة على الأمن والنظام العام، بالإضافة إلى العديد من النقاط التي كانت موزعة في سائر أنحاء المدينة وتعرف بالقلقات، ويرأس كل قلق منها ضابط برتبة "بلوك باشي" ويخدم بها جنود يعرفون بالنوبانجية. وفي زمن الحملة الفرنسية قسمت القاهرة إلى ثمانية ألمان لسهولة الضبط والربط بها، وكان في الألمان المذكورة ثمانية وأربعون قره قولاً (قلق) لإقامة العسكر المحافظين بها. وقد ظل قسم الشرطة حتى وقت قريب يعرف بأسم الثمن. علي مبارك: الخطط، ج ١، ص ٨٦؛ وأنظر أيضاً:

Shaw, Organization, numerous references ;

الشارع السلطاني^١ وما شابهه من بقية الشوارع الكبار^٢ يحكمون فقط، وكذلك أطراف حارات مصر التي يسكنها بحسب عاداتهم الفقرا والخدم وأهل صناعة السقاية والجزارة ونحو ذلك من الصنایع النازلة، فكانوا يحكمون بها وحكمهم كان على الضعفا من الناس والفقرا والرعا، وأما الأقويا فلا حكم عليهم، وكان لكل أمير

وأنظر أيضاً: ليلي عبد اللطيف: الإدارة، ص ٢٣٨.

^١ - الشارع السلطاني: هو الشارع الرئيسي لمدينة القاهرة الذي تسير به مواكب السلاطين في العصر المملوكي والباشاوات في العصر العثماني، وهو الشارع الممتد من باب النصر (أثر رقم ٧) فيساراً عند وكالة ذو الفقار بيك (أثر رقم ١٩). ومدرسة جمال الدين الأستاذار (أثر رقم ٣٥)، فشارع التنبكشية إلى سبيل عبد الرحمن كنتخدا (أثر رقم ٢١)، فشارع المعز لدين الله الفاطمي حتى باب زويلة (أثر رقم ٣٠٧)، فيساراً إلى شارع الدرب الأحمر، وعند تقاطع شارع التبانة مع شارع سوقة العزي - سوق السلاح الحالي - كان السلاطين يسرون إلى القلعة عن طريق شارع التبانة فشارع الحجر أحياناً، أو بشارع سوقة العزي فسوق السلاح فميدان القلعة فشارع الحجر فالقلعة أحياناً أخرى، كما كان يطلق نفس الاسم على شارع الصليبة لمرور السلطان به قاصداً مقياس النيل والجيزة، وشارع أمير الجيوش بباب الشعرية لمرور السلاطين منه عند عودتهم من شمال القاهرة. وكان يطلق أيضاً على الشارع الأعظم أو قصبة القاهرة، التي حددها المقريري في الجزء الممتد من باب زويلة جنوباً إلى باب الفتوح شمالاً، كما إمتدت هذه القصبة منذ العصر الفاطمي حتى المشهد النفيسي، لربط القاهرة بالفسطاط. المقريري، تقي الدين أحمد بن علي، ت سنة ٨٤٥هـ/١٤٤١م: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط، جزءان، بولاق سنة ١٨٥٤م، ج ١، ص ٣٧٤-٣٧٨؛ محمد حسام الدين إسماعيل: بعض الملاحظات على العلاقة بين مرور المواكب ووضع المباني الأثرية في شوارع القاهرة، حوليات إسلامية، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، مج ٢٥، سنة ١٩٩٠م، ص ٣-١٠.

^٢ - الشوارع الكبار: هي الشوارع التي تستعمل للدخول والخروج من المدينة، وقد عدد الجبرتي الطرق والأبواب التي يُدخل منها إلى القاهرة، مثل باب الحديد و باب النصر و باب الفتوح و باب الشعرية و باب العدوي و طرق الأزبكية و باب القرافة و البرقية و طرق مصر القديمة. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١٦٦.

حمايات^١ في البر والبحر والسواحل بمصر وبكل البلاد، فكل بلد من البلاد الكبيرة والمدن في حكم أمير والأحوال كلها مختلفة، فلا يقدر هذا الأمير أن يكلم من في حماية ذلك الأمير، والآخر هكذا والباقي كذلك على هذا الشكل، فإضطرب الأمر من تخالف (ص ١٦) الكلمة في الحكم، وظهر الفساد حتى ملأ البر والبحر، وإمتلأت الأقطار بالظلم والجور، فذهب الأمن وصارت الطرق مخيفة حتى صار النهب والقتل وأخذ الأموال في سائر الطرق^٢، وكانت الفلاحون والعرب مشاركين في ذلك للأمر بمصر كل أمير له أصحاب وأتباع وأصحاب من الفلاحين، وأصحاب ورفقا كذلك من العرب، فكانت السفار جميعهم من التجار وغيرهم لا يقدرون على السفر في البر ولا في البحر إلا بالغفر وبذل الأموال للفلاحين والعرب، ولا يتأتى السير في البحر إلا مع غاية التحصن والسلاح في الليل والنهار، وكانت المراكب غير مأمونة إلا نحو عشرين مركباً من الرواحل الكبار فهم الذين كانوا يأخذون بضائع التجار وأموالهم من مصر إلى رشيد ومن رشيد إلى مصر، وكان في كل مركب منهم مدفع ومدفعان، ونحو إثني عشر أو خمسة عشر مكحلة من مكاحل البارود، وكان لرئيس المركب شهامة وطايفته معلومون، فإذا مروا على جهة مخوفة يسرون في البر الذي تجاهها،

١ - حمايات: مصطلح "مال حماية" هي ضريبة الحماية التي كان يجمعها الإنكشارية والعرب من الحرفيين والتجار، ثم سرعان ما إمتد نظام الحماية هذا ليشمل الأسواق والموانئ والعديد من الأنشطة الأخرى كوسائل لزيادة الدخل الغير شرعي لأعضاء الفرق العسكرية. أنظر: ليلي عبد اللطيف: الإدارة في مصر، ص ١٩٠-١٩٤؛

Shaw, Organization, 138; André Raymond, Artisans et Commerçants au Caire au XXVIII^e siècle, Damascus, 1974, Vol. II, 688-692;

أحمد السعيد سليمان: تأصيل، ص ٧٨-٨٠.

٢ - أورد الجبرتي نفس الرأي في الماليك، كما لم يختلف الفرنسيون عنهما في أول منشور أذاعه نابليون بوناپرت على الشعب المصري. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ٤، ١٦٧، ١٦٩، ١٧٠؛ شكري: الحملة الفرنسية، ص ٩٤؛ محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ١، ص ٢.

(ص ١٧) وتارة تسير المركب في وسط البحر إذا كان متسعاً، فإذا طلع عليهم الفلاحون أو العرب ونادوا عليهم أن يأتوا للبر الذي هم وقوف^١ به لا يجيئونهم فيضرب الفلاحون الرصاص من مكاحلهم على المركب ومن فيها ويصيحون عليهم وينتشرون في البر كالجراد ويكثرون من الصياح وضرب البارود بالرصاص، فيضربون عليهم من المركب المدفع والبارود فيرجعون هارين وهم يشتموا ويصيحوا، وتارة يشتد الحال ويكثر الرجيف على أهل المركب ويكون البارود الذي يأتيهم من البر كثير، وتارة يموت أناس وينجرح أناس من هؤلاء ومن هؤلاء فيقول الأمر إلى بذل دراهم فيدفعونها لهم ويتركوهم يمشوا في طريقهم، وتارة يكون البحر نازلاً هابطاً كعادته في عقب الشتاء فيتكاثر الفلاحون أو العرب وينزلون بالخليل في البحر في جهات معلومة يأخذون المركب بما فيه من أموال ومتاجر ويقتلون من فيها، ولا يسأل أحد من الأمراء عن ذلك^٢، بل للأمير قسم فيه ونصيب مقدر (ص ١٨) يأخذه، وكذلك كان البر في كل جهة منه طوائف من الفلاحين يسمى الرجل نفسه شيخ العرب الفلاني وله رجال ينهبون في الطرق، وكثر ذلك وعم أقطار مصر كلها، فحصل الخلل الكبير واضطرب أمر القطر اضطراباً عظيماً حتى وصلت العرب إلى اليزبكية وإلى الحسينية ووقع القتل والسلب خارج باب الشعرية وعند المذبح

١ - في نسخة [دار الكتب] "واقفون".

٢ - بالرغم من أن كل قرية تقع على النيل في مصر كان بها خفراء مسئولون عن الإبلاغ عن قوارب اللصوص، وذلك حماية للإبحار النهري، إلا أن ذلك لم يكن كافياً لحماية المراكب من خطر الإعتداء على الأنفس والممتلكات، فقد كانت لثل هؤلاء اللصوص حيلهم في سرقة المراكب النيلية. أنظر: نيور، كارستين: رحلة إلى مصر ١٧٦١-١٧٦٢م، ترجمة مصطفى ماهر، القاهرة سنة ١٩٧٧، ص ١٢٥-١٣٧.

السلطاني^١ وتحت القلعة من جهة الجبل وخارج باب القرافة^٢ وباب الغريب عند الأزهر^٣، وكثر ذلك جداً، وكان الذي يتوجه إلى بولاق يسأل أيّ الطرق أحسن في هذه الجمعة، فيقال طريق باب اللوق^٤، وأحذر أن تتوجه من طريق القنطرة عند المغربي^٥ فإن التعدي هناك، وكذا يقال في طريق مصر العتيقة، وسائر^٦ الجهات، وإزداد الأمر في ذلك حتى كانت الحارات بإطراف مصر كالأزهر ونواحيه ودواير خط الحسين والحسينية والباطلية والعطوف ودرب النوبي وغيرهم من سائر نواحي أطراف مصر يأتيهم بالليل ناس من الفلاحين والعرب يقال لهم المنسر وبأيديهم تارة شعل مضيئة بالنار فيصعدون إلى الحارات (ص ١٩) وينهبون البيوت ويقتلون

١ - المذبح السلطاني: كان يقع في منطقة الحسينية، عند ميدان الجيش الآن. أنظر: البكري، محمد بن أبي السرور، ت سنة ١٠٨٧هـ/١٦٧٦م: قطف الأزهار من الخطط والآثار، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٤٥٧ جغرافيا، ورقة رقم ١١٤ (أ)؛ الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ٣٤١، ج ٤، ص ٢٧٠؛ علي مبارك: الخطط، ج ١، ص ١٠٣، ج ٢، ص ٤.

٢ - باب القرافة: يقع عند نهاية سور مجرى العيون من جهة القلعة، عرف أيضاً بباب الخولي لقربه من زاوية الخولي، كما عرف أيضاً بباب قايتباي لتجديده له. السكري، علي بن جوهر: الكوكب السيار إلى قبور الأبرار، تحقيق محمد عبد الستار عثمان، سواهج سنة ١٩٩٢، ص ٤٣-٤٤.

٣ - باب الغريب: هو باب البرقية الذي بني في العصر الفاطمي في السور الشرقي لمدينة القاهرة، وموقعه عند جامع الغريب الذي بناه عبد الرحمن كنتخدا (أثر رقم ٤٤٨) بجوار هذا الباب. الجبرتي: عجائب، ج ٣، ص ٩٣، ج ٤، ص ٣٤٦.

٤ - طريق باب اللوق: كان هذا الطريق يمتد من قنطرة باب الخرق فشارع حسن الأكبر الحالي فباب اللوق حتى شاطيء النيل. المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ١٤٧؛ علي مبارك: الخطط، ج ٣، ص ٦١.

٥ - قنطرة المغربي: كانت في منطقة الأزبكية جهة شارع عدلي. الآن حيث مقام الشيخ المغربي. الجبرتي: عجائب، ج ٣، ص ٣٣، ج ٤، ص ٣٤٦؛ علي مبارك: الخطط، ج ٣، ص ١١٨؛ محمد حسام الدين إسماعيل: وجه مدينة القاهرة، ص ٢٤٠.

٦ - في نسخة [دار الكتب] "وكذا في سائر".

ويجرحون، وكانت أهل المحلات على الدوام مستحضرين ومستعدين بالبارود والسلاح ويسهرون بالدور خوفاً من طرق المنسر، وبالجملة فقد كان ذلك أمراً صعباً مهولاً، والأمر نيام في بيوتهم يسمعون ذلك ولا تأخذهم حمية في الدفع عن الرعية، وزاد الأمر في مثل هذه الأشياء حتى صار الناس بحيث لا يقدرّون على المشي ليلاً في طرق مصر إلا أن يكون ثلاثة أو أربعة أو خمسة رجال ومعهم النور مع الإحتراس على أنفسهم بالمساق ونحو الشماريخ المعروفة، وسبب ذلك أنه ظهر بالطرق بالليل رجال يقال لهم البطحجية ومعهم أشياء يضربون بها كل من كان ماراً منفرداً، وتارة يضربون الإثنين ويأخذون من الناس ثيابهم وما معهم من الدراهم، حتى عمت البلوى بذلك وكثرت هذه المعاني بمصر، فارتفع الأمن وزاد الخوف وكثر الفسق، وكانت إذ ذاك الأمرا على ثلاثة أقسام: أمراء مصريون، وأمرا فلاحون، وأمرا من العرب، فكان الكلب من الفلاحين يجمع له مائة رجل أو مائتين، وبعضهم يجمع الألف وبعضهم (ص ٢٠) تكون جماعته ألفين وبعضهم أكثر من ذلك، ويسمي الكلب نفسه شيخ العرب فلان، وكل واحد منهم مصاحب لأمير من أمرا مصر ليشاركة فيما يأخذه من أموال الناس، فكانت العلماء تذهب وتتكلم مع مثل إبراهيم بيك شيخ البلد ويحذرونه عواقب ذلك ويخاطبونه في قمع هؤلاء الأوباش ورفع ضررهم عن الناس وعن البلاد، ويقولون له أن القطر صار خراباً بسبب ذلك، فيأمر بعض صناعقه بالخروج إليهم فيخرج مع عسكره ويرسل لهم ينبههم ويقول لهم أرحلوا عن أرضكم ومحلّكم، فيرحلون بأموالهم ويتوجهون إلى أيّ جهة من أيّ بلد شاؤا، فيمكنون بها حتى يأتي ذلك الأمير ويرجع بعد ذلك إلى مصر ويقول أنهم هربوا وأنه لحق منهم عشرة فقتلهم بالكذب، ثم يرجعون إلى محلهم ويعودون إلى فسادهم، وأن لم يكن بين الأمير وبينهم صحبة يرسل لهم الأمير الذي يكون مرافقاً لهم ويعرفهم عن الحقيقة، فتارة يرحلون ويهربون، وتارة لا يزالون بذلك الأمير بل يرسلون له أرجع فإن لم يرجع حاربوه، وتارة يهزموه (ص ٢١) ويقتلون من أتباعه ومماليكه ويرجع مهزوماً منكساً رأسه.

وإضطرب أمر حكام الأقاليم ولم يزل هذا الأمر على هذه الصفات حتى تسبب عن ذلك مجيء الفرنسيين ودخولهم إسكندرية ثم سيرهم حتى ملكوا مصر وولت جميع الأمرا منهزمين ولم يكتنوا معهم في الحرب ساعة واحدة، وهذا من سوء قضا الله عليهم وتنكيله بهم جزاء على ما قدموه من صنيعهم وخرجوا عن القطر بالكليّة إلى الشام سوى مراد بيك وبعض صناعقه فإنه مكث في الصعيد، وإستولت الكُفّارُ على أرض مصر ثلاث سنوات حتى جاء حضرة الوزير يوسف باشا^١ في المرة الثانية

١ - يوسف باشا: شغل يوسف ضيا (المعدني أو المعدن) باشا منصب صدر أعظم سنوات ١٢١٤ - ١٢١٦هـ/١٧٩٩ - ١٨٠٠م، وقد حضر إلى مصر سنة ١٢١٤هـ/١٧٩٩م على رأس جيش لإجلاء الفرنسيين، وعقد صلح مع الجنرال كليبر عرف بإتفاقية العريش، ولكنه لم يتم بسبب تدخل إنجلترا، وإنتهى الأمر بهزيمة يوسف باشا في موقعة عين شمس وإضطرابه إلى الانسحاب عقب إنهيار الإتفاقية المذكورة، ثم عاد إليها في ربيع الأول سنة ١٢١٦هـ/١٨٠١م على رأس القوات العثمانية القادمة للتعاون مع الإنجليز للعمل على طرد الفرنسيين من مصر، ومكث بمصر إلى ٥ شوال سنة ١٢١٦هـ/٨ فبراير ١٨٠٢م لتنظيم شئونها وإرجاعها ولاية عثمانية كما كانت، وإنشاء أربعة باشويات تحل محل أمراء المماليك، وإبعاد أمراء المماليك خارجها - إلى رودس أو كريت أو سالونيك أو أزمير - ومنحهم وظائف ليتعيشوا منها، وإعتقال أمراء المماليك الذين كانوا بالقاهرة - إبراهيم بيك الكبير وابنه مرزوق بيك وتسعة بكوات آخرين - في ١٢ جماد آخر ١٢١٦هـ/٢٠ أكتوبر ١٨٠١م لإرسالهم إلى استنبول، ولكن تدخل الإنجليز الذين كانوا متعاطفين مع المماليك - لإعتقادهم في قدراتهم العسكرية التي ستحمي مصر من أي غزو أجنبي جديد لضعف وإنحلال الجيش العثماني - حال دون ذلك، ومكث بمصر حتى غرة شوال سنة ١٢١٧هـ/٢٥ يناير ١٨٠٣م لتنظيم إدارتها ليرجع بها مرة أخرى ولاية عثمانية، وعين محمد خسرو باشا والياً على مصر. عين والياً للحبشة وحدة وقائداً أعلى لجيوش العراق والشام وعكا ومصر للقضاء على الوهابيين سنة ١٢٢٤هـ/١٨٠٩م، ولكن سرعان ما ألغي هذا التعيين. أنظر: الجبرتي: مظهر التقديس، ص ١٨٦ - ٢٣٠، ٣٠٩، ٣٣٣؛ الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ٨٢ - ٨٩، ٩٠، ١٠٤، ١٨٦؛ نقولا ترك: مذكرات، ص ٦٠، ٦٤، ٧٦ - ٨٧، ١١٣، ١١٤ - ١٢٢؛

من طريق الشام بالسير، وجاء كذلك حضرة قابدان باشا حسين باشا^١ رحمه الله فخرجت الفرنسيين ودخل الوزير القابدان باشا وعساكر الإسلام^٢، وحصل الفرع

وأنظر أيضاً: شكري: الحملة الفرنسية، ص ١٥٧-١٧٠، ٢٠٦، ٣٢٣، ٣٨٦-٣٨٧؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ١، ص ٢-٣، ١٠، ١٢-١٨، ٧٨-٧٩، ٨٤، ٩٨-١٠٠، ١٠٧-١٠٨، ١٢٣، ٢١٠، ج ٣، ص ٩٩٧-١٠٠٥.

١ - حسين باشا القابودان: قبودان حسين باشا أخ غير شقيق للسلطان العثماني سليم الثاني، أصبح قبطان باشا إعتباراً من شهر مارس ١٢٠٧هـ/١٧٩٢م، إلى تاريخ وفاته في رمضان سنة ١٢١٨هـ/ديسمبر ١٨٠٣م، إلتحق بالقوات العثمانية في مصر برئاسة يوسف باشا في ذي الحجة سنة ١٢١٥هـ/إبريل ١٨٠١م، وقد كان خصماً عنيداً للأمراء المماليك، وكان مزوداً بأوامر بالقضاء عليهم بعد إجلاء الفرنسيين عن مصر، فقام بإعداد مؤامرة لقتل أمراء المماليك الذين كانوا بالإسكندرية في ذلك الوقت في ١٤ جماد آخر ١٢١٦هـ/٢٢ أكتوبر ١٨٠١م، حيث قتل عثمان بيك الطنبورجي وعثمان بيك الأشقر ومراد بيك الصغير وإبراهيم بيك السناري وصالح أغا وعحمد بيك وفر عثمان بيك البرديسي. مات بإسطنبول في شعبان ١٢١٨هـ/ديسمبر ١٨٠٤م ودفن بجامع سيدي أيوب الأنصاري، وإبتهج المماليك لذلك وضرَبوا المدافع من القلعة. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ١٥٤، ١٨١، ١٨٨، ١٩٣، ١٩٧، ٢٠٠-٢٠١، ٢٢٦، ٢٥٩، ٢٧٠، ٢٧٦، ج ٤، ص ٣١؛ نقولا ترك: مذكرات، ص ١١٣، ١١٥-١٢٠، ١٦٤-١٦٥؛ محمد شفيق غربال: محمد علي الكبير، القاهرة سنة ١٩٨٦، ص ٤٢؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ١، ص ٣، ٦، ١٢-١٥، ٩٦، ١٠٨.

٢ - كان هذا بمساعدة إنجلترا بعد معاهدة التحالف التي عقدت بين الدولة العثمانية وإنجلترا في ٢٧ رجب سنة ١٢١٣هـ/٥ يناير ١٧٩٩م، فأرسلت إنجلترا جيشاً بقيادة السير رالف أركرومي - الذي قتل في معركة كانوب في ٦ ذي القعدة ١٢١٥هـ/٢١ مارس ١٨٠١م - ثم السير جون هيلي هتشنسون - الذي غادر مصر في ١٣ جماد أول ١٢١٦هـ/٢١ سبتمبر ١٨٠١م لمرضه - ثم اللورد كافان، وكان معهم قوة مكونة من سبعة آلاف من قوات الهند بقيادة الجنرال بيرد في الجيزة والسويس، وألفين وخمسمائة بالإسكندرية ودمياط، وقد مكث الإنجليز في مصر حتى ٢١ ذي القعدة ١٢١٧هـ/١٦ مارس ١٨٠٣م، بعد فشلهم في حل الخلافات بين الدولة العثمانية والأمراء المماليك، وبعد طلب فرنسا لذلك في صلح إميان في ٢٣ ذي القعدة سنة ١٢١٦هـ/٢٧ مارس

والسرور للمسلمين وأزال الله عَنْهُمْ تلك المحنة، وفرج عنهم تلك المصيبة العظمى، فأكمل نظامَ الموحدين وعمر القطر وصلحت البلاد وكثرت المتاجر وحَصَلَ للناس الكسبُ العَظيم والأمنُ الجسيم وتوجه حضرة (ص ٢٢) القابدان والوزير كل منهما إلى إسلامبول، وتولى وزارة مصر حضرة محمد باشا خسرو^١ حفظه الله وبقيت مصر

١٨٠٢م، فقد كانت الحملة الفرنسية تهدف إلى قطع طرق الإنجليز إلى الهند وتأسيس مستعمرة فرنسية في مصر، وقد تحطمت هذه الأحلام في العام الأول من مجيء الحملة عندما نجح الإنجليز في تحطيم الأسطول الفرنسي في موقعة أبو قير البحرية سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م وعزلت قوات الحملة عن العالم الخارجي، وإنتهت الحملة بإنسحاب الفرنسيين سنة ١٢١٦هـ/١٨٠١م بعد وصول قوات من الإنجليز بقيادة الجنرال أبر كرمي والعثمانيين بقيادة يوسف باشا الصدر الأعظم وحسين باشا القابودان. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ١٧٦، ١٧٧، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ٢٣٤؛ نقولا ترك: مذكرات، ص ١١٣-١١٤، ١٢٥؛ كلوت بيك: لحة، ج ١، ص ٤٩؛ شكري: الحملة الفرنسية، ص ٣٢٢-٣٢٧، ٣٣٣-٣٨٦، ٣٩٣، ٣٩٨، ٤٠٢-٤٥٩؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ١، ص ٦، ٩، ١٢، ١٦، ١٨، ٢٧، ٥١، ٧١، ٧٤، ٧٥، ٧٧، ٧٩، ١٠٠، ١٠٨، ١٢٧-١٢٩، ١٣٤-١٤٢.

^١ - خسرو باشا: كان محمد خسرو باشا كتحدا حسين باشا القبودان، صدر فرمان تعيينه في جماد أول سنة ١٢١٦هـ/سبتمبر ١٨٠١م، ووصل إلى مصر في رمضان ١٢١٦هـ/يناير ١٨٠٢م لممارسة عمله كحاكم لمصر، ومنفذاً لخطط الدولة المشددة في القضاء على المماليك نهائياً وعدم التفاوض معهم، وأفضل المحاولات الإنجليزية في التدخل لحل مشكلة المماليك مع الدولة العثمانية طوال سنة ١٢١٦-١٢١٧هـ/١٨٠٢م، وكذلك أيضاً تدخلات الفرنسيين، كما أوكل إليه مهمة إذلال كبار المشايخ -البكري والسادات على وجه الخصوص- ومصادرتهم، ولكنه فشل في ذلك لجهله بفنون الحرب والسياسة وشغون الإدارة على السواء، وهزمت جيوشه عدة مرات رغم التعزيزات العسكرية التي أرسلتها الدولة، مما جعله يتصل بقائد القوات الإنجليزية بالإسكندرية ليتدخل في الصلح مع المماليك في ٩ شعبان ١٢١٧هـ/١٠ ديسمبر ١٨٠٢م على أن ينفي زعمائهم إلى خارج مصر، لكن المماليك عادوا إلى الصعيد -حسب نصيح الإنجليز في ذي القعدة ١٢١٧هـ/مارس ١٨٠٣م، وهرب خسرو باشا من القاهرة بعد معركة مع العساكر الأرمنود في ٩

سارة قارة، وحصل بمحمد باشا هيبة في قلوب الفلاحين والعرب، وأمنت الطرق وإستقامت الأحوال قريباً من سنة الأشياء، ثم إحتل ذلك الأمر ودخلت طوايف الغز المماليك إبراهيم بيك والبرديسي^١ وجماعتهم ومكنوا مع العسكر السلطاني سنة ثمانية

محرم سنة ١٢١٨هـ/ ٢ مايو ١٨٠٣م إلى المنصورة ثم إلى دمياط، حيث قبض عليه الجيش الذي قاده حسن باشا طاهر وعثمان بيك البرديسي ومحمد علي وأرسلوه إلى القاهرة، فكانت مدة ولايته سنة وثلاثة أشهر وأحدى وعشرين يوم، وقد خلفه طاهر باشا قائد الأرنووط في ١٤ محرم ١٢١٨هـ/ ٦ مايو ١٨٠٣م، حيث إجتمع القاضي والمشايع وقرروا تعيين طاهر باشا قائمقام حتى يأتي فرمان ولايته، ثم جاء في شهر صفر خطاب من الدولة بنقله خسرو باشا إلى سالونيك، ولكنه كان محبوساً بالقلعة إلى أن أطلقه محمد علي بعد خروج المماليك من القاهرة إلى الصعيد في أول ذي الحجة سنة ١٢١٨هـ/ ١٣ مارس ١٨٠٤م ليكون باشا على مصر لمدة يومين فقط، فقد إعترض على تعيينه عابدين بيك وحسن بيك إخوة طاهر باشا وزعماء الأرنوود، فسفروه من مصر إلى إستانبول عن طريق رشيد. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ١٩٧، ٢٤٠-٢٤٣، ٢٤٤-٢٤٥، ٢٥٤، ٢٨٧؛ نقولا ترك: مذكرات، ص ١٢٢-١٢٨؛ كلوت بيك: لحة، ج ١، ص ٥٦-٥٧؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ١، ص ١٧-٢٥، ٣٧، ٤٢، ٤٧، ٥١، ٥٢، ١٢٤، ١٢٨، ١٣٠-١٣٢، ١٣٤-١٣٥، ١٤٠-١٤١، ١٦٠، ١٧٩، ١٨٠-١٨٢، ١٨٨، ١٩٢-١٩٦، ٢٤٦-٢٤٨، ٢٦٤-٢٦٦.

^١ - عثمان بيك البرديسي: من ممالك مراد بيك، سمي بالبرديسي لتوليه كشوفية برديس بالصعيد، تقلد الإمارة سنة ١٢١٠هـ/ ١٧٩٥م، وكان رسول مراد بيك إلى الفرنسيين وضمن وفده للتفاوض معهم، سواء مع الجنرال كليبر أو الجنرال مينو، ورأس المرادية بعد وفاة مراد بيك وسفر محمد بيك الألفي إلى إنجلترا، وظل البرديسي على إتصال دائم بالفرنسيين بل والإنجليز، ونجى من محاولة قتل المماليك في البحر أمام الإسكندرية عند تقرير الدولة التخلص من المماليك بعد خروج الحملة الفرنسية، تحالف مع محمد علي بعد مقتل طاهر باشا ودخل القاهرة مع إبراهيم بيك الكبير وعُين شيخاً للبلد، وحارب محمد خسرو باشا في دمياط وأسره، كما سيطر مع محمد علي على رشيد وطرده قوات علي باشا الجزائري، ولم يتحد مع محمد بيك الألفي بل حاول قتله، ووعد الإنجليز بإرسال نجدة لتخليصه من الأرنوود، فنفرت جماعة المماليك مما سهل على محمد علي - بإيعاز من

عشر^١، ثم قام عليهم حضرة مولانا وسيدنا مُحَمَّد علي دام إجلاله وكان في ذلك الوقت كبير العساكر جميعاً، فأخرج كامل الصناجق وأتباعهم قهراً عنهم وعنوة بالسَّيف، فقتلت منهم أناس وهرب الباقون خارج مصر واجتمعوا وساروا إلى الصَّعيد، ثم جاء حضرة خرشد SIC بِأَشَأْ رَحِمَهُ اللهُ وتولى مصر، ثم خرج منها من

الفرنسيين- الإيقاع بهم وطردهم من القاهرة مرة أخرى، وخرج بعساكره إلى البساتين والجزيرة حيث تحارب مع قوات خورشيد باشا ومحمد علي، ثم ذهب إلى الصعيد مع إبراهيم بيك ووسطوا عثمان بيك حسن في الصلح مع محمد بيك الألفي ولكنه لم يتم أي صلح بينهما لحقد البرديسي عليه، ولم يمكن الألفي من جمع كلمة المماليك حينما إتفق الألفي -بمساعدة الإنجليز- مع الصدر الأعظم علي عزل محمد علي عن مصر في ربيع ثان ١٢٢١هـ/يونيو ١٨٠٦م وتعيين موسى باشا وإرجاع المماليك إلى سابق عهدهم في الحكم. مات بمنفلوط في ٧ رمضان ١٢٢١هـ/١٨ نوفمبر ١٨٠٦م ودفن بها. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٣، ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٤، ج٤، ص٢٠، ٤٢-٤٣؛ نقولا ترك: مذكرات، ص٩٢-٩٣، ٩٨، ١٠٠-١٠١، ١١٥-١١٧، ١٢٩، ١٣٢-١٣٣، ١٣٤، ١٣٦-١٣٩، ١٣٩، ١٥٠، ١٥٧، ١٥٨-١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٤-١٦٥، ١٦٩، ١٧٥، ١٧٧، ١٨٣، ١٨٤-١٨٥، ١٨٨-١٨٩، ١٩١، ١٩٤-١٩٥، ١٩٧-١٩٨، ٢٠٢-٢٠٣، ٢٠٩؛ كلوت بك: لحة، ج١، ص٥٦، ٥٨، ج٢، ص٦٣، ٦٤؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٢٠١-٢٠٣؛ شكري: الحملة الفرنسية، ص٢٠٧-٢١١، ٢٧٣-٢٧٨، ٤١١-٤١٥؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج١، ص١٤، ٤٧، ٥٢، ٥٤، ٥٥-٥٦، ٥٧، ٥٩-٦٠، ٦١-٦٥، ٦٩، ٧٢، ٧٣، ١٣١، ١٦٠، ١٦٤، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٩، ١٩١-٢٤٥، ٢٥٧، ٢٧٤-٢٨٥، ٢٩٢-٢٩٧، ج٢، ص٣٣٧، ٣٣٨، ٣٩١-٣٩٣، ٣٩٦-٤٩٦.

^١ - ١٢١٨هـ/١٨٠٣-١٨٠٤م.

^٢ - خورشيد باشا: هو خورشيد أحمد باشا، كان باشا الإسكندرية في الفترة من ذي القعدة سنة ١٢١٧هـ/مارس ١٨٠٣م قبل أن يعين حاكماً لمصر كلها في ٢٨ ذي القعدة سنة ١٢١٨هـ/١٠ مارس ١٨٠٤م، ولذلك فإن مدته تتداخل مع مدة محمد خسرو باشا -الذي كان محبوساً في قلعة القاهرة في ذلك الوقت- كما تتداخلت أيضاً مع مدة علي باشا الجزائري الذي صدر أمر توليته في

٢٨ صفر سنة ١٢١٨هـ/ ١٩ يونيو ١٨٠٣م وقتله المماليك عند القرين بين بلبس والصالحية لسوء تاريخه معهم وخيانتهم وإصراره على تنفيذ مخططات الدولة العثمانية بطرد المماليك من القاهرة إلى الصعيد- في شوال ١٢١٨هـ/ يناير ١٨٠٤م، وكان في مشروعات الحكومة العثمانية بإضافة ولاية مصر إلى أحمد باشا الجزائر والي عكا لتأسيس حكومة قوية بها ولدفع أي عدوان أجنبي، ولكن خورشيد -بالإتفاق مع محمد علي- أشاع أنه صدر فرمان بتعيينه على مصر وانتقل خورشيد إلى القاهرة وتسلم منصبه دون علم الدولة، ووصل فرمان تربيته والياً على مصر في ١٩ محرم ١٢١٩هـ/ ١ مايو ١٨٠٤م رضوخاً للأمر الواقع، وقد تنبأ الإنجليز بفشله في حكم البلاد منذ البداية لقلة كفائته وعدم سيطرته على الجند وحتمية تصادمه مع محمد علي، بالإضافة إلى خطر المماليك -الذين سيطروا على معظم أقاليم مصر بل وحاصروا القاهرة- ومتابعة مطاردهم، ومشاكل مرتبات الجنود الأرمنود، وهذا ما حدث بالفعل، وإستدعى خورشيد قوات من الدلاة -فرسان- لمساندته في القتال ضد المماليك، والموازنة مع الأرمنود مثيري الشغب ضده، وتحصن بالقلعة خوفاً من الأرمنود، ووصل الدلاة في ٢٩ ذي القعدة ١٢١٩هـ/ ٢٩ فبراير ١٨٠٥م وعسكروا في منطقة مصر القديمة وطرا، ولكن الدلاة إتفقوا مع محمد علي ودخلوا معه إلى القاهرة وكانوا نقمة على خورشيد باشا بما فعلوه مع الأهالي، وقد سعى محمد علي بالفعل للسيطرة على البلاد وسعى لدى الدولة العثمانية للحصول على فرمان بتوليته على مصر، ولكن خورشيد كان يسعى في الوقت نفسه لتعيين محمد علي لإحدى باشاويات الدولة الأخرى وقد نجح بالفعل في إصدار فرمان بتولية محمد علي على جدة، وطالب محمد علي بمرتبات جنوده وعجز خورشيد عن ذلك مما أثار الجند والشعب معاً على خورشيد، وقد عزل العلماء خورشيد في ١٣ صفر ١٢٢٠هـ/ ١٣ مايو ١٨٠٥م، وعرضوا حكم مصر على محمد علي باشا، وأفتوا بعصيان خورشيد باشا وجماعته وجواز قتالهم، وقد قاوم خورشيد باشا ذلك العزل من قلعة القاهرة، وإتصل بمحمد بيك الألفي الذي كان بالجيزة وباقي أمراء المماليك بالصعيد لنجدته، وحضر عثمان بيك البرديسي وإبراهيم بيك وعثمان بيك حسن إلى جنوب القاهرة في ١٨ ربيع ثان/ ١٦ يوليو من نفس العام ولكن بعد فوات الأوان، وإنتهى الأمر بخروجه إلى الإسكندرية بعد وصول فرمان تولية محمد علي، وهو بذلك آخر والي عثماني يأخذ أوامره من استانبول مباشرة. وقد أرسلته الدولة العثمانية في حملة ضد الفرس، كما عمل أيضاً صدر أعظم في الفترة من سنة ١٢٢٧-١٢٣٢هـ/ ١٨١٢-١٨١٥م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٢١١، ٢٢٠، ٢٥٤، ٢٦٦، ٢٧٦، ٢٨٥، ٢٨٧،

سوء رأيه وشؤم تدبيره، فتولى وزارة مصر حينئذ حضرة الصدر العلي محمد علي، فهو الذي أعاد عمران القطر بعد الخراب^١، وأعاد رميم خيره منشوراً بعد الإضمحلال والذهاب، فلما إستقل بهذا القطر صنع أشياء جليلة من محكم التدبير، وظهر مظهراً (ص ٢٣) يعجز عنه كل رئيس من أمير ووزير، وكان ابتدا شأنه في يوم الجمعة عاشر شهر صفر سنة ١٢٢٠^٢. بمنزل سعيد أغا وكيل دار السعادة^٣، بحضرة خرشد sic باشا

٢٩٣، ٣٢٩-٣٣٦، ج ٤، ص ٣٢؛ نقولا ترك: مذكرات، ص ٢٠٤-٢٠٧؛ كلوت بيك: لحة، ج ١، ص ٥٧، ٥٩، ٦٠-٦١ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ١، ص ٢٢، ٥٥-٥٦، ٦٥، ٦٧، ١٢٧، ١٣١، ١٦٧، ١٦٩-١٧١، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٩، ١٨١، ٢٤٧، ٢٤٨، ١٩٤-٢٢٥، ٢٤٥-٣٣٥؛

Douin and Fawtier-Jones, L'Angleterre et l'Egypte, Vol. I, 406.

^١ - بدأ محمد خسرو باشا منذ ربيع ثان سنة ١٢١٦هـ/ ١٨٠١م في بناء ما هدمه الفرنسيون عند دخولهم القاهرة بعد هزيمة الجيش العثماني بالأضافة إلى ما لاقته البلاد من تخريب أثناء العصر العثماني من جراء فتن المماليك، كما طلب من القائد الإنجليزي قبل انسحاب قواته من مصر سنة ١٢١٧هـ/ ١٨٠٣م إبقاء ضابطاً من سلاح المهندسين للإشراف على أعمال تحصينات القاهرة ورشيد، كما صدر في مدة علي باشا الجزائري تنبيه في أواخر رجب ١٢١٨هـ/ نوفمبر ١٨٠٤م إلى جميع الأهالي بتركيب الأبواب التي خلعتها الفرنسيون على العطف والأزقة والشوارع. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ١٩٩، ٢٠٧، ٢٢٤، ٢٢٥-٢٢٦، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٦، ٢٣٨-٢٣٩، ٢٦٦-٢٦٧؛ نقولا ترك: مذكرات، ص ١٢٢-١٢٣، ١٦٠؛ كلوت بيك: لحة، ج ١، ص ٥٢؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج ٢، ص ١٨١؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ١، ص ١٤٢؛ محمد حسام الدين إسماعيل: وجه مدينة القاهرة، ص ٢٩.

^٢ - تولى محمد علي على مصر في ١٣ صفر سنة ١٢٢٠هـ/ ١٣ مايو سنة ١٨٠٥م برأي المشايخ والقاضي والعامه. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ٣٢٩-٣٣٠؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ١، ص ٩-٢٥، ١٧٤-٣٣٥.

^٣ - ذكر الجبرتي أن المشايخ إجتمعوا في بيت القاضي وليس في منزل سعيد أغا وكيل دار السعادة لتولية محمد علي وخلع خورشيد باشا، ثم ذهبوا - بما فيهم سعيد أغا - إلى بيت محمد علي

وغيره، وجا له الأمر العالي بالتولية بعد ذلك^١، وها أنا أذكر إجمال شأنه في ذلك، ومنبه^٢ على بيان ما بدا على يديه في أقاليم القطر وما وراء تلك المسالك.

بالأزبكية ليخبروه بما حدث. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص ٣٢٩؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج١، ص ٣١٤، ٣١٧.

^١ - جاء الأمر العالي بالتولية في ١٣ ربيع ثان ١٢٢٠هـ/ ١١ يوليو ١٨٠٥م، إعتباراً من ٢٠ ربيع أول/ ١٨ يونيو. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص ٣٣٦؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص ١٩٥؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج١، ص ٣٢٣-٣٢٤.

^٢ - في نسخة [دار الكتب] "وأنبه".

المقالة الأولى

في بعض صفاته ومحاسن أخلاقه الجليلة الجميلة

فمنها أنه مع عظيم جلالته وكبير هيئته وشدة قوته، لطيف الألفاظ، فما كأنها إلا محاسن الحافظ، بحيث أنه لا يخاطب الكبير والصغير ولا الجليل ولا الحقير، إلا بالطف عبارة^١ وحسن إنسجام^٢، مع تنزه خطابه عن الصعوبة على الدوام، جميع من كلمه من الخواص والعوام، وبهذا السبب تنجذب له النفوس بالمحبة، ولا يدخرون في خدمته من الإجهاد وزن حبة، وهذا خلق شريف، ومعنى ملكي جميل ظريف، ويمثل هذا تفاضل الأشخاص، وتميز العوام الدون من أرباب العلى الخواص، (ص ٢٤) ومن أخلاقه العظيمة كثرة عفوه عن المذنبين، وتجاوزه عن إساءة^٣ المسيئين، ولو أردت عدد الأشخاص ممن حصل له ذلك لأجهدت الأنفاس، وملأت القرطاس، ولا سيما من كانوا متصفين بعداوتهم، ومتوسمين^٤ بمخالفته، فإنهم لما إلجأوا إليه ساعهم من زلاتهم، وستر عنهم عورات جنائياتهم، وأعطاهم الأموال الجزيلة، وفرض لهم العلفات

^١ - وردت هذه الكلمة في نسخة [دار الكتب] "العبارة".

^٢ - وردت هذه الكلمة في نسخة [دار الكتب] "الإنسجام".

^٣ - وردت هذه الكلمة في نسخة [دار الكتب] "إساءات".

^٤ - وردت هذه الكلمة في نسخة [دار الكتب] "متسمين".

الجليلة، وملكهم المنازل ورتب لهم لكل شخص خرجاً يكفيه^١ حتى صاروا له من أعظم المحبين، وفي تمني بقاء دولته من الراغبين، وعادوا شبه خدامه ومماليكه، وهكذا الكريم فإن الكرم يستديم عز مليكه.

^١ - شاهين بيك الألفي: من مماليك محمد بيك الألفي، هزم عدة تجاريد من الدولة للقضاء على الدولة في مدة حورشيد باشا محمد علي باشا وذلك في حياة أستاذه محمد بيك الألفي، ولما مات الألفي في ١٩ ذي القعدة ١٢٢١هـ/ ٢٨ يناير ١٨٠٧م أوصى قبل موته برئاسة شاهين علي أتباعه، فأرسل محمد علي إليه رسالة يدعو فيه للصلح ولكنه رفض لعدم تضمين الصلح لإبراهيم بيك وعثمان بيك حسن وباقي المماليك بالصعيد، فتوجه محمد علي خلف شاهين بيك ومماليكه الذين إتجهوا إلى الصعيد ووصل محمد علي إلى أسبوط وسيطر عليها، كما أرسل وفداً من المشايخ بعد وصول الحملة الإنجليزية لنجوها في عقد صلح مع المماليك لمنعهم من الاتصال بالإنجليز، وأرسل شاهين بيك في ١٥ ربيع أول سنة ١٢٢٢هـ/ ٢٢ يوليو ١٨٠٧م علي كاشف الألفي إلى محمد علي ليعتذر له عن تأخره في الهجاء لمحاربة الإنجليز - حسب شروط صلح أسبوط - وإنه على صلحه معه ومستعد للحضور والإقامة بالجيزة، ولكن الألفية لم يأتلفوا مع باقي المماليك هناك لاختلاف طباعهم عنهم، فاعتزل الألفية عن باقي الفرق، ودخل شاهين بيك في صلح أسبوط مع محمد علي، وذهب أمين بيك وأحمد بيك الألفيين إلى الإسكندرية لمحاربة الإنجليز بعد أن أيقنوا ضعف الإنجليز بعد هزيمتهم في موقعة الحماد، ووصل شاهين بيك إلى الجيزة في ٢٨ رمضان ١٢٢٢هـ/ ٢٩ نوفمبر ١٨٠٧م وأعطاه محمد علي قصر الجيزة وما حوله وما به من سلاح وذخيرة وأصلحه له، وأنعم عليه بكشوفية الفيوم وقرى من إقليم البهنسا وكشوفية الجيزة والبحيرة. وإن كان الرحيبي لم يذكر هنا أسماء الصناحق الذين حضروا مع شاهين بيك إلا أن الجبرتي ذكرهم وهم: أحمد بيك ونعمان بيك وحسين بيك ومراد بيك. الذين حضروا إلى القاهرة في ١٣ شوال سنة ١٢٢٢هـ/ ١٢ ديسمبر ١٨٠٧م، وأعطاه محمد علي لنعمان بيك بيت المشهدي بدراب الدليل بمنطقة الدرب الأحمر ليسكنه، وزوجه أيضاً من إحدى حواريه في ربيع الثاني سنة ١٢٢٣هـ/ يونيو ١٨٠٨م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ٣٥١، ٢٦٨، ج ٤، ص ١٦، ١٨، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٣٣، ٣٨، ٣٩-٤٠، ٤١، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧-٤٨، ٤٩-٥٠، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٧١، ٧٢-٧٤، ٧٩، ١١٦-١١٧،

ومن أخلاقه أنه يعطي العطاء الكثير الجزيل لمن صنع في خدمته الشيء التافه القليل، وهذا واقع منه كثيراً بحيث ربما لا يحصى ولا يدرك حصره بالإستقصاء، يعرف هذا أهل مصر جميعهم رفيعهم ووضيعهم.

ومن أخلاقه الشريفة الحسنة جعله مرتبات عديدة (ص ٢٥) كثيرة لأناس بالخمول والضعف شهيرة، يجعل للواحد منهم في كل شهر مرتباً من الدراهم والدنانير والقمح والأرز والسمن والسكر وغير ذلك مما هو معروف شهير، ولا سيما ما فرضه لخاصة العلماء ومعاشر السادة الفضلاء من المرتب السنوي من الدراهم والدنانير والكسوة الجليلة كما هو مشاهد معروف.

ومن أخلاقه الشريفة العظيمة حبه لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره للعلماء في كل من^١ الحوادث بالمبادرة لقراءة صحيح الإمام البخاري وحضه إياهم على ملازمة ذلك بالجامع الأزهر في قبلته القديمة، فإنه إشتهر إجابة الدعاء عندها^٢، وقل أن تخلو من ولي كبير من خاصة أهل الله يكون حذايها على الدوام، فيجتمع العلما والسادة الفضلاء من الجمع الكثير والجم الغفير مع^٣ أعيان طلبة العلم وطوائف

١٢٧، ١٣١؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج ٢، ص ٢١١؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ٢، ص ٦٢٤-٦٢٥، ٦٥٤، ٧٢٦، ج ٣، ص ٨٩٥، ١٢٥٣، ١٢٨٤.

^١ - مكتوب في الهامش تصحيح نصه "منهم صحح".

^٢ - القبلة القديمة: هي قبله الجامع الأزهر الفاطمي الذي أنشأه جوهر الصقلي سنة ٣٦١هـ/ ٩٧٠م، ثم عندما وسع الأمير عبد الرحمن كتنخدا الجامع من خلف القبلة سنة ١١٦٧هـ/ ١٧٥٣م، فأصبحت القبلة الأصلية للجامع هي القبلة القديمة. وكان من المعتاد قراءة البخاري للدعاء عند هذه القبلة. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٢، ص ١٧٧، ١٧٨، ج ٤، ص ٢٨٢، ٢٨٩؛

Doris Behrens-Abouseif, Islamic Architecture in Cairo, An Introduction, Cairo, 1989, 58-62.

^٣ - وردت في نسخة [دار الكتب] "من".

المدرسين في المذاهب، ويلازمون قراءة الصحيح أياماً متوالية حسب أمره الكريم قياماً بواجب إمتثال ذلك، إذ هو سبب في الخير الجسيم.

ومن أخلاقه الجليلة فرضه للفقراء جميعاً من العرب والأتراك وغيرهم من المساكين بمصر في كل جمعة وشهر (ص ٢٦) دراهم ودنانير جزيلة يأخذها مشايخهم ونقبائهم ويفرقونها عليهم أجمعين بحسب حالهم وإختلاف مراتبهم في الضعف والمسكنة^١، يأخذ كل شخص منهم قسمه ونصيبه فينفقه على نفسه وأهله، وهذه حالة عظيمة وخلق شريف ما سمعنا بمثله سابقاً أصلاً إلا ما كان من أمر السلطان أحمد بن طولون والسلطان أبي المسك كافور الإخشيدي والسلطان صلاح الدين يوسف عليهم الرحمة والرضوان، ومن عند صلاح الدين يوسف إلى هذا الوقت ما سمعنا بذلك لإحد من الملوك ولا من الأمراء والوزراء المصريين أبداً على أن حالهم في عطاياهم بالنسبة لأحوال حضرة أفندينا صاحب السعد والإقبال كالقطرة من البحر، فإن عطاياه لو جمعت وعدت وأحصيت لكانت أمراً مدهشاً، فسبحان من وفقه لذلك الخلق الجليل الجسيم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

ومن أخلاقه الجميلة ترتيبه في كل عام للأيتام الذين يقرؤون القرآن في المكاتب وللأولاد الصغار من أولاد الفقراء وذرياري الضعفاء الدراهم والدنانير، يفرقها عليهم جميعاً فيحصل (ص ٢٧) لهم الفرح الزايد ويعمهم السرور المتزايد، وكذلك يصنع مع فقهايهم وعرفائهم، فجزاه الله أفضل الجزاء، وأثابه أوفى نصيب من العز والتأييد، فإنه خلق جليل حسن قل من يتفطن لمثله.

^١ - تنظيمات المشايخ والنقباء: أنظر عن تنظيمات المشايخ والنقباء وأنواع الحرف المختلفة:

Gabriel Baer, *Egyptian Guilds in Modern Times*, Jerusalem, 1964; André Raymond, *Artisans et Commerçants au Caire*, Vol. II 503-726, 551-560.

ومن أخلاقه الغربية الحسنة الجميلة العظيمة أنه أبقاء الله متى بلغه ووصل إلى علمه شيء فيه بعض أضرار^١ على أحد من الرعية كائناً من كان، لا بد له جزماً من إزالته والتأمل^٢ فيما يصلحه ولا يرضي بإبقا ذلك قولاً واحداً، وهذا كما إتفق أن قضاة إسكندرية الذين يتولون بها الأحكام الشرعية كانوا يضرون أهل الثغر ضرراً بيناً، ويأخذون منهم أموالاً كثيرة بغير موجب ولا سبب يقضي بذلك بل بأدنى سبب واه، ويجعلون ذلك عوايدهم وقوانينهم التي لا تنقضي، حتى أن حضرته أيده الله بلغه ذلك من بعض أعيان أهل الثغر، فتفطن وفهم أن بعض الناس المسرفين على أنفسهم من أهل القطر أو من غيرهم يشترون ذلك القضا كل سنة من محمية إسلامبول، فيولونهم^٣ ذلك مع عدم المعرفة بهم فيحصل منهم ذلك الضرر، فلما بلغه ذلك الأمر صار في كل سنة (ص ٢٨) يدفع المرتب على ذلك من الدراهم والدنانير لمن هو في إسلامبول، وجعل الأمر في ذلك لأكبر علما الثغر يجيء برجل من المشهورين بالمعرفة والعفة ويجعله في مكان القاضي بالمحكمة وعنده جماعة الكتبة للوثائق والحجج، فيقضي بين الناس بغير مقابل ولا يدفع الرجل منهم في المحكمة درهماً واحداً إلا كتابة الورقة الوثيقة أو الحجة كقرش أو قرشين مثلاً، والقاضي له ما يكفيه يعطيه^٤ حضرة المحافظ بالثغر، فحصل بسبب ذلك النفع الكبير وارتفع عن أهل الثغر الإيذا الشهير، وصاروا

^١ - وردت في نسخة [دار الكتب] "الضرار".

^٢ - في نسخة [دار الكتب] مكتوب في الهامش الأسفل للصفحة ٢٢ "فيما" وتحتها "التعقيب بعد الورقة.."، وفي الهامش الأعلى للصفحة ٢٣ "طلب تعقيب هذه الصفحة بعد هذه الورقة بورقة".

^٣ - وردت في نسخة [دار الكتب] "فيولونهم".

^٤ - في نسخة [دار الكتب] نسي هنا الكاتب أن يتابع ترقيم الصفحات التي أصلها في الصفحة السابقة، على أنه أشار في الهامش الأسفل من الصفحة إلى تعقيب آخر "أرجع لهذه التعقيب بورقة واحدة" ليشير إلى نسيان آخر.

في راحة عظيمة وحالة حميدة كريمة، فأبقى الله أفندينا وأمه بعنايته أينما كان بجاء سيد ولد عدنان. وهكذا شأنه في كل أمر بلغه مثل ذلك أيده الله.

ومن أخلاقه الجليلة الجميلة التي تميز بها عن كثير من الأمرا والملوك والوزرا عدم محبته لسفك الدماء، فإنه لا يرغب في ذلك أصلاً، بل يعفو ويصفح^١، ولا يقع منه ذلك إلا لمن كان مستحقاً لذلك المعنى^٢، فإنه بعد التثبت عليه ومعرفة إستحقاقه للقتل وتحتّم ذلك على ذلك الشخص بأمر به حيثئذ فيكون في هذا الفعل (ص ٢٩) صلاح كبير، وما رأيناه ولا سمعنا عنه أنه فعل مثل هذا أبداً إلا من وجب عليه وتحتّم هذا الأمر، هذا مع كبير همته وعظيم صولته التي يخافها الأسود وتنجلي بها النوب السود، فسبحان من خصه بهذا الخلق العظيم.

ومن أخلاقه الشريفة التي إنفرد بها عدم تمكينه أحداً من الظلم للناس في مصر وسائر أقطارها، ولا يرضى لإحد من الحكام في مصر ولا في أقاليمها وبلادها وقراها

^١ - خرج على محمد علي بعض قادة الأرنؤط مثل ياسين بيك ورجب أغا، ودارت بينه وبينهم عدة معارك أسفرت عن القبض عليهم، وقد أراد محمد علي في البداية قتلهم، ولكنه تراجع بعد تشفع القادة مثل صالح أغا قوش، فأمر بنفي رجب أغا في ٢٢ رمضان سنة ١٢٢٢هـ/ ٢٣ نوفمبر ١٨٠٧م، وأمر بنفي ياسين بيك إلى قبرص في ١٨ ذي الحجة ١٢٢٢هـ/ ١٦ فبراير ١٨٠٨م، كما أمر بعزل محو بيك الكبير من كشوفية البحيرة في ٢٤ ذي القعدة ١٢٢٣هـ/ ١١ يناير ١٨٠٩م ونفاه إلى أبي قير، وطرد عمر بيك الأرنؤدي من مصر في صفر ١٢٢٤هـ/ مارس-أبريل ١٨٠٩م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٨، ١٨، ٤٥، ٥١-٥٢، ٥٦، ٥٨-٥٩، ٧١-٧٢، ٧٤-٧٦، ٨٣، ٩١، ٩٣؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج ٢، ص ٢١٥؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ٢، ص ٣٩١، ٦٢١، ٣٦٦، ٣٨٠-٣٨١، ج ٣، ص ١٠٥١، ١٠٦٤-١٠٦٦.

^٢ - بعد هزيمة قوات طوسون باشا في موقعة "الصفراء" سنة ١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م عاد بعض القواد الألبان إلى القاهرة وتآمروا على قتل محمد علي باشا، ولكنه علم بمؤامراتهم وطردهم من مصر، وقتل أحمد أغا لاط حاكم قنا وقوص الذي كان متآمراً مع الفارين للحضور إلى القاهرة لمساعدتهم. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١٤٢، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧-١٤٨، ١٧٢.

أن يظلم أحداً من التجار ولا من المزارعين^١ ولا من أحد الفلاحين، بحيث أنه إذا بلغه أن أحداً وقع منه ذلك عزله حالاً وعاقبه بما يراه لإمثاله، حتى أنه إتفق له كثيراً إرسال أناس يسألون سكان البلاد وأجناس الناس من الفلاحين هل ظلمكم الحاكم عليكم في شيء، وهل أخذ منكم مظلمة أو برطيلاً، أو أحد أتباعه، فيحصل بسبب ذلك للحاكم^٢ الخوف الشديد ويمتنعون من الظلم، فلا يأخذون شيئاً ولا يضررون أحداً، وجعل لكل حاكم ما يكفيه في كل شهر، فحصل بذلك العمار التام، وإرتاح الخاص والعام، وبطل ما كان يقع في الزمن السابق من حكام مصر والأمرا المتقدمين (ص ٣٠) الذين أخرجوا البلاد وأضروا بالعباد، حتى صارت الحكام الآن من أحسن الناس أخلاقاً وألطفهم سياسة، فالله يقي حضرته ويوفقه آمين، [إنه مجيب الدعاء]^٣.

ومن أخلاقه اللطيفة أنه لا يولي منصباً ولا حكماً لأحد في كل نوع من أنواع المصالح والخدم إلا بعد معرفة حاله وضبطه، وإنه يصلح لمثل هذا المنصب، وفي كل وقت يسأل عنه وعن أحواله وكيفية صنيعه، وقد حصل بسبب ذلك إنسجام حال المصالح وانتظام أمر أربابها وحكامها، وتسبب عن ذلك الراحة للرعية، بأخذ مرتبات أجرة خدمتهم بما فيه الكفاية له ولعياله من غير إسراف ولا إجحاف^٤.

^١ - في نسخة [دار الكتب] ما بين النجمتين وضعه مكان ص ٢٥ من المخطوط.

^٢ - في نسخة [دار الكتب] مكتوب في الهامش الأيسر "بيان: للحكام".

^٣ - ما بين الحاصرتين مكتوب بخط أصغر من الخط المعتاد في هذه الصفحة في نسخة [دار الكتب] فقط.

^٤ - من المتعارف عليه أن محمد علي كان يولي أقاربه ومن جاء من بلدته المناصب الهامة والأقاليم، حيث توافد على مصر عدداً كبيراً من أقاربه وأهل بلاده للإلتحاق بخدمته فولاهم شتى المناصب، وعلى سبيل المثال الإسكندرية عند إستلامها عقب خروج الحملة الإنجليزية، عين محمد بيك دبوس أغلي كتمخدا بيك حاكماً عليها في رجب ١٢٢٢هـ/سبتمبر ١٨٠٧م، وعين بعده خليل بيك ابن أخته في سنة ١٢٢٦هـ/١٨١٠م، كما كان محرم بيك زوج ابنة محمد علي حاكماً للجيزة في صفر ١٢٢٦هـ/فبراير ١٨١١م ثم للإسكندرية، وأحضر مصطفى بيك ابن أخته من الشرقية وعينه كبيراً

وإرتاحت مصر وأهلها وكثرت الأشياء من كل نوع، بحيث صار أهل مصر لا يحتاجون إلى قطر من سائر الأقطار، ولا إلى شيء يأتيهم من ذلك القطر، وصارت الأقطار هي التي تحتاج الآن إلى مصر، وهذا كله من عظيم همته وكبير تدبيره، سدد الله أموره وأعانه ووفقه وأيده بفضله آمين.

ومن أخلاقه الجليلة أنه في كل حين من الشهور يرسل للحكام ويأمرهم بالحضور بين يديه ويسألهم عن البلاد وأحوالها (ص ٣١) وعن المزارعين، ويشير عليهم بما فيه النفع للعامة والخاصة ويرجعون ممثلين لأوامره مبادرين إلى تنفيذ أغراضه وتشهيل ما يلزم من جباية الأموال بالرفق، حتى أن الحكام الآن صاروا معدودين من عقلا العالم ومن أرباب التدبير والمعرفة وحسن حالهم جداً ولزموا ما هم فيه، فلا يرى كبير في مصلحة من المصالح ولا [حاكم من الحكام]^١ إلا وهو على غاية الضبط وكمال العقل، ودوام الإلتفات لتدبير خدمته وإصلاح شأنه في إتقان مصلحته، لا ينفك عن ذلك في جميع^٢ حالاته فحصل بهذا^٣ إنسجام وإصلاح للناس وراحة كبيرة.

للدلالة وأرسله إلى الصعيد على رأس جيش في ١٨ صفر ١٢٢٦هـ/ ١٤ مارس ١٨١١م، الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ١٣٢، ج ٤، ص ٦٦، ٧٩، ١٣١، ١٣٢، ٢١١، ٢١٤؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ٢، ص ٣٥٦، ٥٨٥-٥٨٦، ٧٢٥-٧٢٦، ٧٧٩-٨٧٥، ج ٣، ص ٩٤٩، ١٣٣٠.

^١ - ما بين الحاصرتين هكذا في نسخة [سوهاج]، وفي نسخة [دار الكتب] "ولا حكم من الأحكام".

^٢ - في نسخة [دار الكتب] مكتوب في الهامش الأسفل لصفحة ٢٤ "التعقيب بعد الورقة المقابلة"، وفي صفحة ٢٥ أصلح الكاتب هنا رقم الصفحة وجعله ٢٣ وكتاب في الهامش الأعلى "أطلب تعقيب هذه الصفحة قبل هذه الورقة بورقة واحدة". وبذلك يكون الكاتب قد أصلح ما وقع فيه أو ما نسيه عند الكتابة وأشار إليه في الهامش الأسفل لصفحة ٢٢ وفي الهامش الأعلى لصفحة ٢٣. وقد أكمل النص من ص ٢٧.

^٣ - في نسخة [دار الكتب] "بذلك".

ومن أخلاقه الحسنة الجلييلة كرمه ووفاءه بالوعد، فمكارمه لا حصر لها، وآياده لا تستقصى آثارها، يعطي الألف والألوف الكثيرة المتزايدة في الكثرة التي لا تدرك لوزير ولا لأمير صغير ولا كبير، ومن أين لأحد أن يسمح ببعضها، فقد أعطى الخمسة آلاف دينار والعشرة آلاف والعشرين والثلاثين، وهكذا بما يزيد عن العدد ولا يعرف بالحد ولا ينظر إلى ذلك ولا يتفكر فيه ولا يمتن به، فسبحان (ص ٣٢) من أعطاه هذا الخلق العظيم الذي فاق به كعب بن مامة وحاتم الطائي ومعز بن زائدة والرشد وجعفر والفضل بن يحيى بن خالد، بل لم نسمع عن أحد من الملوك المصريين أنه كان يعطي مثل ذلك، فأدامه الله وأيده وأبقاه أمين.

ومن أخلاقه الجميلة إرجاعه الحكم في الأمور جليلها وحقيقتها إلى الشرع الشريف، حتى أن سائر أتباعه من الحكام في سائر الجهات من المدن والبلاد والقرى متى حضر عند أحدهم خصمان وطلب أحدهما الشرع لا يقدر واحد على إرجاعه عن ذلك بل يبادر ذلك الحاكم والأمير بإرساله مع خصمه للشرع الشريف وبصحبته أحد من أطرافه يشاهد الأمر ثم يبلغه بما فعله القاضي وحكم به، فينفذ ذلك الأمير ما حكم به الشرع الشريف، وهذا أمر مستفيض لا يجهله أحد، بحيث أن أكبر الأمراء إذا وجد له خصم ولو من أحقر الناس وطلب التوجه للشرع لا يمكن لإبطال كلامه أبداً، بل يذهب الخصم ويصير الأمر معلقاً بعنق القاضي، فما حكم به هو النافذ الماضي، وكثيراً ما يقع إضطراب (ص ٣٣) في أمر من الأمور ويرسل حضرة كتخداي بيك^٢

^١ - في نسخة [دار الكتب] "حاتماً".

^٢ - كتخدا بيك: حسب التقاليد المرعية عين محمد علي كتخدا له السلطة في أن يمثل محمد علي في كل الأمور الهامة، وهذا الضابط كان يطلق عليه "كتخدا بيك" أي كتخدا الباشا. وقد ذكر الجبرتي من هؤلاء محمد أغا (عزل في صفر ١٢٢١هـ/أبريل ١٨٠٦م)، محمد بيك دبوس أغلي (صفر ١٢٢١-محرم ١٢٣١هـ/أبريل ١٨٠٦-ديسمبر ١٨١٥م)، محمد أغا لاطوغلي (محرم ١٢٣١-٢٠ ربيع ثان ١٢٣٤هـ/ديسمبر ١٨١٥-١٦ فبراير ١٨١٩م)، ومحمود بيك (٢٠ ربيع

إلى العلما وأعيان مشايخ الإسلام فيحضرون عنده ويحضر القاضي وينظر العلما في ذلك ويخاطبون القاضي بالحكم الشرعي فيحكم به، وهذا لغرض الإحتياط في الأشياء والتثبت ليكونوا في ذلك على بصيرة، وهكذا الشأن في كثير من القضايا، وربما مكثوا الأيام العديدة يرددون النظر ويدققون في مراجعة كتب المذاهب ليتم الأمر على غاية من الصحة والإتقان والإحكام والضبط، وهذا كما ترى أكبر دليل على إنصاف حضرة الوزير وإنقياده لآراء العلما، فهو خلق عظيم جليل ينبغي لكل صدر وأمير أن يكون شأنه ذلك، فأبقاه الله وأعانه ووفقه لسبيل الخيرات.

ثان ١٢٣٤- رجب ١٢٤١هـ/ ١٦ فبراير ١٨١٩- يناير ١٨٢٧م)، وقوله لي شريف باشا الكبير (رمضان ١٢٤٣- ١١ ربيع ثان ١٢٤٨هـ/ أبريل ١٨٢٨- ٧ سبتمبر ١٨٣٢م) حين عين حكاماً على جميع ولايات الشام (إيالة عربستان) وعين موره لي سامي بيك في ٢٧ ربيع ثان/ ٢٣ سبتمبر من نفس العام، عباس باشا حلمي بن أحمد طوسون باشا ابن محمد علي عند سفر جده الى السودان ١ جماد أول ١٢٥٤هـ/ ٢٣ يوليو ١٨٣٨م حتى تولى الحكم ابراهيم باشا في حياته محمد علي في جماد ثان ١٢٦٥هـ/ أبريل سنة ١٨٤٨م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٥، ٧، ٣٠١، ٣٠٧؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٢٠١، ٢٧٧، ٣٣٤، ٤٠٤، ٤٠٦، ٤٠٨، ٤٠٩، ٥٩١، ج٣، مج١، ص٥-٧؛ ناهد عبد العال محمد السويفي: ديوان الخديوي في عهد عباس الأول، دراسة وثائقية أرشيفية للوثائق والسجلات العربية في الفترة من ٢٧ ذي الحجة ١٢٦٤هـ - ١٨ شوال ١٢٧٠هـ، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم المكتبات والوثائق، كلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٨٨، ص١٢.

المقالة الثانية

في ذكر إخراجهم للمفسدين في مصر وأقطارها، وإزالة شوكة الضالين من مصر ومن أرض الحرمين وأقطار الحجاز من الوهابية وغيرهم، وفي ذكر قمع المعتدين من الفلاحين والعرب أجمعين بقطر مصر أيضاً

وفيها ثلاثة فصول، **الفصل الأول** في إخراج الممالك (ص ٣٤) وأمر المرادية والإبراهيمية وأتباعهم من مصر وأقطارها بالكلية، **الفصل الثاني** في إزالة شوكة الضالين الخارجين من الوهابية ورفع ضررهم عن أهل الحرمين الشريفين وما يلازم ذلك، **الفصل الثالث** في قمع لطوائف المفسدين من الفلاحين والعرب من قطر مصر، وبيان ذلك بالطريق الواضح المختصر الوافي في البيان الكافي التخليص والانتقان.

الفصل الأول

كثير الجور والفجور من أتباع إبراهيم بيك و مراد بيك سلب الله عليهم
لما الفرنساوية فأخذوا مصر منهم عنوة بالحرب وطردهم إلى جهتين،
 فأبراهيم بيك وجماعته ومن تبعه من خشداشيته وطوايف أتباعهم فروا إلى قطر الشام
 بأهلهم وحریمهم وأولادهم، وما زالوا به حتى فتحت مصر على يد حضرة الوزير
 الكبير يوسف باشا وأعانه حضرة سيدنا حسين باشا قابدان باشا كان عليه الرحمة
 والرضوان.

وأما مراد بيك وأتباعه وبعض خشداشيته وطوايف أتباعهم فروا^١ إلى الصعيد
 (ص ٣٥) وأقاموا بنواحيه، ووقع لهم مع الفرنسيين حروب عديدة، إلا أن الفرنساوية
 لم يتمكنوا من إزالته عن الصعيد وبلاده، وكانت غاية أمرهم معه المصالحة، على أنه

^١ - في نسخة [دار الكتب] "ففروا".

يبقى هو وجماعته في نحو النصف من بلاد الصَّعيد الجوانية والوسطانية^١، ولم يزالوا على ذلك حتى توفاه الله ودفن بأرض الصعيد^٢ رحمه الله [تعالى]^٣.

ثم لما تولى حضرة صاحب السعادة وزارة مِصرَ وأقطارها وجلس في القلعة المعروفة بقلعة الجبل وتارة يجلس بمنزله سراية^٤ اليزبكية^٥، كان إذ ذاك بمصر بعض

^١ - هرب مراد بيك إلى الصعيد بعد هزيمة المماليك أمام الحملة الفرنسية في ٧ صفر ١٢١٢هـ/ ٢١ يوليو ١٧٩٨م، ودارت بينه وبينهم عدة مواقع لإخضاعه لسلطة الفرنسيين، ولكن هذا لم يحدث إلا على يد الجنرال كليبر الذي وقع معه إتفاقية صداقة - بتدخل من زوجة مراد بيك التي كانت مقيمة بالقاهرة- في ١٠ ذي القعدة ١٢١٤هـ/ ٥ ابريل ١٨٠٠م بقصر مراد بيك بجزيرة الذهب جنوب القاهرة، منح مراد بيك بمقتضاها إقليم الصعيد وعاصمته جرجا وحتى القصير على البحر الأحمر، بداية من بلصفورة بمديرية جرجا شمالاً وحتى أسوان جنوباً، على أن يدفع للفرنسيين الضرائب المعتادة، ذلك في حالة وجود الفرنسيين بمصر، وفي حالة الصلح مع الدولة العثمانية فيسلم الفرنسيون مصر لمراد بيك، وأن يحمي الفرنسيين مراد من أي عدوان، وأن يقوم مراد بالمثل. الجبرتي: مظهر التقديس، ص ٢٥-٤٧؛ الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ٨؛ نقولا ترك: مذكرات، ص ٩٢-٩٣؛ شكري: الحملة الفرنسية، ص ٢٠٧-٢١١، ٢٥٥.

^٢ - توفي مراد بيك في ذي الحجة سنة ١٢١٥هـ/ مايو ١٨٠١م بالطاعون بمدينة سوهاج ودفن بها في جامع العارف. وقد أزيل مدفنه عند تجديد الجامع في الفترة الأخيرة. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ١٦٧؛ نقولا ترك: مذكرات، ص ١١٥.

^٣ - هذه الكلمة مذكورة في نسخة [دار الكتب] فقط.

^٤ - سراي: السراية أو السرايا أو السراي تعني في الفارسية بلاط أو بيت أو قصر الملك، والدار الكبيرة العالية، وتعني في التركية البيت. أدى شير: الألفاظ الفارسية المعربة، القاهرة سنة ١٩٨٨، ص ٩١؛ طوبيا العنيسي: تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية، القاهرة سنة ١٩٦٤، ص ٣٤.

^٥ - سراي الأزبكية: كانت هذه السراي الى الغرب من بركة الأزبكية، وكانت في الأصل قصراً أنشأه السيد ابراهيم ابن السيد سعودي اسكندر من فقهاء الحنفية بخط الساكت فيما بينه وبين قنطرة الدكة وجعل في أسفله قناطر وبوائك من ناحية البركة، وجعلها لنزهة عامة الناس، وكان بها مقاهي وأماكن للغناء وتقف عندها مراكب النزهة، ثم تداولتها الأيدي وسدت بوائكها في عهد

علي بيك الكبير ومنع دخول الناس إليها لاجتماع أهل الفسق بها، ثم اشتراها الأمير أحمد أغا شويكار، ثم اشتراها الأمير محمد بك الألفي سنة ١٢١١هـ/١٧٩٦-١٧٩٧م وهدمها وبنها من حديد واهتم بتحصينها من الخارج، وبنى بدائر الحوش طباقاً لسكن الممالك من طابق واحد، وأنشأ خلفه بستاناً من الجهة البحرية، وانتهى البناء وأقام به في آخر شعبان ١٢١٢هـ/فبراير ١٧٩٨م، وحينما جاءت الحملة الفرنسية سكن به نابليون بونابرت في ١١ صفر ١٢١٣هـ/٢٥ يوليو ١٧٩٨م وجدده، ثم أقام به الجنرال كليبر وقتل به، ثم سكنه الجنرال مينو وغير معالمة وأدخل فيه مسجداً وبنى عليه قبة، وبعد خروج الحملة الفرنسية سكنه محمد باشا، واحترق في فتنة الجنود الأرمن سنة ١٢١٨هـ/١٨٠٣م، ثم تولى محمد علي حكم مصر وسكن به وجدده وروى جانباً من بركة الأزبكية بالأثرية التي نتجت عن التجديد ردماً غير معتدل حتى أصبحت عبارة عن كيمان، وأصبح أمام السراي ميداناً فسيحاً من أكبر ميادين القاهرة في هذا الوقت، وكان محمد علي يقيم به في معظم الأحيان الا عندما يثور الجنود عليه فينتقل إلى القلعة، وقد احترقت هذه السراي في ١٩ ربيع أول ١٢٥٦هـ/٢٢ مايو ١٨٤٠م ثم جدها محمد علي وأعطاها لابنته زينب بعد ذلك حين زواجها من كامل باشا في ٢٧ صفر ١٢٦٢هـ/٢٤ فبراير ١٨٤٦م. الجبرتي: مظهر التقديس، ص ٤٥-٤٦؛ الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ٢٤٣-٢٤٤، ج ٤، ص ٢٧-٢٨، ٣٠١، كلوت بيك: لمحمة، ج ٢، ص ٥٠؛ عبد الحميد نافع: ذيل على المقريري، ورقة ٥٤؛ علي مبارك: الخطط، ج ٣، ص ٥٨، ٦١، ١٠٢، ١٠٣، ج ٨، ص ٩٢، ج ١١، ص ٢٨، ٢٩، ج ١٨، ص ١١٨؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج ٢، ص ٥٤٣؛ حسن عبد الوهاب: العمارة في عصر محمد علي باشا، مجلة العمارة المجلد الثالث سنة ١٩٤١، العدد ٣-٤، ص ٢٠؛ شكري: الحملة الفرنسية، ص ١٤٠؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ٣، ص ١٠٥٥-١٠٥٨؛

G. Wiet, Mohammed Ali et les Beaux-Arts, Le Caire, 223-227; Janet L. Abu-Lughod, Cairo, 1001 Years of the City Victorious, New Jersey, 1971, 90; Doris Behrens-Abouseif, Azbakiyya And Its Environs: From Azbak to Isma'il, 1476-1879, Le Caire, 1985, 82-83.

أجناد من طوايف الإبراهيمية والمرادية، فقد أمنهم ومكنوا تحت أمانه في منازلهم مكرمين^١، فأغراهم الشيطان على الخيانة والخروج سراً والفرار إلى صناعقتهم وجماعات أمرائهم^٢، وكانوا حينئذ مطرودين بوادي الصعيد، وقد عين لهم حضرة أفندينا صاحب السعادة جهات يمتكون بها ويعيشون بما يرد لهم من خراج أرضها من المال والغلال^٣، فلما إستشعر حضرته بخروج الفارين من غير سبب موجب لفرارهم مع صنعه معهم أنواع الإكرام حصل له منهم تكدر وعرف أنهم لا خير فيهم، فإحترز من الجميع، ثم لما إنضموا (ص ٣٦) مع بعضهم جميعاً حدثتهم أنفسهم المغرورة بأنهم

^١ - هم شاهين بيك الألفي وثمان بيك. راجع الهامش رقم ٥٦. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٧٢-٧٣، ٨٩، ١٣١؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج ٢، ص ٢١١؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ٣، ص ١٢٥٥-١٢٥٦.

^٢ - هم إبراهيم بيك وثمان بيك الذين كانوا بالصعيد في ذلك الوقت. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٧٢، ٧٤، ١٠١.

^٣ - إستطاع محمد علي الإنتصار على المماليك بعد عدة معارك دارت بينه وبينهم عند المنيا ومنفلوط ولاحقهم جنوباً حتى أسبوط التي أخذها منهم سنة ١٢٢٠هـ/١٨٠٧م، غير أنه عقد معهم صلحاً بتدخل من القنصل الفرنسي بالقاهرة وتدخل مشايخ الأزهر، وكانت تلك المعارك لإرجاع المماليك جنوباً إلى جرجا في المنطقة التي حددتها الدولة، ومن جانبه كان محمد علي يريد إخضاع المماليك وإقرارهم بالقاهرة تحت إمرته يعطيهم المرتبات التي تكفيهم ويكلفهم بما يراه من أعمال في خدمة الدولة. ثم عقد الصلح مع باقي الأمراء في أسبوط في ٢٧ رمضان ١٢٢٤هـ/٥ نوفمبر ١٨٠٩م بعد عدة معارك على أن يدفعوا الضرائب والفرض كسائر الأهالي وأن يعودوا الى القاهرة ويتركوا الصعيد، ولكن هذا الصلح لم يتم بينهم لعدم الثقة في محمد علي من جهة، ولحلهم الأمراء بالعودة الى سابق عهدهم في السيطرة على مصر كما كانوا قبل مجيء الحملة الفرنسية، من جهة أخرى أيضاً لتنافسهم على الرئاسة فيما بينهم كما كان عهدهم على الدوام مما أفقدهم روح اليد الواحدة أمام محمد علي وعجل بالقضاء عليهم. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٤٥، ٤٦، ٤٨، ٤٩-٥٠، ٨٩-٩٠، ٩٩، ١٠١؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ٢، ص ٦٢٤-٦٥٤، ٦٣٢.

يحاربون حضرته، ويظنون أنهم يدخلون مصر ويأخذونها كما سبق لهم بعد موت طاهر باشا^١ رحمه الله، فإستعد لهم حضرة الصدر العلي وخرج إليهم بجيله ورجله،

^١ - طاهر باشا: قائد القوات الألبانية في مصر، إنخرط في صراع على النفوذ ضد خسرو باشا الحاكم العثماني لمصر في ذلك الوقت، وكان عند تجريده لحرب المماليك يخرج إلى الجيزة فقط ويقول "أنا أغازي بأناس مسلمين"، وقد خلف طاهر باشا خسرو باشا في ١٤ محرم ١٢١٨هـ/٦ مايو ١٨٠٣م، حيث إجتمع القاضي والمشايخ وقرروه قائمقام حتى يأتي فرمان ولايته، وبدأ بالتفاوض مع أمراء المماليك بالصعيد عن طريق بعض المشايخ وعلى رأسهم الشيخ سليمان الميومي، وقدم الأمراء إلى الجيزة في ١ صفر ١٢١٨هـ/٢٢ مايو ١٨٠٣م، وقام بإرسال قوة من الأرئود إلى رشيد لحمايتها من جنود خسرو باشا التي عسكرت في الرحمانية ومنوف والمنصورة لقطع طرق المواصلات إلى القاهرة، ولم يتفق معه أحمد خورشيد باشا حاكم الإسكندرية بالإتفاق مع القناصل الأجانب على قطع المواصلات مع القاهرة وحطم الجسور المؤدية إلى الإسكندرية وحصنها حتى لا ينتهز المماليك الفرصة ويهاجمونها، وإنخرط في صراع آخر ضد مرؤسه محمد علي، كما واجه الأزمة المالية التي كانت متمثلة في عدم وجود أموال لتسديد رواتب الجنود، مما دعاه للصدام مع كل طوائف البلاد -من تجار ونصارى ويهود وأجناد- لجمع المال، وقد إنتهى الأمر بمصرعه على يدي الإنكشارية أتباع أحمد باشا، وذلك في ٢ صفر سنة ١٢١٨هـ/٢٣ مايو ١٨٠٣م، لعدم إعطائهم رواتبهم المتأخرة مثل الأرئود ولتعالى الأرئود عليهم، وكان قد جاء في صفر خطاب من الدولة بتولية محمد باشا خسرو على سالونيك وأحمد باشا قائمقام وأن يظل طاهر باشا للمحافظة، ويذكر الجبرتي أن هذا الأمر لإن طاهر باشا من الأرئود وليس له الحق في الحصول على ثلاث أطواخ التي هي رتبة الوالي، وفي ٢٠ ربيع أول ١٢١٨هـ/١٠ يوليو ١٨٠٣م ورد فرمان بتوجهه إلى الحجاز مع أحمد باشا لحرب الوهابيين. كان عباً للصوفية وسكن بجرعه في خلوة بالخانقاة الشيخونية (أثر رقم ١٥٢) وعقد حلقات الذكر مع الشيخ عبد الله الكردي، ودفن في قبة ببركة الفيل (أثر رقم ٢٣٢). الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٢٤٦-٢٤٨، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٤، ٢٥٨؛ نقولا ترك: مذكرات، ص١٢٢-١٣٢؛ كلوت بيك: لحة، ج١، ص٥٦؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج١، ص٦، ١٨، ٢٠، ٢٤-٢٥، ٥٢، ١١٦، ١٧٩، ١٨١-١٩١، ١٩٤.

وحاربهم وهزمهم، فطلبوا منه الصلح، فرضى عنهم وأعادهم إلى الصعيد، لكنهم في بلاد أقل من الأولى، فمكثوا فيها مدة قليلة ورجعوا للنقض وحدثتهم أنفسهم بالحال، فحاربهم ثانياً وثالثاً، وهو يصبر عنهم ويعفو عما صدر منهم^١ من صنع القبيح، فحضر إلى مصر شاهين بيك الألفي^٢ وصناجقه وأتباعه، وكان مقدار جمعه نحو ثلثهم أو أزيد بما يقرب من نصفهم، وإستجار بحضرة الصدر العلي والفخر الجلي، وطلب منه الآمان له ولإتباعه جميعاً، وذلك في شوال سنة إثنين وعشرين ومائتين وألف^٣، فقبله حضرة الصدر العلي وأعطاه أماناً كافياً، وأسكنه بمدينة الجيزة وأعطاه إقليمها إيراداً له، وأنعم عليه وعلى سائر صناجقه الإنعام الزائد، وأعطاهم العطايا الجزيلة، وكانت لهم حرمة ومكانة، وصار لهم عنده منزلة عظيمة، وكان صناجقه لهم بيوت بمصر أيضاً، فيدخلون مصر (ص ٣٧) ويمكثون في بيوتهم عند حرمهم مع كمال الأمن والعز ويقون أياماً على ذلك ثم يتوجهون للجيزة أياماً ثم يعودون لمنازلهم وهكذا شأنهم دائماً، وكان الواحد منهم بوقاحة وجهه وقلة إستحيائه يتوجه للقلعة لحضرة الصدر العلي ويطلب منه العطايا والبلاد ويقضون أغراضاً جلية، وكثر ذلك منهم جداً وصاروا لا يقنعون بالكثير ويوالون الطلب الحثيث مع الرخاصة والغفلة والبلادة، وهو أبقاه الله صابر على ذلك متحمل لإنقلاهم ولا يرضى لنفسه الكرامة أن يتعرض لهم بنوع من الإيذاء ولا يسمعهم في وقت من الأوقات كلاماً يكرهونه أبداً، وكثر

^١ - كانت الإنتصارات والهزائم متبادلة بين محمد علي وأمراء المماليك، وكانت الخلافات بين أمراء المماليك وطوائفهم هي الفيصل في كل مرة ينتصر فيها محمد علي أو يعقد صلحاً معهم، كما كان لتدخل كل من إنجلترا وفرنسا الأثر الكبير في عقد مثل هذه المصالحات أو تحديد أماكن لإقامتهم حتى يحولوا بين الطرفين لتجنب إتساع الحرب الأهلية التي تؤثر على إستقرار مصر. كلوت بيك: لحة، ج ١، ص ٦٢-٦٤؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ٢، ص ٣.

^٢ - شاهين بيك الألفي: راجع ص ٨٤، هامش رقم ١.

^٣ - حضر في ٢٨ رمضان ١٢٢٢هـ/ ٢٩ نوفمبر ١٨٠٧م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٧٢.

منهم الفجور ببعض الجهات في مدينة مصر، حتى أن أحدهم تزوج امرأة من النساء المخدرات فقام لها بالليل وخنقها، يريد بذلك أخذ أموالها وأملاكها، وكانت امرأة من الخيرات الطيبات^١، فخافت طوايف النساء ووقع لهم الهول من ذلك، فإقتص منه حضرة الصدر العلي وقتله، وصارت النساء وأهل مصر يلعنونه، وهم على ما هم عليه من قلة الحيا لا يبالون بكبيرة ولا صغيرة، حتى أن معظم (ص ٣٨) الناس صار يتعجب من حضرة الصدر العلي ومن عدم إضراره لهم^٢.

أما شاهين بيك فما كأنه إلا صار يشابه أحد أولاده، وزادت عليه النعم وكثر تحوله بها، وصار في رفاهية كبيرة وأعطاه حضرة الصدر العلي الأموال الجليلة وزوجه من جواره من سرايته^٣، فصار شاهين بيك فرعون وقته وله تدلل على حضرة الصدر

^١ - أنظر عن هذه الحادثة الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٤.

^٢ - لم يكن محمد علي صابراً على أعمال الممالك بل كان يتحين الفرص للقضاء عليهم دفعة واحدة، لأنهم يمثلون له عنصر عدم الاستقرار في الحكم بإتصافهم المستمر بالدولة العثمانية وإنجلترا وفرنسا وروسيا لإرجاع دولتهم وعزل محمد علي، وفوق كل ذلك كانت الدولة العثمانية بعد إخراج الحملة الفرنسية من مصر ترغب في القضاء على الممالك وعودة مصر سيادتها، وكان محمد علي يتصرف على هذا الأساس في معظم الأحيان، حتى أنه إستأذن الدولة عند قيامه بمذبحة الممالك في القلعة، فقام بارسال عدة خطابات الى الصدر الأعظم في ١٩ ربيع ثان سنة ١٢٢٥هـ/ ٢٤ مايو ١٨١٠م، وفي رجب ١٢٢٥هـ/ أغسطس ١٨١٠م، وكذلك في أوائل ذي الحجة ١٢٢٥هـ/ ٢٨ ديسمبر ١٨١٠م يبلغه فيها بقراره بالتخلص نهائياً من الممالك لعدم انقيادهم لأوامره وتعطيلهم إياه في ارسال حملة الحجاز لحرب الوهابيين. كلوت بيك: لحة، ج ١، ص ٦٢؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج ٢، ص ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٦؛ شكرى: مصر في مطلع القرن ١٩ ج ٢، ص ٣٩١، ٤٣٩-٤٤٦، ٦٢٤-٦٣٣، ٦٩٠، ٧٦٦-٧٧٩، ٨٠٤، ٨٠٥، ج ٣، ص ٩٤١، ٩٥٩، ٩٩٩، ١٠٠٧، ١٠١٦، ١٠٧٦، ١١٠٩، ١٢٥٩-١٢٧٣، ١٢٧٩-١٣٠٧، ١٣١١، ١٣٢٦، ١٣٢٧.

^٣ - جارية شاهين بيك: إختارت زوجة محمد علي إحدى سراريها وزوجوها لشاهين بيك في ربيع ثان سنة ١٢٢٣هـ/ مايو ١٨٠٨م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٨٩.

العلي، وهو أبقاه الله يصنع معه ومع جميع أتباعه الصنع الجميل، حتى ظنّ أهل مصر أنه صار من ممالكه المعظمين، وإنه لا يمكنه البعد عن حضرة أفندينا أبداً، لما هو فيه من الخير والنعم الكبيرة^١، فاتفق على حين غفلة أنه قدم إلى جهة الجيزة طوايف الغز الإبراهيمية والمرادية جميعاً بخيلهم ورجلهم ونقضوا ما كانوا عليه من العهد^٢، فظنّ أهل مصر أن شاهين بيك هو وجماعته أوّل من يحاربهم، بل ظنوا أنه يتفرد بذلك، فبينما أهل مصر على هذا الظن إذ بلغهم أن حضرة صاحب السعادة أبقاه الله أرسل حسن باشا طاهر^٣ رحمه الله رحمة واسعة إلى شاهين بيك ينظر حاله وكيف يكون

^١ - ذكر الجبرتي أن محمد علي باشا أنفق علي شاهين بيك "الوفاء من الأموال، ذهبت جميعها في الفارغ البطال"، وخرج شاهين بيك عليه. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١١٥.

^٢ - أتى هؤلاء الممالك حسب صلح أسيوط بينهم وبين محمد علي وليس كما يذكر المؤلف هنا، وقد ألح محمد علي عليهم في ذلك حتى ينتهز فرصة تجمعهم ويتخلص منهم دفعة واحدة، لكن عدم الثقة المتوافر بينه وبينهم جعلهم يعودون إلى الصعيد مرة أخرى. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٤٨، ٤٩-٥٠، ٥٢، ١١٢-١١٤؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ٣، ص ١٢٨٠.

^٣ - حسن باشا طاهر: قائد الجند الألبان في مصر، شقيق طاهر باشا الأرناؤطي وعابدين بيك، ويقال أنه ابن أخت محمد علي، أرسله أخاه طاهر باشا على رأس جيش لمطاردة خسرو باشا سنة ١٢١٨هـ/١٨٠٣م، ثم أتى بعده عثمان بيك البرديسي ومحمد علي بجيش آخر وهزموا خسرو باشا ولكنه استطاع التحصن بقلعة دمياط، ثم سرعاً ما هزم وقبضوا عليه وأرسلوه إلى القاهرة، كما اشترك مع الممالك في النزاع مع علي باشا الجزائري سنة ١٢١٨هـ/١٨٠٤م، وبدأ الفتن ضد عثمان بيك البرديسي لطلب علوفة الأرناؤد، منح في ١٩ محرم سنة ١٢١٩هـ/١ مايو ١٨٠٤م رتبة الباشوية ذات طوخين عند تولية خورشيد باشا، ثم ولاه خورشيد باشا على الغربية في ربيع أول سنة ١٢١٩هـ/يونيو ١٨٠٤م، وخرج مع محمد علي لمحاربة الممالك لفك الحصار عن القاهرة، كما خرج على خورشيد باشا مع محمد علي، ومنح طوخ آخر في ٤ شعبان ١٢١٩هـ/٨ نوفمبر ١٨٠٥م فأصبح باشا مكان أخيه الراحل، وكان من أقوى المنافسين لمحمد علي ولكن محمد علي عرف كيف يحد من أطماعه ويأخذه إلى جانبه ليصبح من أكبر وأهم مساعديه. تخرج لمحاربة الممالك بالصعيد، ثم تعين محافظاً للجيزة في ٨ محرم ١٢٢١هـ/٢٨ مارس ١٨٠٦م، أخرجه محمد

منه، وإنه توجه مع بعض أتباعه (ص ٣٩) نحو عشرين نفساً وعدوا من البحر حتى دخلوا قصر الجزيرة عند شاهين بيك وعند أتباعه وصناجقه جميعاً، ووجدوا عنده سليم بيك المخرجي^١ وهو جالس بوجهه الكالح يضحك مع شاهين بيك، فوقع الخطاب بين

علي في ذي الحجة ١٢٣٥هـ/سبتمبر ١٨٢٠م مع جماعة من الأحناف إلى الصعيد للتنقيب عن المعادن وعن الآثار، وكان ناظراً لجمرك بولاق، وبنى بيت له بالأزبكية من جهة جامع أزبك اليوسفي (عند ميدان الأوبرا الآن) على حساب الحكومة وحصنه كالقلعة، توفى بالإسكندرية في جماد ثان سنة ١٢٣٣هـ/مايو ١٨١٨م ودفن في مدفنه الذي بناه مكان بيت الزعفراني بجوار جامع السيدة زينب، وتولى ابنه مناصبه. وقد نقل هذا المدفن منذ حوالي ٣٠ سنة عند توسعة جامع السيدة زينب الى الساحة الغربية لمسجده ببركة الفيل. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ١٣٠، ٢٤٦، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٦٩، ٢٩٢، ٣١٣، ج ٤، ص ٣، ٢٩٦، ٣١١-٣١٢؛ علي مبارك: الخطط، ج ١٤، ص ٧٧؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ١، ص ١٨٦، ١٩٣، ٢١٦، ٢٥٨، ٢٨٢-٢٨٥، ٢٩٢، ٢٩٧، ٢٩٩-٣٣٥، ج ٢، ص ٢٦٢-٢٦٣؛ محمود محمد فتحي الألفي: العمارة الاسلامية في مصر خلال القرن التاسع عشر، أسرة محمد علي بالقاهرة ١٨٠٥-١٨٩٩م، رسالة دكتوراة غير منشورة، قسم العمارة، كلية الهندسة، جامعة القاهرة سنة ١٩٨٥، ص ٢٩٨-٣٠٢.

^١ - سليم بيك المخرجي: هذا يخالف ما أورده الجبرتي عن هذه الحادثة، فقد ذكر أن حسن باشا طاهر ذهب إلى خيام إبراهيم بيك الكبير وباقي الأمراء، وليس إلى شاهين بيك، وأن الذي كان بقصر الألفي عبد الرحمن بيك تابع عثمان بيك المرادي المعروف بالطنجري، وكان الألفي مشغولاً بإرسال حريمه ومتاعه إلى الفيوم بعد أن قابل محمد علي في صباح ذلك اليوم بقصر شبرا، فإصطحبه الطنجري إلى باقي الأمراء للخروج على محمد علي. كما ذكر الجبرتي أيضاً أن محمد علي خلع على سليم بيك المخرجي في ٢٠ ربيع ثان سنة ١٢٢٣هـ/١٥ يونيو ١٨٠٨م بعد موت شاهين بيك المرادي، وعينه قائداً لممالك مراد بيك. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٧٨، ٧٩، ٨٩، ١١٢-١١٣؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ٣، ص ١٢٨٢-١٢٨٣.

حسن باشا وشاهين بيك والخرجي^١، فقال له الخرجي إننا جينا جميعاً هنا لتأخذ شاهين بيك وصناجقه، لأنه منا ونحن منه، ولا ينفك عنا أبداً، فوافقه على ذلك الهذيان شاهين بيك، فلما نظر حضرة حسن باشا لذلك الأمر وتحقق أنه وقعت الخيانة ونقض العهود والمواثيق من شاهين بيك، تعجب غاية العجب، وقام راجعاً إلى مصر وأخبر حضرة صاحب السعادة بجميع ما شاهده، فلما بلغ ذلك أهل مصر صاروا يتعجبون غاية العجب، ويتقنوا أن أولئك الطوائف مخذولون بسبب كفرانهم بالنعم التي كانوا عليها، وعدم مراعاتهم لحقوق حضرة الوزير وما فعله معهم من الجميل، فنقضوا ذلك كله، وصار شاهين بيك مضافاً مع باقي الغز^٢ الخارجين المغرورين، وخرج من الجيزة ومكث مع رفقته أياماً قليلة، وحضرة صاحب السعادة أيده الله^٣ لم يستفزه ذلك (ص ٤٠) الأمر، بل بادر في هذه المرة وصمم على حربهم جميعاً وإخراجهم من القطر

^١ - أورد الجبرتي رواية تختلف بعض الشيء عن رواية الرجبي، فقد ذكر أن هذا الخطاب كان بين حسن باشا طاهر وبين إبراهيم بيك الكبير حين حضر إبراهيم بك الكبير إلى الجيزة في ١١ ربيع ثان ١٢٢٥هـ/ ١٦ مايو ١٨١٠م مع عدد من الأمراء تنفيذاً لصلح أسير، وذهب حسن باشا وصالح أغا قوج اليهم لاستقبالهم، ولكن إبراهيم بك غضب من عدم إطلاق المدافع تحية لهم، وعدم استقبال محمد علي لهم بنفسه، وعدد إبراهيم بك لهما مكائد محمد علي مع العساكر والباشاوات وأمراء الماليك والمشايخ حتى وصل إلى الحكم، وأظهر إبراهيم بك والأمراء عدم ارتياحهم لهذا الصلح لأنه فسخ لاصطيادهم، ولذلك رجع الأمراء إلى الصعيد وأخذوا معهم شاهين بك وعدداً آخر من الأمراء الذين كانوا مقيمين بالقاهرة فعلاً، وكان محمد علي قد ذهب بالفعل بجيشه إلى الجيزة في اليوم التالي للقضاء عليهم. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١١٢-١١٥؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ٣، ص ١٢٨١-١٢٨٧.

^٢ - في نسخة [دار الكتب] "الغزاة".

^٣ - في نسخة [دار الكتب] يختلف ترتيب الصفحات هنا أيضاً، فمكان هذه الصفحة "٣٣" في المخطوط بعد صفحتين، تحت رقم "٣٧".

بالكلية، جزاً في مقابلة ما صنعوا من النقص والخيانة، فخرج أيده الله بالعساكر^١ في البر والبحر، فإمتلأ البحر بالمراكب والعساكر فيها مشحونة، وكذلك البر مملوء بالعساكر، وساروا وسارت طوايف الغز تجاههم بجانب الجبل يرون بعضهم البعض، وكان بعض المغفلين يظن أن طوايف الغز لا أحد يقاومهم في البر في الحرب، وهم على ظهور خيولهم، وأن صاحب السعادة من تمام تدبيره أنه جعل العساكر في البر وفي البحر، فإتفق أن حضرة صاحب السعادة مازال سايراً وهم أيضاً سايرون حتى توسطوا بلاد الصعيد، وإنضاف إليهم زيادة في جموعهم عثمان بيك حسن^٢ وصناجقه

^١ - لم يذكر الجبرتي أن محمد علي تقدم هذه الحملة ضد المماليك في الصعيد بنفسه، بل ذكر إنه أرسل جيشاً بقيادة حسن باشا وأخيه عابدين بيك ومحو بيك وطبوزاغلي وصالح قوج في ٥ جماد أول سنة ١٢٢٥هـ/ ٨ يونيو ١٨١٠م إلى الصعيد لملاحقة المماليك، وخرج محمد علي لتعزيز جيشه السابق في ٥ جماد ثان/ ٨ يوليو من نفس العام وأخذ منطقة قناطر اللاهون وتقهقر المماليك إلى الجنوب، وعرض عليهم الصلح مرة أخرى، وحضر عدداً منهم إلى القاهرة مرة أخرى واستقبلهم محمد علي واشترى لهم البيوت وأنعم عليهم بالوظائف والأموال، وكان منهم شاهين بيك الألفي الذي حضر إلى القاهرة في ١٠ شوال/ ٨ نوفمبر. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١١٥-١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢٣؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج ٢، ص ٢٠٥، ٢١٨، ٢٢١؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ٢، ص ٣٩١، ٤٣٩-٤٤٦، ٦٢٤-٦٣٣، ٧٦٦-٧٧٩، ٨٠٤، ٨٠٥، ج ٣، ص ٩٤١، ٩٥٩، ٩٩٩، ١٠٠٧، ١٠١٦، ١٠٧٦، ١١٠٩، ١٢٥٩-١٢٧٣، ١٢٨٨-١٣٠٧، ١٣١١، ١٣٢٦، ١٣٢٧.

^٢ - عثمان بيك حسن: ألبسه حسن باشا الجزائري صنحاً ووعدته بإمرة الحاج، ثم أمره سنة ١٢٠١-١٢٠٢هـ/ ١٧٨٦م بالنهاب لمحاربة المماليك بالصعيد، فهرب بمماليكه إلى الصعيد لأنه كان لا يريد محاربة المماليك، أقام بأعلى الصعيد مع رفيقه حسن بيك الجدادي، بعد أن طردهم إبراهيم بيك ومراد بيك بعد موت إسماعيل بيك، وإنضم إلى مراد بيك عند لجوءه إلى الصعيد في حربه مع الفرنسيين، وأقسم أنه لا يخلق شعر رأسه ما دام الكفار بأرض مصر، ودخل القاهرة مع الجيش العثماني سنة ١٢١٦هـ/ ١٨٠٠م بعد حلاء الفرنسيين، وبقي بالصعيد بعد عودة المماليك إلى القاهرة سنة ١٢١٨هـ/ ١٨٠٢م، وكانت قواته ٥٠٠ مملوك غير العرب، وكان هذا الأمير سبباً

أتباع علي بيك الكبير^١، وكانوا أيضاً جماعاً غفيراً، فكثرت جموع الغز، وما زال حضرة أفندينا حتى إنهم صاروا متوسطين أرضاً متسعة في بادية كبيرة^٢، فأخرج جملة من

في ربط المماليك على إختلافهم برباط المحبة والأخوة لحكمته وخبرته، وتدخل في الصلح بين محمد بيك الألفي وباقي المماليك الذين حاولوا قتله، وطلب أماناً من محمد باشا خسرو في محرم ١٢١٧هـ/ مايو ١٨٠٢م الذي وجد فيه الجانب المعتدل من المماليك، كما إنه يمكن إستمالة باقي الأمراء عن طريقه لإرسالهم إلى استانبول، وحضر إلى القاهرة في ٢٨ صفر ١٢١٧هـ/ ٣٠ يونيو ١٨٠٣م مع صالح بيك الكبير وصالح بيك الصغير ومعهم ما يقرب من الثلاثمائة مملوك، وأقام بيت عبد الرحمن كتنحدا بحارة عابدين، ورتبوا له مرتب شهري ومنحوه إلتزاماً، ثم إنه إعترض على إستدعاء خسرو باشا له لقتال المماليك بالصعيد، وكان يحلم عند حضوره بمنصب شيخ البلد أو أمير الحاج، فرجع إلى الصعيد وإستقر بقنا، كما حاول علي باشا الجزائري حذبه إلى صفه في نزاعه مع المماليك والأرنؤد للسيطرة على مصر ووعدة بإمرة مصر، وإشترك مع باقي الأمراء في مقاومة قوات خورشيد باشا ومحمد علي عند المنيا ثم عاد إلى قنا مرة أخرى لخلافه مع البرديسي، وعند حضور الحملة الإنجليزية إلى الإسكندرية لمساندة محمد بيك الألفي ضد محمد علي في ٩ محرم ١٢٢٢هـ/ ١٩ مارس ١٨٠٧م. بعد وفاة الألفي أرسل الإنجليز للمماليك بالصعيد لتجميعهم وإعادة تمهدهم للحكم، قال عثمان بيك "أنا لا أنتصر بالكفار"، ووافق أكثر الأمراء على ذلك. ورد خبر موته إلى القاهرة في ربيع ثان ١٢٣١هـ/ مارس ١٨١٦م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ٢٢١، ٢٢٢-٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٨-٢٢٩، ج ٤، ص ٤٩، ٢٤٦؛ نقولا ترك: مذكرات، ص ٣٢، ١١٥، ١٢٤، ١٤٦-١٤٧، ٢٠٩؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ١، ص ١٩، ٢٠، ١٨٣، ٢١٥، ٢١٨، ٢٩٥-٢٩٧، ج ٢، ص ٣٦٠، ٦٢٩.

١ - علي بيك الكبير: مملوك إبراهيم كتنحدا تابع سليمان جاويش تابع مصطفى كتنحدا القازدغلي، كان يلقب بجن علي وبيالوط قبان، تقلد صنحفاً في حياة أستاذه، وخرج أمير حاج سنة ١١٦٦هـ/ ١٧٥٣م، هو الذي قضى عملياً على النفوذ العثماني في مصر ومنع قدوم الولاة العثمانيون، بل إنه قاد حملة ضد الدولة العثمانية نفسها، كما قضى أيضاً على البيوت المملوكية الأخرى في مصر وأحل محلها ممالكه مثل محمد بيك أبو الذهب وخشداشيه ومماليك ممالكه أمثال مراد بيك وإبراهيم بيك، الذين شغلوا المناصب الهامة. ومعظم المماليك الذين ذكروا في تاريخ الجبرتي ينسبون إلى بقايا البيت المملوكي القوي وهو بيت القازدغلية، الذي أسس أثناء مشيخة

العساكر البحرية وأضافهم إلى عساكر البر وركب جواده ووضع السيف في يده وأمر العساكر بالحملة عليهم في ذلك الحبل الفسيح، وزجرهم وهو كالأسد الضاري، (ص ٤١) فسارت العساكر إلى جهتهم وحملوا عليهم، وحضرة أفندينا في وسطهم يحرضهم بقوله المريع^١ وعزمه الشديد المنيع، وتلاقاً^٢ الجمعان وإرتفع الغبار وعلا حتى

علي بيك الكبير، وعمر قلاع الإسكندرية ودمياط، كما أعاد بناء مسجد سيدي أحمد البدوي وبنى أمامه سبيل وقيسارية. بمدينة طنطا، وبنى قيسارية أخرى ببولاق وحدد زاوية الشيخ المغربي المعروفة بتكية الرفاعية (أثر رقم ٤٤٢). مات في منتصف صفر سنة ١١٨٧هـ/مايو ١٧٧٣م ودفن بقرية أستاذه إبراهيم كنتخدا بالقرافة الصغرى بجوار الإمام الشافعي (أثر رقم ٣٨٥). أنظر ترجمته في: الجبرتي: عجائب الآثار، ج ١، ص ١٩١، ٢٠٧، ٣٧١، ٣٧٧، ٣٨٠-٣٨٣؛ كلوت بيك: لمحّة، ج ١، ص ٤٧؛ وأنظر أيضاً:

Daniel Crecelius, The Roots of Modern Egypt: A Study of the Regimes of 'Ali Bey al-Kabir and Muhammad Bey Abu al-Dhahab, 1760-1775, Chicago, 1981;

ترجمة عبد الوهاب بكر: جذور مصر الحديثة، القاهرة سنة ١٩٨٥م.

^٢ - تقابل الجيشان عند صول والبرنبل بالقرب من الصف، وإنهزم حسن باشا طاهر إلى بني سويف وتقدم المماليك إلى معسكر محمد علي بالجيزة وحطفوا حرسه، ثم تفرقت كلمة الأمراء مرة أخرى، وأرسل محمد علي لهم بالصلح وحضر بعضهم إلى القاهرة مرة أخرى وإستقروا بها، وكان جيش محمد علي متقدم في نفس الوقت للسيطرة على مدن الصعيد، في حين خرج محمد علي بتجريدة أخرى في ١٠ جمادى ثان سنة ١٢٢٥هـ/١٣ يوليو ١٨١٠م وإستولى على الفيوم بعد إنتصاره على المماليك عند قنطرة اللاهون، وتقهقر المماليك أمامه حتى إنتصر عليهم عند دجلة بالمنيا وأسر عدداً منهم وفر الباقي جنوباً، وحضر إليه بعضاً منهم، ورجع محمد علي إلى القاهرة في أول شعبان سنة ١٢٢٦هـ/١ سبتمبر ١٨١١م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١١٦-١١٨، ١١٩، ١٢٠-١٢١؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ٢، ص ٧٦٦-٧٧٩، ٨٠٤-٨٠٥، ج ٣، ص ١٠٠٧، ١٠١٦، ١٢٨٨-١٢٨٩، ١٢٩٠-١٣٠٧، ١٣١١.

^١ - في نسخة [دار الكتب] هذه الصفحة تحت رقم "٣٨".

^٢ - في نسخة [دار الكتب] "تلاقى".

غشى الأبصار، وقطعت من الأعداء الرؤس وإختلست منهم النفوس، وكان لهم معه يوم مهول عبوس، وأحاط بهم في وسيع ذلك الوادي ووالى عليهم الطعن والضرب بالسيف والبارود وإختلطت الجموع وأسيلت الدماء بدل الدموع والأكف تطير، ولم يكن لإحد منهم مجير، وما زال السيف يسطع والفرسان عن الخيول تقع والأبطال في هدير والأمر مهول عسير، حتى صارت طوايف الغز أقساماً ثلاثة:

قسم نجا بالفرار بعد أن ذاق من الحرب ما خشى منه الدمار فولوا هارين في وسيع الأقطار، وقسم أخذ أسيراً وذاق ذلاً كبيراً، وقسم هلك بالسيف مع الهالكين.

وإضمحل أمرهم أجمعين، ولم يذوقوا من الحرب طول أعمارهم ما ذاقوه في هذه المرة، لأنهم كانوا يقولون إن كل من حاربنا في البر الواسع الفسيح ونحن على ظهور خيولنا لا يقدر علينا أبداً ولو كان في (ص ٤٢) قوة عنزة وجموع كسرى وقيصر، فعاملهم حضرة صاحب السعادة في هذه المرة في الحرب بما يطلبون، ولم يحاربهم إلا وهم في البر والوادي المتسع، وهم على ظهور خيولهم حتى أن إبراهيم بيك الكبير سقط جواده من تحته مرتين، ولولا هروبه حتى أدركه بعض أجناده بجواد ركه وفر هارباً على وجهه، وكذلك ممن فر هارباً في هذه المرة عثمان بيك حسن، وكان مشهوراً بالشجاعة وملاقة الأبطال، إلا أنه لم يحارب طول عمره مثل حضرة أفندينا المؤيد من رب الأرباب^١، وفي كل مرة في الحروب لا يتكل حضرة صاحب السعادة على الإكتفا بأمره لأمرء عساكره بالحرب بل كان هو الذي يتولى التدبير، ثم بعد ذلك يباشر الحرب بنفسه وهو كالهزبر الطالب للفريسة لا يرتاع من زجرة أرعاد، ولا يحتفل بهذيان إيعاد، ولا يبالي بكثرة الجموع، ولا يهوله كونهم سدوا بكثرتهم الأطلال والربوع، بل يقدم إقدام الليث الكرار ويحمل حملات النمر أبي المغوار، فهو الفارس الغضنفر والشجاع القصور.

^١ - كان رأي الجبرتي في عثمان بيك حسن مثل ذلك. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤،

ومن عجيب الاتفاق الذي يؤرخ (ص ٤٣) ويسطر في الأوراق أن شاهين بيك حين رأى حضرة الصدر العلي وهو في وسط الميدان يحول بسيفه على الأبطال والفرسان أخذته رعدة شديدة وحالة خوف مريعة مكيدة، ونظر إلى جماعته وقومه فخاف على نفسه وعليهم من الهلاك في يومه وصار في حيرة من أمره، وشاهد حرباً ما سمع به في عمره، فركن إلى الفرار وولى هو وقومه الأدبار، ثم أنه إلتجأ إلى محل مكث فيه وهو ممتليء بالخوف وفزع من السيف بما قرقر منه الجوف، وندم على ما سلف منه من الفعل القبيح، وتذكر ما كان فيه من النعيم وخصب العيش الصليح، وتفكر إماراته السابقة وأحواله التي كانت منتظمة متناسقة، فما وسعه إلا أنه أرسل الحضرة صاحب السعادة يتزأى على تقييل أقدامه ليعيده إلى شأنه الأول في سالف أيامه، وكرر الإرسال والإستشفاع، وترجى من حضرته العفو عسى أن يدرك بقية من الراحة والإنتفاع، وما زال يرسل طالباً لعفوه راجياً حسن صفحه وصفوه، حتى رق له حضرة صاحب السعادة (ص ٤٤) أبقاء الله وعفى^١ عنه بشرط أنه يسكن في مصر في أحد منازلها ولا يتوجه لنحو الجزيرة، ولا ينظر إلى مشاريعها ومناهلها، ويكون في أدبه مع من يلوز به^٢، وهذا لعمري أكبر دليل على سعة صدر الصدر العلي وحبه للعفو والشفقة، فإنه تحقق من شاهين بيك الضعف والمذلة، وعرف أن الغفلة فيه وفي قومه جبلة، وذلك أيضاً أعظم برهان على سخافة عقل شاهين، وأكبر دال على إنه رجل لامروءة له، بل هو حقير مهين، فإنقسمت جماعته إلى قسمين: قسم تبعه وإنتمى إليه،

^١ - في نسخة [دار الكتب] "عفا".

^٢ - أنظر مزيد من التفاصيل عن هذه الحادثة في الجبرتي، فقد ذكر أن شاهين بيك حضر إلى القاهرة - بعد أن أرسل محمد علي سليمان بيك البواب لإجراء الصلح مع الأمراء - في ١٠ شوال سنة ١٢٢٥هـ/ ٨ نوفمبر ١٨١٠م مع بعض أتباعه وقابل محمد علي وأتبعه عليه مرة أخرى. أنظر الهامش رقم ٥٢؛ الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١٢٣؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ٣، ص ١٠٧، ١٠١٦، ١٢٩٩-١٣٠٧، ١٣١١.

وقسم نابذه بالخلاف ولم يركن إليه، بل سبقوا بطلبهم العفو والصفح من حضرة صاحب السعادة، وعلموا أن ما كان منهم ومنه سوء رأي وجنون، وندموا على ما كانوا يصنعون، فأجابهم حضرة صاحب السعادة وعفى^١ عنهم وصفح عن جميعهم ورجعوا إلى سكنى مصر في منازلهم، ومكثوا نحو شهر ساكنين ساكتين، لا يتجافون ولا يضطربون، وكان معهم ممن صفح عنه أفندينا سليمان بيك البواب^٢ وجماعته، فمكث كذلك وأتباعه بمصر إلا أنهم صاروا سيرة شهيرة عند أهل مصر بالغفلة (ص ٤٥) والحق، وإشتهروا بالصقاعة والرزالة، وعرفوا بالمهانة والسفالة، وأغرب من ذلك أن حدثتهم نفوسهم بالغدر والخيانة، وزاولت لهم فكرتهم نقض العهد والأمانة، وصاروا يترددون إلى بعضهم البعض ويتحدثون بالخراف والهذيان، وظهرت منهم بعض أشياء توجب لهم الضرر والخذلان^٣، ورجعوا إلى طلبهم من حضرة صاحب

^١ - في نسخة [دار الكتب] "عفا".

^٢ - سليمان بيك البواب: أحد طغاة المماليك من ممالك الألفي بيك، كان كاشفاً لمنوف، قاوم محمد علي باشا في البداية ثم خضع له بعد ذلك، وفي سنة ١٢٢٥هـ/ ١٨١٠م ساهم في عقد هدنة بين قوات محمد علي بقيادة حسن باشا من جهة، وقوات شاهين بيك الألفي من جهة أخرى. وقد قتل كل من شاهين بيك الألفي وسليمان بيك البواب في مذبحة المماليك بالقلعة سنة ١٢٢٦هـ/ ١٨١١م. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٤١، ٤٤، ٩٩، ١٢٢-١٢٣، ١٢٧-١٢٨؛

شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ١، ص ٢٢٨، ج ٢، ص ٣٦٠، ج ٣، ص ١٣١٥.

^٣ - كان شاهين بيك يتصل في ذلك الوقت بالفرنسيين لإستمالتهم لتأييد قضية المماليك ضد محمد علي بعد فشله مع الإنجليز، كما راسل قائد الأسطول الإنجليزي في البحر الأبيض بعد خروج الإنجليز من الإسكندرية يطلب مساعدته في إستعادة سلطة المماليك في مصر، ووقعت تلك الرسالة في يد محمد علي عن طريق القنصل الفرنسي دروفتي صديق محمد علي، الذي كان يخشى من رجوع الإنجليز مرة أخرى إلى مصر. دودويل: محمد علي، ص ٣٨-٤٢؛ عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي، ص ٢٩-٣٠؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ٢، ص ٦٢٦-٦٢٧، ٦٢٨، ج ٣، ص ١٢٧٩-١٢٨٢، ١٣٠٧-١٣٠٨.

السعادة الإنعامات وإبدال^١ العطايا وتوالي الإغداقات، وإشتهرت عنهم سيرة قبيحة وصورة شنيعة غير صليحة، فما كان من حضرته إلا أن أرسل إليهم جميعاً فطلبوا للقلعة مستعدين بالسلاح الكامل، فأمر حضرته العساكر بالإحاطة بهم، فأحاطوا بهم^٢ أجمعين وضربوهم بالرصاص وبذلوا فيهم السيف حتى ذلوا صاغرين، فقتل منهم جمع كثير^٣، وحصل الباقي في أيدي العساكر فهو مهين أسير، وأزيلت دولتهم إزالة

^١ - في نسخة [دار الكتب] "بذل".

^٢ - يتحدث هنا المؤلف عن مذبحة المماليك بالقلعة من وجهة نظره. وقد وصف الجبرتي هذه الحادثة وصفاً تفصيلياً، فقد أضفى محمد علي على هذه الحادثة طابع الحوادث العادية في ذلك الوقت حيث تمت في سرية تامة بالاتفاق مع أقرب قواده اليه، فقد دعا أمراء المماليك وأتباعهم وأعيان الدولة في ٥ صفر ١٢٢٦هـ/ ١ مارس ١٨١١م للاحتفال بتنصيب ابنه طوسون قائداً للجيش المرسل الى الحجاز، وحضر الجميع الى القلعة وخرج موكب الجنود وأعيان الدولة ومنهم أمراء المماليك، وعند انتهاء خروج الجنود أمر صالح قوج بغلق باب العزب وأعطى لأتباعه الإشارة المتفق عليها، وكان الأمراء قد وصلوا في هذا الوقت الى المضيق الصخري المنحدر الضيق كثير التعاريج الموصل الى الباب، حيث يصعب على المار به متابعة من أمامه أو من خلفه، فحوصروا بين ساحة القلعة والباب مما سهل مهمة جنود صالح قوج في اصابتهم بالرصاص من أعلى المضيق، وتتبع الجنود من هرب في أنحاء القلعة حتى ذبح الجميع، ثم نزل الجنود الى القاهرة لتتبع من لم يحضر الموكب فذبحوه، بعث محمد علي بعد ذلك الى جميع الأقاليم بقتل الموجود بها من المماليك وأرسال رؤوسهم. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص١٢٧-١٣١؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٢٢٨-٢٢٩؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج٣، ص١٠٨٢-١٠٨٣، ١٣١١-١٣٢٠.

^٣ - حدثت مذبحة المماليك الشهيرة بالقلعة يوم ٥ صفر سنة ١٢٢٦هـ/ ١ مارس ١٨١١م، وقتل فيها نحو الألف من المماليك وأتباعهم، وفي ٩ صفر/ ٤ مارس أرسل محمد علي رسالة الى الصدر الأعظم يخبره فيها بالحادثة، ثم أرسل رؤوسهم بعد ذلك الى الأستانة بناء على طلب الدولة لذلك اثباتاً لما ذكره من متاعبه مع المماليك وتعطيل سفر جيشه الى الحجاز، ووردت تلك الحادثة في

تامة، وبطلت صولتهم وحلت بهم الطامة، وكان لهم مع حضرته^١ الحروب العديدة، وقهرهم المرات وأذاقهم الأهوال الشديدة، ولو لم يكن لهم من الذل إلا يوم وفا النيل^٢

العديد من المصادر العربية والأوروبية على السواء. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١٢٧-١٣٠؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج ٢ ص ٢٣٠؛

Edouard Driault, Mohamed Aly et Napoleon, 1807-1814, Paris, 1936, 112-115; Maxime Weygand, Histoire Militaire de Mohammed Aly et des ses Fils, Paris, 1936, Vol. I, 59-66 ;

وأنظر أيضاً: شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ٣، ص ١٣٢١، ١٣٢٦-١٣٢٧.

^١ - في نسخة [دار الكتب] مشطوب على "حضرته" ومكتوب "دولته" بخط مخالف.

^٢ - ذكر الجبرتي حادثتين بين محمد علي والمماليك في يوم وفاء النيل، كانت الأولى في ٢٠ جماد أول سنة ١٢٢٠هـ/ ١٦ أغسطس ١٨٠٥م، حين تقدم المماليك وعلى رأسهم عثمان بيك حسن وشاهين بيك المرادي وأحمد كاشف سليم إلى القاهرة في أثناء الإحتفال، ولكن محمد علي والأعيان بلغهم ذلك ولم يخرجوا، فدخلوا القاهرة من الشمال من باب الفتوح حتى وصلوا إلى عطفة الخراطين (الصنادقية) وتفرقوا فرقتين، توجهت الأولى وعلى رأسها الأمراء إلى الأزهر ودخلوا بيت الشيخ الشرقاوي فجاءهم السيد عمر مكرم وحذرهم من هذا الموقف المفاجيء وإمكان مهاجمة العسكر لهم، فانسحبوا إلى باب البرقية وخرجوا من القاهرة، وبالفعل خرج خلفهم حسن بيك الأرناؤدي ولكنه لم يلحق بهم. أما الفرقة الثانية فتقدمت جنوباً إلى باب زويلة، فهاجمهم العساكر ورجع إليهم عساكر حسن بيك وتقهقر المماليك بعد قتال وتفرقوا في الطرقات وحاصر العسكر فرقة منهم بخانقاه السلطان برفوق بالنحاسين وقبضوا عليهم وذبحوا خمسين منهم وأسروا باقيهم، وهربت فرقة أخرى من فوق الأسوار لفلق باب الفتوح وباب النصر عليهم. وكان محمد علي في ذلك الحين يستعد للفرار ففوجيء بالقتلى والأسرى وأرسل رؤوس القتلى إلى استانبول.

أما الثانية فكانت حين خرج محمد علي من القاهرة في ١٠ رجب سنة ١٢٢٥هـ/ ١١ أغسطس ١٨١٠م لتعزيز جيشه بالصعيد وإنتصاره على المماليك عند دجلة بالنبيا، وأسره لعدد من المماليك، وصلحه مع عدد من الألفية وفرار الباقيين إلى الجنوب. أنظر عن هذه الحادثة: الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ٣٤١-٣٤٣، ج ٤، ص ١٠٠، ١١٩؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ١، ص ٣٣١-٣٣٢.

وما شاهدوا فيه من الوبا الويل لكان ذلك (ص ٤٦) كافياً وغير ذلك من المراتب^١ المعروفة المشاهدة عند أهل مصر وقطرها التي لا حاجة إلى ذكرها للعلم بها والإحاطة من كل الناس بتفاصيلها^٢.

وما زال حضرة صاحب السعادة يطردهم بقوته وعزمه، وعظيم تدبيره وجليل حزمه، حتى أخرج بقيتهم من أقطار مصر بالكلية وإنهزموا إلى بلاد البربر و السودان، ورجع منهم^٣ أناس بالأمان، وكل من طلب منهم آمناً يعطيه ويعفو ويصفح عنهم، فرجع بعضهم وهم أناس قليلون إلى مصر، وسكنوها تحت ظل إنعامه وحوطة أمانه، فأعطى كلاً كفايته، فحسن حالهم وصلح أمرهم ورجعوا عن أخلاقهم السابقة،

والمعروف أن إحتفال وفاء النيل أحد أهم الإحتفالات الهامة والمبهجة على مدار العام، وهو اليوم الذي يكسر فيه الخليج ويسمح لمياه النيل (الفيضان) بلان ثماً ثانية خلجان وترع القاهرة، معلناً عن بداية سنة ضريية جديدة على الأراضي الزراعية، كما إنها مناسبة للعامة من المواطنين للتعبير عن فرحتهم بإنسياب المياه في خلجان القاهرة. أنظر وصف معاصر الإحتفالات بوفاء النيل في سنة ١٨٣٤م:

Edward W. Lane, An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians, London, 1860, 488-498.

^١ - في نسخة [دار الكتب] مشطوب على الباء الأخيرة فأصبحت "المرات".

^٢ - نزل العساكر لتتبع بقايا المماليك بالقاهرة وذبحوا من وجدوه، كما أرسل محمد علي لكل حكام الأقاليم لتتبع المماليك وذبحهم، وكان متولياً على إقليم المنيا في هذا الوقت محمد بيك طبوط أغلي لمناوبة تصفية المماليك، وهرب من إستطاع إلى دنقلة والسودان ومنهم إبراهيم بيك الكبير وعثمان بيك حسن، ثم أرسل محمد علي تجريدة بقيادة مصطفى بيك ابن أخته في ٢٣ صفر سنة ١٢٢٦هـ/ ١٩ مارس ١٨١١م إلى الصعيد، ثم أرسل تجريدة أخرى لمحاربة بقايا المماليك بأبريم من بلاد النوبة وقتلوا كثيراً منهم. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١٢٨-١٣١، ١٣٢، ١٣٦، ١٤٢-١٤٣؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج ٢، ص ٢٣٤؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ٣، ص ٨٢-١٠٨٣، ١٣١١-١٣٢٠، ١٣٣٠.

^٣ - في نسخة [دار الكتب] "منه".

وصارت حالتهم الآن في الانقياد لحضرته حالة صادقة وعرفوا أنفسهم أنهم أتباع له وخدمه، وأنهم أرقاؤه ثم عتقاؤه بلا ريب ولا تهمة، فعكفوا على الدعا لحضرته والطلب من الله لإدامة دولته^١، ولم يبق منهم أحداً طريداً سوى بعض أشخاص نحو السبعة أو الثمانية ومعهم نحو إثني عشر عبداً، فجملتهم مع أتباعهم لا يوفون عشرين (ص ٤٧) رجلاً، فزاد بهم الخوف والفرع وصاروا يفرون من أرض إلى أرض ومن قطر إلى قطر حتى وصلوا إلى أرض مدينة طرابلس الغرب فنزلوا هناك في كنف حضرة يوسف باشا، فأجازهم السكنى في طرف من جهاته، ورتب لهم قوتاً يكفي مثلهم، وطلبوا أن يقابلوه فلم يسمح بذلك أصلاً، وذلك إجلالاً ومراعاة لحضرة صاحب السعادة، وقال هؤلاء لا يقابلوني ولكونهم لا ذوا بيلدي وإلتجأوا بي يكفيهم الأمان وعدم إضرارهم في وقت من الأزمان، ولولا إلتجأؤهم بي ووقوعهم في عرضي ما كنت أقبلهم أبداً، لخروجهم عن طاعة حضرة الصدر الكبير محمد علي فكيفهم الأمان وأكل العيش^٢، وهم هناك إلى الآن بهذه الحالة كما أخبرني الثقة ممن كان هناك من التجار^٣.

^١ - نزل العساكر لتتبع بقايا المماليك بالقاهرة وزبحوا من وحدوه، كما أرسل محمد علي لكل حكام الأقاليم لتتبع المماليك وزبحهم، وكان متولياً على إقليم المنيا في هذا الوقت محمد بيك طبطوب أغلي لمتابعة تصفية المماليك، وهرب من استطاع إلى دنقلة والسودان ومنهم إبراهيم بيك الكبير وعثمان بيك حسن، ثم أرسل محمد علي تجريدة بقيادة مصطفى بيك ابن أخته في ٢٣ صفر سنة ١٢٢٦هـ/ ١٩ مارس ١٨١١م إلى الصعيد، ثم أرسل تجريدة أخرى نحارة بقايا المماليك بأبريم من بلاد النوبة وقتلوا كثيراً منهم. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١٢٨-١٣١، ١٣٢، ١٣٦، ١٤٢-١٤٣؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج ٢، ص ٢٣٤؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ٣، ص ١٠٨٢-١٠٨٣، ١٣١١-١٣٢٠، ١٣٣٠.

^٢ - لم يذكر الجبرتي أن أحداً من أمراء المماليك قد ذهب إلى طرابلس الغرب، بل ذكر أن الذي نجا من القتل هم أحمد بيك زوج عذيلة هاتم بنت إبراهيم بيك الكبير لوجوده في بوش من قرى بني سويف أثناء الحادثة، فهرب إلى باقي أمراء الصعيد عند إبراهيم بيك الكبير وعثمان بيك حسن، ثم

وبالجملة فقد شاهدتهم سابقاً وهم في دولتهم وعزهم وكبير صولتهم وكثرة
عساكرهم وأجنادهم وهم في مصر وأقطارها السنين العديدة والمديدة، فما رأيت فيهم
صاحب تدبير ولا إنساناً له الناس (ص ٤٨) بالكمال تشير، بل كانوا مغفلين ظالمين
و كنت ممن ظلموه، حيث كانت لي حصة إلتزام في بلد كان بها كفايتي وكفاية أهلي،
فإنتهبها بالظلم والقهر عثمان أغا^١ شقيق لاجين بيك^٢، وجهة أخرى أخذها ذو الفقار
أغا^٣ الينكشارية، فالله تعالى يجازيهم في الآخرة بما صنعوه جزاء وفاقاً، وكفاهم ما
إتفق لهم من الذل بقدم الفرنسيين مما هو معلوم شهير، وحسبنا الله ونعم الوكيل^٤.

تشتتوا بعد ذلك ببلاد السودان. أما أمين بيك الألفي الذي تسلق من القلعة -أو لم يدخل القلعة
أصلاً- وهرب إلى الشام، حيث أقام بطرابلس والتحق بالجيش العثماني، كما هرب إلى الشام أيضاً
عدداً من الكشاف والمماليك. الجيرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١٣١؛ شكري: مصر في مطلع
القرن ١٩، ج ٣، ص ١٠١١، ١٣٢٠، ١٣٢٩، ١٣٣١. وأنظر عن يوسف باشا القره مانلي والي
طرابلس الغرب (١٧٩٥-١٨٣٥م): شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ٢، ص ٨٥٦، ٨٦٥-
٨٦٦؛ محمد عبد الكريم الوافي: في تاريخ العرب الحديث، يوسف باشا القرمانلي والحملة الفرنسية
على مصر، طرابلس سنة ١٩٨٤.

٣ - يتضح هنا أن الكاتب يعتمد على المقابلة الشخصية كمصدر لمعلوماته.

١ - عثمان أغا شقيق لاجين بيك، لم نعر على ترجمة له.

٢ - لاجين بيك عثمان أغا شقيق، لم نعر على ترجمة له.

٣ - ذو الفقار أغا الإنكشارية، لم نعر على ترجمة له.

٤ - يبدو أن هذه الحوادث هي التي جعلت الشيخ الرجي يتجنى على المماليك وينحاز إلى محمد
علي باشا. ويذكر الجيرتي تصديقاً لهذه الحوادث أن المشايخ إجتمعوا عند إبراهيم بيك الكبير في ٤
رجب سنة ١٢١٨هـ/ ٢٠ أكتوبر ١٨٠٣م لمناقشته في حصة الإلتزام التي أخذت بالحلوان أيام
العثمانيين وإستولى عليها الأمراء، فطمأنهم على عادته. الجيرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ٢٦٦.

الفصل الثاني

في قمع شوكة الضالين وإزالة الطوائف المفسدين الفاسقين، وهم الوهابية وإخراجهم من بلاد الحرمين ومدينة الدرعية وإزالة رسومهم وإبطال آثارهم قبحهم الله

إبتداء أمرهم^١ أن رجلاً من أجناس الناس جاء إلى أرض مدينة مصر لا يعرف له مبدأ عمر، ولا يعلم منشؤه بأيّ قطر، وكان يظهر التنسك

كان

١ - نشأت دعوة محمد بن عبد الوهاب في المنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية، واعتنقها أهل تلك الجهة ومحمد بن سعود أمير الدرعية في منتصف القرن ١٨م، وقد أرسل لهم بيوم سليمان باشا حاكم بغداد في سنة ١٢١٢-١٢١٣هـ/١٧٩٧م حملة للسيطرة على إقليم الأحساء بمساعدة عرب بنو خالد الذين تخلوا عنه فأفشلوا حملته ثم أرسل حملة أخرى في سنة ١٢١٣-١٢١٤هـ/١٧٩٨م بقيادة علي باشا الكيخيا ولكنها هزمت علي يد الأمير سعود، وفي سنة ١٢١٧-١٢١٨هـ/١٨٠٢م قام الأمير سعود بعد توليه حكم الوهابيين بحملة على مدينة كربلاء واستولى عليها وحطموا ضريح الإمام علي ونهبوا المدينة، وامتدت الدعوة بعد ذلك بالقوة في شبه الجزيرة حتى احتلوا الطائف في نهاية سنة ١٢١٧هـ/١٨٠٣م، وعين أحمد باشا والي دمياط محافظاً لمكة في ٢٥ ذي القعدة سنة ١٢١٧هـ/١٩ مارس ١٨٠٣م وزود في القاهرة بجيش لمقاومة الوهابيين، وذلك لإنتشار إشاعة عن مهاجمة الوهابيين لمصر في ذلك الوقت، وقد استولى الوهابيون على مكة على يد عبد العزيز بن سعود في موسم حج سنة ١٢١٧هـ/١٨٠٣م من غير حرب وولى عليها الشريف عبد المعين وولى قضائها للشيخ عقيل، وعقد مجلساً بالكعبة أبرز فيه البدع والمحرمات التي تخالف الكتاب والسنة، وهدم قبة زمزم والقباب التي حول الكعبة والأبنية التي أعلى الكعبة، وانتهى في هذا الوقت حكم عبد العزيز الأول بقتله على يد أحد الشيعة، ثم انسحبوا منها بعد تقدمهم وحصارهم لعدة في ربيع أول ١٢١٨هـ/يونيو ١٨٠٣م لحج حش عثمانى إلى الدرعية، حيث أرسلت الدولة أربع باشات من جهة بغداد بالإضافة إلى أحمد باشا الجزائر، ووردت أوامر إلى علي باشا الجزائر

والى مصر في ذلك الوقت بإعداد أربعة آلاف جندي وتسفيرهم إلى الحجاز لمحاربة الوهابيين في شوال ١٢١٨هـ/ديسمبر ١٨٠٣م، وأرسلوا إلى مصر في ٢٥ شوال ١٢١٨هـ/ ٨ يناير ١٨٠٤م لإعداد أربعة آلاف جندي لتعزيز تلك الجيوش، وفي المحرم ١٢١٩هـ/أبريل ١٨٠٤م إستولى الوهابيون على جدة بعد موت شريف باشا، فتصدى لهم الإنجليز بالمدافع وردوهم إلى الطائف، كما صدرت الأوامر إلى خورشيد باشا مصر في ربيع ثان ١٢١٩هـ/يوليو ١٨٠٤م لإعداد خمسمائة جندي وإرسالهم إلى ينبع لحفظها ومعهم غلال لتزويد شريف مكة بها، ولولا عليهم علي أغا الوالي، ولكن الذي ذهب بالفعل مائة جندي، كما عين محمد باشا أبو مرق على رأس عساكر الشام للذهاب إلى الحجاز، ولكن وصلت في نفس الوقت أخبار إستيلاء الوهابيين على ينبع، ثم جاء أمر في شعبان ١٢١٩هـ/نوفمبر ١٨٠٥م إلى خورشيد باشا بإرسال أحد كبار الضباط الأتراك بمصر ومعه قوة عسكرية لتدعيم محمد باشا والي جدة، وفي أوائل سنة ١٢٢١هـ/١٨٠٦م إستولى الوهابيون على مكة بعد حصارها لها وأضطر شريف مكة إلى الدخول في طاعتهم مسلماً، ثم إستولوا بعد ذلك على المدينة بعد حصارها عام ونصف وأخذوا كل التحف التي بالحجرة النبوية وهدموا كل القباب التي هناك -قبة آدم وقباب ينبع والمدينة- ماعدا قبة النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنهم أخذوا ما بها من هدايا ثمينة من الجواهر وشمعدانات ومائة سيف ملبسة بالذهب والماس والياقوت، وكان الإستيلاء على الحرمين بمثابة صدام مباشر مع الدولة العثمانية، ثم شن سعود في سنة ١٢١٨-١٢١٩هـ/١٨٠٣م و١٢٢١-١٢٢٢هـ/١٨٠٦م هجوماً على مدينة النجف الأشرف -ثاني المدن الشيعية المقدسة- جنوب العراق، غير أن المهجمات السعودية لم تستطع الإستيلاء على مدن العراق والإحتفاظ بها، ومنعوا دخول قافلة المحمل المصري والشامي من سنة ١٢٢١هـ/١٨٠٦م، وطردوا أغوات الحرمين وقاضي المدينة وقاضي مكة في سنة ١٢٢٢هـ/١٨٠٧م ومنع المحمل من المجيء الثلاث سنوات التالية، وعين يوسف باشا المعدني الصدر الأعظم السابق في ذي الحجة ١٢٢٣هـ/يناير ١٨٠٩م للسفر للحجاز على أن يقوم محمد علي بتجهيزه، وكذلك سليمان باشا والي بغداد ليهاجم الدرعية، وواصل الوهابيون زحفهم الى الشام شمالاً فوصلوا إلى حوران و الكرك، بل وإلى السويس، وفشلت جيوش العراق والشام في السيطرة عليهم، وأرسل سعود حملة على حدود الشام في سنة ١٢٢٥هـ/١٨١٠م مما دق حرس الإنذار في دمشق وأدى إلى عزل يوسف باشا، وبذلك جاء دور مصر وطلبت الدولة العثمانية المساعدة من محمد علي الذي إستطاع تحطيم قوة الوهابيين بعد ذلك. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ٢٢٠،

والصلاح، ويسمى عبد الوهاب^١، وكان يحضر درس الفقه بالأزهر على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه فمكث على ذلك برهة من الزمان (ص ٤٩) ثم سافر إلى

٢٣٤، ٢٣٥، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٥-٢٥٧، ٢٦٠، ٢٦٤، ٢٧٨، ٣٠٠، ٣٠٣، ٣٠٦، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٣، ٣٢٨، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٩، ج ٤، ص ٥-٦، ١٦، ٥٠، ٥١، ٥٣-٥٤، ٦٠، ٧٤، ٧٨، ٨٤، ٨٥-٨٦، ٨٩، ١٠٢، ١١٩؛ نقولا ترك: مذكرات، ص ٢١٣، ٢١٧؛ كلوت بيك: لحة، ج ١، ص ٦٥-٦٦؛ الرافعي: عصر محمد علي، ص ١٢١-١٢٤؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ١، ص ٥٧، ١٨٨-١٩١، ١٩٨، ٢٣٥، ٢٨٤-٢٨٥، ٢٩٩، ٣٢٧، ٣٣٤، ج ٣، ص ٩٨٥-٩٩٠، ١٠٠٦-١٠٠٧؛ وأنظر أيضاً:

P.M. Holt, Egypt and the Fertile Crescent, Ithaca, Cornell University Press, 1992, 153-154.

١ - عبد الوهاب: ينسب مذهب الوهابية إلى محمد بن عبد الوهاب بن سليمان، وكان جده سليمان قاضياً في مدينة العينية التي ولد بها محمد بن عبد الوهاب، وقد أخذ محمد بن عبد الوهاب عن أبيه وعن كثير من علماء مكة والمدينة التي أقام بها بعض الوقت، ثم خرج منها إلى البصرة، ولم تلق دعوته قبولاً حسناً بالبصرة، فانتقل منها إلى العينية سنة ١١٣٩هـ/١٧٢٦-١٧٢٧م، وفي سنة ١١٥٣هـ/١٧٤٠-١٧٤١م توفي الشيخ عبد الوهاب فأظهر ولده محمد الدعوة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وترك البدع، ونصره محمد بن سعود أمير الدرعية في سنة ١١٥٧هـ/١٧٤٤م، والذي حمل أهلها على متابعتها، وكانت "موضى" زوجة الأمير محمد بن سعود قد إستمعت إلى الشيخ وحشت زوجها على نصرته، وكان إنتقال محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية سنة ١١٥٨هـ/ ١٧٤٥م، وفي رواية أن محمد بن عبد الوهاب ولد سنة ١١١١هـ/١٦٩٩-١٧٠٠م وتوفي سنة ١٢٠٦-١٢٠٧هـ/١٧٩٢م، وفي رواية أخرى أنه ولد سنة ١١١٥هـ/١٧٠٣-١٧٠٤م وتوفي سنة ١٢٠٦هـ/١٧٩١-١٧٩٢م. وقد صنف محمد بن عبد الوهاب عدة مؤلفات في أصل الإسلام وتقرير التوحيد، منها كتاب "التوحيد"، وكتاب "كشف الشبهات"، وكتاب "الكبائر والمسائل" وغيرها، بالإضافة إلى الفتاوى والمراسلات الفقهية. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ٢٢٠، ٢٥٣، ٢٥٥-٢٥٧؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ٣، ص ٩٨٥؛ صلاح الدين المختار: تاريخ المملكة العربية السعودية، بيروت سنة ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م، ص ٣٥-٥٣؛ السيد محسن

أرض الحرمين ثم إلى بلاد نجد، ودخل بلد الدرعية^١، فوجد أهلها رعاةً من الناس عليهم المذلة للعرب من سائر الأجناس، وكانت العرب تدخل في تلك البلدة ويأخذون منها ومن أسواقها كل ما يطلبونه ويشتهونه من المأكّل والمشرب والملبس، ويدفعون فيما قيمته عشرة دراهم درهماً ودرهمين، ومن لم يرض أن يعطيهم بذلك الثمن أخذوا منه ذلك قهراً وآذوه الإيذا البالغ، وربما نهبوا ما لديه من ماله وعرض تجارتها، وربما دخلوا البلد وفعلوا بها جهاراً كلما أرادوه من نهب وسلب وقتل [وهذا دأبهم]^٢ على الدوام، وكان أهل هذه البلدة في خوف شديد مدة أعمارهم، ومن لم يكن له صاحب وصاحبان^٣ من قبائل العرب القريبة منهم لا يعرف أن يجلس مطمئناً بداره أبداً، وكانت هذه حالتهم على الدوام، فاتفق حين دخول عبد الوهاب بها وسكنه فيها تكلم مع أهل البلد من عقلايها وكبارها وصار يوجههم بالألفاظ الصعبة ويقول لهم كيف تصيرون على أمثال هؤلاء الصعاليك وهم يدخلون عليكم ببلدكم في كل وقت، (ص ٥٠) ويفعلون معكم تلك الأفعال الشاقة على النفوس، فإنه لا

الأمين: كشف الإرتياب في أتباع محمد بن عبد الوهاب، كنبخانة برزك اسلاه (د. ت)، ص ٣-

١١١

١ - الدرعية: تقع مدينة الدرعية بالمنطقة الجنوبية من إقليم نجد بالمملكة العربية السعودية، وقد أطلق على تلك المنطقة الرياض لإقامة كثير من أمراء البيت المالِك قصورهم في أرجائها، وتتألف المنطقة الجنوبية من المدينتين الكبيرتين: الرياض العاصمة، والدرعية وملحقاتها. اتخذها الوهابيين عاصمة لهم في قلب الجزيرة العربية، إستولى عليها إبراهيم باشا في ذي القعدة ١٢٣٣هـ/سبتمبر ١٨١٨م بعد حصار دام ستة أشهر، ثم دكت دكاً وسويت بالأرض بناء على أوامر من محمد علي نفسه. أنظر: صلاح الدين المختار: تاريخ المملكة العربية السعودية، ص ٢٢؛

108- Weygand, 112; Gabriel Enkiri, Ibrahim Pacha (1789-1848), Le Caire, 1948, 39-57.

٢ - في نسخة [دار الكتب] ما بين الحاصرتين مكتوب بهامش الصفحة الأيسر، وقد وضع الكاتب علامة لتوضيح مكانه بالنص.

٣ - في نسخة [دار الكتب] "صاحب أو صاحبان".

يصير على ذلك إلا مثل الأرامل من النساء، وأما من كان من جنس الرجال فحاش لله أن يكون بهذه الصفات، وكيف تمكنون طول أعماركم في غاية الضرر والذلّ ونساؤكم وأولادكم وأموالكم لا أمان لهم من هؤلاء الأعراب الأجلاف، فقالوا له يا شيخنا وكيف نصنع ونحن أناس ضعاف وهؤلاء أعراب ذو قوة وبأس شديد فقال لهم كذبتهم، ليس هؤلاء الأجلاف من أهل القوة، وإن تبعتموني وإقتديتم برأيي جعلتهم سيرة وطردتهم عنكم وجعلت بلدكم حصينة مهابة لا يقدر أحد من أمثالهم أن يسطو عليكم ولا يدنو منكم أبداً، فقالوا له نحن لانخالفك في شي أبداً، فدبر أمرنا ونحن معك ومتبعون لأمرك ولا نخرج عن طاعتك مطلقاً، فقال لهم نادو لي بالناس الشبان حتى أريكم ما يكون، فجعلوا له من شبانهم ممن سنه ثمان عشرة سنة وعشرين إلى الثلاثين وأحضرهم له، وكانوا نحو ثلثمائة، فتكلم مع الأغنيا في كونهم يشترون لكل رجل مكحلة بارود وقطعة (ص ٥١) سلاح، وهذا كله سراً بينهم، فما مضى خمسة عشر يوماً حتى صار الثلاثمائة كاملين السلاح وعلمهم كيف يكون الضرب والكفاح، ثم أرسل للأسواق أنه متى دخل الأعراب حكم عاداتهم وجلسوا في الأسواق يبيعون ويشترون، لا يمكنوهم من الحال الأول، وكل من لا يبيع أو لا يشتري بالقانون [لا بد أن]^١ يزجروه زجراً شديداً ويسبوه سباً مكيداً، ولا يخشونهم أبداً، ويكونوا على غاية من الأمن والطمأنينة، فإمثل جميعهم لذلك وأصبحوا وقد جلسوا في مواضعهم بأسواقهم وطرقهم.

وكان عبد الوهاب قد أظهر الصلاح الزايد وإشتهر بالخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكانوا قلده في مذهبه وأخذوا على طريقته، وكان أكبر صاحب له وأعظم معين له في أقواله وأفعاله وجمع له هذه الجموع من الشبان المذكورين رجل

^١ - في نسخة [دار الكتب] ما بين الحاصرتين مكتوب في الهامش للتصحيح.

من أهل البلد ومن مياسيرهم يسمى عبد العزيز^١، فاتفق معه على ما تقدم ذكره، وكان خليطه وصديقه، وكان هو الرئيس على طائفة هؤلاء الشبان، فأمرهم عبد الوهاب على لسان عبد العزيز أنهم متى (ص ٥٢) شاهدوا الأعراب قد دخلوا البلد وجلسوا في الشوارع والأسواق يبادرون إلى إغلاق باب البلد ويقف منهم عند الباب مقدار خمسين مستترين، فإذا جاء الأعراب مهزومين إليهم يضربونهم بالرصاص ويقتلونهم قتلة مهولة، وأرسلوا إلى سائر الناس من أهل الأسواق وبقيّة أهل البلد بأنهم إذا رأوا وقوع الحرب بين الشبان والأعراب يغلقون حوانيتهم، ومن كان به قوة للإعانة فليساعدهم^٢، ومن لم يكن كذلك فليجلس بداره ويحذف عليهم الأحجار من أعالي البيوت هم وأولادهم ونسائهم، وكل من أتى لأحد يريد أن يدخل داره من الأعراب ويطلب من صاحب الدار إدخاله وستره فليدخله فيها في محل منها، فإن كان به قوة قتله فعل ذلك وإلا أبقاه ويحضر ليخبر بذلك، وأمرهم أن يكونوا على غاية من الإحتراز في ذلك، فامتلأوا جميعاً لما يريد الله سبحانه وتعالى من إظهار غامض غيوبه التي حارت فيها الأفكار، ثم لما دخل الأعراب كعادتهم، وانتشروا متفرقين بالأسواق والطرق والشوارع بادر أوليك الشبان إلى إغلاق (ص ٥٣) باب البلد وجلس هناك

^١ - عبد العزيز: هو الأمير عبد العزيز بن محمد بن سعود ثالث الحكام السعوديين، وحفيد سعود الأول بن محمد مؤسس ملك آل سعود، ولد سنة ١١١٣هـ/١٧٠١-١٧٠٢م وتولى الحكم بعد وفاة أبيه الأمير محمد بن سعود سنة ١١٧٩هـ/١٧٦٥-١٧٦٦م، فاستولى على الرياض ثم القسم سنة ١١٨٦-١١٨٩هـ/١٧٧٣-١٧٧٥م، واستطاع أن يمد ملك آل سعود حتى شمل كل نجد والحجاز، وقد أعتبل الأمير عبد العزيز بن محمد بن سعود سنة ١٢١٦هـ/١٨٠١م في الطريف بالدرعية، إغتناله رجل كردي شيعي من لواء الموصل في مسجد الدرعية إنتقاماً منه لهجومه على كربلاء. شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ٣، ص ٩٨٥؛ صلاح الدين المختار: تاريخ المملكة العربية السعودية، ص ٧٧-٧٨؛

P.M. Holt, Egypt and the Fertile Crescent , 153.

^٢ - في نسخة [دار الكتب] "فليساعده".

الخمسون المعينون لذلك، ومكث معهم أناس متطوعون من أهل البلد، فجاءت الأعراب تصنع كعادتهم في بيعهم وشرائهم وإيذايهم الذي كانوا يفعلونه على الدوام، فقام إليهم أهل الأسواق وعارضوهم وتظاهروا لهم بالسب واللعن، فهاجت الأعراب وبادرت بضربهم وقتلهم، وصاحوا على بعضهم البعض، فهم كذلك وإذا بعد العزيز قد جاهم بالسلاح الكامل وصحبته الشبان المحاربون مائتان وخمسون، وتبعهم من أهل البلد ما ينوف عن مائتين، وصاحوا بالأعراب صيحة شديدة، ونزلوا عليهم ضرباً وقتلاً وجرحاً، فارتاعت الأعراب وشاهدوا شيئاً ما رأوه منهم أبداً، فولوا منهزمين وتفرقوا بالطرق وزاغت أبصارهم وإمتلأوا بالخوف، هذا وأهل البلد رجالاً ونساء وغلمان يصيحون عليهم من الدور ويضربونهم بالحجارة والطوب، وكثرت عليهم الضججات وتوالت عليهم المشقات، وعبد العزيز وجماعته يتبعونهم أينما كانوا حتى مزقوهم كل ممزق، وبعضهم دخل الدور (ص ٥٤) فقتل بها وهلك فيها ومن رجع منهم مهزوماً يريد الخروج من باب البلد ذاق الهلاك عند الباب ممن جلس هناك من المحاربين ومن معهم من أهل بلدهم، وكان يوماً على الأعراب مهولاً، شاهدوا فيه ضنكاً طويلاً وإذاقهم الله عذاباً وبيلاً، ولم ينج منهم إلا بعض أفراد قليلين إستتروا في جهات مكثوا بها حتى فتح الباب وخرجوا مختفين حتى وصلوا إلى قبائلهم، وبلغ ذلك الخبر إلى سائر القبائل القريبة منهم ثم البعيدة، فصاروا من ذلك في عجب ونزل بقلوبهم الرعب وخافوا من المجيء لذلك البلد، وإمتلأت بلدة الدرعية بالفرح والسرور وشاهدوا الأمن بعد تلك الشرور، وجلسوا في منازلهم مسرورين^١ مطمئنين، وعبد الوهاب يشدهم بقوله وخداعه ويعلم عبد العزيز محاسن تدبيره في سائر أفعاله، ومن تدبيره لذلك الأمر وإطفاء نار هذا الجمر أنه أمر عبد العزيز أن يبادر ويخرج بعساكره ليلاً إلى أقرب القبائل فيكبسونهم ليلاً ويذيقونهم حرباً وويلاً ليسمع الأعراب بذلك

^١ - في نسخة [سوهاج] "سارين"، والتصحيح في نسخة [دار الكتب]، فمكتوب في الهامش "بيان مسرورين"، لأن الكاتب كان قد كتبها بدون واو ثم أضافها بعد ذلك.

(ص ٥٥) فيزداد بهم الخوف ولا يحدثون أنفسهم بحربهم ولا الإقدام عليهم لأخذ ثأرهم، فإمثلة عبد العزيز وخرج بالليل ويصعبه نحو الستماية رجل، ومازال سائراً حتى وصل إلى قبيلة مشهورة وكبسوها بالظلام وصاحوا صيحة واحدة، فبادرت الأعراب مضطربين فزعين يدافعون عن أنفسهم وأولادهم، فما مكنوهم من ذلك وبادروا عليهم بالرصاص والسيف والرمح وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، فولوا الأدبار وتركوا الأموال والنساء والأولاد، فساقوا أبليهم ونهبوا أموالهم وشتتوهم في البوادي، وصمت أسماعهم فلا يقدرّون على إجابة المنادي، ثم رجع عبد العزيز بقومه منصوراً ودخل بلده وكانت له الأفراح وكثر بأهل البلد السرور والإنشراح، وحصل عند الأعراب الخوف والفزع وزال ما كان عندهم في أهل الدرعية من الطمع، ثم بعد أيام قليلة خرج عبد العزيز بإشارة عبد الوهاب عليه وصحبته نحو الألف رجل، فسار بهم حتى وصل إلى قبيلة أخرى فحاربهم بالنهار، وولوا بين يديه في (ص ٥٦) تلك القفار، وقتل رجالاً وجندلاً أبطالاً ونهب أبلاً وأموالاً، ثم عطف في رجوعه على قبيلة أخرى صنع بها كذلك، فهابته العربان وأرسلت إليه تريد المصالحة معه والأمان، فأجابهم وشرط عليهم شروطاً وجعل من كل قبيلة رجالاً معدودين وأناساً معلومين وقيدهم بكونهم^١ أجناده وعسكره وتحت أوامره، وأي وقت طلب منهم القدوم إليه أو السير مع من يرسله إليهم لحرب كل من أراد فعلهم الطاعة والإجابة، وفرض لكل رجل معلوماً له يكفيه في كل شهر، وكان يأخذ منهم زكاة الأبل والزروع والثمار في كل عام شيئاً كثيراً، فيخرج منه للطائفة المعدودين للخدمة والمجولين أجناداً له ما يكفيهم من أصل ذلك الإيراد، والباقي يأخذه هو فيدفع منه شيئاً مقدراً للفقراء والقرأ والفقها بما فيه كفايتهم، وفرض لعبد الوهاب وأهله شيئاً كثيراً ومقداراً جزيلاً غزيراً، وكذلك المنتمين^٢ إلى عبد الوهاب، وإستقامت سيرة عبد العزيز وكثرت أتباعه وإزدادت

١ - في نسخة [دار الكتب] "بكونه".

٢ - في نسخة [دار الكتب] "للمنتمين".

عساكره، وصار هو الأمير الكبير المشار إليه بالإجادة (ص ٥٧) والرياسة والحرب والظعن والضرب، وسار سيرة حسنة حميدة لا يظلم ولا يرضى بالظلم، وكان عبد الوهاب عندهم هو سيد علمائهم ورئيس طوائف فقهاهم ولا يخالفه عبد العزيز أبداً، وإتفا على ذلك الشأن ومكثا كذلك مدة من الزمان حتى صار تحت يد عبد العزيز أرض نجد بقبائلها والمعظم من جهات^١ الحجاز، وكل قبيلة خالفت أمره يرسل من عنده رجلاً وصحبته مقدار خمسين رجلاً ويعطيه أوراقاً صغيرة مكتوباً فيها للقبائل التي يمر عليها أن يخرج معه في طاعته كذا كذا رجلاً، وهكذا من كل قبيلة يأخذ رجلاً بحسب الأغراض وعلى قدر الكفاية بما يقوم بتنفيذ الأمر المطلوب لعبد العزيز، فتسير معه الرجال من القبائل ويجتمع الألوف المؤلفة معه ويذهبون فيحاربون كل من كان عاصياً إن كان قريباً أو قاصياً حتى ينقادون لأمره.

ولم يزل هذا صنعه حتى زاد الأمر وكثرت جيوشه وملك إلى أرض الطائف وأطراف الحرمين الشريفين^٢ مع أطراف اليمن، ومكث مدة سنين طويلة حتى هلك عبد العزيز (ص ٥٨) وعبد الوهاب، فقام بالأمر بعد عبد العزيز ولده سعود^٣، وكذلك بقى في مكان عبد الوهاب بعض أهله وهم على ما هم عليه، فاشتدت قوة سعود وكثرت أمواله، وخرج عن قوانين أبيه وتخلو في النعم ووقع منه الظلم والجور والتعدي على بلاد الحرمين، وما زال يزداد شره ويقوى شأنه وأمره، وزادت عساكره وعظمت قوته وهالت مظاهره وصار له رجال من الفرسان المشهورة، وأتباع من

١ - في نسخة [دار الكتب] "جهة".

٢ - في نسخة [سوهاج] "الشريفين" مكتوبة مرتين.

٣ - في نسخة [دار الكتب] مكتوب "مسعود" في باقي النص، وسوف نصححها بعد ذلك دون إشارة. وقد ذكره الجبرتي أيضاً باسم "مسعود". أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ٢٣٥، ج ٤، ص ١٨٠.

الأمراء المذكورة مثل ابن مضيان^١ والمضايفي^٢ وطامي^٣ وأشباهم، وتعدى طوره وجاء إلى حرب بلاد الحرمين وخرجت إليه العساكر من شريف مكة السيد غالب^٤،

١ - ابن مضيان: أحد أمراء الوهابيين، كان أميراً للمدينة المنورة، قبض عليه في ذي القعدة ١٢٢٧هـ/نوفمبر ١٨١٢م عند أخذ طوسون باشا للمدينة وأرسل إلى مصر ومنها إلى إسطنبول بصحبة لطيف بيك أغات المفتاح حيث طيف بهما فيها، ثم نفذ فيه حكم الإعدام. وقد قتل ابن مضيان في نفس يوم دخوله إسطنبول، وعلقت جثته على باب السراي السلطاني، وذلك في شهر ذي الحجة ١٢٢٨هـ/نوفمبر-ديسمبر ١٨١٣م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١٨١؛ السيد محسن الأمين: كشف الإرتياب، ص ٤١.

٢ - عثمان المضايفي: هو عثمان بن عبد الرحمن المضايفي، أمير الطائف والحجاز من قبل سعود بن عبد العزيز، وقائد قوات آل سعود ضد الحملة المصرية، وهو زوج أخت الشريف غالب، ثم انضم للوهابيين وأصبح من قادتهم المخربين، وجمع لهم قبائل العربان سلماً وحرباً، وهو الذي ضم الطائف سنة ١٢١٧هـ/١٨٠٣م وأصبح قائداً لها بعد فتحها، وهدم قبة ابن عباس التي وصفها الجبرتي بأنها "غريبة الشكل والوصف"، وأرسله سعود بن عبد العزيز والشريف غالب عندما علما بتكليف محمد علي بالقضاء على الوهابيين بجيش إلى المويلح القريبة من الأراضي المصرية، وهو الذي هزم طوسون باشا في موقعة الصفراء والجديدة في سنة ١٢٢٧هـ/١٨١٢م، وفر من الطائف بعد حرق حواده في المعركة أمام طوسون باشا في ٢٦ محرم ١٢٢٨هـ/٢٩ يناير ١٨١٣م، ثم قبض عليه، فأرسل محمد علي ابنه إسماعيل إلى إسطنبول لتبشير السلطان، وأرسله إلى القاهرة التي وصلها في ١٥ ذو القعدة ٩/نوفمبر من نفس العام، فاستقبله صالح أغا السلحدار ودخل به القاهرة في موكب إلى القلعة حيث حضر مجلس كتخدا بيك، واستضافه الكتخدا في منزله مكرماً، ثم سافر صحبة نجيب أفندي قبي كتخدا محمد علي ووكيله إلى إسطنبول حيث أعدم هناك. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ٢٣٥، ج ٤، ص ١٧٤، ١٧٩-١٨٠؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج ٢، ص ٢٣٤-٢٣٥؛ عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي، ص ٤٩؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ٣، ص ٩٩٥-٩٩٦؛ صلاح الدين المختار: تاريخ المملكة، ص ١٢٧-١٢٨.

٣ - طامي: هو طامي بن شعيب شيخ عرب العسير، من عشيرة عبد الوهاب، مؤسس المذهب الوهابي، عينه الأمير سعود بن عبد العزيز حاكماً على العسير وتهامة، أخذت منه قنفدة في سنة ١٢٢٩هـ/١٨١٤م بعد مهاجمتها براً وبحراً بقيادة محمود بيك وزعيم أوغلي وشريف أغا، ثم حاصر

المصريين وأخذها منهم، ثم هزم الجيش المصري بقيادة عابدين بيك عند اليمن وردداهم إلى الطائف بل وحاصره بها، وسار إليه محمد علي بنفسه لإنقاذ ابنه طوسون بالطائف، وإضطر طامي وقواته للإنسحاب، ثم توجه إليه محمد علي في صفر ١٢٢٩هـ/يناير-فبراير ١٨١٤م وتقابل مع طامي عند قصر الطور، فهرب طامي واستولى محمد علي على موقعه، ثم قبض عليه بمكيدة من الشريف راجح، بعد معركة "سبل" سنة ١٢٣٠هـ/١٨١٥م، وكان قد قبض عليه قبل ذلك في حصن "مسيلة" بتهامة، وأرسله للقاهرة في ٢١ جماد أول ١٢٣٠هـ/١ مايو ١٨١٥م ومنها إلى إسطنبول حيث أعدم. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢١١-٢١٢، ٢١٣، ٢١٩-٢٢٠، عبد الرحمن زكي: التاريخ العربي، ص ٥٣، ٥٥، ٥٩-٦٠؛ صلاح الدين المختار: تاريخ المملكة العربية السعودية، ص ١٤١، ١٥١.

٤ - الشريف غالب: تولى إمارة مكة وجدة والمدينة وما كان يضاف إليها من بلاد الحجاز نحواً من سبع وعشرين سنة بعد وفاة أخيه الشريف سرور اعتباراً من سنة ١٢٠٢هـ/١٧٨٨م. إتصل به نابليون بونابرت وقادة الحملة الفرنسية من بعده في مصر لتنشيط التجارة في البحر الأحمر والاتصال بالهند، وقام بطرد أتباع الدولة العثمانية وحاميتها. سلم مكة بعد حصار طويل إلى الوهابيين في أوائل سنة ١٢٢١هـ/١٨٠٦م ودخل في طاعتهم ولكنه لم يكف عن ظلمه للناس، ثم ساعد طوسون باشا في إستمالة عربان مكة والمدينة، حتى قبض عليه محمد علي في حملته ضد الوهابيين في ١٥ ذي القعدة ١٢٢٨هـ/٩ نوفمبر ١٨١٣م وأرسله إلى مصر بعد إستيلاء محمد علي على كل ممتلكاته ومتاجره وما في بيته وأرسالها إلى مصر، ووصل إلى القاهرة في ١٧ محرم ١٢٢٩هـ/٩ يناير ١٨١٤، وأنزل ببيت أحمد أغا شقيق كتحدا بيك بعطفة عبد الله بيك بخط السروجية حتى حضرت زوجاته بعد ذلك في صفر/يناير-فبراير من نفس العام، فنقل إلى بيت السيد محمد المحروقي بالغورية ثم إلى بيت لطيف باشا بسوق العزي بعد إعداده له، ثم أمر السلطان برد كل ما أخذ من الشريف إلى خزانة الدولة، كما أمر السلطان بنفي الشريف غالب إلى سلاتنيك باليونان، وغادر القاهرة في ١٩ شعبان/٦ أغسطس من نفس العام، وبقي فيها حتى توفي في وباء الطاعون سنة ١٢٣١هـ/١٨١٦م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٢، ص ١٥٨، ج ٤، ص ٥-٦، ١٤٩، ١٧٣، ١٩٧، ١٩٩-٢٠٠، ٢٠٢-٢٠٣، ٢٠٦-٢٠٧، ٢١٢-٢١٣، ٢٦٢؛ علي مبارك: الخطط، ج ١٢، ص ٧٨-٨٢؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ١، ص ٧٩، ج ٣، ص ٩٩٥، ٩٩٦، ٩٩٧، ١٠٠٨، ١٠٠٩؛ السيد محسن الأمين: كشف الإرتياب، ص ٤٢-٤٣، ١٢٨-١٢٩؛

وكذلك توجه إليه من مصر أحمد باشا^١ وشريف باشا^٢ وغيرهما بالعساكر السلطانية، وما أمكنهم أن يصدوه عن الحرمين، وما زال حتى غلب على شريف مكة فأطاعه

محمد زكريا عناني: مراسلات متبادلة بين الشريف غالب بن مساعد وبين نابليون بونابرت ورجال حملته على الشرق (إضافات)، مجلة الدارة، عدد ٤، السنة ٢١، الرياض سنة ١٤١٦هـ، ص ٢٩-٥.

١ - أحمد باشا: كان بدمياط من طرف محمد باشا وحضر إلى القاهرة بقواته سنة ١٢١٨هـ/١٨٠٣م عند صدور الأمر له بالتوجه إلى الحرمين للولاية على جدة والمدينة المنورة ومحاربة الوهابيين في مكة وأرسلوا له أسلحة وعساكر من الإنكشارية، ولكنه ظل في مصر ليتحد مع محمد باشا وجنود الإنكشارية للتخلص من طاهر باشا وطرده الأرناؤوط، وتولى أحمد باشا على مصر بعد مقتل طاهر باشا في صفر ١٢١٨هـ/مايو-يونيو ١٨٠٣م لحين حضور محمد باشا من دمياط، فكانت ولايته يوماً ونصف، ولكن محمد علي أرسل إلى إبراهيم بيك الكبير للحضور إلى القاهرة مع باقي المماليك ليكونوا يداً واحدة، وحاول أحمد باشا تجميع العلماء حوله ولكنه فشل، وأمره إبراهيم بيك بأن يأخذ عساكره إلى الشام ويرحل في خلال يوم واحد، فخرج وتحصن بجماع الظاهر بيبرس في ٦ صفر ١٢١٨هـ/٢٨ مايو ١٨٠٣، وظل ينتظر حضور محمد باشا من دمياط، فحاصره الأرناؤوط والمماليك، وحدثت معركة بينهم انتهت بتسليم أحمد باشا نفسه إلى عثمان بيك البرديسي، وأسكنه في قصر العيني، وأخرج دون سلاح إلى الشام، ثم وصل في نفس الشهر خطاب من الدولة بتوليته قائمقام على مصر لحين حضور والي جديد وهو علي باشا، فكانت مدة توليته على مصر ثلاث وعشرون ساعة. الجبرني: عجائب الآثار، ج ٣، ص ٢٣٩، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٨٧؛ نقولا ترك: مذكرات، ص ١٣٢-١٣٥، ١٥٠؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ١، ص ٥٢.

٢ - شريف باشا: كان دفتداراً بمصر حتى عزل في رجب ١٢١٧هـ/أكتوبر ١٨٠٢م، ثم تولى على جدة في ١٧ رجب ١٢١٧هـ/١٣ نوفمبر ١٨٠٢م، وخرج موكبه من مصر إلى السويس للذهاب إليها في ١١ ذو القعدة ١٢١٧هـ/٥ مارس ١٨٠٣م، ثم توجه براً من ينبع إلى جدة، وترك مكة مع شريفها إلى جدة في ٢٠ ذو الحجة ١٢١٧هـ/١٣ أبريل ١٨٠٣م، وتحصن بها مع الشريف غالب بعد أخذ عبد العزيز بن سعود لمكة في أواخر سنة ١٢١٧هـ، وحاصره الوهابيون في جدة تسعة أيام دون جدوى، وكانت الدولة قد أرسلت مع علي باشا الجزائري عساكر لتعزيز شريف باشا سنة ١٢١٨هـ/١٨٠٤م، فأخرجهم محمد علي والأمراء المماليك إلى الصالحية وقطعت

وجعله الوهابي أكبر قومه وسماه أمير الأمراء، وإستولى على مكة ثم سار منها إلى المدينة الشريفة، فحاصرها حصاراً شديداً حتى عدت الأقوات بها بالمرّة، ثم أطاعوه من شدة الجوع والخوف، فإستولى على المدينة المنورة (ص ٥٩) على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وفعل بها طوائف الوهابية من الشر والقبائح ما يزيد عن الحد حتى صعد منهم العدد الكثير والجسم الغفير على سطح المسجد النبوي وأحاطوا بالقبة الشريفة وملأوا دوائرها جميعاً بالبول والغائط، وصار ذلك شعارهم قبحهم الله أجمعين^١.

وعقائدهم الزائفة معروفة غير منكورة، بل مشهورة مذكورة، وزاد شر سعود وأتباعه وقومه حتى ملك أرض بطحاء مكة والمدينة وبلاد حرب وسائر البلاد مع جميع القبائل، وصاروا تحت طاعته خوفاً من شره ورهباً من معاقبته، وبقي حكمه

أخبارهم بعد ذلك، وجاء خبر موته بها بالسم في صفر ١٢١٩هـ/مايو ١٨٠٤م على يد الشريف غالب. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٣-٢٣٤، ٢٣٦، ٢٤٦، ٢٥٣، ٢٦٤، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٩٧، ٣٠٣؛ نقولا ترك: مذكرات، ص ٢١٣؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ١، ص ٤١، ٥٧.

١ - دخول الوهابيين المدينة: لم يذكر الجبرتي قيامهم بمثل هذه الأفعال، وذكر صراحة أنهم لم يحدثوا بها حدثاً غير منع المنكرات، فقد أورد في حوادث شهر رجب ١٢٢٠هـ/سبتمبر-أكتوبر ١٨٠٥م أنه "وردت الأخبار بأن الوهابيين إستولوا على المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم بعد حصارها نحو سنة ونصف من غير حرب، بل تحلقوا حولها وقطعوا عنها الوارد، وبلغ الأردب الحنطة بها مائة ريال فرانسه، فلما إشتد بهم الضيق سلموها ودخلها الوهابيون ولم يحدثوا بها حدثاً غير منع المنكرات وشرب التبنك في الأسواق وهدم القباب ماعدابة الرسول صلى الله عليه وسلم". وذلك في أوائل سنة ١٢٢١هـ/مارس-أبريل ١٨٠٦م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٦.

نافذاً إلى أرض عقبة إيليا^١، وكثر الظلم منه والجور، وتوالى منه العدوان والفجور، وصار له ما يزيد على الأربعمئة ألف ما بين فارس وراجل، وهابته الملوك وتملك الكثير من أرض الشام إلى أرض المزيريب^٢، وما زال كذلك حتى فوّض حضرة مولانا السلطان محمود^٣ ذلك الأمر إلى حضرة وزيره الأكبر الصدر العزيز الأفخم الأفخر النبيل الجليل السائر في أشرف منهج وأقوم سبيل، من إرتفع سرادق (ص ٦٠) عزه على متن الأثير وسما قدره إلى ذرى كل كوكب منير، وعلا قدم سعده إلى أوج ذكّا وخجل عطارده من إشعة فكره فهما وذكّا، وخضعت لقوة عزمه الضراغم، وفرت من سطوات بأسه الضياغم، رئيس الوزراء وكفيل السّرورات والأمراء، مركز دائرة الحماسة ومنبع رائق معين التدبير والسياسة، نظام الممالك وبهجة الدول الفائق بأسرار العناية

١ - عقبة إيليا: هي ميناء العقبة المعروف حالياً، والعقبة هي الجبل الطويل يعرض للطريق فيأخذ منه، والباء أحد أسماء مدينة بيت المقدس، ومعناه بيت الله، وقيل غير ذلك، ويذكر ياقوت أنها آخر الحجاز وأول الشام. الحموي، ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي: معجم البلدان، ٥ أجزاء، دار الكتاب العربي، بيروت (د.ت)، ج ١، ص ٢٩٢-٢٩٤، ج ٤، ص ١٣٤.

٢ - أرض المزيريب: هاجمها الوهابيون ثم انسحبوا منها قبل مجيء يوسف باشا لحربهم، فحاصنها ورجع إلى مقره، وقد خلع السلطان محمود يوسف باشا لهذا السبب، ولجأ إلى مصر وتدخل محمد علي في الصلح بينه وبين السلطان، وظل في مصر إلى أن مات ودفن في مقابر أسرة محمد علي خلف الإمام الشافعي في ٢٠ ذي القعدة ١٢٣١هـ/ ١٢ أكتوبر ١٨١٦م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١١٩، ١٢١، ١٢٢، ١٣٢، ٢٢٨، ٢٦٦-٢٦٩، محمد حسام الدين إسماعيل: وجه مدينة القاهرة، ص ٨٢-٨٣.

٣ - السلطان محمود: حكم من سنة ١٢٢٣هـ/ ١٨٠٨ إلى سنة ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م، قاد حركة الإصلاح في الدولة العثمانية، من أهمها إلغاء فيالق الإنكشارية سنة ١٢٤٢هـ/ ١٨٢٦م. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٨٠، ٨٣-٨٤، إبراهيم حليم: تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٨٨-٢١١.

٤ - في نسخة [دار الكتب] "ذوي".

على أساطين الأول، ذو المجد العلي حاضرة محمد باشا علي^١ أيده الله بتوقيقه، وآتاه كمال السداد في طريقه وأمدّه بالعناية وأحاطه بالحفظ والرعاية أمين.

فلما كان ما ذكرناه وأرسل حاضرة مولانا وسيدنا إمام الخلفا وقُدوة أساطين الخنفا، ظل الله على رعيته وخليفته في خليقته، السلطان الأعظم والسيد السند الأفخم، صفوة الأبرار وخلاصة الخلفا الأخيار المنشور عدله في الخافقين، المشكور في منطوق الثقلين، حاضرة مولانا السلطان محمود دام ملكه وسلطانه أمين^٢، أرسل من حضرته أمراً مقبول الطاعة مسموع المضمون لدى (ص ٦١) أهل السنة والجماعة يتضمن منطوقه أمر حاضرة الصدر العلي أيده الله بالتكفل بإنقاذ بلاد الحرمين الشريفين مكة والمدينة وتلك الديار، وأن يصد الوهابي وجيوشه بالحرب ويدفع ضرره ويكف عن الناس شره حتى تخمد جمرته وتنكسر شوكته، بل وينقطع دابره ويهلك معينه وناصره، ويظل ذكر عقيدته الباطلة.

فبادره حاضرة الصدر العلي المعظم قدره المشهور ذكره الحمود أمره وجعل أول الأشياء على الإطلاق الأمر بإحضار الأخشاب لصنع المراكب التي تسير بالمطالب كلبها من بحر السويس^٣ إلى جدة^٤ والمويلح^٥ والينبع^٦، فأحضرت له الأخشاب النقية الجليلة

^١ - كان أول أمر من السلطان إلى محمد علي بالقضاء على ثورة الوهابيين بالحجاز بعد توليته على مصر مباشرة في ٢٦ ربيع ثان ١٢٢٠هـ/ ٢٤ يوليو ١٨٠٥م، وتابع السلطان بعد ذلك حثه على الخروج لقمع الوهابيين. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ٣٣٩، ج ٤، ص ٧٤؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج ٢، ص ١٩٦؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ١، ص ٣٢٨، ج ٣، ص ٩٨٧، ٩٨٨.

^٢ - من هذا النص يتضح لنا أن الرجعي كتب مخطوطه هذا قبل وفاة السلطان محمود في ١٩ ربيع ثان ١٢٥٥هـ/ ٢ يوليو ١٨٣٩م. أمين سامي: تقويم النيل، ج ٢، ص ٤٩٦.

^٣ - السويس: في النهاية الشمالية من خليج السويس، كان هناك عند دخول العرب لمصر في القرن ٧م قرية تسمى "كليسا" سماها العرب "القلزم"، وفي القرن ١٠م نشأت إلى الجنوب منها قرية صغيرة سميت "السويس" وما لبثت أن شملت القلزم وأصبحتا مدينة واحدة، وأنشئت محافظة

الزائدة في الكثرة حتى كانت مثال التلال، وأمر بإحضار الصناع فحالا حضرت التجارون والنشارون والمهندسون، وأحضروا كلما يلزم له الحال من حديد وآلات، واجتمع الجمع الكثير، ولازمتهم خدام المصالح والمباشرون لهذه الأعمال^١، واجتمع

السويس سنة ١٢٢٥هـ/١٨١٠م، وزادت أهميتها العالمية بعد افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩م. محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥، قسمان، ٥ أجزاء، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة سنة ١٩٩٤م، ج ٢، ص ١، ج ١، ص ٧.

٤ - جُلَّة: تقع على الساحل الشرقي للبحر الأحمر، أحد أهم مواني الحجاز، سميت بذلك نسبة إلى "جُدَّة بن حزم بن ريان بن حلون بن عمران بن الحاف بن قُضاعة" الذي ولد بها. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١١٤-١١٥.

٥ - المولىح: إحدى منازل الحج المصري على الساحل الشرقي للبحر الأحمر، أنشأ بها داود باشا (١٥٤٣هـ/١٥٣٦م - ١٥٤٥هـ/١٥٣٨م) قلعة بها طائفة من الجند لحماية قوافل الحاج. آمال العمري: دراسات في وثائق داود باشا، القاهرة سنة ١٩٨٦، ص ٩.

٦ - الينبع: ميناء المدينة المنورة على البحر الأحمر، يقع على مسافة ٢٣ كم غربي المدينة المنورة، وهو أحد المحطات الهامة للحج المصري.

١ - عين محمد علي ديوان أفندي ناظرًا لمهمات الحرمين في ٣ جماد ثان ١٢٢٥هـ/٦ يوليو ١٨١٠م، ثم كلف السيد محمد المحروقي بهذه المهمة مع التحضير لسفر الجيش المصري للحجاز إلى جانب منصبه كشاف بندر للتجار، حيث أورد الجبرتي وظائفه كالاتي "المتعين لمهمات الأسفار وقوافل العربان ومخاطباتهم وملاقة الأخبار الواسلة من الديار الحجازية والمتوجه إليها، وأجر المحمول وشحنة السفن ولوازم الصادرين والواردين والمنتجين والمقيمين والراجلين، والمتعهد بجميع فرق القبائل والعشائر وغرائلهم ومحاماتهم وارغابهم وارهابهم وسياستهم على اختلاف أخلاقهم وطباعهم، وهو المتعين أيضاً لفصل قضايا التجار والباعة وأرباب الحرف البلدية وفصل خصوماتهم ومشاجراتهم وتأديب المنحرفين منهم والنصايين"، وأوصى محمد علي ابنه طوسون بطاعة المحروقي واستشارته في كل كبيرة وصغيرة، ولكنه رجع بعد موقعة الصفراء لقيام كبار العساكر عليه. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١١٨، ١٣٥، ١٣٧-١٣٨، ١٤١، ١٧٦، ٢٦٩؛ أمين سامي: تقويم، ج ٢، ص ٢١٩؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ٣، ص ١٠١.

لذلك ما يزيد عن الحد، ففي أزمان يسيرة وأشهر معدودة شهيرة أكملوا (ص ٦٢) عدداً كثيراً من المراكب الجليلة، وضبطوا أخشابها ما يصلح للجنب والظهر والأسفل والأعلى، وأتقنوا ذلك كله بالبر في ترسخانة مصر^١، وأحضروا لوازم ذلك من الصواري والقماش للقلوع، فلما أتموا هذا العمل العظيم وأتقنوه على غاية السداد وكمال التنظيم، بحيث أن الأخشاب مفحورة مضبوطة خالصة تامة لا تحتاج إلا لضرب المسامير في بعضها البعض رفعوا ذلك كله وحملوه جميعه على الجمال، وبالفوا في ضبط تلك الحمول والأثقال، وصاروا يجعلون الجمل تجاه الآخر متحاذين وبينهما فرجة قريبة ليتوازي حملهما كالعدلين، وصاروا يجعلون الأخشاب مضبوطة محررة مربوطة على كل من الجمالين ووراءهما أحران كذلك على هذا الشكل والمثال، ووراءهما غيرهما بهذا الصنع والمنوال، وكان عدد الجمال لا يحصى، وساروا من طريق البر حتى وصلوا بجميع ذلك إلى نغر السويس، واجتمعت هناك العمال وأرباب هذه الأشغال، وأتموها عن قرب ونزلوها في البحر وجعلوا عليها القار والشحم،

^١ - كانت تسمى ترسانة (دار صناعة) بولاق، إنشئت على ساحل بولاق في ١٨ ذي الحجة ١٢٢٤هـ/ ٢٤ يناير ١٨١٠م، فتبنى بها السفن ثم تحمل أخشابها على الجمال وتركب في السويس وتلقى في البحر استعداداً لسفر جيشه الى الحجاز، وذلك لما رأى أن السفر عن طريق البر فيه كثير من الخسائر البشرية، وأن السفر عن طريق البحر لا يتيسر الا بسفن كبيرة، وكانت السفن الكبيرة في البحر الأحمر ملكاً للشريف غالب شريف مكة الذي كان متحداً مع الوهابيين أعداء الدولة العثمانية، واستمر العمل بتلك الترسانة بعد ذلك لعمل السفن النيلية لتقل البضائع. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١٠٢-١٠٣، ١٥٢-١٥٣، ٢٥٦-٢٥٧؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج ٢، ص ٢١٩؛ عمر طوسون: صفحة من تاريخ مصر في عهد محمد علي، الجيش البري والبحري، القاهرة سنة ١٩٤٠م، ص ٦٢-٦٣؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ٣، ص ١٠١٠؛ عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي، ص ٣٦٣-٤٨٠؛

وأتموها وهي على (ص ٦٣) ظهر البحر كالعرائس المجلوة، وكانت ورا بعضها البعض تالية ومتلوة، ثم لما لم يبق من صنعها شي وصارت على كمال المتانة ونهاية الحصانة، أمر حضرة صاحب السعادة بأن تشحن جميعها بالغلل والذخائر من القمح والفلول والأرز والجبن والعسل والزيتون والزيت والسمن وأنواع كثيرة مما يلايم ذلك، ووضع كذلك فيها آلات الحرب من البارود والمدافع والبنب والجلل آلافاً مؤلفة، وكذلك عساكر وأجناس^١ الطبحية، وأكثر من هذه الأشياء وبالغ أيده الله في الشحنة منها، وأمر بأن يتوجه منها مراكب إلى ينبع لجهة المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وأمر بالبعض الآخر أن يسير إلى جدة لإغاثة أهل مكة كذلك وإعانة سكان تلك الديار، وألزمهم ببحث السير، فساروا ووصلوا وحصل الفرخ لأهل الحرمين ببلوغهم ذلك الخبر، ثم أن حضرته أيده الله أمر حضرة نجله السيد الكريم والعزيز الرئيس العظيم الشجاع الهمام والبطل الضرغام حضرة سيدنا طسن باشا رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه غرف الجنان بعناية الحنان المنان^٢، وحزم عليه أن يسير مصحوباً بالعساكر والأجناد والرجال والفرسان الأقويا الشداد من طريق البر، وعلى سبيل النهضة والسرعة بإنفاذ هذا الأمر، فاجتمعت العساكر وتوالت الدساكر وحشدت

^١ - في نسخة [دار الكتب] "أجناد".

^٢ - قضى طوسون باشا وقتاً طيباً - بعد عودته من حملته الغير ناجحة على الحجاز في نظر والده - بالساحل الشمالي في أحازة على شواطئ الإسكندرية ورشيد، كما قام بتنفيذ أمر والده في توزيع العساكر والقادة المتمردين في شمال البلاد، وتوفى فجأة بالطاعون في قصر برينبال، وذلك في مساء ٧ ذي القعدة ١٢٣١هـ/ ٢٨ سبتمبر ١٨١٦م، وأحضروا تابوته إلى بولاق، وشيعت جنازته في ١٠ ذي القعدة/ ١ أكتوبر، ودفن في المقابر التي بناها محمد علي لعائلته خلف قبة الإمام الشافعي، وذكر الجبرتي أنه "مات في مقبر الشيبية لم يبلغ العشرين، وإنه كان بطلاً شجاعاً منقاداً لملة الإسلام، ويعترض على أبيه في أفعاله، ولغالب الناس إليه ميل، وكانوا يرجون تأمره بعد أبيه، ويأبى الله إلا ما يريد". أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٥-٢٤٦، ٢٦٤-٢٦٦؛ محمد حسام الدين إسماعيل: وجه مدينة القاهرة، ص ٨٢-٨٣.

الرجال وسارت الأبطال وهم كالليوث الكواسر وإثالوا ملي القضا كنهل^١ ومرسل الغيث الماطر، أو كالبحر الخضم الزاخر^٢، وسار حضرة صاحب السعادة أيده الله بنفسه الكريمة في مقدمة العساكر وقد شق مدينة مصر^٣، وكان حرسه الله زينة للناظر وسيره فرحاً لكل لب ومسرة لكل خاطر، حتى نزل بسائر العساكر خارج مصر ورتبهم غاية الترتيب المرهق للأعداء، ودبر ضبطهم برأيه الجالب للخصوم أصناف الرداء، وقدم على جميعهم وأمر على جليلهم ووضعهم حضرة نجله طسن باشا عليه الرحمة والرضوان وجعله حاكماً وضابطاً لذلك العرضي الجامع للخاص والعام، وسير (ص ٦٥) صحبه سادة العلماء منهم الأستاذ الكبير والعلامة الشهير مولانا الشيخ محمد المهدي^٤ وغيره من طوائف الأفاضل الذين تزدان بهم المواكب والجحافل^٥، وكذلك الحكماء العارفين^٦ بالطب المتفرغين^٧ لهذه الفنون.

^١ - في نسخة [دار الكتب] "كمهل".

^٢ - كان تجمع الجيش في المعسكر (العرضي) الذي أعد لذلك بشمال القاهرة عند قبة العزب (العباسية الحالية)، وسافرت بعض العساكر إلى السويس في ٢٠ جماد ثان ١٢٢٦هـ/ ١٢ يوليو ١٨١١م لتكمل الطريق بجرأ، ثم سافرت العساكر البرية في ٢ شعبان ١٢٢٦هـ/ ٢٢ أغسطس ١٨١١م من السويس، وسافرت باقي العساكر برأ في ٩ رمضان/ ٢٧ سبتمبر من نفس العام. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١٢٧، ١٣٤، ١٣٥؛ عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي، ص ٤٦.

^٣ - كان هذا اليوم هو يوم مذبحه الممالك بقلعة الجبل، وقد أعد محمد علي حفلاً لتوديع ابنه إستغله لدعوة كل أعيان البلاد بما فيهم أمراء الممالك ليستغل الفرصة للغدر بهم. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١٢٧-١٣١.

^٤ - الشيخ محمد المهدي: ولد قبطياً ثم اعتنق الإسلام، رباه الشيخ محمد الحنفي، وكانت له علاقات سياسية بالنخبة الحاكمة وخاصة لإسماعيل بيك شيخ البلد، وقد حاز من ذلك ثروة لا بأس بها، وقد بقى بالقاهرة زمن الحملة الفرنسية وعمل وسيطاً بين الفرنسيين والمصريين، ولم يأفل نجمه بعد ذلك، فأخذ وظائف السيد عمر مكرم بعد نفيه إلى دمياط، وصحب طوسون باشا في حملته

وما زال حضرة صاحب السعادة أيده الله يرتب ذلك الجمع ويهندس به بأحسن كيفية وأتم وضع حتى لم يبق لهم شي ينقصونه ولا معنى غريباً يرفضونه، بل إنتظم ذلك الجيش كمال الإنتظام، وإستتم أمره بغاية المهابة والإجلال والإعظام، ثم ودع أيده الله حضرة نجله وأوصاه بعساكره وسائر فرسانه ورجاله، وأمره بالإعتنا بالعلما وبكبار العساكر وصية كاملة وافية بالأغراض كافة، فسار بعساكره وأتباعه حسب الأمر المطاع الواجب القبول والإتباع^١، ورجع حضرة الصدر العلي لمصر مسروراً والرعية تدعوه ولحضرة نجله بالنصر والتأييد والعز والتسديد، وجلس في مدينته بالقلعة وبالبزبكية كعادته^٢.

على الحجاز، ثم عين الشيخ المهدي شيخاً للأزهر سنة ١٢٢٧هـ/١٨١٢م عقب وفاة الشيخ عبد الله الشرقاوي، ولكن هذا التعيين سرعان ما ألغي. بنى عدة دور بإنحاء القاهرة، لازال أحدها باقياً إلى الآن عند تقاطع شارع الأزهر مع شارع بورسعيد من جهة حارة المنصورة، وتوفى في صفر ١٢٣٠هـ/يناير ١٨١٥م. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٩٩، ١٦٤-١٦٥، ٢٣٣-٢٣٧؛ علي مبارك: الخطط، ج٤، ص٤١.

٥ - أرسل محمد علي مع الجيش جماعات من الصناع والحرفيين، والشيخ محمد المهدي من الشافعية، والسيد أحمد الطحطاوي من الحنفية، وشيخ حنبلي. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١٣٤.

٦ - في نسخة [دار الكتب] "العارفون".

٧ - في نسخة [دار الكتب] "المتفرغون".

١ - كان هذا في يوم ٢ شعبان ١٢٢٦هـ/٢٢ أغسطس ١٨١١م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١٣٤.

٢ - كان محمد علي غير محدد الإقامة وخاصة في فترة حكمه الأولى من سنة ١٨٠٥-١٨١١م، فكان يقيم ما بين القلعة وقصر الألفي بيك بالأزبكية وقصر شبرا. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٢٢-٢٢٨؛ محمد حسام الدين إسماعيل: وجه مدينة القاهرة، ص٤٥.

وبعد ذلك لم يترك الأمر سدى ولم يتشاغل عنه أبداً، بل صار يوالي إرسال (ص ٦٦) المراكب المشحونة المملوءة له بكل ما يحتاج له الحال من المهمات والأموال، وجعل ذلك دأبه على الدوام، لا يهمل النجدة ولا الإعانة في توالي الأزمان والأيام، والأخبار واردة إليه وصادرة عنه مع كل هجان وساعي، وهو ملازم لهذه المعاني وسائر في تلك المساعي، وكان حضرة طسن باشا يواصل الحط والترحال على أبهج شأن وأبهى سنن وحال، ومازل كذلك حتى وصل قرب مكة، ودخل أرض عرب حرب في جهات الصفراء وتلك المنازل^١، فصادف عسكر الوهابي وماله من المراكب والجحافل وهم جالسون بتلك الأرض وقد ملأوا طولها والعرض، وتحصنوا بالجبال وصعدوا إلى شواحق تلك التلال ورتبوا نفوسهم وأحكموا صفوفهم، فأقدم حضرة طسن باشا على حربهم وضمهم على طعنهم وضربهم، فسار مع مماليكه وطوائف أتباع دايرته وأمر رؤساء العساكر أن يفعلوا كفعله ويكونوا على شاكلته وشكله، ومازال كذلك حتى وقعت العين على العين، فحمل حضرة (ص ٦٧) طسن باشا وكل من الفريقين ووضع فيهم الحسام، وحكم عليهم سيفه الصمصام حتى هزم

^١ - عرب حرب في جهات الصفراء: ينحدرون من أصول عديدة وأماكن شتى، فهم واحداً من أهم القبائل في نجد والحجاز والعراق ولبنان وفلسطين. أنظر: عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب، دمشق سنة ١٩٤٩م، ج ١، ص ٢٥٩-٢٦٢؛ وأنظر أيضاً:

A. Jaubert, "Nomenclature des Tribus Arabes," Description de l'Egypte, Etat Moderne, Paris, 1821-1829, Vol. XVI, 110 and 134.

وفي الصفراء -أحد مدن الحجاز إلى الجنوب الغربي من المدينة المنورة- استطاعت حرب التي كانت قد اعتنقت مذهب الوهابية أن تهزم قوات طوسون باشا في ١٨ ذي القعدة ١٢٢٦هـ/٤ ديسمبر ١٨١١م في معركة الصفراء وترغمه على التراجع إلى ينبع، ورجع الخيالة إلى المويلح، بل ورجع الكثير من القادة والعساكر بحراً، ثم أخذ طوسون باشا عقبة الصفراء والجديدة مرة أخرى من غير حرب بعد أن تحالف مع العرب وبمساعدة شريف مكة سنة ١٢٢٧هـ/١٨١٢م. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١٣٧-١٣٨، ١٣٩-١٤٠، ١٤٦، ١٧٢، ١٧٩، ٢٣٦؛ عبيد الرحمن زكي: التاريخ الحربي، ص ٤٧.

أوابيلهم، فأراد أن يتبعهم ويوالي عليهم الهزائم وإذا به قد تأمل فلم يجد عنده سوى مماليكه وطائفة الشغسية^١ وجماعة من الأغوات الصقلية وبعض رؤسا من أوليك العساكر، ووجد معظم عسكره بعيداً عنه، ولم يجد إسعافاً منهم وهذا من سوء تدبيرهم، فأراد الرجوع والكلام معهم وزجرهم ليخوضوا معه في تلك الوقائع، ويلجوا تابعين له مضايق هاتيك المواضع، فرأى عساكر الوهابية خرجت من كمين لهم عدداً كثيراً آلافاً مؤلفة على شكل واحد وصورة متحدة وكلهم لابسون البياض وقد خاضوا تلك اللجج والحياض، فخشى من إحاطتهم به وبجميع أتباعه، فحمل كالليث الهدار يمانع عن جنده ونفسه، ولم يبال بكثرة تلك الجموع في ظاهره وحده، ومازال يمانع ويدافع ويضرب بسيفه القاطع، وفعل فعال الأسود وصال وجال على أولئك الجموع، ولازال (ص ٦٨) كذلك حتى رجع سالماً وصحبته أتباعه، ومات منهم في هذه المرة عدد حيث إنقطع عنهم المدد، وسار بمن بقي معه راجعاً سائراً حتى نزل على شاطئ البحر، ووقع خلل في العرضي بسبب تكاسل المتأخرين وبعض الرؤسا المغرورين الفارين، ثم اجتمع الجميع على الشاطئ عنده ونزلوا بجواره وتلاحقت به الأجناد، وصار في غاية الغم والغيظ على أوليك الأقوام، وأرسل في عاجل الحال الخبر إلى والده الوزير الهمام، فما هاله ذلك الخبر ولا غير له ذهنأ ولا شئت لديه الفكر، بل بادر بنفسه وطلب التوجه إليهم يومه قبل أمسه، لكنه تربص أياماً وتصبر أزماناً، وحضرت من طريق القصير^٢ تلك الرؤساء المخذولون، فأسل

١ - طائفة الشغسية: هم من الجند المخصص لحراسة محمد علي، وكانوا من المشاة والخيالة، جاءت في الجبرتي بلفظ "الصفاشية"، و"الشفاشية الخيالة"، و"شفاشيتة"، و"السفاشية". الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١٢٩، ١٤٦، ٢١٢، ١٧٧، ١٧٩.

٢ - طريق القصير: هو الطريق الممتد من القصير إلى قنا إلى قوص، ثم يأخذ النيل إلى القاهرة، وقد إهتم به محمد علي لأنه يصل البحر الأحمر بالنيل، مما يسهل المسافة من الحجاز إلى القاهرة. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١٣٨، ١٤١، ٢٢٠؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج ٢، ص ٢١٢، ٢٥٠؛

إليهم وإلى خواصهم بالنفي والطرده عن قطره، والإخراج لهم عن كنفه وخدمته، فحصل لهم الذهول والهون، وزال عنهم ما كان بهم من العز والصون، وخرجوا مطرودين أذلاً، وبعضهم إستغاث بجنابه وبرهن على عدم نفاقه. بمقول صوابه^١، ثم أنه أيده الله سار بنفسه حتى حل (ص ٦٩) ركابه الشريف ببلاد الحرمين^٢ واجتمع بنجله

عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي، ص ٦٢؛ محمد ومزي: القاموس، ج ٢، ص ٤٤، ص ٢٧١؛ السيد السيد أحمد توفيق دياب: السياحة في مصر خلال القرن التاسع عشر، دراسة في تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي، القاهرة سنة ١٩٩٤م، ص ٢١.

١ - كان لمحمد علي مع هؤلاء الفارين عدة حوادث، فقد قطع خراجهم وأعطاهم المتأخر لهم من المال عنده، وأعطى لصالح أغا قوش وكان أول الفارين بعد موقعة الصفراء ما صرفه على المسجد الذي بناه في بولاق في سنة ١٢٢٧هـ/١٨١٢م بجوار بيته، حتى ان محمد علي دفع له ثمن عدة أماكن وقفها على هذا الجامع (لم يعد لهذا الجامع وجود منذ سنة ١٩٥٤م)، وذلك بعد هروبهم من حملة الحجاز وحضورهم الى القاهرة، ثم أمر بنفيهم خارج البلاد، هو وعو بيك وسليمان أغا و خليل أغا وغيرهم. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١٣٧-١٣٨، ١٣٩، ١٤٢، ١٤٥-١٤٦، ١٤٧، ١٧٢؛ علي مبارك: الخطط، ج ١، ص ٧٠؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج ٢، ص ٢٣٤، ٢٣٧، ٢٣٨؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ٣، ص ١٠٤٩، ١٠٨٣-١٠٨٧؛ محمد حسام الدين إسماعيل: وجه مدينة القاهرة، ص ٤٣، ١٣٥.

٢ - أرسل محمد علي عدة تعزيزات إلى الحجاز بعد هزيمة الصفراء، كانت الأولى بحرية عن طريق السويس في ١٠ محرم ١٢٢٧هـ/٢٥ يناير ١٨١٢م بقيادة بونابارته الخازندار إلى ينبع، والثانية بريّة بقيادة صالح أغا السلحدار في صفر/فبراير-مارس، وثالثة في أواخر ربيع الآخر من نفس السنة مكونة من عساكر مغاربة، ثم وصل إلى الإسكندرية عساكر من الروم أرسل بعضهم إلى ينبع، ثم خرج محمد علي بنفسه في ٢٠ شعبان/٢٩ أغسطس من نفس السنة لتجهيز تجريدة أخرى، وأرسل مصطفى بيك دالي الباشا بجيش من الدلاة في ٢٣ شوال ١٢٢٧هـ/٣٠ أكتوبر ١٨١٢م، وخرج محمد علي بنفسه على رأس تجريدة عن طريق السويس في ١٤ شوال ١٢٢٨هـ/٢٥ أغسطس ١٨١٣م ووصل إلى جدة بعد ثلاثة أيام، ثم خرج نحو بيك بجيش آخر أواخر صفر ١٢٢٩هـ/فبراير ١٨١٤م، ثم استدعى حسن باشا طاهر في ٦ ربيع الثاني/٢٨ مارس من نفس العام على أن يكون

وحصلت لهما قرة العين، فتخلصت بهمته مكة والمدينة، ومكة بمكة وجدة يدبر الأمر بمعرفته، فأول صنيعه أن أخذ الشريف غالب شريف مكة وسلطان تلك الديار وصيره أسيراً عنده، وأمر بإرساله إلى مصر^١ ثم إلى إسماعيل^٢، لأن الذي وقع كان بسبب سوء تدبيره، وتسلب الوهابي نشأ من قبيح إهماله وشدة ظلمه ورداءة سيره، فإنه فحش^٣ في المظالم، وغير آثار سلفه وتلك المراسم، حتى إنه من شدة ظلمه وجوره كان يأخذ المكس على الأموات، ولم يخلص من ظلمه العظام الرفات، فغفر الله له وساعه، فلقد جنى على نفسه وعلى الناس، وأساء السير مع كل الأجناس، فجوزي على صنيعه وقابله الله بمجزات فظيع أمره وشنيعه.

معه سبعة آلاف جندي وسبعة آلاف كيس، فجمعوا الكثير من المغاربة والصعايدة والفلاحين وأعطوهم سلاح وذخيرة وملابس جنود، وأرسل في ٤ جمادى الثاني/ ٢٤ مايو يطلب حسين بيك الدالي ومعه جمال وغيرها من الإحتياجات، ثم استدعى في ٢ شعبان/ ٢٠ يوليو من نفس العام دبوس أغلي وعساكره وحسن أغا سر ششمه، ووصل إلى القاهرة ابن باشا طرابلس في نفس الشهر ومعه ألف من الخيالة العرب والمغاربة وتوجه براً إلى الحجاز، ثم أرسل محمد علي بعد رجوعه من الحجاز جيشاً من الدلاة في رمضان ١٢٣٠هـ/ يوليو ١٨١٥م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١٤٠، ١٤١، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٩، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٩، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢٢٥-٢٢٦؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج ٢، ص ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨؛ عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي، ص ٤٨، ٤٩، ٥١.

^١ - نزل بالقاهرة في بيت لطيف باشا بسوق العزي بعد اصلاحه في ربيع أول ١٢٢٩هـ/ فبراير- مارس ١٨١٤م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٠٣؛ محمد حسام الدين إسماعيل: منطقة الدرب الأحمر، دارسة للقسم الثالث من ظاهر القاهرة القبلي، دراسة أثرية تسجيلية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية آداب سوهاج، جامعة أسيوط، سنة ١٩٨٦، ص ٢٣١.

^٢ - ذكر الجبرتي أن الشريف غالب صدر الأمر بنفيه إلى سالونيك وليس إلى استانبول. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٦٢.

^٣ - في نسخة [دار الكتب] "أفحش".

ثم بعد ذلك ولى حضرة صاحب السعادة على تلك الديار أحد أولاد الشريف سرور^١ وصيره شريف مكة وتلك الديار عوضاً عن الشريف غالب، وجعل له كفايته من المال وسائر ما يقوم به، وشرط عليه الرفق بالناس، وعدم التعرض لإذية أحد من سائر الأجناس، فأجاب ممتثلاً (ص ٧٠) أمره الكريم، وسار على كمال السداد بالطريق القويم، ثم أن حضرته أيده الله بادر إلى التوجه لحرب الوهابية، وكانوا حين بلغهم حضوره ترفعوا عن مكة والمدينة، وتمت لأهالي الحرمين بحضوره الأفراح والطماينية، وصارت طوائف الوهابية بأرض الطائف وما والاها وهكذا إلى نجد وسائر نواحيها وضواحيها ورتبوا جموعهم وأكثروا جيوشهم وحشدوا الرجال وأكثروا من الفرسان والأبطال، وكان أميرهم سعود قد فاق أباه في القوة وكثرة الاتباع والأجناد والجيوش، فطغى وبغى وأظهر الفساد في الأرض، فكثرت رجاله جداً حتى كانوا شبه الحصا والرمال كثرة، وأطاعوه طاعة غريبة حتى إنه قبل ذلك لما دخل مكة وملكها وتبعه سلطانها غالب المذكور جعل يدعو رجال مكة رجلاً رجلاً ويقول له إسلم على يدي إسلاماً صحيحاً، فإنك مشرك كافر، وكان من لوازم دعوته حين يخاطب الرجل الذي يدعو للإسلام بزعمه الكاذب أن يأمره أن يصرح في مقاله بعد أن يأتي بكلمة الشهادة فيعقبها (ص ٧١) بقوله ويشهد أن أبويه ماتا مشركين، وكان له مهاجرون وأنصار ويدعو أناساً^٢ بالسابقين الأولين إلى الحق والخير، وهم جماعته الأقدم فالأقدم، وكل له مرتبة بحسب سبقه، وبالجملة فخرافات دعوته وهذيان

١ - الشريف سرور: أمير مكة، توفي في جهاد آخر ١٢٠٢هـ/مارس ١٧٨٨م، وكانت مدة ولايته أربع عشرة سنة تقريباً، وكان أبناؤه قد حضروا إلى القاهرة في شهر شوال ١٢١٧هـ/يناير-فبراير ١٨٠٣م هروباً من الوهابيين واستنجاداً بمصر، وذكر الجبرتي أنهم أنزلوا ببيت المحروقي بعد أن قابلوا محمد علي باشا والي مصر وشريف باشا والي جدة. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٢، ص ١٥٨، ١٧١، ج ٣، ص ٢٣٣.

٢ - في نسخة [دار الكتب] "ناساً".

عقيدته ظاهرة البطلان جليلة البهتان والخذلان، فسبحان من يهدي ويضل بيده ملكوت كل شيء، وإتفق أن أول جمعة كان بها بمكة فاجتمع العالم الأكبر وصعد المنبر وخطب بالناس وقال في خطبته عقيدته الباطلة وذندَنَ بدعوته المخدولة العاطلة، وتلا في آخرها قوله تعالى "اليوم أكملت لكم دينكم"^١ الآية، يقلد بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم في خطبته في حجة الوداع، فما أعظم ضلاله وما أبين محاله قبحه الله، وشهرة أمره ومعرفة الفضل لباطل عقيدته يغني عن تفصيل بيانها وتعداد أنواعها، وكل ذلك جاهم من محمد نجل عبد الوهاب الذي ذكرناه أول بدايتهم، فهو الذي جمع لهم تلك العقائد وصنف لهم إفك هاتيك المكائد قبحه الله وإياهم أجمعين.

هذا وقد زاد طغيان سعود حتى تعدى (ص ٧٢) على أطراف ممالك العجم، وإتفق له أن أرسل فنهب المشهد الجليل المنسوب للسيد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وكان فيه نفائس الذخائر من الذهب والفضة والجواهر النفيسة^٢ فأخربه وأخذ جميع ما كان فيه، وهدم القباب من كل مزار في سائر الجهات التي دخلها، وهدم مزارات كثيرة وقبوراً للأوليا شهيرة ولم ينتطح فيها عنزان، ووقع منه التعدي كذلك في البحر

^١ - سورة المائدة، آية رقم ٣.

^٢ - أرسل سعود حملة إلى العراق سنة ١٢١٦-١٢١٧هـ/١٨٠٢م إحتاحت مدينة كربلاء وحرب ضريح الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب ونهبت ما فيه، كما أرسل حملتين أخريين في سنة ١٢١٧-١٢١٨هـ/١٨٠٣م وسنة ١٢٢١هـ/١٨٠٦م للنحف الأشرف واستولوا عليها . أنظر: شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ٣، ص ٩٨٥ ؛

P. M. Holt, Egypt and the Fertile Crescent, 153-154.

أنظر عن زخائر مشهد الإمام: سعاد ماهر: مشهد الإمام علي في النحف وما به من الهدايا والتحف، القاهرة سنة ١٩٦٩م.

المالح بأطراف اليمن وأخذ للإنجليز مراكب فيها أقمشة ومتاجر^١، وسطى^٢ سطوات مشهورة ولم يعارضه أحد من سائر الملوك ولا قدر على حربه أحد من أجناس الوزراء والأمرا والسلاطين^٣، وزاد شره وتعدى طوره حتى سماه أتباعه أمير المؤمنين، وحدثته نفسه المغرورة بأخذ مصر والشام وسائر الأقطار المنسوبة لإتباع بني عثمان أيد الله دولتهم وأظهر على الدوام صولتهم، بل تكلم بألفاظ كثيرة منقولة عنه شهيرة، أنه قال سوف أعلق سيفي هذا بأعلى مكان في إسلامبول، ولعمري أن هذا لكلام مضحك صدر عن بلادة جبيلية وغفلة (ص ٧٣) بأقلية وخراف يمج سماعه ويستغربه كل من كانت سليمة أطباعه^٤، ومازال يحشد العساكر ويرتب الجموع والدساكر، فجعل في

١ - ذكر نقولا الترك أن الإنجليز تصدوا بالمدافع للوهابيين وردوهم عن حدة إلى الطائف في المحرم ١٢١٩هـ/أبريل ١٨٠٤م، وربما كانت هذه الحادثة نتيجة لهجومهم على سفن الإنجليز. نقولا الترك: مذكرات، ص ٢١٣، ٢١٧.

٢ - في نسخة [دار الكتب] "سيطا".

٣ - لم يتمكن باشاوات العراق والشام من هزيمة الوهابيين، فقد تقابل عساكر عبد الله باشا العظم باشا الشام بقيادة يوسف باشا مع الوهابيين عند الجديدة، وهزمهم ودخلوا مكة والمدينة للحج، وفي العام التالي لم يتمكن أهل الشام من الحج بسبب الوهابيين، فعزل عبد الله باشا لذلك، ثم إتجه يوسف باشا والي الشام إلى المزريب لصد الوهابيين عن جنوب الشام ولكنهم انسحبوا قبل وصوله، ثم قرر السلطان العثماني أن يرسل جيوش باشاوات الشام وعكا وبغداد ومصر في وقت واحد تحت قيادة يوسف ضيا باشا الصدر الأعظم السابق بعد تعيينه على ولاية الحبشة وحدة "القائد الأعلى للحجاز"، وقد فشل هذا المشروع مما حدا بالسلطان إلى تكليف باشا مصر بإنهاء فتنة الوهابيين على أن تكون ولاية الحبشة وحدة مكافأة له عند إنتصاره. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١١٩، ٢٦٧-٢٦٨؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ٣، ص ٩٨٥-٩٨٧، ٩٩٠، ٩٩٣، ٩٩٦، ٩٩٧-٩٩٩، ١٠٠٩.

٤ - في نسخة [دار الكتب] "طباعه".

أرض طربة^١ الشهيرة جمعاً كثيرة، وفي كل جهات الحجاز حتى لم يخل من أجناده بحاز، فأراد الله سبحانه وتعالى بأن سلط عليه حضرة مولانا وأفندينا صاحب السعد والإقبال جليل المجد والأفضال، فوالى إرسال جيوشه بأراضي الحرمين وخلصها عنوة بالحرب والقوة بلا مين، وخلت بقاع الحرمين من أقوامه وتظهرت أماكنها من رجس عقائده وأوهامه، فتسبب عن ذلك الغم الأكبر لسعود وعلم أن الحرمين صارت تصد أراذله وتلك الجنود، فحصل [له]^٢ مرض أقلقه وهمّ أشغله وأرقه، وإزداد به الحال وعمه الضرر والانتحال، حتى قطع الله عمره وذهب جفا شأنه وأمره، فمات^٣ شر موته وأخذ الله بظلمه وما أفلته، فذهب إلى النار وبئس القرار، فاضطرب أمر جموعه وكاد يختل نظام^٤ (ص ٧٤) منازل ورُبوعه، ثم إنخط أمرهم وإتفقت كلمتهم على تولية أحد أولاده وهو عبد الله بن سعود^٥، فأطاعته تلك الجيوش والجنود وجعلوه

١ - أرض طربة: على بعد ٨٠ ميل من الطائف، وتعتبر مفتاح نجد إلى الشرق واليمن من الجنوب، وقد إنهزم عندها مصطفى بيك ابن أخت محمد علي والشريف غالب في أواخر سنة ١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م لتقاعس جنده عن القتال، فحشد محمد علي قواته بقيادة ابنه طوسون وعابدين بيك في محرم ١٢٣٠هـ/ديسمبر ١٨١٤م ولحقه بجيش آخر، ولكنهم إنهزموا لإتحاد العربان مع الوهابيين بعد القبض على الشريف غالب، ثم إنتصر محمد علي على الوهابيين وفي ذي الحجة ١٢٢٩هـ/نوفمبر ١٨١٤م، إنسحب فيصل من طربة بلا مقاومة، وبذلك دانت منطقة الحجاز لمحمد علي. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٠٢، ٢٠٦، ٢١٨؛ عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي، ص ٥٠، ٥٢-٥٣، ٥٨-٥٦.

٢ - ما بين الحاصرتين من نسخة [دار الكتب].

٣ - توفي سعود سنة ١٢٢٩هـ/١٨١٤م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٠٧. عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي، ص ٥٤.

٤ - في نسخة [دار الكتب] "إنتظام".

٥ - عبد الله بن سعود: تولى بعد وفاة أبيه في جماد أول ١٢٢٩هـ/أبريل-مايو ١٨١٤م، قبض عليه إبراهيم باشا ابن محمد علي بعد إستيلاءه على الدرعية وأرسله إلى مصر فوصلها في ١٧ محرم

أميرهم، وسموه إمامهم وسيدهم، وإمثلوا له الأوامر، وإنقاد له الأصاغر والأكابر، فقام على قدم والده وأراد إعزاز أتباعه وإستدامة إجلال طارفه وتالده، فأبقى العساكر حسبما رتبته^١، وجعل كل أمير يتولى رتبته ومنصبه، وأكبر أعوانه طامي أحد أمراء العرب^٢، وكان فارساً شجاعاً وقرماً مناعاً، يتبعه الفرسان الكثيرة العدد والرجال الزائدة في القوة والعدد، وكان ذلك الخبيث آفة من الآفات وبلية بادية النكبات، ويليه رجل آخر يقال له مضيان، وكان شهيراً بالفتك والطغيان، ومثله الرجل الشهير بالمضايقي، خرج على شريف مكة وعن نسبته إليه بعد ما كان الصادق الوفي، وناهد الشريف وتبع الوهابي وصار من أكبر رجاله وأعز أجناده وأبطاله، وغير هؤلاء من الفرسان من كبار أمراء العربان مما لا يحصره حد ولا يضبط (ص ٧٥) أفراد عد، وتبع عبد الله آثار والده سعود وما ترك ذرة منها حتى أبرزها للوجود، ونفذ أمره في أولئك الأقوام وطلب محاربة حضرة أفندينا البطل الهمام، فبادر حضرة أفندينا أيده الله وجمع أتباعه من عربان مكة وسائر جهات الحرمين وكذلك عساكره المنصورة وأمرهم بالتوجه إلى الطائف وغيره، وجزم عليهم جزماً أكيداً بأخذ المضايقي وابن مضيان ثم طامي الخبيث القرنان، وسار كذلك حضرة سيدنا طسن باشا وإجتمعت العساكر وتلاقت الأجناد والدساكر وقرب من بعضهما الطايقتان وتلاقى للطعان والحرب الفريقان، فهزم الله عساكر الضالين وهزم أجناد الوهابي أجمعين بعد أن زاغت الأبصار وزهقت البصائر وبلغت القلوب الحناجر وأظلم ضوء المحاجر

١٢٣٤هـ/ ١٦ نوفمبر ١٨١٨م، وأنزلوه بقصر إسماعيل باشا ببولاق، وتقابل مع محمد علي بقصر شبرا، وكان بصحبته صندوق به ما تبقى مما أخذوه من الحجرة النبوية، وأرسل إلى استانبول في ١٩ محرم/ ١٨ نوفمبر من نفس العام، فأعدم أمام باب القصر السلطاني. الجبرتي: عجائب الآثار،

ج ٤، ص ٢٠٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٢.

١ - في نسخة [دار الكتب] "هي مرتبة".

٢ - أنظر ص ١٢٤ هامش رقم ٣.

وإختلجت الضماير، فجعل الله دائرة السوء عليهم وساق أنواع الربال إليهم، فولوا الأدبار وأخذ أسيراً ابن مضيان المهدار، وأرسله حضرة صاحب السعادة إلى مصر ثم إلى إسلامبول، وكذلك قتل (ص ٧٦) اللعين البهيم والشيطان الرجيم المعروف بالمضايقي وولى طامي مهزوماً، ومما شاهد من قوة صاحب السعادة وجيوشه صار مبهوراً ومهموماً، فصاح حضرة صاحب السعادة على رؤسا العربان وشدد عليهم وأكد في الإلزام، وأمرهم أن لا بد من إتباعهم لطامي ومن الإتيان به ولو تعلق بالأفلاك السوامي، فبادروا لإمتثال أوامره وخافوا من قوارعه وزواجره، وتراسلوا متتابعين وبادروا الذهاب خلفه متتالين حتى أدركوه في بعض الجهات فأعانهم الله على أخذه وأسره، وذلك من سعادة حضرة صاحب السعادة وجزيل تأييده ونصره، فأحضره لديه أسيراً وقادوه إليه ذليلاً حقيراً.

ثم إنه أطل الله له البقا الجميل وأسعده بالعناية والتوفيق الجليل سار ورا الوهاية حتى أدرك منهم طوايف متكاثرة ومجامع متزايدة متوافرة نحو ستين ألف كانوا بإعلى شاهق جبل، فدبر أمره وأتقن العمل ليدرك منهم الأمل ويريهم كيف (ص ٧٧) يكون الخوف والوجل، فنزل ليلاً تحت ذلك الجبل العالي وما كان معه إلا نحو ألف في ذلك الفضاء الخالي، وترك عساكر العرضي، ولم تسمح نفسه بطلبهم لكونهم لم يسارعوا في هذه المرة في السير معه كما يصنعون، فأمرهم بالجلوس في ذلك الموضع الذي أقاموا به، وأنه بعد يوم أو يومين إن لم يرسل لهم فليلحقوا به، وأوهمهم أنه يريد بهم الرجوع وترك الحروب، لأن أرض الحرمين صارت مطمينة، وذهب عنها الأوصاب واللغوب، فنزل هناك في أسفل الجبل وكان له طريق ممتد في الصعود يسع فوارس قليلة في المرور لمن يصعد أو يعود، وقد نزلت الوهاية بأعلاه وإستوت مستقرة بمستواه، فنادى حضرة صاحب السعادة لماليكه وأغواته وطائفة الشغسيه وإختار منهم نحو مائة فارس لكل منهم في الحرب سحية، وأمر المائة يكونوا قسمين خمسين وخمسين

متحازين، وإذا أمرهم بالصعود يصعدون كل^١ قسم من جهة اليمين والقسم الآخر من جهة الشمال في ذلك المطلع للجبل (ص ٧٨) العال، ويكونون كارين أشد الكر حتى يقطعوا ذلك المطلع والمر، ويصيرون بأعلاه عند الجموع، فيبادرون حين ذاك لضرب مكاحل بارودهم بلا سكون ولا هجوع، فإذا قامت عليهم العربان يرجعون فارين لأسفل الوادي وذاك المكان، ورتبهم على ذلك الترتيب وأظهر من تدبيره الصنع العجيب، ثم نادى لباش طبجي^٢ وأمره أنه حين يرجع العساكر منهزمين ويولوا الأدبار راجعين وتقوم وراهم تلك الجموع ويتبعوهم بكثرة الجموع وينزلون وراهم إلى أسفل الوادي وفسيح ذلك المكان بتلك البوادي، حتى يصير منهم بأسفله نحو العشرة آلاف رجل، فحينئذ يبادر ويكون قد وضع المدافع بأسفل طريقه مركزين^٣ على العجل فيوالي وقتيد الضرب بالجلل وبأنواع الصلقم الجالب للوجل ويوالي عجلًا بالصناعة التعليمية حتى يسد طريق المطلع في إمتداده بالجلل التي هي بالنار محمية، وتقع رجال الوهاية النازلين (ص ٧٩) بذلك الطريق ويموتون بالمدافع في كل منهج من كل فريق، فإن باقيهم يرجع عن النزول ويفر مولياً في رجوعه لإعلى الجبل خوفاً من ذلك الأمر المهول، فإذا رجعوا مهزومين وخلت الطريق وصارت آمنة من نزولهم عن يقين يكون له حينئذ مع من نزل حرب البسوس، ويريه كيف يكون قطع الرأس، ثم أنه وضع جنبه الكريم على الأرض ونام ساعات بوسيع تلك الأرض ولم يضطرب له فكر ولا لهج لسانه لهم بالذكر، حتى إمتلأت قلوب من معه من التعجب والخوف، وحصل لبعضهم قراقر الجوف، وعرفت العقلا منهم أن هذا أمر أشد من السيوف والأسهم،

^١ - هذه الكلمة ليست في نسخة [دار الكتب].

^٢ - باش طبجي: هو رئيس جنود المدفعية الذين ألحقوا بالأوجاقات، ويرأسهم الباشطبجي. وطوب في التركية: بمعنى المدفع. ادي شير: الألفاظ الفارسية المعربة، ص ٥٨ ؛ طوبيا العنبيسي: تفسير الألفاظ الدخيلة، ص ٢٤، ٤٧ ؛ أحمد السعيد سليمان: تأصيل، ص ١٤٤.

^٣ - في نسخة [دار الكتب] "مركوزة".

حيث أنهم لم يشاهدوا مثل ذلك الشأن ولم يسمعو أن أحداً فعل مثله من سالف شجعان ملوك الزمان، هذا وحضرة صاحب السعادة مضطجع ساكن الجأش لم يخطر بباله الفزع من أولئك الأوباش، فصارت العساكر تنظر لقوة عزمه وتتفكر في غريب حاله وجليل حزمه، حتى صار قريب الفجر فقام مبادراً (ص ٨٠) للوضو والصلاة، وجلس يحدث بعض أتباعه في الظلام بتلك الفلاة حتى طلع الفجر فصلاه، ثم نهض لتدبير الأمر وتولاه، فإنقسمت الفرسان للقسمه كما أمر، وكل إلى جهة أسفل الجبل قد أسرع وإبتدر، فركب صاحب السعادة الجواد ووقف مع جماعته ينتظر الحرب والجلاد حتى أشرق شعاع الشمس وولى عن اليوم أمس، هنالك ضرب صاحب السعادة مكحلة باروده وكانت علامة لصعود أوليك الفرسان من جنوده فرفعت رؤس خيلها وكرت صاعدة على الجبل فياها، ومازلت حتى صارت تجاه جموع العربان وضربت مكاحل بارودها فصمت الآذان، فهاجت العرب واضطربت وقامت لضربهم وبادرت، وأرادوا أن يحوزوهم هناك، فرجعوا منهزمين ضياغم الممالك والأترار وتبع العرب أثرهم وأسرعت النزول خلفهم، وكانوا قد نظروا من أعلى الجبل إلى قلة من صحب أفدينا في ذلك المحل فإغرتوا لقتهم وما دروا (ص ٨١) أن التدبير منتج لعتهم، ومازال الفرسان المهزومون حتى صاروا بأسفل الوادي وهم مجتمعون والعرب تكاثرت في النزول وراهم وطلبوا جداهم في الحرب ومرامهم، حتى نزل بوسيع الوادي قريباً من عشرة آلاف، ومازال الطريق مزدحماً بنزول^١ أوليك الأجلاف، فهناك إبتدأ الطبعي وصار لحمولة البارود يزجي، وبادر في ضرب المدافع، ولم يكن هول جللها من دافع، وتراسل الصلقم بتجريه، وإمتلأت طريق الجبل من حديدته ومساميره، وزاد أمر المدافع حتى خرج عن الحد وبعد عن الضبط بالعد، فأصبحت الأعراب في مقاتلها وظنت أن طوائف الجن هي التي تقاتلها، فإمتلأ الطريق

^١ - جاءت العبارة في نسخة [سوهاج] "لإرادتهم النزول"، والتصحيح من نسخة [دار الكتب]، حيث شطب الكاتب على "لإرادتهم".

بالجثث المطروحة فيه، ورجع باقيهم لأعلى الجبل مهزوماً^١ لا يدري الأخ عن أخيه، وصارت طريق ذلك الجبل خلواً إلا من الأموات الذين لحقت بهم البلايا والآفات، وبقيت لا يقدر أحد منهم أن ينظر إليها ولا يشير بيده إلى المرور عليها، بل (ص ٨٢) إنتقلوا من مواضعهم بالكلية، وساروا إلى ورائهم ليستمدوا من أمرا الوهابية، وجعلوا لهم بالمحل ربيبة ليخبرهم عن حال من نزل من جموع ربيعه، وماذا يكون من صنعهم وما الذي يقع من الخير لرفيعهم ووضعهم، ثم يخبروهم عند الرجوع لينسروا أو يندبوا القتلى بتلك الربوع، هذا وحضرة صاحب السعادة مازال صابراً حتى نزلت تلك الأناس يتراسلون وابلاً متقاطراً، فشمر حضرته عن ساعد الجدد وصمم أن يذيقهم من حسام الروع والكدر، فصاح في رجاله وزأر كالليث في أشباله وكر عليهم بعد الرصاص بالحسام وأرهقهم بما أولاهم من مضايقة ذلك اللزام، فجدد الأنوف وأذهل أوليك الألوفا وقطع منهم الرؤس وأهلك النفوس، وفك فتكات شبيب وصب عليهم شعوب صبيب، وما كان إلا درجات ومرور لحظات حتى لحق جميعهم الفناء، وصاروا خامدين بذلك الفناء، (ص ٨٣) ولم ينج منهم إلا يسير قضى الله له بقية أجل، وهم أفراد شردوا في وسيع ذلك الفضاء مرهوقين بالوجل، فأمر حضرة صاحب السعادة بإحضار الجمال وجزم بأن يحملوهم رؤساً كالأعدال ويذهبوا بهم إلى عسكر العرضي الذين تركهم حضرة أفندينا حسبما ذكرناه، وطلب بذلك تبكيتهم وتخجيلهم حتى يتمنى كل منهم رضاه ويندم في تأخره عن مولاه وتكاسله عن الملازمة لجميع ما يهواه بحرب من يحاربه وولاية من تولاه، ثم نزل حضرة صاحب السعادة بذلك الوادي، وطاب له ولإتباعه بذلك الرحاب النادي، فجلس مؤيداً منصوراً محموداً بما فعله ومشكوراً، وعم أتباعه السرور بما ظهر من حضرته وما شاهدوا من شديد بأسه وكبير همته وعظيم شجاعته ويقين ومتين ساعد قوته، وعاینوا من جنابه وهو يسطو بصمصامة تحكي ذا الفقار ورأوا من عظيم حربه ما لم يسمع عن هاني بذي قار، فإنه

^١ - في نسخة [دار الكتب] هذه الكلمة مكتوبة في الهامش الأيمن.

يوم ما سبق لفارس مذكور نظيره ولا إتفق لبطل مشهور إقتحامه لناره (ص ٨٤) مذ
حمى وطيسه وتأجج سعيره، فله دره من سيد فريد وبطل في مقام الصدام صنديد
وضرغام يرغم أنوف الأسود وهزبر تنجلي بريق سيوفه النوب السود، ووزير حافظ
لحمى الأقطار والمسالك، ومانع بصولته جماهير الطغاة عما حازه من الممالك، فهو
الحقيق بما قيل^١ وبما أنشده منشأ فيه خليل

أبدى بمصعد مرتقى علم العدى	حرباً عبوساً مدهشاً للشاري
وبأسفل الوادي أتاح لجمعهم	حتفاً مريعاً للهزبر الضاري
فتفرقوا أيدي سبا وتمزقوا	وتلفعوا برداء ذل العار
لله درّ وزيرنا في حربه	لجيوشهم من فارس كرّار
يسطو بصمصام يلوح بحده	برق المنايا في إشعة نار
صدر همام يستجار بعزه	رحب المباءة مكرم للجار
قسماً بمكة والخطيم وزمزم	والبيت ذي الأركان والأستار
أن الوزير محمداً ذا العز والمجد	العليّ ملك كل فخار

فبينما العرضي الجليل ومن به وهم لا يعلمون ما صنع هذا الوزير النبيل وإذا
بالجمال عليها تلك الأتقال وهي رؤس القتلى من أهل الضلال وقد أناختهم الخدمة
بالترتيب، وظنت العساكر أنها دخاير أكل وشرب عجيب فدخلهم الفرح وزال
عنهم الترح، هذا وقد أتوا صفوفاً صفوفاً واجتمعوا حولها ألوفاً، فتاملوا تلك الأحمال
وإذا بها رؤس حل يجثها النكال، فبهتوا متحيرين وعلى تأخرهم عن حضرة الصدر
نادمين، وحفهم الرعب وداخلهم الخجل ولزمهم من مهابة أفندينا غاية الوجل،
فسقط في أيديهم وبادروا لطلب صفحه الذي ينجيهم، فأسرعوا في الرحيل، وقطعوا
ذلك السير الطويل (ص ٨٦) في أسرع وقت من الزمان، حتى نزلوا بساحة رحاب
الأمان، وبادروا إلى إستعطاف حضرة أفندينا، وجعلوا الإلتجاء إليه ديناً، فبكتهم

^١ - مكتوب في نسخة [دار الكتب] بعد هذه الكلمة "فيه".

بزواجهم لفظه وأخجلهم بقوارع وعيده المزوج بوعظه، فما زالوا يترامون على يديه وأقدامه ويلوذون برأفته وعفوه، ويعوذون من غضبه عليهم وإقدامه، وهم بغاية الذل والإنكسار حتى عفا عن زلاتهم مع الإقتدار، وما زالوا بجانبه يستنجدون وبرقايق إستعطافه يتكلمون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، حتى شملهم عفوه وهم فرحون مستبشرون، فلما إطمأنوا بحضرتهم وباعد عنهم إيصال مضرتهم، رتب أيده الله جموعهم، وأمرهم بما ينفع جمعهم، وأرسل إلى جدة بإحضار الذخيرة وكل ما يحتاجون إليه من أنواع الميرة وسائر تعلقات آلات الحرب والجبايات المعينة على الطعن والضرب، فجاءت إليهم الحمول موقرة وعمت جميعهم وزادت مُدْخَرَةً موفرة، فنعيم عيشهم وإزدان وإزداد جيشهم وزال (ص ٨٧) وهمهم وذهب طيشهم.

وجلس حضرة أفندينا مع نجله مولانا طسن باشا ودبر له ومعه كل ما يلايم مما يضمحل به العدو ويتلاشى^١، وأحكم له الأمر وأتقنه، وأبدى ما تكمل به المهابة وأعلنه، وأمر رؤسا العساكر بإتباعه والبعد عن خلافه بالإذعان لقوله وسماعه، والتقرب إلى ما يرضيه والمبادرة إلى مطلوبه وما يعنيه، وحض على ملازمة ما يضعف الأعداء، وكل ما يجلب لهم صنوف الرداء، ثم أفاض عليهم ظلال إنعامه، وأحاطهم بأفضاله وإكرامه، وبذل لهم الفضة والذهب وأولاهم البغية والأرب، وكذلك فعل مع جيوشه من العرب، حتى دعا له الجميع وإلى مرضيه سار جمهورهم وإقترب، ورجبوا فيما إليه يرغب، وذهبوا في خدمة حضرتهم أحسن مذهب، وإنضموا إلى عساكره المنصورة، وصار الجميع في أجل حرمة وأبهج صورة، وأحاطوا بحضرة سيدنا طسن باشا أجمعين وإنقادوا لأوامره سَامِعِينَ طَائِعِينَ، وصمموا على حرب طائفة الوهابية وحزم رؤسائهم (ص ٨٨) بإرهاقهم بكل بلية.

ثم شرع حضرة صاحب السعادة بالرجوع إلى مصره، وقد فاق بصنيعه سادات عظماء عصره، فودعه الكبير والصغير وكل إلى جنبه بالتعظيم يشير، ودعوا له بطول

^١ - في نسخة [دار الكتب] "ويتلاشا".

البقا وأن لا يدع سما عزّ حتى يتملكها بالإرتقاء، فسار أيده الله بعد أن عم أهل الحرمين إحسانه وإستغنى الفقير فهو مطمئن المستقر ومصانه، وزال عن بلاد الحرمين النصب وذهب عنهم ما كان لديهم من الوصب، وتهنى^١ الخاص والعام، وكان لهم عيد سرور ذلك العام، وما زال سائراً وهو مصحوب بالعز والجلال والكمال والوقار والجمال، وجاءت البشارات إلى مصر^٢ بقدوم حضرته، فكانت المسرة الكبرى في قطره ومدينته، وخرج لمقابلته السادة الفضلاء والعلماء والأكابر النبلاء ورؤسا عساكره وأجناده، وأنزل الله تمام الأمن والخصب بكافة بلاده، وفرحت أهل مصر بدنوّه وقربه، وسألوا الله النصر له ولحزبه، فجلس حضرة صاحب السعادة قريب العين، (ص ٨٩) ووالى إلى الحرمين إرسال الغلال والنقدين، وواصل الذخائر متتالية ليظهر بأعدائه شعائر الحين والبين، وتواصلت كتبه إلى حضرة نجله، وأكثر من النجدة الزائدة لأجله، حتى صارت الطرق براً وبحراً مشحونة^٣، وملئت المويلح وينبع وجدة وتلك البلاد بالمعونة، فصار حضرة أفندينا طسن باشا بعساكره، وإمتلأ الوادي بجنوده ودساكره، ونهض طالباً بلاد الوهابية بشدة عزم وفرسان قوية، فبلغهم قدوم سيدنا بأجناده وشجعانه ليوثه وآساده، فخافوا عاقبة ذلك الأمر، وأن يمسهم حريق ذاك الجمر، فعدّوا التدبير وأحسنوا فيه التفكير وإختاروا عقلا من كبارهم ورسلاً من ذوي آرايهم وأخطارهم كي يطلبوا من حضرته الصلح والأمان ويستقر أمرهم على حال الإطمئنان، ويتمموا مع حضرته ذلك ويحسن الحال على ما هنالك، ولا يتعرضون لأرض الحرمين ولا لجهاته وأهله ما دام تطارد الملوين، وأرسلوا (ص ٩٠)

^١ - في نسخة [دار الكتب] "تهناً".

^٢ - رجع محمد علي إلى مصر في ١٥ رجب ١٢٣٠هـ/ ٢٣ يونيو ١٨١٥م عن طريق القصير وقنا وقوص. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٢٠؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج ٢، ص ٢٥٠؛ عبد الرحمن زكي: التاريخ العربي، ص ٦٢.

^٣ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٢٥-٢٢٦.

شيئاً من الهدية رجا تمام تلك القضية، فجأت الرسل لحضرة طسن باشا ولهم، [وكان واسطتهم إذ ذاك رجل من كبار العرب]^١ وسائط لديه وهم معولون على الركون إليه، فتكلم واسطتهم مع حضرته وحسن له عقد العهد منهم، ولم يصدق مع الوزير في خدمته بل كان ذلك غشاً منه وخيانة وغفلة عن رعاية باطن الأمر بل عدم ديانة، وما زال مع حضرة أفندينا طسن باشا يوهمه أن ذلك هو المناسب بل عين الصلاح، وإنه أعظم أسباب الظفر بل حقيقة معنى النجاح، وأن فيه الراحة لكل من الفريقين ولا سيما وقد أمنت بلاد الحرمين الشريفين، وترتاح العساكر والأجناد ويعودون بالسرور إلى مصر وتلك البلاد^٢. ويقال أن الوهابية هم الذين ذلوا بطلبهم الأمان خوفاً من همته وإنزعاجاً من سيفه والسنان، وطالب الصلح تنبغي إجابته، وربما كان غير الراضي به لا تحمد عاقبته، وعلى الخصوص والوهابية في عدّ الرمل والحصا وضبطهم وحصرهم لا يدرك إلا بالاستقصا، مع أن سبب الحرب معهم إنما (ص ٩١) هو تعديهم على الحرمين وإستيلاؤهم على بلاده بغير مين، وهذا هو الموجب لما وقع من الحروب، وقد زالت وارتفعت تلك الخطوب، وحيث إلتمزوا بالإنكفاف وترك

١ - ما بين الحاصرتين مكتوب في نسخة [سوهاج] في الهامش الأيمن للصفحة.

٢ - كانت أول مفاوضات بين الوهابيين ومحمد علي وطوسون في ذي القعدة ١٢٢٨هـ/ أكتوبر- نوفمبر ١٨١٣م، حيث أرسل سعود إلى محمد علي لإفنداء المضايقي بمائة ألف فرانسة، ووقف القتال والصلح بينهم، فاعتذر محمد علي عن أمر المضايقي لأنه قد سفر إلى استانبول، وإشترط محمد علي لعقد الصلح أن يدفع الوهابيون كل ما صرف من بداية الحرب في تجهيز الجيش، وأن يسلم ما إستولوا عليه من ذخائر الحجرة النبوية ويدفع ثمن ما إستهلك منها، ثم يأتي سعود ويتقابل مع محمد علي لعقد معاهدة الصلح، ثم أرسل عبد الله ابن سعود رسل للتفاوض وإجراء صلح مع طوسون باشا شوال ١٢٣٠هـ/ سبتمبر ١٨١٥م، وإنتهت المفاوضات بعقد صلح ووقف القتال، وإرسال وفد من الوهابيين إلى مصر لمقابلة محمد علي، ولكن محمد علي لم يرض بهذا الصلح لعدم سيطرته على كل الجزيرة العربية وقطع دابر الوهابيين. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١٨٠، ٢٢٩؛ أسين سامي: تقويم النيل، ج ٢، ص ٢٥٢؛ عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي، ص ٦٢.

العناد والخلاف فطريق العدل والإنصاف أن لا يصلهم منا إزعاج ولا إرجاف، هذا مع ما ثبت للحضرة من المهابة والإجلال، فينبغي أن لا يلزم بها شيء من موجبات الإخلال، وصار ذلك الرجل يكثر لحضرة سيدنا طسن باشا من هذه المعاني ويروج له تأسيس قواعد المصالحة بتلك المباني، لأن الوهابي كان قد أرسل لهذا الرجل المتوسط مقداراً كبيراً من الذهب النقد موضوعاً في سَفْط، وملكه ذلك إذا تم له الغرض، وجعل على نفسه مقداراً آخر وأشياء نفيسة تفتّض، فاشتد طمع ذلك الإنسان، وغلب حب الدنيا على ذلك الشيطان، [ولاسيما والأعراب في تلك الأرض يميل في الغالب بعضهم إلى بعض]^١، وأوهم حضرة الباشا أن الأمور مجهولة العواقب، فالأنسب مراعاة إبقاء شعار الهبة لذوي المراتب، وأيضاً فعرب الحجاز ليسوا بمؤمنين، وربما مالت الأشكال لبعضها (ص ٩٢) فيصيروا مجتمعين، فاللايق من الحضرة الكريمة العفو وتمام عهد الصفح والصفو، وما زال مع الحضرة حتى أحكم هذا المعنى، وتوالت رسل الوهابي بذلك العهد والمعنى^٢، فعقدوا عقود المصالحة، وأزيلت أسباب المشاحنة وفرح الوهابي بإدراك مقاصده ودفعت عنه مضار عدوه ومراصده، وكثرت الأفراح بأجناده، ووصل الخير بذلك إلى قبائله وبلاده، فتم سرورهم وإنشروحت صدورهم وانتظمت أمورهم وذهب خوفهم وثبورهم، وكلهم [كانوا]^٣ للخلاف مبطلين، وعلى نقض الصلح بعد رجوع الباشا متعاهدين، وعلى الجور والفساد معولين، فتعساً لهم أجمعين.

ثم لما إنقضى ذلك الحال عول حضرة طسن باشا على السير والإرتحال، فركب بجيوشه وجموعه وبعض الجيش ينهض في إيباه ورجوعه، وسارَ وَوَجَّهَ الأنقال من البحر، وزالت عنهم أسباب المتاعب والقهر، وما زالوا حتى دخلوا أرض الكنانة

^١ - ما بين الحاصرتين مكتوب في نسخة [سوهاج] في الهامش الأيسر للصفحة..

^٢ - في نسخة [دار الكتب] وفي نسخة [سوهاج] مكتوبة في النص "المفنى".

^٣ - ما بين الحاصرتين غير موجود في نسخة [سوهاج].

مصحوبين بالسلامة والصيانة^١، واجتمع مع حضرة (ص ٩٣) صاحب السعادة والإجلال سيد الوزرا ومركز دائرة الكمال والأفضال المشار إليه بالهمم في كل مكان المحيط أمنه بالمنازل والسكان ذو المجد والقدر العلي حضرة أفندينا محمد علي أحاطه الله بدوام النصر والتأييد وحفه بالعناية والعز على التأيد فقابل نجله الجليل وواجهه بالتكريم والتفضيل^٢، إلا أنه في باطن الأمر وحقيقته ما رضى بالذي كان ولم يركن إليه بفكرته، فأسبل ذيل إغضائه وأظهر بشاشة رضائه، ومضت شهور وأيام وحضرته ينوي نقض ذلك الإبرام، ويؤمل أجل مرام، ولا يُعنونُ عما أضمره للأفهام بفاهم، وقد إنتشر لحضرة نجله طسن باشا صيت جليل، وكان له عند جميع^٣ أهل مصر الذكر والثنا الجميل، فمكث مدة يسيرة وقد طابت له ومنه السريرة والسيرة، فبرز الأمر المطاع والقول الواجب الإلتباع من حضرة صاحب السعد والإقبال بتوجيهه متولياً ضبط جهات الغربية والبحيرة ومثل رشيد وأراضي (ص ٩٤) برنبال^٤، لقربها من البغاز والغور تميماً للأحكام والأمن ونظام الأمور، فتوجه حضرة سيدنا طسن باشا بأتباعه وعساكره وفرسانه وأشياعه وجلس بنواحي برنبال^٥ ومكث هناك، فحصلت

١ - عاد الأمير طوسون إلى السويس عن طريق الطور فالسويس، ووصل إلى القاهرة في ٥ ذي الحجة ١٢٣٠هـ/ ٨ نوفمبر ١٨١٥م، وكان قد صدر له أمر سلطاني بتولية بلاد الحبش وحدة ومشيخة الحرم المكي في ٥ شوال ١٢٣٠هـ/ ١٠ سبتمبر ١٨١٥م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٣٠؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج ٢، ص ٢٥٢.

٢ - قابله بقصر رأس التين بالإسكندرية. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٣٠.

٣ - في نسخة [دار الكتب] كلمة "جميع" مكتوبة في الهامش.

٤ - برنبال: من القرى القديمة، اسمها الأصلي "بورنبارة" من إقليم فوة والمزاحمتين، كما أطلق عليها "بارنبال"، وهو اسمها الحالي من سنة ١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م. محمد بك رمزي: القاموس الجغرافي، ج ٢، ص ١١٢.

٥ - كان أول بناء لمعسكر للجند بدلاً من الخيام عندما أمر محمد علي في ذي القعدة ١٢٣١هـ/ سبتمبر-أكتوبر ١٨١٦م ببناء قشلاقات (مساكن) للعساكر الذين وزعهم على الأقاليم

له الهية في قلوب من بتلك الجهات من الرجال، وفي ذلك الوقت كان حضرة شقيقه الأسعد وأخيه الجليل العظيم الأجدد، الفارس المهاب والليث الوثاب، ذو الهمة العلية والمهابة المعتمدية حضرة سيدنا إبراهيم باشا أدام الله له البقاء، وأعلى عزه على الثريا مرتقى متأثراً بقطر الصعيد^١، وحاكماً بذلك الوادي السعيد فكان كل من هذين النجلين النجمين بل الثرين بطرف من قطر الكنانة لتتميم المهابة وإحكام الصيانة، وحضرة صاحب السعادة الكبرى ومليك السيادة والإقبال والبشرى مولانا وأفندينا

بالأرياف، وذلك لتضررهم من الإقامة الطويلة بالخيام في الحر والبرد، وأصدر مراسيم إلى جميع النواحي وسائر القرى يأمرهم بعمل الطوب وإرساله إلى مواقع العمل، وكذلك إرسال أفلاق النخيل والجريد والعمال. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٥٤؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج ٢، ص ٢٥٧.

^١ - تولى إبراهيم باشا دفتردارية مصر بالفرمان السلطاني المرسل في ١٠ رجب ١٢٢٢هـ/ ١٣ سبتمبر ١٨٠٧م تقديراً لما بذله محمد علي باشا في إجلاء الحملة الإنجليزية، وبعد ذلك تولى إمرة الصعيد إلى جانب الدفتردارية في ربيع ثان ١٢٢٧هـ/ إبريل ١٨١٢م، ثم جاءه فرمان آخر بإمارة الصعيد في ١٢ جماد ثان ١٢٢٨هـ/ ١٢ يونيو ١٨١٣م ضمن هدايا السلطان لمحمد علي ورجاله بعد إسترجاع مكة والمدينة، وظل كذلك إلى أواخر سنة ١٢٣١هـ/ ١٨١٦م حيث سافر على رأس حملة جديدة إلى الحجاز، وبعد إنتصاره وإستيلائه على عاصمتهم وأسر قائدهم عبد الله بن سعود عين والياً على جدة في ٤ ذي القعدة ١٢٣٥هـ/ ١٣ أغسطس ١٨٢٥م. وقد إهتم إبراهيم باشا بالزراعة والصناعات القائمة عليها، فأنشأ مصنعاً غربي القاهرة فيما بين القصر العيني وقصره الذي عرف بالقصر العالي على شاطئ النيل لعمل السكر، ولا زال هناك شارع معمل السكر الى حوار القصر العيني القديم إلى الآن. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٧٤، ١٤٨، ١٧٧، ٢٦٩؛ علي مبارك: الخطط، ج ١٥، ص ٩٢؛ عبد الحميد نافع: ذيل المقرئزي، ورقة ٤٨، ٤٩؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج ٢، ص ٢٠٤، ٢٠٧، ٢٠٩، ٣١٠؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ٢، ص ٨٩٠، ج ٣، ص ٩٧٩؛ أحمد الحته: جهود إبراهيم باشا في خدمة الزراعة والصناعة والتجارة، ص ٧٩. والمعروف أن أمير الصعيد كان من أهم مناصب الأمراء المصريين في العصر العثماني وكان مقره في مدينة جرجا. ليلي عبد اللطيف: الإدارة، ص ٣٨٢.

المعلوم الصدر الوزير مريع القتال والقُرُوم أعزّه الله بتأييده وشرفه بكمال تسديده جالس بمدينة مصر ممد لأهلها إزالة الإصر، ديدنه الهمة والفتوة (ص ٩٥) وشعاره الأفضال والبرّة، فمضى على ذلك زمن يسير، وإذا بحادث أذهل الكبير والصغير، وطامة حزن مقدرة بمحكم القضا، وقضية ضنك عمت الفضا بقدم مخبر حدث وما تحاشا وترجم محرباً عن موت سيدنا طسن باشا^١، وحاصل ذلك الحال والأمر الذي كدر القلوب وهيج بها الإشتغال، أنه في يوم من الأيام خرج للميدان على جواده وهو في غاية الأبهة والنظام مخفوفاً بالسرور متوجاً بالبشرى والخبور، وصار يكر على جواده ويتعجب الفرسان من طراده حتى حير الأبصار، ثم نزل أخير النهار ودخل إلى محله المستور عند حرمة المصون المشهور، فلما إستقر حيناً يسيراً حم ساعات بالليل ولقى أمراً عسيراً، ثم سكن ساكناً وإستقر خافتاً، وتولاه الله برحمته ونقله إلى دار كرامته، فجاء به إلى بستان شيراً^٢، وكان حالاً نكراً، فتوجه أفندينا صاحب السعادة وتحقق ما قضاه الله وأراد، فلما أصبح الصباح وأشرقت الشمس على الروابي والبطاح خرجوا بمشهد العظیم، وكان يوماً مشهوداً بالهول الجسيم، ولم يبق (ص ٩٦) أحد بمصر وأهلها إلا وعمته الأحزان بوجلها، لأنهم كانوا يحبونه ويألفونه ويودونه، وما زالوا حتى دفنوه بالقرافة بقرب الإمام الشافعي^٣، وشمل الجميع الحزن والذهول، فما منهم من يسمع ولا يعي، ولازمت القراء محله الكريم، وإستدامت تلاوة القرآن العظيم على الدوام والإستمرار في أوقات الليل وساعات النهار،

^١ - حدث ذلك في ٧ ذي القعدة سنة ١٢٣١هـ/ ٢٩ سبتمبر ١٨١٦م.

^٢ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٦٤-٢٦٥.

^٣ - أنظر وصف الجبرتي لهذه الجنائزة. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٦٥.

وأفيضت على الفقراء الصدقات وتوالت الخيرات والنفقات^١، وهلم إلى هذا الأوان، أنزل الله عليه غيوث الرحمة وعمه بالرضوان.

هذا وحضرة صاحب السعادة قد كظم غيظه بعد أيام، وزال عن حضرته تلك الشواغل والأوهام، واستعمل الصبر الجميل ورضى بقضا الله الجليل، وتحقق أنه الأمر الحق والشأن الذي لكل نفس يلحق، وأنه لا مفر من ذلك ولا فرار عن تنفيذ أمر السيد المالك، فأظهر ما عنده من مضمهر الحزم وصرح بالأمر الذي هو عنده حتم جزم، فأحضر في عاجل الحال حضرة ولده الكبير المفضل السيد الهمام الشجاع المقدم حضرة سيدنا أفندينا إبراهيم باشا أبقاه (ص ٩٧) الله موقفاً للخيرات محفوفاً بالعز والمسرات وجا به من الصعيد إلى مصره وأحكم معه تديره المنتج لمعاني نصره، وأمر بتجهيزه إلى بلاد الحرمين^٢ وتتميم أمر الوهاية حتى يصيروا أثراً بعد عين. وكان

^١ - من هذه الخيرات السبيل الذي أنشأه صدقة على روح ابنه بالعقادين سنة ١٢٣٦هـ/ ١٨٢٠م، أثر رقم ٤٠١، وبنى فوقه كتاباً لتعليم الأطفال. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٦٥؛ علي مبارك: الخطط، ج ٢، ص ٢٨؛ محمد حسام الدين إسماعيل: وجه مدينة القاهرة، ص ٨٥.

^٢ - كان هذا في ١٠ شوال ١٢٣١هـ/ ٥ سبتمبر ١٨١٦م حين سافر إبراهيم باشا ابن محمد علي على رأس حملة جديدة إلى الحجاز فيما عرف بحملة الحجاز الثانية، وكان الهدف منها القضاء على قوة الوهابيين نهائياً بعد أن نجحت الحملة الأولى في الاستيلاء على الحرمين، ثم أرسل له في صفر ١٢٣٢هـ/ ديسمبر ١٨١٦م عساكر أترك ومغاربة ومعهم حرفيين وأصحاب صنائع، وتعزيزات أخرى في ربيع ثان/يناير-فبراير ١٨١٧م، وسافر كذلك إبراهيم أغا كتخدا إبراهيم باشا في جهاد أول بعساكر وعتاد. وجاءت أول أنباء بانتصار إبراهيم باشا عند الموتان في ١٠ رجب ١٢٣٢هـ/ ٢٦ مايو ١٨١٧م، ثم أرسل إليه عساكر مغاربة وأترك في ١٩ محرم ١٢٣٣هـ/ ٢٩ نوفمبر ١٨١٧م، وجاءت الأخبار في صفر ١٢٣٣هـ/ ديسمبر ١٨١٧م باستيلاء إبراهيم باشا على الشقراء وقبضه على زعيمهم عتية وإنسحب عبد الله بن سعود إلى الدرعية، ثم تقدم إبراهيم وحاصر الدرعية بمساعدة العربان، وخرج له من مصر كذلك ثلاثة دفعات من العساكر في شهر شعبان ١٢٣٣هـ/ يونيو ١٨١٨م ورمضان/يوليو برأ وبحراً، كما سافر خليل باشا في شوال بجيش

قد بدأ منهم علامات نقض العهود والعود إلى الخيانة وطباع اليهود، فحشدت الرجال والفرسان وحشرت لديه الأبطال والشجعان، فاجتمعوا صفوفاً وصنوفاً وإستعدوا مئينا وألوفاً، وكملت ذخايرهم وانتظمت شعائرهم، وأوصى حضرة أفندينا بجله الجليل وما كتم عنه معنى من تدابير كل فريق وقبيل، ثم بعد تمام أموره وإستقامة أحوال جمهوره ودّعه مع الدعوات المقبولة، فसार ومحاسن الأخلاق عنه واردة منقولة، وهو السيد الصنديد المخوف بالهيبة والتأييد لا يلم بجيوشه فزع ولا يمسهم نصب ولا جزع، بل سايرون كالليوث الكواسر وكل منهم على حرب العدو مناجز ومبادر، حتى حل معهم بأرض الحرمين ونزل بالأعداء الوهم حتى أصيبوا منه (ص ٩٨) بالمين، وفرحت أهل مكة والمدينة وإستحكمت بديارهم الطمأنينة، ومكث حضرة الباشا هناك أياماً معدودة حتى أحكم عساكره مضبوطة محدودة، وإنضافت إليه أجناد العربان وأقبلت لطاعته المشاة والركبان، وهياً الذخاير والميرة وحمل منها الحمول الزائدة الكثيرة، وإحتاط حفظه الله غاية الإحتياط، وربط كلما يلزم له الأمر بأبلغ الإرتباط وتدبر تدبيراً يذهل الأكاسرة، ورتبه ترتيباً تعجز عنه القياصرة، وأبدع في طرق الحرب العوان ما يفر من سماعه ابن المنذر النعمان، وأظهر أبهة الإمارة والوزارة، وبهر جموع الجميع بالعبارة والإشارة، وأبدى معالم السياسة وإستظهر بمحكم الحزم والראسة، وسار بجيشه كالبحر العجاج، وإستنار سعد طالعه كالسراج الوهاج، وصدم

آخر برأ وبحراً، ثم جاء خطاب من عثمان أغا الورداني أمير ينبع في ٧ ذي الحجة/ ٨ أكتوبر بإستيلاء إبراهيم على الدرعية وقضائه على الوهابيين، وبذلك استطاع إبراهيم باشا الاستيلاء على عاصمة آل سعود، واستولى بالتالي على منطقة نجد وشرق شبه الجزيرة العربية والانتهاء على الأسرة السعودية والدعوة الوهابية، وعاد إلى مصر في ٢١ صفر ١٢٣٥هـ/ ٩ ديسمبر ١٨١٩م عن طريق القصير. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٧، ٢٨٧-٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٦، ٣٠٥، ٣٠٦؛ عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي، ص ٦٥-٨٨؛ الرافعي: عصر محمد علي، ص ١٤٢-١٥٠.

جيوش الروهابية بعزم وقوة كلاهما فيه سجية، ووالى عليهم الهزائم وصيرهم في ذل أهل الجرايم، وأذاقهم بالسيف المشرفية مطاعم الهلاك (ص ٩٩) ومشارب البلية، ووضع في أعناقهم حسامه الصقيل، وأرهقهم من بأسه بويل وبيل ونوع لهم أشراك العذاب الأليم، وأرسل بأرواحهم إلى مقرها من الجحيم، ولم يزل معهم كل وقت في شأن مكيد وحال مريع لهم ومبيد، وهم يفرون من أرض إلى أرض وضاق عليهم البر في طوله والعرض، وهو يتبعهم سيراً ويحيط بجيوشهم ضيراً حتى تقاربت عساكرهم بأراضيهم ودخلوا في كنف واديهم، وصاروا تجاه مدينة الدرعية وبالقرب من حماها وجهاتها المرعية، فنزل حضرة أفندينا إبراهيم باشا بعساكره ورتب الجموع من أبطاله وعشائره، وإستقر بذلك الوادي وأقام متوطناً ذاك النادي، وصمم جازماً وأبرم أمره لازماً أن لا يرحل من هناك حتى يصنع معهم صنوف الهلاك ولا يبرح عن تلك البرية بمن معه من ساير البرية حتى يأخذ مدينة الدرعية ويزيل معالمهم بالكلية، ولو أقام مهماً أقام في (ص ١٠٠) ذلك المحل والمقام، فله دره من سيد عظيم وبطل بمواطن الحرب عليم، وما أعظم هيئته في قلوبهم، وما أشد ما ألقاه من الرعب في صدورهم وجنوبهم، كم أذل أبطالهم وخرب أوطانهم وأجهدهم بالحسام الصمصام وأسر رؤسهم في مجال الصدام والخصام، حتى صاروا أذل من النعل، ولو تمكن لإفتدى بإبنته وزوجته الأب والبعل وبقي الجعل أعز من أمرايهم، وندموا على ما سلف من جداهم ومرايهم، هذا وحضرة أفندينا إبراهيم باشا قد تواصلت إليه رسلهم وجا إلى حضرته في نهاية الخوف أمثالهم وطلب منه بعضهم الأمان فأمنه، وأمر بالخروج عن الدرعية حتى يصل مأمنه، ووقع التحالف وإنفك من كثير عقد التآلف، ثم أرسل عبد الله بن سعود رئيس أوليك الأقوام والجنود وطلب الاجتماع بحضرة أفندينا، وصار يلهج بالصلح حدساً وتخميناً، فأجابه إلى الحضور لديه ولا خوف ولا ضرر عليه، فإن وقع ما يرضى به حضرته الكريمة ويرى ويتحقق أن الأمور بذلك مستقيمة أجاب مبادراً لذلك، (ص ١٠١) ونفذ الأمر بحسب ما هنالك وإلا فلا يبرح عن مكانه إلا

بعد محاربة أهل ذلك البلد وتشتيت سكانه وإخراج عزيزهم عن ساحة أوطانه وإرجاعه ذليلاً نادماً عن متابعة شيطانه، فأرسل ابن سعود يقول لحضرة سعادته أن يقابله مؤمناً حتى يعود كما خرج مصوناً إلى بلده، فأجاب لمطلوبه وأن يتكلم إذا حضر. بمغرّوبه، فحضر مع أناس من خواصه وأعرب عن مقصوده عامة وخاصة، فلم يعجب الحضرة ما أعربه ولا ألم ببعضه بل إستغربه، فأشار على الحضرة بعض الأتباع بأن يحبسه إذا هو كبيرهم المطاع، وأنّ أخذه غنيمة بادرة، والإستيلا عليه ظفر بضالة كانت شاردة، فلم يرض أعزه الله بذلك، بل إستقبح هذه الإشاعة من حضرته هنالك، وصرح أن الفخر في أخذه قهراً والمروة في أسره من الميدان جهراً أو تملكه من وسط مأمنه، فإن الإستيلا على مثله لا يحمد إلا بعد عجزه عن نجاة نفسه وعدم تمكنه، فعجب السامعون من كبير همته وتحققوا أنه لا ينقض وثيق عهده وذمته، فرجع الوهابي إلى جنوده (ص ١٠٢) وقد إنخلت عقود راياته وبنوده، وسار حتى دخل الدرعية وأحضر آلات الحصار لحفظ البلد والرعية، فمكث عساكره بعضها جهة باب البلد وقد إنقطع عنهم سبب القوة وعدم المدد، وبعضهم مكث داخل الأوطان مراعيّاً حفظ أهله بتلك الأعطان، فحاصروهم حضرة أفندينا وضيق عليهم وأرسل أنواع العذاب من المدافع والنبب إليهم، فدخلوا جميعاً بوسط مدينتهم، وصاروا موثقين في سجن حيرتهم وندامتهم، وشدد حضرته في إجهادهم وجد في حربهم وجهادهم، وواصل ذلك عليهم ووالى نظره في تأمل الجهات حوالهم، وأحكم مبالغاً في إرهابهم، وأبدع في إرغام أنوفهم وإرهابهم، ومكث على هذا الصنع أياماً حتى ملوا خوفاً وإزعاجاً وإيلاماً، فاتفق لبعض شجعانه المشهورة وهو بطل من خواصه المذكورة^١، أنه مشى بالليل البهيم ملاصقاً لجدار البلد ومعه كل

^١ - وهى فرق الكومندوز، وتعرف في التركية شرحجية، ومفردها "شرحجي"، وهى من الكلمة التركية "جرخه جي"، وهى طلائع القوات التي تناوش العدو. رد حارس: كتاب معاني لهجة، بيروت ١٩٨٧، ص ٧١٨.

غضنفر جسيم ساكنين عن الكلام ساكنين تحت أستار الظلام، حتى وصلوا لمجرى مايبهم (ص ١٠٣) وتأملوه بلطف آرايهم، فنزلوا فيه سائرين وساورا حتى ظفروا بالمدخل لذلك البلد الحصين، فوجدوه مدخلاً ضيقاً يسير الرجل فيه منحنيّاً لسقفه ملاصقاً، فصمموا على دخول البلد من ذلك المجرى، وإنهم لا يرجعون حتى يذموا أو يجدوا^١ ذاك المسرى، فدخلوه متوكلين على رب الأرباب، وساورا فيه بلا وهم ولا إرتياب، فأعانهم الله وقوّاهم وثبت جأشهم وقوّاهم، حتى وصلوا إلى غايته وعانوا المصعد في نهايته، فصعدوا أجمعين وصاروا بالدرعية ومن بابها متقربين، فإستعدوا للحرب وتهيّأوا للطعن والضرب، وأرسلوا لحضرة أفندينا ينجدهم وبقوة عزمه يسدّدُهُمْ ويساعدهم، ثم فتحوا الباب وصاحوا صيحة الليث المهاب، فنار إليهم أهل البلد وتزايد عليهم العدد وأحاطوا بهم من كل مكان، وإنزعجت النساء والسكان، وإشتغل الشجاع بنفسه وذهل عن ولده وعمره، ووقع الحسام في الأعناق وقامت الحرب على ساق وضاق المجال وكثرت الأوجال (ص ١٠٤) وإشتد الزحام، وطير المنية على رؤسهم حام، وسالت الدما بدل الدموع، وذهب الأمن وفر الهجوع وطارت الرؤس وتلفت النفوس وصمت الفصيح وفرع الجريح وذهل الطريح وضاق الفسيح وهدرت الشجعان، وحمى وطيس الحرب العوان وولى الجبان وزاد جنون الجنان، فيالها من لئلة لقي بها المقصر ويله، ولازالت نار حربها في إشتعال حتى آذن الليل بالإرتحال

وبدا شعاع السيف منبسّطاً	فوق البسيطة بالدم القاني
ورنا الكميّ خُصمه شزراً	وتحكم الهنديّ في الجاني
وغدا الجبان يقول وا أسفا	مالي ومنّ للحربِ أَلْجَانِي
وسطا الشجاع وصار متتهباً	أرواح كل مقصر شاني

^١ - في نسخة [دار الكتب] "يحمّدوا".

فلله در أجناد أفندينا وشجعانه، لقد أدهش كل منهم بضربه وطعانه، غير أن الجمع تزايد عليهم ومال ابن سعود بكثرة رجاله إليهم وأحاطوا بهم إحاطة السوار بالمعصم، وكل من الفريقين حلف وأقسم أن لا أبرح إلا بالقصاص ولات حين مناص، (ص ١٠٥) وتفاوت الأعدا وتكاثرت وصاح بعضها على بعض وتناصرت وأطالت إظهار أحقادها وما قصرت، ونظرت في إغاطة خصومهم وتبصرت حتى أغاث الله عسكر السنين^١ بحضور الليث الهمام وأسعدهم بقدم خميس ذلك الضرغام، وكان قد بلغه ما وقع فاستنهض الرجال وأسرع وسار مجداً منجداً، وصاح مبرقاً مرعداً فأدرك رجاله بذلك المكان بعد الذي قضى وكان، فهجم كالهزبر وعجل بمحماهم إلى القبر، وسطا سطوات حيدر الكرار وحرم على جفونهم لذة الفرار^٢، وحكم بأقفيتهم سيفه البتار وأسال الدما كالوابل المدرار، وحاربت رجاله حرب الأسود وأذلت الأعدا وصبغت بحمرة الدما وجوههم السود، فتكاثرت أهل المدينة وحاربوا عن الظعينة ومانعوا عن أنفسهم وأولادهم ومنازلهم وبلادهم، فصاح أفندينا في أبطاله وزجرهم محرضاً على هزم العدو وإبطاله، فاشتد الأمر وحى الجمر وكافحت الفرسان وبرق (ص ١٠٦) السيف والسنان واختلطت الجموع ببعضها البعض، وغض الوهابي نادماً على يديه وآنى يفيده العض، وطال المطال والشجاع إستطال وتجدلت الأبطال وصارت الأعدا كالدوانيق فلا توازن الأرطال، ومازال برق السيف يسطع والهجمات تقع بعد أن تقطع، والغبار إلى الجو وعدم النور والضو حتى ذلت الوهابية صاغرين،

١ - يصور المؤلف هنا السنين في مواجهة غير السنين كما وصفهم الجبرتي بقوله "وفي إعتقادهم الخروج بقصد الجهاد وغزو الكفار المخالفين لدين الإسلام"، كما وصفهم كلوت بيك بأنهم "محوارج مبتدعون في الإسلام، يريدون على قولهم الرجوع بهذا الدين إلى تحالته الأولى من السذاجة والتقصيف". الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٨٩؛ كلوت بيك: لحة عامة، ج ١، ص ٦٥.

٢ - في نسخة [دار الكتب] "القرار".

وولت جمعهم إلى الدور منهزمين، وأغلقوا عليهم الأبواب توهمًا أن ذلك ينجي من قطع الرقاب، فنزل حضرة الباشا وأمر جيوشه بالنزول وطلب بذلك راحة فرسانه ورجاله الفحول، ونزلوا بتلك الساحة وكانت متسعة في المساحة، وهى وسط البلد والدور، وجلسوا ليذهب ما بهم من الفتور، فإرتاحوا آمنين وإطمأنوا أجمعين، ومكنت الأعداء في المنازل مخدولين مرهوقين من الحضرة ومتخالفين، فصبر أفندينا يسيراً وأمر بمداواة الجرحى وما أبدى تقصيراً، ثم أذن بالأمان لطلابه ولكل من ألقى سلاحه وبادر لفتح بابه، (ص ١٠٧) فإنقسمت أهل الدرعية إلى قسمين وصاروا متظاهرين بوسمين، قسم مؤمن مع جماعته وآله، وقسم بقى محصوراً مرعوباً على سابق محاله، وأراد حضرة أفندينا أن يطلب ابن سعود الأمان وإلا هدم الدور على رأسه. عن معه من الفرسان، فبينما هم على هذا الشأن المدير وإذا بابن سعود قد خرج عارفاً أن أمرهم قد أدبر، فأحاطت به فرسان أفندينا، فقال لسان حاله الأمن بالأمان ينادينا، فبادر حضرة الوزير وأمر أن لا يرهق ابن سعود بنكير، فسار ابن سعود بجماعته والجيش يحيط بهم في بلده وساحته، ولازال يخطو بأقدامه وقد إضمحطت مظاهره إقدامه حتى دخل على حضرة الصدر وحياء وإستجار بهمته وطالع محياه، فَبَشَّ فيه وأمنه وما أخجله بالقول ولا آله، وأمن من معه من أتباعه ورفع الأضرار عن أشياعه وأمرهم بالجلوس لتطمئن منهم النفوس، وقال له يا عبد الله أزل عنك الأوهام، فقد وقيت الإرعاب (ص ١٠٨) والإيهام، ولا خوف عليك ولا حرج، فليجلس بداره من طلب، وليخرج من خرج، فكلهم مؤمنون وعلى أهلهم وأتباعهم مطمئنون، فدعا له دعا جزيلاً وأثنى على أخلاقه الشريفة ثنا جميلاً، ثم حادثه درجات يسيرة وأمره بالرجوع لداره وأهله لتبتهج منهم السريرة، فقام متوجهاً لداره وسكنه ودخل مطمئناً

١ - في نسخة [دار الكتب] هذه الكلمة مكتوبة في الهامش الأيمن للصفحة، وقد أشار إليها المؤلف

أهل^١ وطنه، وجلس قليلاً من الأيام متردداً إلى حضرة الصدر الهمام، فخاطبه أفندينا بعد ذلك وأبان له عن المضمّر مما هنالك، فقال له يا عبد الله إني فعلت معك ما أمكن، وحصل لك الأمن على نفسك والمسكن، وقد سكن جأشك وطاب لك معاشك وبقي ما لا بد من حصوله، وها أنا أعرب لك عن ملخص محصوله، وهو أنك مع خواصك وذويك وكل من يريدك ويصطفيك يتحتّم سفركم جميعاً إلى أرض مصر، فبذلك يزول عنكم أسباب الإصر، لتقابلوا أفندينا الكبير الصدر السند الوزير ذي القدر العلي (١٠٩) حضرة محمد علي، وأرسل معكم أناساً من خاصّتي وأرفع إلى حضرته الجليلة قصتي، وهذا أمر لا يدرك وقوعه ولا يمكن إلا إظهاره وشيوعه ولا يتأتى غير هذا القول، ولا يقول سواه أرباب العقول، فإن أجبت طائعاً فهو الأحسن إليك، وإلا سرت قهراً عنك بدائرتك وما حوالبك، لا يمكنك التوقف ولا يخطر بذهنك التخلف، فجهز أمرك مبادراً مطيعاً مجيباً مسرعاً سميعاً، فقام ابن سعود وأشاع ذلك الخبر وبلغ جماعته الأمر الذي به أتمم، فتهيّثوا بعيالهم للسير وترجوا بوصولهم إلى مصر ذهاب الضير، فحملوا رواحلهم الزاد وساروا مع بعض أتباع حضرة أفندينا كما أراد، وكاتب حضرة والده صاحب السعادة مخبراً له بما وقع على العادة^٢.

فسار الوهابي مع أناسه وقومه ذكوره وإناته، وكانوا قريباً من الألف في العدد الرجل وماله من زوجة وولد، وهذا عدد الرجال سوى النساء والأطفال، فساروا وهم

^١ - في نسخة [دار الكتب] "بأهيل".

^٢ - لم يذكر الجبرتي شيئاً عن مفاوضات إبراهيم باشا مع عبد الله بن سعود، بل ذكر لنا ما دار بينه وبين محمد علي بعد وصوله إلى مصر، وقد أشارت المصادر الحديثة إلى هذه المفاوضات بداية من طلب عبد الله بن سعود الصلح في ٨ ذي القعدة ١٢٣٣هـ/ ٩ سبتمبر ١٨١٨م وذهابه لمقابلة إبراهيم باشا وطلبه لتأمين سكان الدرعية والتشفّع له عند محمد علي والدولة العثمانية. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٩٩؛ عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي، ص ٨٢-٨٤؛ الراجعي: عصر محمد علي، ص ١٤٨-١٤٩.

بشعارهم وقد لبسوا ثياب (ص ١١٠) عارهم حتى دخلوا مصر أجمعين، منضمين ببعضهم ومجتمعين، وكان يوماً مشهوداً وعيداً من أكبر الأعياد معدوداً، ففرقهم فرقتين وأسكنوهم بمصر في جهتين^١، ورتب لهم صاحب السعادة ما يكفيهم وأعطاهم من رفده وإحسانه أمناً يوافيهم، وقابله ابن سعود خاضعاً داعياً لجناحه ولعفوه مراعيّاً، فقال له حضرة الصدر الوزير العلي القدير يا عبد الله تمام أمرك وإنكشاف مضمون خبرك ذهابك مع رجلين إلى حضرة ملك الخافقين من شعاره السود والوقار ومعاله التقوى والأنوار، سيد ملوك الأمم وسلطان العرب والعجم المحفوف بعناية الرب الودود حضرة مولانا السلطان محمود نصره الله ولا بد لك من ذلك ولا محيص عن مسيرك إلى هنالك، ثم أرسله مع أحد أتباعه من طريق البحر، فكانت عاقبته عند وصوله النحر^٢، ولم يمكث بإسلامبول سوى بعض أيام، ثم قطع عنقه مع رفيق له وهو له إمام، وأرسل حضرة السلطان يثني ثنا جليلاً ويشكر شكراً جزيلاً^٣ (ص ١١١)

١ - حضر في ١٨ رجب سنة ١٢٣٤هـ/ ١٣ مايو ١٨١٩م حوالي ٤٠٠ فرد من الأسرة السعودية وأسكنوهم بالأريكية عند شارع الساحة الحالي، وسكن عبد الله بن سعود بدار عند جامع الست مسكة، ثم حضرت جماعة أخرى في محرم ١٢٣٥هـ/ أكتوبر-نوفمبر ١٨١٩م، وأسكنوهم في دار بحارة عابدين، كما حدث تمرد من بقية العائلة السعودية في نجد في سنة ١٢٣٦هـ/ ١٨٢١م سيطر عليه حسين بيك وقبض عليهم وأرسلهم إلى القاهرة في شوال من نفس العام وأسكنهم في خط الحنفي. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٣٠٣، ٣٠٥، ٣١٩.

٢ - وصل خبر قتله في استانبول عند باب همايون مع بعض أتباعه في جماد أول ١٢٣٤هـ/ فبراير-مارس ١٨١٩م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٣٠٢.

٣ - كان ضمن هذا الشكر منح محمد علي في ١٠ محرم ١٢٣٠هـ/ ٢٤ ديسمبر ١٨١٤م المنطقة من الحجاز إلى ساحل القصير، ثم وصلت في ٢٧ جماد أول ١٢٣٤هـ/ ٢٤ مارس ١٨١٩م هدايا عبارة عن خنجر وساعة لكل من محمد علي وابنه إبراهيم، مع العفو عن من بقى من الوهابيين، وإعطاء محمد علي الحق في منح إمریات وقبجیات. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢١٦، ٣٠٢.

لحضرة أفندينا صاحب العز والهمم وسيد سادات أعيان سروات الأمم، فارس الدهر المحوط بالنصر، الشهير لدى الوزراء والملوك، مرضي الشأن ومحمود السلوك شكرته الدولة إبتهاجاً به، حتى صار ملهج لسانها وحل من عينها على الحقيقة محل إنسانها، فعدته لها حساماً مسلولاً وأيقنت أن ترد به صعب الخطوب ذلولاً، فهو الهمام حميد الطباع، والضرغام مهيب الأوضاع، الصدر العلي ذي العز والفخر الجلي، سيدنا المحفوظ^١، الذي هو بسر العناية ملحوظ، أدام الله تأييده، وكمل قواه وتسديده، فهو الذي أبطل مذاهب الوهابية وأبادهها وأخلى من الأرض فجورها وعنادها، ولم يبق لهم من يشاحن ولا يفاقم، وإذ لهم كما أذل سليمان الشياطين في القماقم حتى حمدت نيرانهم بعد إشتعالها^٢ وسكنت قلوب الموحدين بعد قلبها من مكرهم وإشتغالها، فياله من رئيس رد كتاب الأعدا وصددها وأعدّ لهم جيوش أبطاله وبهيمته وآرايه أمدها ووالى عليهم سطوات عزمه الساطعة بروقها وفتق رتق إتفاق (ص ١١٢) كلمتهم، فإتسعت عليهم من النكبات خروقتها، فكم لحقهم من سيفه محقهم الذي إعتراهم وأخرجهم بما أخرجهم، ومن درع درعتهم^٣ عراهم، ولم يوجد من منذ خمسمائة سنة طايفة غيرت الشريعة مثلهم في اليقظة والسنة، فكم لهم من رذائل لا ينفك أحدهم عنها ولا يزایل، فله الحمد على هذا الصنع بأوليك الأردال، وله الشكر على إضمحلال فجورهم الذي زال، فهي حسنة له على جبين الدهر مسطرة، وحديقة زهر بشميم عرفها أفئدة المؤمنين ووجوههم مبتهجة معطرة باقية مخلدة بوجه الزمان غرة لاتزال بفضل الله مستمرة عنواناً للمسرة والبهجة^٤.

١ - في نسخة [دار الكتب] "المعلوم".

٢ - في نسخة [دار الكتب] "إشتعالهم".

٣ - في نسخة [دار الكتب] "درعتهم".

٤ - في نسخة [دار الكتب] هذه الكلمة مكتوبة بخط مخالف للخط السائد بالمخطوط.

الفصل الثالث

في قمع شوكة المفسدين من طوائف أجلاف الفلاحين والعربان بقطر مصر وإذلالهم

وهذا الفصل من العجائب، والذي تضمنه يذكر في الوقايع الغرائب، وحاصل مضمون هذا الفصل وما أذكره فيه من القول الفصل، أن في دولة الغز الإبراهيمية والمرادية (ص ١١٣) كان ببلاد مصر ونواحيها وقراها وضواحيها رجال موصوفون بالقوة، مذكورون بالكرم والفتوة اسماً بلا مسمى، وخيلاً ما ألما، ونفصل مساكنهم ونذكر أماكنهم.

ببلدة تلا^١ بفتح المثناة واللام بعدها كذلك مخففة رجل اسمه شيخ العرب فمنهم رسلان^٢ برا مهملة مفتوحة وسين كذلك ساكنة، ثم لام ألف ونون بعدها، وكان رجلاً ربعة جسيم البدن أسمر اللون له قوة شديدة وأتباع كثيرة، وكان من الفرقة المعروفة بسعد، لأن جميع الفلاحين والعرب فرقتان سعد وحرام كما هو شهير^٣، ورسالن هذا كان من سعد، وكان يلبس الثياب النفيسة من الهندي الجليل،

^١ - تلا: بلدة قديمة من إقليم الغربية، أصبحت بعد ذلك أحد أقسام مديرية المنوفية سنة ١٢٨٠هـ / ١٨٦٣م، ثم سميت مركز تلا في سنة ١٨٧١م، محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ق ٢، ج ٢، ص ١٨-١٩، ١٧٣-١٧٤.

^٢ - شيخ العرب رسلان: وفي أواخر القرن ١٨م كان ابن رسلان قاطع طريق بالمنوفية. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٢، ص ١٠٢، ١٥٩.

^٣ - فرقنا سعد وحرام: جماعتان من المماليك والبدو أظهرتا كثيراً من التحدي لسلطات الحاكم في النصف الأول من القرن ١١هـ / ١٧م، وقد أطلق على الأولى نصف سعد الفقارية، وضممت ممالك وعناصر من أهل الحضر والبدو، وظهرت كجماعات قوية هدفها السيطرة على أكبر ما يمكن من دخل مصر. وعرفت الجماعة المنافسة لها بأسم نصف حزام القاسمية، وضممت المماليك المنافسين

إلا إنه لا يضع على رأسه إلا لبدة من الصوف المعهود لبسها لفقرا الفلاحين وخدمهم وأتباعهم، فكان هو لا يلبس الطربوشة مثل غيره من أعيانهم، بل مستديم لبس اللبدة من دونهم، وكان يتعمم عليها بالशल الكشمير العظيم الكراخانة وله عذبة طويلة، وكانت فتحات أكمامه متسعة، وهو ساكن متوطن بقرية تلا، له دار جليلة متسعة، وله بها الخيول (ص ١١٤) الجيدة، والعبيد العديدة والجمال والمزارع الجليلة، وكان على الدوام يركب ويصحبه الألف من الفرسان والألفان والثلاثة آلاف ويغير على بلاد حرام ويقع بينه وبينهم الحرب والطعن والضرب حتى يهزمهم ويقتل الرجال ويذبح على صدور النساء الولدان والأطفال، ويفعلون الفواحش المنكرة وينهبون الأمتعة والأموال الفاخرة، ولا يدعون كبيرة ولا صغيرة إلا فعلوها، ولا يغادرون نخلة من القباحة إلا أحصوها، ويرجعون بالأغنام والجمال آلافاً مؤلفة، وبالذجاج والأوز والثياب والغلال أصنافاً مصنفة، فيأخذ من ذلك اللعين رسلان لنفسه ما يريد ويعطي باقيه لعسكره الأجلاف ولن معه من طوائف الفلاحين والعبيد، ويتوجه إلى بلده فيمكث بها مدة فيتفق أن يقع بين الفلاحين كرب وشدة، فيستنجد به أناس فينجدهم ويحارب بجيشه أعداهم ويخذلهم، وكان له رجال يقفون بطريق المسلمين ويؤذون المارة من سائر الطوائف (ص ١١٥) أجمعين، فيسلبونهم ثيابهم ويأخذون أموالهم وأسبابهم، وكل من لم يسلم لهم بالإذعان قتل أو جرح، ولرسلان فيما يأخذونه قسماً كبيراً متكاثراً.

وإتفق أن مراد بيك ركب من مصر بعساكره ورجاله وصناجقه وأبطاله، وأراد حرب رسلان وقتاله وصدامه ونزاله، ولا يعود إلا بعد قتله لرسلان وإذاقتته الذل

وعناصر حضرية وبدو نصف حرام، وإنتهى الأمر بإسقاط أسم الجماعات البدوية وعرفوا ببساطة بالقاسمية والفقارية، وهى الجماعتان السياسيتان اللتان تنازعنا على زعامة مصر حتى منتصف القرن ١٢هـ/ ١٨م، حيث عزز القازدغلية سيطرتهم على مصر. أنظر:

Holt, Egypt and the Fertile Crescent, 84.

والهوان، فسار وبلغ الخير رسلان فجمع رجاله وحشر أبطاله وتقابل مع فرسان مراد بيك في واسع البر، فلما فهم أن لا خلاص له في حربهم، أمر رجاله ففروا وفرّ، فأمر مُراد بيك بماليكه الشجعان وصناجقه وكشافه الفرسان أن لا بد من لحاقهم برسلان، وأن يحضروا به قتيلاً أو أسيراً، فأكبت الشجعان رؤسها في قرابيس السروج وكرّوا كراً شديداً في تلك الأرض والمروج، وبقي رسلان منفرداً، وفي ذلك البر متوحداً والفرسان جميعاً تسوق خلفه الخيول وكلهم يرمح جواده وما لهم أبداً إليه دنوّ ولا وصول، لأنه كان (ص ١١٦) تحته فرس يضرب بها الأمثال، وهى من أصايل الخيل، عديمة المثال، ففر عليها رسلان وهو من الفراسة. بمكان، وما زال كذلك حتى إنقطعت عنه الخيول وردت بالتعب الشبان والكهول ولم يبق خلفه يكر عليه ويريد أن يوصل كيده إليه سوى أحد كشاف مراد بيك وكان يسمى مراد كاشف، وهو من الشجعان المعروفة والفرسان المذكورة الموصوفة، وهو المعروف الآن بمحمد بيك المبدول^١، وتحته جواد أحمر أصم محجل بسواد معدوداً من خيار الخيل الجياد، وما زال

^١ - محمد بيك المبدول: كان اسمه مراد كاشف، أمير الحاج سابقاً، تابع الأمير حسن بيك الأذربكاوي حاكم ولاية جرجا، وعندما رقي في شوال ١٢٠٠هـ/يوليو-أغسطس ١٧٨٦م إلى رتبة البكوات سماه حسن باشا القبطان محمداً كراهة في أسم مراد بيك فصار يكتب في الإمضاء محمد بيك حسن، إشترك في محاربة إبراهيم بيك ومراد بيك في الصعيد مع قوات حسن باشا، كما إشترك في الهجمات على عربان أولاد حبيب بالمنوفية سنة ١٢٠٣هـ/١٧٨٩م، وعند رجوع المماليك إلى القاهرة بعد حادثة حسن باشا ذهب إلى إبراهيم بيك ورجع معه، وإنضم إلى مراد بيك في منازعاته مع إبراهيم بيك. كان متديناً ومحباً للعلماء فبنى للشيخ سليمان الفيومي المالكي داراً بحارة عابدين، كما بنى جامعاً بحارة المبدول بعابدين سنة ١٢١٢هـ/١٧٩٨م وألحق به قبرا له لما مات في سنة ١٢٢٣هـ/١٨٠٨-١٨٠٩م دفن به، وقد أخذ الخديو إسماعيل هذا الجامع عند بنائه سراي عابدين وتخطيط منطقة عابدين في القرن الماضي وبنى بدلاً منه جامعاً آخر على نفقته بجوار السراي من الجهة الجنوبية الغربية ونقل إليه مدفن محمد بيك المبدول الموجود الآن، وألحق به مدرسة للأطفال وسبيل، وانتهى البناء وأقر له وقفاً في ٥ جمادى الأولى ١٢٩٢هـ/٩ يونيو ١٨٧٥م.

يكر خلف رسلان فريداً لا يرافقه إلا قربانة^١ وسيف هندي مصان حتى صار بجيـث إذا
ضربه بالقربانة وصلت إليه فصمم حينئذ بتحريرها عليه، وضربها فخرجت كالمـدفع
الكبير ولها صوت له دويّ وهدير، فوصلت إلى رأسه فأحرقت عمامته، وكان تأجج
شعليلها في دخان شاله عمامته ولم تصل إلى إضرار جسمه ولا أثرت تغيير اسمه، فرق
رسلان إنه إذا رجع لضرب الكاشف وصده وتغيره عنه وقوة رده ربما أدركته رفقته
الفوارس (ص ١١٧) فيكون في هول عابس، وكان قد وصل إلى ترعة مملوءة بالماء فخفق
نحوها الأبصار والإيما، وكانت متسعة الأخدود بجيـث لا يتمكن من شاطئها الثاني
أحد تلك الجنود، ولا يتمكن من ذلك جواد مشهود ولو كان داحساً أو أبحر عنتره
الـجسور، فأقبل إليها رسلان بفرسه الشهيرة وصاح بها النجاة يا حميدة السيرة،
ولكـزها في الجنين بركابه فهمزت بقوتها حتى وقفت بذلك الشاطي ورحابه
وحجرت بينهما سعة ذلك المجرى، وبقي منفرداً آمناً لا يهرب أمراً، ثم ذهب من
هناك إلى مأمنه وإختفى أسبوعاً ثم عاد إلى أهله ووطنه، ورجع مراد بيك بعساكره
ودخل مصر متظاهراً بمناكره، وكانت عاقبة رسلان التوبة، فرجع إلى ربه بأحسن
أوبة، وترك ما كان لديه من المنكر وندم على ما فرط منه وإستحقه وأنكره، وبقي
على ذلك مدة قليلة وتوفاه الله، وصار رهين عمله عند من تولاه.

الـجـبـري: عجائب الآثار، ج ٢، ص ١١٥، ١١٧، ١٣٩، ١٤٠، ١٧٨، ١٩٤-١٩٥، ج ٣، ص ٦٥،
٩٣، ٢٠٧، ٢٨٧، ج ٤، ص ١٠٥؛ علي مبارك: الخطط، ج ٣، ص ٨٨، ٩٠، ج ٥، ص ٤٦،
١٠٨، ١٠٩؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج ٣، ص ١٢٣٤؛ محمد حسام الدين إسماعيل:
وجه مدينة القاهرة، ص ٢٨٣-٢٨٦.

^١ - قربانه: بندقية قصيرة من طراز قديم، وهى واسعة الفوهة، كان يحملها المشاة والفرسان. أحمد
السعيد سليمان: تأصيل ما ورد في الجبـري، ص ١٦٦.

وكان من مشاهير المفسدين ومن كبار الخاسرين، رجل يقال له ابن زغلول^١، أضر فعلاً (ص ١١٨) من الشيطان والغول، يقف مع رجاله على شاطئ البحر ولا يتركون سفينة إلا وألحقوا بمن فيها الضر والقهر من النهب والقتل للمخالف، وكل من سار بذلك المحل كان بشأن التالف، لا يستحي ولا يعرف الوقار ولا يخشى من القبيح بالنساء ولا بالصغار، كأنما هو صاعقة في الفساد والظلم محرقة أو بلية من عذاب الله لسرور المؤمنين مغرقة، طال ما أضر العباد وأظهر الشر والعناد، لا مرؤة له معروفة ولا فتوة لديه موصوفة ولا كرم ينقل في سيرته ولا ذرة خير في باطن سريره لعين ذميم شيطان رجيم، لم يزل في عتوه وفجوره وظلمه وتعديه وجوره حتى أرسل إليه حضرة أفندينا أيده الله من أحضره سريعاً، فصعدوا به إلى القلعة وقد أنكر ما صنعه جمعه ومنعه، وندم اللعين ولا ينفعه الندم، فقد زلت منه القدم وبقي كالعدم، فأمر حضرة صاحب السعادة بحذف عنقه وسد جميع سبله وطرقه، فأنزلوه مصاحباً للمذلة مقروناً بالصفع ملزوماً بالعلة، (ص ١١٩) فقطعوا رأسه الخبيث وزال شره الخبيث ونقل روحه إلى النار وبئس القرار، فأراح الله العباد والبلاد وفرحت بقتله السفار في كل واد وناد، وأمنت المراكب في البحر وإرتاحت السايرون في البر، وخلت تلك الطريق من الأوباش وحسن فيها السير لطلاب المعاش، وهذه من حسنات أفندينا الكبيرة التي هي مخلدة وفي ذكرها شهيرة، جزاه الله على ذلك خير الجزاء وأجزل له من الخيرات والمسرات أعظم الأجزاء.

^١ - ابن زغلول: أحد قطاع الطرق بناحية القليوبية، كان هو وعصابته يقطع الطرق على المسافرين في النيل سنوات ١٢٢٢-١٢٢٣هـ/١٨٠٧-١٨٠٨م، وذكر الجبرتي أنه حينما توجه الأمراء للقبض عليه صالح على نفسه بثلاثمائة كيس ورجع الحال إلى حاله. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٥٦-٥٧.

ومن جملة شياطين الفلاحين الملازمين لإضرار عباد الله في كل حين، رجل يقال له الأشقم^١ من شرقية المنصورة، كان آفة من الآفات وبلية من أكبر البليات، قاطع للطريق مستحل دم الرفيق، لا يهرب من الفرسان ولا يخشى صولة الشجعان، وله جماعات يتبعونه وعشاير يرهبونه ويطيعونه، وكلهم بلا شديد وإضرار لا يزول ولا يبيد، يسلب وينهب وليس له دين ولا مذهب، لا رغبة له في صوم ولا صلاة ولا راحة تمتد بالرغد والصلاة، قرين الشيطان (ص ١٢٠) يشتت السكان عن الأوطان، أرسل له حضرة أفندينا سريعاً من قطع عنقه وسد طرقه، فذهب كأمس الدابر ولحق سكان المقابر وخرجت روحه إلى السعير بعدما لقيت هول منكر ونكير، وهذه كذلك من الحسنات المشهورة التي هي على جبين الزمن مسطورة، وهذه أشياء متكاثرة معروفة عند أهل القطر ظاهرة بحيث لو تتبععت أفراد هؤلاء الشياطين طالباً حصر عددهم أجمعين لطال الكلام مع شهرته حتى للعوام.

وإن لم يكن لحضرته إلا إحماد شوكة العربان وقمع صولتهم على أهل القطر في كل مكان حتى كأنهم هم أمرا الزمان وحكام ذلك الأوان، ولا سيما ما كان يفعله عرب البحيرة مما أورثوه لأهلها من الخلل والحيرة، حتى كانت كل قرية لها صاحب منهم فهو أميرها ويسمونه بالصدیق، وما هو في الحقيقة إلا زنديق يأخذ من القرية ما إحتاج إليه وما كان من الغلال والسمن مفتقراً إليه بغير ثمن وغير محمّدة بل الضرر المستديم منه بكل مفسدة، وفي بعض الأحوال (ص ١٢١) يدعي أنه غضبان منهم لما بلغه عنهم من كراهته وذلك من أكاذيبه وكبير خبائثه، فيخرج من القرية إلى الغيطان ويتباعد بالبادية إلى نحو المزارع الخارجة عن الأوطان وبهايم أهل تلك القرية في المرعى فيكر عليهم بقوة المسعى ويضرب الرعاة ويقتل بعضهم فيهربون ويتركون ما معهم، فينهبون البهايم والنوارج والمحاريث، ويمرحون في تلك الأرض أشباه الجنّ والعفاريت، ويسرون بذلك المنهوب إلى قبائلهم فيتوجه أرباب تلك المواشي لأصحابهم وأقاربهم

^١ - الأشقم: لم نعر على أي معلومات عنه.

ويذهبون جميعاً للقبائل مستجيرين وضارعين مستغيثين ويستشفعوا لهم بأحبابهم وأولادهم، ويدفعون إليهم الأموال مقدار النصف من أمثالهم، ويتضرعون إليهم ويخضعون لديهم، فتارة يقبلوا ذلك منهم وتارة يدفعون بعض ذلك إليهم ويأخذون الباقي، ويرجع الفلاحون تدمع منهم الأماقي، وكان لهم في ذلك شئون كثيرة وأصناف من المكاره شهيرة، وطالما قتلوا الرجال (ص ١٢٢) بل وذبحوا الأولاد والأطفال، وكان بعض البلاد بها الشياطين أصحاب القوة وأرباب الفراسة والفتوة من كبار مشايخ الفلاحين، فكانوا يحمون جهتهم ويتنقمون هم من أهلها بدل أوليك الشياطين قبحهم الله أجمعين.

وناهلك بطايفتي سعد وحرام، وكانت جميع الفلاحين في القطر وجميع الأعراب من جميع الجهات فيه يفترقون على فريقين، وهما المذكوران من الطائفتين، وقد يكون نصف البلد الواحدة سعداً ونصفها الآخر حرام، وكل من ملك منهم صاحبه قتله ولا يخشى الله ولا الملام، وتارة يجتمع جمعان كل جمع منهم خمسة آلاف وعشرة آلاف ويزيدون تارة بأضعاف الأضعاف، ويقع بينهم الملاحم ويقتل من الفريقين ما لا يحصى ويصيرون على الأرض عدد الحصى^١، ويتفرع من ذلك إنقطاع الطرقات وإرهاب السفار في كل الجهات ويرتفع الأمن من الأوطان وتقلق القطان والسكان، وهذا كان غير منقطع أبداً بل يزداد كثرة وتجدداً، (ص ١٢٣) فإختل بهذا السبب القطر خللاً كبيراً وعم الإضرار ساير الناس كبيراً وصغيراً، وبقي ذلك من^٢ أكبر العجايب وأشد المتاعب والمصائب لكون الأمرا الأولين لهذه الأحوال وما يلزمها مهملين، فقلل إيراد الجبايات الخراجية وتعطل معظم الأموال الميرية وتعبت الرعية وقويت البلية، فجعل الله سبحانه وتعالى حضرة هذا الصدر الجليل الوزير المهاب ذي المكارم والتفضيل سبباً

١ - في نسخة [دار الكتب] "الحصا".

٢ - في نسخة [دار الكتب] هذا الحرف مكتوب في الهامش الأيسر من الصفحة، وغير موجود في

نسخة [سوهاج].

لإزالة ذلك كله، وأراح الرعية على العموم من تحمل كله وقمع هؤلاء الفجار وصدّهم بقوة سيفه البتار، ووالى عليهم الهزائم وجعلهم في ذل أصحاب الجرايم وآتى منهم بكل شهم وبطل ولم يبق منهم صاحب خطر ولا خطل، وصار يجي المشهور من أوليك الأوباش وينادي عليه بمصر فتحصل المسرة والإنتعاش، ويذهبون به تارة للرميلة فيقطعون هناك^١ عنقه وتذهب منه الحيلة وتنفذ قوته وتزداد ندامته وتهرب منه أنصاره وجماعته. (ص ١٢٤)

[وإن لم يكن لحضرة الصدر إلا قتله للرجل العنيد المارد العتيد المسمى بسلامة شديد^٢ فإنه كان من مصائب الدهر ومن أكبر الأضرار في العصر فتاك هتاك لدما المسلمين سفاك قاطع طريق للطرق يسيء الفعل والخلق، كان ذلك اللعين من طائفة أعراب بلي^٣ من كل شر وسو ممتلي قطع الله دابره بحضرة الصدر العلي حذف عنقه وسدّ طرقه وأراح الله العالم من شره وآمنت السفار من ضره.

^١ - في نسخة [دار الكتب] هذه الكلمة مكتوبة في الهامش الأيمن، وقد وضع الكاتب علامة في النص للدلالة عليها.

^٢ - سلامة شديد: كان سلامة بن شديد شيخ عرب الحويطات، وإشترك عرب الحويطات مع طوسون باشا في حرب الوهابيين في سنة ١٢٢٦هـ/١٨١١م، وكان ابن شديد يشترك مع حكومة محمد علي في الحروب إلى سنة ١٢٣٥هـ/١٨١٩-١٨٢٠م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ٥٦، ٢٨٢، ج ٤، ص ١٠، ٥٨، ١٣٦، ١٧٢، ٣٠٧.

^٣ - أعراب بلي: واحدة من أكبر القبائل التي إستوطنت في غربي الجزيرة العربية، وأحد فروعها عرفت بأسم "الحمداني" تمركزت حول منطقة أحميم بصعيد مصر. وقد حبسوا شيخهم ثم خوزقوا بالقرب من قبة العزب في ربيع الثاني سنة ١٢٣٠هـ/مارس ١٨١٥م. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢١٩؛ كحالة: معجم قبائل العرب، ج ١، ص ١٠٤-١٠٧. وأنظر أيضاً:

Description de l'Egypte, Etat Moderne, Vol. XVIII, 25-26.

حيث ذكر أن بلي أحد قبائل قطاع الطرق بإقليم الشرقية.

وهذه الحسنات المشهورة المسطرة المذكورة فجزى الله حضرة الصدر كل خير عن صنایعه، فكل سرور محدود للرعية من بضایعه، وكذلك فعل بنصار شديد^١ الزنديق العنيد، كان من^٢ الدواهي العظمى والبلايا الكبرى ضاراً بالعباد والبلاد، قطعت رأسه وزال ذلك الإفساد، وذلك أيضاً من حسنات الصدر العلي ذي العز والفخر الجلي. وكذلك فعل بإسماعيل الزعلوك شيخ العرب بدسوق^٣، مع أنه صعلوك كان آية في الإيذا (ص ١٢٥) كبيراً في الفحش والبذاء، أضراره كالخمر والميسر، موسر من الشر ومن الخير معسر، بل ليس فيه ذرة من الخير والإيمان، فهو خبيث وقرين للشيطان، قطعت رأسه في أسرع زمن، وذلك لحضرة الصدر من أعظم المنن، أراح بقتله الناس وأزال بحتفه الضر عن ساير الأجناس.

ولو أردت الإكتثار من تعداد أمثال أوليك الضالين والوصف لتلك الفرق الخاسرين لأجهدت الأنفاس وملأت القرطاس، فقد كانت أرض قطرنا مملوءة من أمثالهم، مضطربة بكثرة أشكالهم، فكم أرتاعت الموحدون من أفعالهم وأغلقت أبواب السفر للتجارة من إيذايهم وسلبهم، حتى من الله على القطر وسكانه بحضرة هذا الصدر، فاستظلوا بإمانه، أطمأنت منهم القلوب وأزيلت عنهم بحضرتهم أصناف الكروب، ولعمري أن الأمن الموجود في هذا العصر المسبب عن وجود حضرة الصدر^٤ لم

^١ - نصار شديد: شيخ عرب قبيلة الحويطات البدوية، أحد فروع بدو سيناء، وهى من القبائل التي تعاونت مع القوات المصرية في حملتها ضد الوهابيين. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١٣٦-١٣٧، ٣٠٧.

^٢ - في نسخة [دار الكتب] تبدأ هنا صفحة ١٠٧.

^٣ - إسماعيل الزعلوك: لم نعر على أي معلومات عنه.

^٤ - في نسخة [دار الكتب] تبدأ هنا صفحة ١٠٨.

يتحدث به من منذ معين من السنين، فالله تعالى يقر أعيننا بحضرته^١ (ص ١٢٦) ويديم
أمانه ووجوده علينا أجمعين.

وزير علا متن الأثير شهامة	فلا ينثني عن قوله حين يعزم
فيا حسن أرض حل فيها ركابه	وأنعم بواد سار فيه المعظم
وبشرى لمصر حيث فيها محمد	عزيز له العليا والسعد خادم
فكم من ذليل جا فيها مروّعا	حياه بعزّ فهو فيها منعم
مكارم هذا الصدر لم تر شكلها	عيون ولم ينطق بمثل لها فم
وأخلاقه قد عطر القطر عرفها	كروح الصبا إذ جا بالند ينسم
فما الأمن إلا صورة هو روحها	ولا البشر الأمن سجايه يعلم
وما الجود إلا خاتم في يمينه	وفي نقشه نفس لحاتم ترسم

(ص ١٢٧)

ومجلسه العالي عليه جلالة	فحظة نادية الحطيم وزمزم
وحسبك أن الأسم منه محمد	عليّ فكل السرّ فيه متمم
وزير براه الله للأمن مظهراً	وطالعه بمن وبشر وأنعم
تخر له رأس الجبابر خضعاً	وتطرق إجلالاً له وهم هم
إذا سار في وسط الجنود كأنما	هو البدر قد دارت حواليه أنجم
يضنيء عجاج الحرب برق سيوفه	وتبكي أعاديته الدما وهي تبسم
وينفر منه جمعهم ولو أنه	بقوة عاد إذ تواليه جرهم
فيا أيها الصّدر العزيز الذي إرتقى	سما المعالي والعناية سلم

(ص ١٢٨)

وما زالت تغفو عن ضعيف وتكرم^٢

^١ - ما بين الحاصرتين غير موجود في نسخة [سوهاج].

وكل فصيح في مديحك أعجم	لي العذر ما للقول نخوك مرتقى
ولا كل لفظ في مديحك ينظم	فما كل قول في ثنايك يرتضي
على رغم حساد بغیظهم عموا	أدامك ربي في الكنانة بدرها
وما طاف بالبيت المشرف محرم	ودانت لك العليا ما هبت العبا

^٢ - إختلف من هنا ترتيب شطرات بيوت الشعر في نسخة [سوهاج]، والتصحيح هنا من نسخة [دار الكتب].

المقالة الثالثة

في ذكر تعمير حضرة أفندينا للقطر المصري وإحيا أرضه وبلاده بالزروع والثمار

لما تولى مصر أسعده الله وجد أكثر بلادها ومعظم قراها ونواحيها خربة عاطلة من الزروع، مع أن أراضيها لا يماثلها أرض في نجابة الثمار بها وكثرة ما يتحصل من الغلال من سائر الأصناف، لأن ما النيل المبارك يعملها في كل عام، ويمكث عليها مدة فتحسن ويعلو بوجهها (ص ١٢٩) الزيد من طينه المتخلف عليها حتى تكون^١ لها رايحة كالمسك، وهذا أمر ظاهر للعيان وقد شحنت به الكتب والسير، فلما وجدها حضرة أفندينا وقد إضمحل أمرها بسبب ما كان بها من إفساد أمرايها والمقيمين بها من الأعراب وطوايف الفلاحين، بادر أسعده الله وأمر بإعادة الجسور المحيطة بالبلاد والقرى، وأن يتقنوا صناعتها، متينة ثابتة بحيث لا يحصل بها خلل من إستناد مياه النيل عليها لتكون حصناً على البلاد، فلا يصل إليها الما بغير قانونه فيتلف دورها ويعطل الطرق ويهدم الأبنية كما كان يقع قبل ذلك، وليأخذوا المياه عند الحاجة بقدر الغرض فيحسن بذلك حال الأرض وحال البلاد والقرى وتصلح المزارع، فبادرت العملة في ذلك وعملت الجسور في سائر الجهات وأتقنت على كمال الثبات،

^١ - في نسخة [دار الكتب] "يكون".

بحيث تمر عليها السفار في أوقات عموم النيل لأراضي القطر، ولا تنقطع الطرق على المارة بدوابهم من الحمير والبغال والخيل والأبل بإحمالها.

وكذلك أمر بإصلاح الترع التي تنصب فيها المياه (ص ١٣٠) من النيل وترتوي منها أراضي كل بلاد مخصوصة، ففحروها على القانون القديم النافع^١ وصار ما النيل بمجرد الوفا يجري فيها جميعها للنفع المرتب عليها، وكذلك أمر برم^٢ كل سد كان قد ترك حتى كانت المياه تزيد وتكثر، ولا تزال حتى يطفئ الما بكثرتة وحدته وشدة جريانه فينصب بلا قانون على البلاد قبل الحاجة، أو زيادة كثيرة على الحاجة فتفسد الأرض ويحصل ببطء أهلها عنها^٣ حتى لا تكون صالحة كحالتها لو أنصب^٤ الما بقانونه، فبادروا كذلك وأتقنوا السدود وأحكموها، فإذا إرتوت الجهة القريبة للسد أو المطلوب إيصال الما إليها يرسلوا منه كفايتها، فإذا تم ذلك يرسلوا منه لغيرها حكم العوايد المعلومة، فإنتظمت الجهات وصلحت الأرض، وأمر حضرته لسائر الحكام

١ - من أمثلة الترع التي حفرها محمد علي الترعة البولاقية القبلية التي تمت في سنة ١٢٤٢هـ/ ١٨٢٧م، حفرها محمود أفندي الميارجي مدير القليوبية والمهندس ثاقب باشا، وكانت تمتد من منطقة قصر النيل الحالية الى شبرا بطول ١٨٣٠٠ متر، لري أراضي ضواحي القاهرة وبولاق كجزيرة بدران ومنية السرج وشبرا في وقت الفيضان، ومكانها الآن شارع الجلاء وشارع الترعة البولاقية. علي مبارك: الخطط، ج ١٩، ص ٤٣، ٤٤.

٢ - في نسخة [دار الكتب] هذه الكلمة مكتوبة في الهامش الأيمن، وقد أشار الكاتب في النص إليها، وهي غير موجودة في [سوهاج].

٣ - في نسخة [سوهاج] "ويحصل بطو عليها"، وفي نسخة [دار الكتب] "ويحصل ببطء أهلها عنها"، وكلمة "عنها" مكتوبة في الهامش الأيسر ومشار إليها في النص والهامش برقم "٣".
والتصحيح هنا من نسخة [دار الكتب].

٤ - في نسخة [دار الكتب] "أنصب".

والملتزمين ومشايخ البلدان^١ أن لا يدعوا^٢ قطعة أرض صالحة للزراعة بدون زرع، ومن فعل ذلك جوزي بالعقوبة الشديدة، ومن كان عاجزاً أو محتاجاً لشئ من الغلال للبذر أو لشئ من البهايم للحرث ونحوه أمر بإعطائه جميع كفاية أرضه التي يخشى عليها أن تبور، (ص ١٣١) فأخذوا من غلاله أبقاه الله ما يكفي تقاوي الأراضي ومن بهائمهم أو ثمن البهايم ما يكفيهم، فحصل بذلك العمار الكامل والخير الشامل، وأهل مصر يضربون مثلاً بقولهم الفلاح ابن زرعه، يعني أن الفلاح الفقير الذي لا يجد قوته ولا مؤنة عياله وليس عنده ما يعتاض شيئاً من ذلك إذا أعطى له تقاوي أرضه سلفاً ووضعها في الأرض بعد نزول ما النيل عنها وحرثها بورك له في ذلك، فإنه عند نمو زرعه يعطي التقاوي التي إقترضها ويدخر مما خرج له منها أيضاً تقاوي العام القابل، ويخزن كذلك ما يكفي عياله وأتباعه مع السعة طول سنته، بل ويبيع أشياء مما

١ - الحكام والملتزمين ومشايخ البلدان: كانت الولايات الرئيسية في مصر يعين لها بكوات صناجق من ذوي رتبة طوخين (ذيل حصان)، ويطلق عليهم لقب حكام، وكانت تلك الولايات هي جرجا والغربية والشرقية ومنفلوط، كما كانت ولاية البحيرة كثيراً ما يعين لها صناجق بيك وخاصة عندما تجري بها عمليات عسكرية ضد بدو ذلك الإقليم، وكانت الولايات الأخرى يعين لحكمها أمراء من الممالك عادة ما يكونوا وكلاء للصناجق، ويطلق عليهم "كشاف"، وكل ولاية أو إقليم أو قرية كانت تقسم إلى عدة وحدات ضرائبية عديدة يطلق عليها إلتزامات، ويديرها "الملتزمون"، وكل قرية بدورها يديرها "شيخ بلد"، عادة ما يكون أحد أهلها البارزين، يضمن زراعتها وجمع ضرائبها في غياب الملتزم، أي إنه كان يمثل الجهاز التنفيذي في البلد، وقد إستعاد مشايخ القرى إمتيازاتهم السابقة وأصبحوا أكثر نفوذاً نتيجة لإصلاحات محمد علي فيما يتعلق بالإدارة الزراعية. أنظر: الروزنامي: ترتيب الديار، ص ٣٦-٣٧؛ ليلي عبد اللطيف: الإدارة،

ص ٣٨٠، ٣٩٢؛ عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: الريف المصري، ص ١٨-١٩؛

Shaw, Organization, 60-61; Kenneth M. Cuno, The Pasha's Peasants, Cambridge, Cambridge University Press, 1992, 145.

٢ - في نسخة [دار الكتب] "يدعو".

٣ - في نسخة [دار الكتب] هذه الكلمة مكتوبة في الهامش الأيسر ومشار إلى مكانها بالنص.

خرجت له من الأرض، ويشترى بثمانها بهائم وآلاته التي يحتاجها كالحراث والنورج والحمير والثيران والبقر والجاموس والغنم، فتأكل من موجود أرضه من بركتها ويحصل له منها الدر والنسل وينتفع باللبن والسمن والجن أكلاً وبيعاً وبأصواف الغنم لبساً، ويصير الفلاح بعد شدة فقره غنياً في خصب من العيش هو وأهله وعياله ويحسن (ص ١٣٢) حاله ويبقى في نعمة جلييلة^١، وهذا كله يحصل له من زراعة سنة واحدة بل في السنة يزرعون زروعات عديدة، وكان ذلك لا وجود له لخراب الأرض والجهات، فلما صنع حضرة أفندينا ما ذكرناه عمرت البلاد وصارت الفلاحون في عدد ومدد من الغلال، يدفعون الخراج ويأكلون ويشربون، وإستقام شأن القطر، ودخلت سنة ثانية وثالثة ورابعة وحضرته ملازم لهذه الأوامر، ثم صار ذلك أمراً معلوماً مواظباً عليه^٢ بقوانين وكيفيات في كل عام يعرفها ويفعلها الحكام ويأمرون ساير المزارعين من المشايخ فيأمرون الفلاحين، بل صارت الفلاحون يبادرون إلى هذه الأعمال ويرغبون فيها لثمرتها، ثم أن الكثير من الفلاحين ومشايخ البلاد إتخذوا تحديد البساتين وإنشائها وإظهارها بعد العدم وإفشايتها، وزرعوا النخيل والأعشاب والفواكه المختلفة كالتفاح والرمان والخوخ والموز والبرقوق وغير ذلك من الثمار في الأشجار، وأكثروا من ذلك ومن تحديد ما دثر من السواقي لعمارة تلك البساتين، فصارت البلاد (ص ١٣٣) الآن من سنة ست وعشرين إلى وقتنا هذا وهو عام ثمانية وثلاثين بعد المائتين وألف^٣ على غاية العمارات، وإمتلأت الأقطار من الزروع بحيث إذا جاء وقتها

^١ - يصف هنا الرجبي أحوال الفلاحين الحسنة من وجهة نظره فقط. أنظر: بريس دافين، ترجمة أنور لوقا، (أدريس أفندي في مصر)، مذكرات بريس دافين (١٨٠٧-١٨٧٩)، القاهرة سنة ١٩٩١، ص ٨١. حيث ذكر أن الفلاحين يسمون محمد علي "ظالم باشا" من كثرة حوره وتعنته في أخذ المحاصيل والضرائب منهم.

^٢ - في نسخة [دار الكتب] هذه الكلمة مكتوبة في الهامش الأيسر ومشار إلى مكانها بالنص.

^٣ - ١ محرم سنة ١٢٢٦هـ/ ٢٦ يولية ١٨١١م، و ٣٠ ذي الحجة ١٢٣٨هـ/ ٦ سبتمبر ١٨٢٣م.

لا تجد أرضاً خالية منها، وكثرت البساتين والمنازه، وصار أمراً مبهجاً وحالاً حسناً جميلاً يسر النفوس ويشرح الصدور ويقر العيون، فلا تخلو بلد ولا قرية ولا مدينة من البساتين الجليلة المشتبكة أشجارها الكثيرة ثمارها المفرّدة أطيارها السائلة كالفضة الصافية مياه سواقيها بجياضها، وعادت مصر إلى حالها الأول وعظيم إيرادها الذي عليه المعول، فكل جهة من أيّ بلد أو قرية ولو كانت في غاية الصغر كالكفور الصغار إلا وبها المزارع الجميلة والبساتين المثمرة الجليلة، وإمتلأت شوارع مدينة مصر وخططها وحاراتها من سائر أصناف الفواكه في كل وقت وزمن، فنسأل الله سبحانه أن يديم هذا العمار والأمن والراحة بهذه الأماكن والديار، ويحفظها من أضرار الحوادث ومن كل ضار عابث عايث، ويوفق أفندينا للخيرات (ص ١٣٤) ويحفه بالمرات أمين.

وقد ظهر البرهان وبدا في الحس بالعيان كثرة الخيرات وتزايد النعم في جميع الجهات، فالقمح ونحو الفول والشعير والعدس والحمص وغيرها تجده في كل مكان، وكل شئون وساحل من ذلك ملآن، والرقع المعروفة بمصر مشحونة ومزدحمة بالميرة والمؤنة، لا تخلو جهة ولا حانوت معدود لذلك إلا وهو مبهج للناظر^١ والسالك بتلك المسالك، وأما مثل أنواع البطيخ الأخضر فهو شيء لا يعد ولا يحصى، البلدي والريفي وما يقال له السلطاني والجبلي، وكذلك أصناف القثاء الرومي والقأون وسائر البطيخ الأصفر الشهير بالعبدلي وأيضاً الكرداسي والبساتيني والحلواني والشهير بالبرلسي الذي فاق الحلوى الشيني، هذا وأشكال البلح لا تحصى ولا تدخل تحت الحدود والإستقصا كالحياتي وأنواعه المتكاثرة، وناصر الدين بأصنافه الفاخرة، وأما المسمى بالزغلول فمدح السكر الهندي بالنسبة له نوع من الفضول، وأما المعروف بالأمهات (ص ١٣٥) فهو الحقيق بما ورد في الحديث أنها العمات، ولا ضير أن يقال الأمهات بل هو سلطان البلح كما قيل، وأطبقت أرباب المأكّل ذلك عليه في الأقاويل، وبالجمله

١ - في نسخة [دار الكتب] "للناظرين".

والتفصيل إذا سافر الرجل في البحر أو البر الطويل لا يرى إلا مزارع مختلفة الأشكال، ومعظمها كلون الزمرد الأخضر العال، ولا يتعدى^١ نظره عن الرياض والبساتين في سائر جهات المدن والبلدان والقرى أجمعين جميع الأرض بالمزارع والأزهار منقوشة وبسط الزمرد والذهب الأصفر مفروشة، والنيل المبارك يسيل مدة كالذهب اللامع طولاً وعرضاً، وباقي السنة يجري صافياً كالفضة البيضاء، فسبحان الذي أتقن هذا الصنع العجيب وأبدع ذلك الأمر الحسن الغريب، تقدس وجهه الكريم وجل شأنه^٢.

^١ - في نسخة [دار الكتب] "ينفك".

^٢ - بالرغم من الإصلاحات العديدة في مجال السياسة الزراعية في عصر محمد علي، حيث تسلم البلاد ومعظم أراضيها الزراعية غير صالحة للزراعة لإنسداد المجاري المائية أو عدم صلاحيتها للرعي من جهة، وهروب الفلاحين من قراهم وترك أراضيهم لتضررهم من المعارك والسلب والضرائب، إلا أن الفلاح لم يستفد من ذلك كثيراً، ولم تزداد حالته إلا بؤساً نتيجة للسياسة الاحتكارية التي إتبعها محمد علي في إحتكار المحاصيل الزراعية، وأيضاً نتيجة للضرائب العديدة التي فرضت على الأراضي الزراعية، لأن الزراعة كانت المصدر الرئيسي للحياة الإقتصادية في البلاد. أنظر عن سياسة محمد علي الزراعية: كلوت بك: لحة، ج ١، ص ٨٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٤-١٧١، ١٧٤، ١٨٠، ١٨١، ١٨٣، ج ٤، ص ١٨، ٢٢، ٢٥، ٧٥؛ شكري: بناء دولة، ص ٢٨-٧٩؛ ريفلين: الاقتصاد والادارة، ص ٧٢-٩٠، ١٧٣-١٧٥، ٢٢٣-٢٢٦، ٢٣٧-٢٣٨؛ أحمد عبد الرحيم مصطفى: عصر حكيان، القاهرة سنة ١٩٩٠، ص ٣٣-٦٩؛

Gabriel Baer, A History of Landownership in Modern Egypt: 1800-1950, London, 1962; Kenneth Cuno, The Pasha's Peasants, 103-120.

وأنظر أيضاً عن أحوال الفلاحين في تلك الفترة تقريراً لمتصل الولايات المتحدة. عصر سنة ١٨٣٥م:

The National Archives of the United States, Despatches from United States Consuls in Alexandria, Roll 1, Volume 1, report of August 28, 1835, (microfilm copy at California State University, Los Angeles).

المقالة الرابعة

في ذكر بعض آثار حضرة أفندينا من الأبنية والعمارات بمصر وسائر جهاتها

أيها الناظر في هذا الكتاب الواقف على سماع ما فيه من نكت الخطاب أن إعلم من منذ (ص ١٣٦) ميين بل منذ آلاف مضت من السنين لم يتفق لأمر ولا وزير ولا ملك من سائر الماضين السابقين أنه أظهر من العمارات المستحسنة بل ولا خطر ببال أحد منهم في اليقظة ولا في السَّنة أنه فعل غريباً أو أظهر بنا عجيباً، أو أحدث حصناً منيعاً أو أبدع في ذلك سريعاً ما يضاهي فعل حضرة أفندينا لا في البحر ولا في البر ولا بالمدن ولا بالوادي القفر، فإنه لم يكن له في هذا مناظر، ولا إبتهج أحدهم بمثل هذه المباهج والمناظر ولم تسمع إلا بمثل كسرى أنوشروان، حيث كمل في البحر جبل الفتح وبنى الإيوان، ومعلوم أن الأبنية الجليلة النافعة الجميلة لا ينقضي أمد ذكرها ولا ينقص معنى سرها، بل مذكورة في كل أوان ومحكية بكل لسان، فهي أعظم دليل على عظم بانيتها وأجل برهان على قوة نفاذ أمر منشيتها، هكذا قال العقلا وإتفق على ذلك جميع الحكماء والنبل وأجمع عليه أرباب الفهوم ونطقت به الأخباريون في كل حديث مرقوم، ولا دليل على العقل الكامل (ص ١٣٧) والقوة الشديدة والهمة العلية والقدرة الأكيدة مثل الآثار المخبرة عن صاحبها والمعالم المنبئة عن عزة مبتكرها

ومرتبها، ولحضرة أفندينا أبقاه الله من ذلك ما هو العجب العجاب والأمر العظيم الذي ليس في جلالته شك ولا إرتياب، فمآثره كثيرة ومعالم إبداعه شهيرة كادت أن لا تحصى وقاربت أن تجل عن الإستقصا، ولنذكر منها طرفاً نزهة للسامع وبهجة لمن ينقله في المجامع، فمن ذلك الطريق الذي أوصله من باب قلعة الجبل وسار به ممتد إلى المقطم بإتقان العمل^١، وكان الطريق قبل ذلك بين القلعة والجبل فاصلاً ولا يتمكن من بالقلعة إلا أن يكون من ذلك الطريق للجبل واصلًا، وهذا الطريق في غاية الإتساع يزيد مقداره عن ألف ذراع، وربما أن بعض الأعدا إذا إتفق له صعود الجبل ووقف تجاه القلعة أن يوصل إليها الخلل، لأن الجبل عال جداً وسفحه يراه الجالس فيه فوق القلعة ممتداً، وقد إتفق سابقاً صعود العدو بإعلاؤه وأوقع الإيذا على من بالقلعة ووالاه، فمن تمام تدبير حضرة أفندينا (ص ١٣٨) بشاقب فكرته ومعرفته بعواقب الحوادث بصادق فراسته أنه رغب في أن يجعل القلعة متصلة بإعلا ذلك الجبل حتى لا يخشى أحد منه ولا يقع في الوهم منه وجل، ويحكم ذلك بينا عجيب متقن مهندس غريب، فأمر بإحضار العملة والصناع وجمعهم في هذه المحال والبقاع^٢، فحضرُوا حسب أمره، وشرع فيما يثني عليه به طول دهره، فأمرهم بنحت الأحجار وإتقان الصخور المهندمة الكبار، وبإحضار كل ما يحتاجونه من حص وغيره، وكل عامل منهم في شأنه وسيره

^١ - الطريق الصخري: بدأ محمد علي في ٢٣ رجب سنة ١٢٢٤هـ/ ٣ سبتمبر ١٨٠٩م في عمل طريق صاعد "رلاقة" ممتد من باب القلعة المعروف بباب الجبل إلى أعلى جبل المقطم، وذلك ليحد له منفذاً إلى خارج القاهرة عند حدوث أي مؤامرة ضده واحكام الدفاع عن قلعة الجبل من الجهة الشرقية، وهو طريق واسع منحدر من أعلى إلى أسفل سهلاً في الصعود والانحدار، وقد قطع شارع صلاح سالم جزءاً منه الآن، ثم بنى القلعة التي بنهايته على شكل نجمة (أثر رقم ٤٥٥) بتوسطها برج مستدير وبأسفلها صهريج لحزن الماء. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٩٩، ١٠٤، ١٠٨، عبد الرحمن زكي: الحصون والقلاع، مجلة العمارة، مج ٣، سنة ١٩٤١، ع ٣-٤، ص ٩٠-٩٥.

^٢ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١٠٨.

فابتدأوا من هذا باب الجبل تجاهه وأحكموا عملهم متانة بهجة ووجاهة، وبالغوا في قوة البناء وثباته وإحكامه متقناً في كل جهاته، ولازالوا سائرين في ذلك البناء المحكم حتى إلتصق بالجبل وإستقام وإستحكم، ومن رفقته بالمارة هناك جعل فيه قناطر للإستدراك يمر السائر في ذلك الطريق الراكب على الجواد إذا خرج من باب القلعة ماراً في الطراد لايزال يكر في طلق واحد حتى يصير بأعلى الجبل والعيون له تشاهد بحيث يصير (ص ١٣٩) الواحد والجمع العديد بلا تعب في ذلك المسلك السديد، فحبذا هذا الإختراع والتجديد ونِعْمَ طالعه الجميل السعيد، وقد كان قبل ذلك يصير الصاعد في تعب شديد وقلق بحال جهد جهيد.

وبعد أن فرغوا من الطريق وإيصاله وإلتزاقه بالجبل وتمام إتصاله أمر أن يبني بذروة الجبل قلعة حصينة تصد بجللها كل وجل، وأن يتخذ به سبيل جليل لخزن الماء العذب ليكون ثم كالسبيل، فبنيت به القلعة مع إتقان التحصن بالأبراج، وهى هناك كالكوكب السامي^١ الساطع الوهاج، وظهر بناؤه مظهراً جميلاً، وأقام به قيماً رئيساً وكمياً وكيلاً، وتم إحكام ذلك السبيل المتين وإمتلاء من صافي^٢ العذيب المعين، ثم أعد به أجناد الحراسة وأمدهم بأسرار الهمّة والحماسة، وشحنه بالذخاير الكاملة والمدافع المريعة لمن أمّ له، فصار بهجة للناظر وحجة لإرغام أنف المناظر، وهو لعمري من أعظم لوازم حفظ القلعة وأكبر المنافع لها في القوة والمنعة، وكانت الأمراء والملوك (ص ١٤٠) من السابقين في غفلة عن صنع مثله أجمعين، ولكن للمظاهر أرباب وللمعالي رواد وطلاب، وحضرة أفندينا الجدير بهذا لازال معاذاً وملجأ وملاذاً.

ومن أخلاقه وآثاره العظيمة الكبيرة الجسيمة التي لم يتفق نظيرها لسواه ولا تأتى لغيره، أنه في ذلك قاربه فضلاً عن أن يقال ساواه، أنشاؤه بستانه الشهير ومرج منزله

^١ - هنا إشارة إلى أن تخطيط هذه القلعة على شكل نجمة. أنظر: عبد الرحمن زكي: الحصون

والقلاع، ص ٨٩، ٩٠.

^٢ - في نسخة [دار الكتب] "صيافي".

الكبير بناحية شبرا بساحل البحر^١، فهناك أبدع البستان وشيد القصر، أما القصر فالعيان عنوانه، وأما البستان فواجب ذكره وبياناه لأنه لا يدخله كل أحد، وكثير بل معظم الناس لا يصل إليه إذا ورد، فينبغي تبينه مع الإجمال لأن تفصيل شأنه بعيد المنال، وحاصل إجمال القول فيه وتلخيص ما أحصى به ورسم فيه أنه بستان في غاية الإتساع يسير فيه الذهاب مبتهجاً بتلك الأوضاع ينوف عن خمسين فداناً في المساحة، لا يضاهيه أبداً بستان في تلك الساحة، مهندس بطرق على خطوط مستقيمة وطرق أيضاً مربعة وخمسة ومثلثة (ص ١٤١) ومسدسة قويمة، والزروع بادية والثمار نامية والأغصان مائسة، وأجفان جداول مياهها كأنها من الصفا ناعسة، وبذلك البستان البركة المعلومة التي هي من الرخام الشفاف مرصوفة مرقومة، وعلى دايها المساطب بالقوايم والسواعد الرخام كلها محكمة، وبجنباتها المجالس العالية المرتفعة، وبها النقش الجميل الأصفر الذهبي واللازوردي المشرق عن الأحمر اللهي، رفعت تلك المجالس على سباع تامة الأشكال، مصنوعة من الرخام الشفاف بديع المثال، تخرج من أفواهها

١ - سراي شبرا: بدأ في بنائها في منتصف ذي الحجة سنة ١٢٢٣هـ/يناير ١٨٠٩م على شاطئ النيل في منطقة شبرا، في متسع من الأرض يمتد الى بركة الحاج، استولى فيه على عدة قرى ورزق واقطاعات، وغرس بها البساتين والأشجار ثم سقط سقف السراي بعد انتهاء بناؤه في ربيع ثان سنة ١٢٢٤هـ/مايو ١٨٠٩م وأعيد بناؤه، وفي سنة ١٢٢٧هـ/١٨١٢م أنشأ سواقي -تهدمت في ذي القعدة سنة ١٢٣١هـ/سبتمبر ١٨١٦م من قوة ماء النيل- أمام القصر وبستان من الجهة القبلية وزرع به أنواع من الخضروات والبقول والزهور التي استورد بذورها، وجعل هذا البستان تحت مباشرة ذو الفقار كتحدا، ونقل الى حوارها اصطبلات للخيول، وقد تم انارتها بالغاز (لأول مرة في مصر) في سنة ١٢٤٤هـ/١٨٢٩م، آلت هذه السراي بعد ذلك الى ابنه عبدالحليم فبنى قصراً آخر بالحديقة. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٨٤، ٩٢، ١٥٦، ٢٥١؛ علي مبارك: الخطط، ج ١٢، ص ١٢٠؛ عبد الحميد نافع: الذيل على المقرئ، ورقة ٥٧؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج ٢، ص ٣٤٥.

وأنوفها المياه العذبة الصافية وتصب في تلك البركة، فهي أبداً ملآنة وفيه^١، وبالبركة الزورق المذهب يصعد فيه من لتلك المجالس يذهب، جمعت فيه أصناف الفواكه والثمار، كما إنتظمت بطرقه أنواع الرياحين البديعة والأزهار سرور للناظر وبهجة لخاطر الخاطر، وهو في الحقيقة بستان لم يسبق إليه، ولا ناظره ملك ولا حمارويه، مجموعة به أنواع الطيور اللطيفة وهي تسجع بالحنانها الظرفية، كل يسبح ربه القدوس (ص ١٤٢) وينزهه بما يبهج النفوس، فهو بستان جميل نضير فاق ببهجة مجالسه الخورنق الشهير، يبري المرور بساحته كلّ دا وعلة، فأنى يذكر معه منازة نهر الأبله كل المحاسن فيه وبه منوطة، فلا تسمع معه مباحج الغوطة تجاهه النيل المبارك يجري تارة ذهبياً وتارة فضياً، وبدائيرته المزارع مرقومة كبُسُط الزمرد لايزال مغناها مشرقاً مضياً^٢، وهذا وصفه بإيجاز إذ التفصيل بإطناب صعب الإنجاز، وناهيك بأن من شاهده وهو مجتاز حكم بأن هذا المقال المجلل ضرب من المجاز وإلا فحقيقته يملأ تفصيلها دفاتر ويرجع عنها اللسان، وهو كليل وطرف إفصاحه فاتر.

ومن آثاره الجليلة إنشاؤه للقناطر المحكمة البنا المتينة الكاملة في الإبتقان والإعتناء، بها ينضبط ما النيل فيعم نفعه بهذا السبب كل حقير وجليل، وكانت مياه النيل قبلها تذهب هدرأ وتلف الأرض من قلة مكث الماء بها أو ضياعه بدواً وحضراً، فكانت الأرض المحتاجة للما لا يأتيها لعدم إنضباطه، وغير المحتاجة يكثر بها مكثه (ص ١٤٣)

١ - أنظر عن هذه السراي: حسن عبد الوهاب: العمارة في عصر محمد علي، ص ٢١-٢٧.

٢ - إستخدم محمد علي حدائق هذا القصر كحقول تجارب زراعية، كما نقل إليه مدرسة الزراعة سنة ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م، والمدرسة البيطرية سنة ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م، كما أنه من المعروف أن هذا القصر كان أول مبنى يضاً بغاز الإستصباح في مصر. أنظر: علي مبارك: الخطط، ج ١٢، ص ١٢٠، ج ١٧، ص ٣؛ عبد الحميد نافع: ذيل المقريري، ورقة ٤٦؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج ٢، ص ٣٤٥، ٣٦٣، ٣٧٣، ٣٩٠، ٤٤٩، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٨١؛ أحمد عزت عبد الكريم:

تاريخ التعليم في عصر محمد علي، القاهرة سنة ١٩٣٨، ص ٣٠٩-٣٢٤، ٣٤٥-٣٥٨.

فتتلف من كبير إفراطه، فكانت الأرض ضايعة بين الإفراط والتفريط، فبلد مقفرة أرجا بواديهها، وأخرى أضرب بها طول مكثه حيث هو بها محيط، فلما أمر حضرة الصدر العلي بإنشاء تلك القناطر عم النفع بها كل أرض وبدا مزهراً كل مرج عاطر، وإرتاحت قلوب المزارعين وقرت عيونهم بذلك أجمعين، فصلحت الأرض التالفة وذهبت ييوستها السالفة وكثرت أنواع الزروع والثمار وطابت أراضي تلك البلاد والأمصار، وتم نظام القناطر بإحيا موات الجسور، وسارت الركبان مطمينة بعد أن كان لا يمر بها سوى الرجل الجسور، ثم دارت تلك الجسور بكل أرض وبلد، وصارت لمتانتها لها على رد طغيان المياه قوة وجلد، فصار النيل مضبوطاً مأؤه ظاهراً في كل أرض خيره وغماؤه، وهذه القناطر كثيرة العدد، وهى بكل جهة لحفظ المياه نعم العون والمدد، فإستقام قوام النظام للقري والبلاد، وإنفعت بكثرة موجود الزروع (ص ١٤٤) جميع العباد، فلا يرى إقليم من قطر مصر إلا وهو بالقناطر معمور وبما النيل المبارك مُرتوٍ مغمور، فإسفر ذلك عن همم عليه وصحة تدبير أفكار نظرية جلية وقوة لا يضاهيها أحد ومحاسن آثار لا يحوها طول أمد^١.

١ - أنشأ محمد علي ووجد عدة قناطر، كقناطر التسعة بالزقازيق، حيث أصدر أمراً بعمل قناطر على بحر مويس لري أراضي الشرقية، وإنتهى العمل بها سنة ١٢٤٨هـ/١٨٣٣م، وبدأ في إنشاء القناطر المجيدة الخيرية -نسبة الى السلطان عبد المجيد- في سنة ١٢٤٩هـ/١٨٣٤م للاستفادة منها في تنظيم مياه فيضان النيل والتحكم في توزيعها على أراضي الدلتا، والاستفادة بالمياه في الصعيد بعد الفيضان، وأصدر أمراً بأرسال طلاب المهندسخانة الى موقع العمل للتدريب العملي أثناء المشروع، ثم توقف العمل سنة ١٢٥١هـ/١٨٣٥م لانتشار الطاعون، ثم استأنف العمل ووضع حجر الأساس في ٢٣ ربيع ثان سنة ١٢٦٣هـ/١٠ ابريل ١٨٤٧م، ولكنه لم يستطع انتهاء هذا المشروع في حياته ولكن إنتهى بنائها في عصر حفيده إسماعيل. أنظر: علي مبارك: الخطط، ج ١١، ص ٩٣-٩٤، ج ١٩، ص ٢-٣؛ الياس الأيوبي: تاريخ مصر في عهد الخديوي اسماعيل باشا، من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٧٩، القاهرة سنة ١٩٢٣، ج ١، ص ٨٩؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج ٢، ص ٤١٨، ج ٣، القاهرة سنة ١٩٣٦، مج ٢، ص ٧٨٨، مج ٣، ص ١٢٣٢؛ جورج جندي وحاك تاجر: اسماعيل

ومن آثاره الكبيرة المتعددة الكثيرة إنشاؤه أبنية متسعة للصناعات النافعة، وهى بمدينة مصر وبغيرها من مداين القطر الواسعة، كمدينة المحلة^١ ورشيد^٢ وإسكندرية^٣ ودمياط^٤ وفؤة^٥ وقلوب^٦ وطندتا^٧ وغيرها من البلدان بالأقاليم البحرية والقبلية^٨،

كما تصوره الوثائق الرسمية، القاهرة سنة ١٩٢٣، ص ١٥٢، ١٦٥؛ حسن عبد الوهاب: قناطر محمد علي، مجلة العمارة، مج ٣، سنة ١٩٤١، ع ٣-٤، ص ٨٧-٨٨؛ علي شافعي: أعمال المنافع العامة الكبرى في عهد محمد علي الكبير، القاهرة سنة ١٩٥٠، ص ٤٧-٦٠.

^١ - كان بها صناعة غزل القطن ونسجه. كلوت بيك: لمحّة عامة، ج ٤، ص ٣٥؛ علي مبارك: الخطط، ج ١٥، ص ٩١؛ عمر طوسون: الصنائع والمدارس الحربية في عهد محمد علي باشا، الاسكندرية سنة ١٩٣٥، ص ٩، ١٦؛ شكري: بناء دولة، ص ٤٤١.

^٢ - كان بها صناعة غزل القطن ونسجه وصناعة قلع المراكب، وضرب الأرز ومدبغة للجلد. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٥٥؛ كلوت بيك: لمحّة، ج ٤، ص ٢٦؛ علي مبارك: الخطط، ج ١٥، ص ٩١؛ عمر طوسون: الصنائع والمدارس، ص ١٧؛ حسن عبد الوهاب: المصانع، مجلة العمارة، مج ٣، سنة ١٩٤١، ع ٣-٤، ص ٤٨-٤٩؛ شكري: بناء دولة، ص ٤٤١.

^٣ - كان بها صناعة السفن. كلوت بيك: لمحّة، ج ٣، ص ٢٣٨؛ علي مبارك: الخطط، ج ٧، ص ٥٣؛ عمر طوسون: الصنائع والمدارس، ص ١٤، ٢٣؛ شكري: بناء دولة، ص ٤٨١.

^٤ - كان بها صناعة غزل القطن ونسجه، وضرب الأرز. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٥٥؛ كلوت بيك: لمحّة، ج ٤، ص ٣٥؛ علي مبارك: الخطط، ج ١٥، ص ٩١؛ عمر طوسون: الصنائع والمدارس، ص ١٦؛ شكري: بناء دولة، ص ٨٤، ٤٤٢.

^٥ - كان بها صناعة الكتان والطرايش، ولا زال هناك بقايا لمصنع الطرايش ومصنع الكتان ومسجلين كآثار إسلامية، وكان رئيس المصنع رجل مغربي وصنّاعه من التوانسة وبعض الأهالي، كما أنشأ محمد علي بها مصنعان لغزل القطن. كلوت بيك: لمحّة، ج ٤، ص ٣٨؛ علي مبارك: الخطط، ج ١٥، ص ٩٢؛ عمر طوسون: الصنائع والمدارس، ص ١٤-١٥؛ حسن عبد الوهاب: المصانع، ص ٤٥-٤٨؛ شكري: بناء دولة، ص ٤٤٢-٤٤٣.

^٦ - كان بها مصنع كبير لغزل القطن ونسجه، كان به عدد كبير من العمال بينهم بعض الأوروبيين، كما أنشأ بها مسبك ومصنع لصنع أنوال النسج. كلوت بيك: لمحّة، ج ٤، ص ٣٤؛

فبعضها بها صناع حياكة القماش الكتان من سائر الأصناف^١، وبعضها به صناع الثياب من الحرير والقطن بسائر الأشكال والأوصاف^٢، حتى كثرت أصناف الأقمشة

علي مبارك: الخطط، ج ١٥، ص ٩١؛ عمر طوسون: الصنائع والمدارس، ص ١٥؛ شكري: بناء دولة، ص ٤٤١.

^٧ - كان بها صناعة غزل القطن وصناعة قلع المراكب. شكري: بناء دولة، ص ٤٥٣.

^٨ - كالمصورة و دمنهور و شبين الكوم و زفته و منية غمر في الوجه البحري التي أنشأ بها مصانع لغزل القطن ونسجه ومصانع لصنع للكتان، وبالوجه القبلي في بني سويف وأسيوط والمنية وفرشوط وطهطا وجرجا وقنا لصناعة غزل القطن ونسجه أيضاً. كلوت بيك: لحة، ج ٤، ص ٣٤-٣٥، ٣٧؛ علي مبارك: الخطط، ج ١٥، ص ٩١؛ عمر طوسون: الصنائع والمدارس، ص ١٥-١٨؛ حسن عبد الوهاب: المصانع، ص ٤٩؛ شكري: بناء دولة، ص ٤٤١-٤٤٣.

^١ - صناعة القماش الكتان: أصدر محمد علي أمراً في ٧ شعبان سنة ١٢٣٣هـ/ ١٢ يونيو ١٨١٨م بتأسيس وتنظيم مصلحة الأنوال والغزل في سائر الأقاليم، كما أصدر أمراً آخر في ٤ شوال/ ٧ أغسطس من نفس العام لكاشف الغربية للإشراف على أعمال غزل الأقمشة وعمل عينات منها لتنظيم ورش لها، ثم أصدر أمر في ٨ جمادى ثان ١٢٣٦هـ/ ١٣ مارس ١٨٢١م بمنع الأهالي عموماً من تشغيل أنوال الغزل والدوبارة. كما استورد محمد علي الأغنام من أوروبا لتحسين السلالة المصرية ليستخدم صوفها في صناعة الجوخ والطرايش بدلاً من استيراد الصوف من أوروبا وأنشأ محمد علي مصانع نسج الصوف لعمل الملابس العسكرية والأغطية، كما أنشأ في بولاق مصنعاً للحوخ وأرسل إلى وكالاته في مرسيليا لاختيار الصناع المهرة له، وأحضر لإدارته خمسة فرنسيين دربوا العمال المصريين على تلك الصناعة، كما أرسل عدداً من الشباب إلى فرنسا للتدريب ضمن البعثات العلمية التي أرسلها إلى أوروبا. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٥٧؛ علي مبارك: الخطط، ج ١٥، ص ٣٠، ٣١، ٩٢؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج ٢، ص ٢٦٤، ٢٩٠؛ شكري: بناء دولة، ص ٢٣٠، ٣٣٠، ٤٤٣، ٤٤٤.

^٢ - صناعة الحرير والقطن: أنشأ في جميع أنحاء مصر مصانع لنسج القطن تحت إشراف جومل وأخذ صناع المصانع الأهلية للعمل بالمصانع الجديدة، وأنشأ بالقاهرة أيضاً مصنعاً لحبال المراكب، وأنشأ في بولاق مصنعاً الجوخ وأحضر لإدارتها فنيين فرنسيين لتدريب المصريين، كما أرسل بعض العاملين بتلك الصناعة إلى فرنسا للتدريب، وكان نتيجة ذلك عدم استيراد المنسوجات من أوروبا

والهند، بل وأخذ في تصدير المنسوجات، وأنشأ ورشة خميس العلس أو ورشة الخرنفش بشارع خميس العلس في سنة ١٢٣٢هـ/١٨١٦م وانتهى من البناء في ذي الحجة سنة ١٢٣٣هـ/أكتوبر ١٨١٨م، وكانت من أكبر مصانع الغزل والنسيج بعد مصنع مالطة ببولاق، وأحضر للعمل بها صناع من أوروبا لصناعة القطن والحرير والأقمشة المقصبة، وأفرد مكاناً لكل من هذه الصناعات، وألزم مشايخ الحارات بجمع ٤٠٠٠ غلام للعمل تحت إشراف الصناع ليتعلموا هذه الصناعات وخصص أجوراً لهم، ثم صدر الأمر في ٥ ربيع أول ١٢٣٤هـ/٢ يناير ١٨١٩م بتأسيس مصنعي الخرنفش وبولاق بمعرفة الخواجات نجني وجوميل وهو الذي نشر زراعة وصناعة القطن في مصر، وعين من لهم المام بصناعة أنواع المنسوجات والدوبارة لمعاونتهم، وألحق بها ورشاً للحداة والسباكة والبرادة والخراطة والتجارة لإصلاح آلاتها، ثم أغلقت مع مصانع محمد علي الأخرى إعتباراً من سنة ١٨٤١م، وظلت تابعة للحكومة تستخدم لأعداد كسوة الكعبة، ولا زالت إلى الآن تستخدم لأعداد كساوي الأضرحة، كما تحتفظ بأخر كسوة صنعت في مصر للكعبة ولم تسافر. وأنشأ مصنع مالطة الذي عرف بمصنع مالطة لأن أكثر عماله كان من مالطة، والمبيضة ببولاق الذي كان أكبر المصانع التي ينسج فيه القماش الرفيع وغيره صدر أمر تأسيسه في سنة ١٢٣٤هـ/١٨١٩م وتلاه مصنع الخرنفش، وألحق به ورش لصيانة الآلات كما ألحق به مسبك للمعادن به عمال من مصر وسوريا، وكان بجواره مصنع إبراهيم أغا ومصنع السبتية لغزل القطن، كما أنشأ مبيضة بين شبرا وبولاق بالقرب من جزيرة بدران إلى الغرب من شارع شبرا بجوار قصر محمود أفندي، لتبييض مقاطع الكتان وبصم أقمشة الشيت والمناديل للنساء، ولا زالت تلك المنطقة محتفظة باسم هذا المصنع. وأنشأ مصنع البركال بالقرب من المبيضة، في سنة ١٢٤٨هـ/١٨٣٣م، مكون من طابقين، مخصص لغزل ونسج قماش رقيق يسمى "البركال"، تحت إدارة أربعة من الانجليز ومعهم عدد من العمال المصريين لتدريهم. الأوامر والمكاتبات الصادرة من محمد علي باشا، ج ١، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٤٨٤ تاريخ تيمور، المجلد الأول، ص ١٩، الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١٦٧-١٦٨، ٢٥٧، ٢٩١-٢٩٢؛ كلوت بك: لحة، ج ٤، ص ٣٤، ٣٦؛ علي مبارك: الخطط، ج ٣، ص ٥، ج ٩، ص ٢٢، ج ١٠، ص ٥٤، ج ١١، ص ٢٣، ٩٥، ج ١٢، ص ١٤٧، ج ١٤، ص ١١٥، ١٢١، ج ١٥، ص ٩١، ٩٢، ج ١٦، ص ٥٥؛ عبد الحميد نافع: ذيل المقرئزي، ورقة ٤٨؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج ٢، ص ٢٥٨، ٢٧٦، ٢٨٢، ٢٨٤؛ عمر طوسون:

والثياب، وإمتلاء منها القطر بلا إرتياب، وتعلم أهل القطر من الصناعة ما لم يكونوا يعلموه وعرفوا بتوقيف رؤسا الصنائع ما لم يكونوا يعرفوه، وجلب لهم رؤسا الصنائع وأرباب المعارف من الأقطار^١، حتى صار أهل مصر عارفين بكل فن جليل من الصناعات (ص ١٤٥) الكبار، فمنهم من صار يدري عمل المدفع ومكاحل البارود^٢،

الصنائع والمدارس، ص ٥-٢٠؛ شكري: بناء دولة، ص ٤٣٧-٤٤٠؛ ريفلين: الإقتصاد، ص ٢٨٤.

^١ - أنظر عن الخيرة الأجنبية. محمد فؤاد شكري: بناء دولة، ص ٤٥٤.

^٢ - مصانع المدافع و البارود: بدأ محمد علي في صناعة العناد الحربي بتعيين محمد أفندي طبل الودنلي ناظر المهمات الذي أعد في بيته -الذي كان في الأصل بيت سليمان أفندي ميسو بعطفة أبو كلبة بالدرب الأحمر- مصنعاً، كان يصنع به الخيام والسروج والبيارق والعناد الحربي، فلما لم يكف هذا البيت لكل هذا اشترى بيت ابن الدالي بالبلودية بالقرب من قنطرة عمر شاه بميدان السيدة زينب وحدده وحدد ما حوله من الدور والرباع والخوانيت ومسجد وكتاب تمرّاز الأحمدي (أثر رقم ٢١٦)، وسكن هذا البيت وجعل به ورشاً لصناعة سبك المدافع والذخيرة والعربات والخيام، ثم عزله سنة ١٢٢٥هـ/١٨١٠م وقلد صالح بن مصطفى كتبخدا الرزاز بدلاً منه، ونقلوا الورش من بيته الى بيت صالح الرزاز بالثبانة، ثم أنشاء معمل البارود بالروضة في سنة ١٢٣١هـ/١٨١٦م بالقرب من المقياس وكان تحت ادارة مسيو مارتيل الفرنسي ومعه ٩٠ عاملاً، ثم أعيد بنائه على يد المهندس بسكال كوست في سنة ١٢٣٤هـ/١٨١٩م وتم بنائه بعد عام، وكانت صنعتته متقنة كالمستورد من إنجلترا، وأنشأ ستة معامل أخرى في مختلف أنحاء مصر، وأنشاء مصنع المدافع بالقلعة في نفس الوقت، وكان قد بدأ في عمل آلات الحرب من حلل ومدافع وجمع الحدادين بالقلعة في سنة ١٢٢١هـ/١٨٠٦م للدفاع عن وجوده في مصر ضد رغبة الدولة العثمانية، ثم أنشأ مصنعاً بالقلعة عند باب الانكشارية لصناعة وسبك المدافع والقنابل والبنادق والسيوف والرماح وغير ذلك "الطبخانة" (طوب في التركية بمعنى المدفع، وخانة تعني البيت بالفارسية، أي أنها تعني دار صناعة المدافع) تحت ادارة أدهم بك قائد المدفعية، وبه ٩٠٠ عامل ومعهم عدد من الأجانب للاستفادة بخبراتهم، وكان هناك أيضاً مصنع لألواح النحاس تحت ادارة توما جالوي الانجليزي، وقد حدد هذا المصنع سنة ١٢٣٦هـ/١٨٢٠-١٨٢١م، وأنشأ محمد علي كذلك ورشة بيولاقي في

ومنهم من عرف كيفية إيجاد جواهر البارود^١، ومنهم من يدري صناعة الأقمشة الثمينة، ومنهم من إختص بإدراك صناعة آلاتها، فأكمل لهم بذلك الجمالة والزينة، وهذه الأشياء لها مواضع متسعة الجهات ومساكن^٢ فيها كبيرة بديعة قريبة المسافات ينبي عنها العيان، إذ هو كاف في البيان لأن تفصيلها يحتاج لمجلدات وتبيين أجزائها طويل الشرح وهيئات، وبالجملة فهو أمر عجيب وشأن بديع غريب صارت به مصر

الفضاء الواقع بين وكالة الأرز والنيل عرفت ب "الدقمخانة" لصب الحديد والنحاس، وكان انتاجها مخصصاً لورش الاسطول وتدار بالآلات البخارية، وتكلفت ١,٥ مليون فرنك، وقد وضع تصميمها المهندس الميكانيكي جالوي كنموذج لمسبك لندن، وعين رئيساً لها رجلاً انكليزياً وعين معه خمسة من الانكليز و٣٠ من مالطة وخمسون مصرياً، وكان هذه الورشة تحت ادارة أهم بك مدير مصانع القلعة، وأعد في ترسانة بولاق آلات لجلخ النحاس المستعمل في المراكب، كما أنشأ ورشة الخوض المرصود بشارع مرسينا بالقرب من جامع لاجين السيفي (أثر رقم ٢١٧)، وعرفت بورشة الأسلحة ومعمل البنادق حيث كانت معدة لصناعة الأسلحة، أنشأها بعد مصنع القلعة حوالي سنة ١٢٤٦هـ / ١٨٣١م، وجعلها تحت ادارة الايطالي مارنجو -الذي عرف بعد ذلك بعلي أفندي أحد صنّاع مصنع القلعة- ومعه ١٢٠٠ عامل، ثم جعلها محمد علي ورشة لعمل الأسلحة والزخيرة "الكلل والكبسون" المصنوع من المواد الكيماوية. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١١، ١١٠، ١٥٥، ١٦٥-١٦٩، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٨٢؛ كلوت بك: لحة، ج ٤، ص ٤٠، ٤١؛ علي مبارك: الخطط، ج ١، ص ٥٢، ج ٢، ص ١٢٠، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ج ١٥، ص ٩٢، ج ١٦، ص ٥٨، ج ١٨، ص ١١٩؛ عمر طوسون: الصنائع والمدارس، ص ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨؛ عبد الرحمن زكي: الجيش المصري، ص ٨٢، ٣٤٧؛ عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي، ص ٣٤٨-٣٥٥؛ عبد الرحمن زكي: قلعة مصر من السلطان صلاح الدين إلى الملك فاروق، القاهرة سنة ١٩٥٠، ص ١١١؛ حسن قاسم: المزارات الاسلامية والآثار العربية في مصر والقاهرة المعزية، القاهرة سنة ١٩٤٢، ج ٤، ص ١٨٩؛ شكري: بناء دولة، ص ٤٥٩؛ أحمد السعيد سليمان: تأصيل، ص ١٤٤؛ محمد حسام الدين اسماعيل: منطقة الدرب الأحمر، ص ٣٧٣، ٣٧٩.

^١ - عمر طوسون: الصنائع والمدارس، ص ٣٨؛ محمد فؤاد شكري: بناء دولة، ص ٤٣٠.

^٢ - في نسخة [دار الكتب] "كمساكن".

تفتخر على الشين، وتعلو بصُناع أهلها على الهند والصين، فلا يرى إنسان بها خلياً عن المعارف ولا يلمح الطرف رجلاً من أهلها إلا وهو ملي بالعوارف^١، وهذه هي الآثار التي لا تبيد والمحاسن الظاهرة بعنوان السعد والتأييد.

ومن آثاره التي فاق بها من سلف وبقى الفخار له بإيداعها فيا نعماً ذلك الخلف، وهو تجديده بل إنشاؤه لما إندرس من الزوايا والمساجد الجامعة^٢، وكانت أجناد هممه (ص ١٤٦) في إنشا ذلك متواصلة متتابعة، ففي بلاد كل قطر مساجد عظيمة جليلة البنا محكمة قوية، كثر بها ذكر الله القدوس الرحيم، وتوالت بها العبادة لجناب حضرة القيوم العظيم، يتلى فيها كتابه الجليل ويقرأ بها علم العبادات من كل عالم فضيل، مقامة فيها الشعائر الإسلامية ومرفوع بها منار الملة المحمدية الحنيفية، وقد فرض بها وظائف للقائمين بها وعمم إحسانه وبره إذ هو للميرة أهل لها.

ومن محاسن آثاره جعله لإرباب الخدم بمزارات الصالحين من سادات آل البيت وأوليا مصر أجمعين مرتبات من الدراهم في كل عام ينتفع بها منهم الخاص والعام، كخدام سيدنا الإمام الحسين و كريمة الدارين و الإمام الشافعي وكثير من المزارات

١ - إهتم محمد علي اهتماماً فائقاً بكافة مستويات وأنواع التعليم، وأرسل البعثات العلمية إلى عدة أنحاء من العالم تشتهر بما يريد من تعليم لصناعة محددة، بل أنشأ بمساعدة جومار مدرسة في باريس للتعليم العالي ويتدرب من يتخرج منها في العلوم العسكرية بوححدات الجيش الفرنسي، وقد بدأ بإنشاء مدرسة الهندسة بالقلعة في سنة ١٢٣١هـ/١٨١٦م على يد حسن أفندي المعروف بالدرويش الموصللي. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٥٥، ٢٦٢؛ أحمد عزت عبد الكريم: التعليم في عصر محمد علي؛ شكري: بناء دولة، ص ٦٣٦-٦٨٣.

٢ - أنظر عن تجديدات وترميمات ومساعد بمسكرات جهاد آباد بالخانقاة شمال القاهرة والزقازيق وغيرها من المدن المصرية. علي مبارك: الخطط، ج ٢، ص ٨٦، ج ٣، ص ١٠، ج ٤، ص ٢٢، ج ٥، ص ٨٨، ج ٦، ص ٢٥-٢٦، ج ١١، ص ٩٣؛ حسن عبد الوهاب: مسجد الخانقاة، مجلة العمارة، مج ٣، سنة ١٩٤١، العدد ٣-٤، ص ٥٤-٥٦؛ عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي، ص ٢٩٢-٢٩٣؛ محمد حسام الدين إسماعيل: وجه مدينة القاهرة، ص ٨٢.

المعلومة، فكان له بذلك صحيفة ثواب بالبر والرضوان محتومة^١، ولاسيما ما جددته من أنواع الأسبلة الجميلة المخزون بها المياه العذبة الجليلة، فقد أنشأها بمصر إنشاءً ملوكياً وأتقنها بهجة نظيرة إتقاناً علياً، (ص ١٤٧) وعلى الخصوص فساقى المياه المجتلبة من النيل إلى أرض القرافة^٢، فعم نفعها الحقير والجليل، مع ما أنشأه من الدائرة المباركة تجاه سيدنا الإمام الشافعي، وجعل بها محكم البناء والمقابر^٣ المعروفة بالنفع لكل ألمعي،

^١ - يفسر لنا هنا الرجبي ما جاء بكتاب الجبرتي من تظلم الأهالي والملتزمين من فرض محمد علي لضرائب على الأراضي الموقوفة على مصالح المساجد في ربيع الأول سنة ١٢٢٧هـ/ابريل ١٨١٢م، وأن هذا الأمر سيؤدي إلى خراب المساجد، ورده عليهم "وأين المساجد العامرة، الذي لم يرض بذلك يرفع يده وأنا أعمر المساجد المتخربة وأرنب لها ما يكفيها"، ثم استولى محمد علي بعد ذلك على هذه الأراضي في ربيع أول سنة ١٢٢٩هـ/فبراير ١٨١٤م وأصبح المالك الوحيد لكل الأراضي. ولكن لم يثبت أن محمد علي أعد أي مرتبات إضافية أو خلافه كما يذكر الرجبي. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١٤٣-١٤٤، ٢٠٣-٢٠٤؛ شكري: بناء دولة، ص ٣٠-٣١.

^٢ - قناطر محمد علي التي كانت تصل المياه من بحرى عيون فم الخليج إلى الإمام الشافعي، ولا زالت بقاياها موجودة إلى الآن، أنشأها محمد علي في سنة ١٢٣٠هـ/١٨١٥م تقريباً، تبدأ من بحرى عيون القلعة (أثر رقم ٧٨) إلى قبة الامام الشافعي، وأجرى فيها ماء النيل إلى مبخضة جامع الامام الشافعي ودورة مياهه، وكان السبب في ذلك أنه عندما بنى مقابر لعائلته بالقرب من قبة الامام الشافعي، وبنى حولها عدة أماكن أجرى إليها الماء عن طريق تلك القناطر، فطلب منه الشيخ حسن القويسني أن يوصل الماء إلى جامع الامام الشافعي أيضاً، واستمر استعمال تلك القناطر إلى سنة ١٢٨٩هـ/٧٢-١٨٧٣م حيث حدد ديوان الأوقاف مبخضة جامع الشافعي وأوصل إليها ماسورة المياه العمومية. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٨٦؛ علي مبارك: الخطط، ج ٥، ص ٢٢؛ حسن عبد الوهاب: قناطر محمد علي، ص ٨٧؛ محمد حسام الدين إسماعيل: وجه مدينة القاهرة، ص ٨٧-٨٨.

^٣ - مدافن الأسرة المالكة خلف قبة الإمام الشافعي: تقع خلف قبة الامام الشافعي بالقرافة الصغرى، أنشأها محمد علي قبل سنة ١٢٣١هـ/١٨١٦م، حيث دفن بها في تلك السنة الأمير مصطفى بيك دالي باشا شقيق روجه محمد علي كما دفن بها أحمد باشا طوسون ابن محمد علي،

وبها مدفن السيدين الجليلين الكوكبين اللامعين المحفوفين بالرحمات المملوئين بالرضوان وجزيل الكرامات الغنيين عن التصريح عنهما بالإعلام الظاهرين ظهور الأعلام بغير إعلام^١، مع ما يتلى عندهما على الدوام من قراءة كتاب الله الملك العلام بالقراءة المتابعة في الليل والنهار لإجتلاب غيوث الرحمات من كل وابل مدرار، مع ما يصرف عليهم من أنواع الصدقات والصلات المتواصلات، هذا مع إحكامه للأثر الباهر البديع الحسن الظاهر الذي يعم نفعه هاتيك الجهات، ويحمد أثره في تلك المواضع الطاهرات، ويفوق على كل صنيع من سلف ويظهر به فضيلة وهمة الخلف وهو إجتلاب الما العذب على القناطر من النيل وجعله (ص ١٤٨) في بحاري متواصلة لينتفع بعظيم خير ذلك السيل متصلة هذه المياه ضمن الجرى، حتى تكون تجاه دائرة الخوش المبارك وهي أهني وأمرى، وتظهر هناك للعيان وينتفع بها سكان ذلك المكان، وتمتلي منها جهات زاويتي الشافعي والليث بن سعد وما حولهما من تلك الأماكن التي قبل وبعد، وهذا شي لم يصنعه أمير ولا وزير، بل إختص به هذا الصدر الشهير، ولعمري إنها صورة نفع عامة، ولإزالة الوصب عن تلك البقاع أمه، وهذا هو الخير الذي لا يزول والبر الذي شرح نفعه يطول والصدقة الجارية التي لا تنفى، ولصاحبها في الدارين عطية الحسنى، فسبحان المنعم الوهاب يعطي من يشا بغير حساب.

ومن آثاره الجميلة العظيمة التي يضرب بها الأمثال بنا سد إسكندرية، حيث أن الإفرنج الإنكليز لما هزمهم وطردهم بقوته المشهورة وردهم أذلاً بعد تمكنهم من ثغر

ويوسف باشا، وبها مقابر لابناء محمد علي وأزواج بناته وأحفاده وأحدى زوجاته وبعض أقاربه، وقد سجلت ضمن الآثار الإسلامية سنة ١٩٨٥ م. الجيرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٦٣، ٢٦٥،

٢٦٩؛

Gaston Wiet, Nicolas Turc: Chronique d'Egypte: 1798-1804, Le Caire, 1950, 259-264.

وأنظر أيضاً: محمد حسام الدين إسماعيل: وجه مدينة القاهرة، ص ٨٢-٨٣.

^١ - هما طوسون وإسماعيل أبناء محمد علي المدفونين بمدافنه.

رشيد وعمهم قتلاً وأسراً في واقعة الحماد^١ التي لها أكبر صورة، ورجعوا مدبرين إلى ثغر (ص ١٤٩) إسكندرية، وخافوا من وصوله إليهم بشجاعته العلوية قطعوا المقطع المعلوم من البحر المالح حتى إختلط ببحيرة إتكو ودار محيط بإسكندرية بحيث لا يتأتى الوصول إليها من طريق البر بالكلية^٢، وأمنوا على أنفسهم في الثغر وإتقتوا عدة الحصار

١ - موقع الحماد: كانت في ١٠-١٢ صفر سنة ١٢٢٢هـ/١٩-٢١ أبريل ١٨٠٧م بقيادة حسن باشا طاهر وأخوه عابدين بيك وعمر بيك وحجو بيك وعمد بيك دبوس أغلي كئخدا بيك و اسماعيل كاشف الطوبجي وأحمد أغا لاظ وأحمد أغا الخازندار بونا برته أمام الإنجليز بقيادة القائد العام البريجادير جنرال وليام ستيوارت William Stewart ومعه الكابتن ديلانسي Delancey والميجور أوكيف O'Keefe والكابتن رديل Riddle والكولونيل ماك ليود Mac Leod، حيث انتصروا بمعاونة أهالي رشيد ودمهور على الإنجليز وأسروا كثيراً منهم وفر من استطاع الفرار إلى الإسكندرية، واغتنم جيش محمد علي ما كان معهم من الأسلحة والذخيرة، ووصل الخبر إلى محمد علي بالقاهرة في ١٤ صفر ١٢٢٢هـ/٢٣ أبريل ١٨٠٧م، وأرسلوا أذان القتلى وأسيرين من القادة إلى استانبول. وكان هذا لقلّة قوات الإنجليز وإعتمادهم على قدوم الماليك إليهم لمساندتهم بفرسانهم ضد قوات محمد علي، ولكن هذا لم يحدث لتفرق كلمة الماليك ونجاح محمد علي في إستقطابهم، وكان هذا خطأ الإنجليز، حيث أن الحملة كانت مكلفة من البداية بإحتلال الإسكندرية فقط وإنتظار الماليك ثم مساعدتهم في إستعادة سيطرتهم على مصر، فقد كانت الحملة مكونة من ستة آلاف جندي فقط، ولكن حاجتهم إلى المون الغذائية إضطرتهم للتفكير في السيطرة على إقليم ومدينة رشيد، بل طاف في خلدهم السيطرة على دمياط لإيقاف الإمدادات الحربية التي كانت ترسلها الدولة العثمانية إلى مصر. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٤٨، ٥٠، ٥١، ٤٩، ٥٣، ٥٤-٥٥، ٥٦؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ٢، ص ٦٥٣-٧٢٤؛ وأنظر أيضاً:

G. Douin and C. Fawtier-Jones, l'Angleterre et l'Egypte: La Campagne de 1807, Cairo, 1928.

٢ - عند إنسحاب الإنجليز من رشيد إلى الإسكندرية قطعوا الجسر عند إبي قير بين بحيرتي المعديّة ومربوط حتى يغمر المنطقة ماء البحر ولا يتمكن جيش محمد علي من الوصول إليهم. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٥٦؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ٢، ص ٧٣٠.

فيه وفي البحر^١، وصارت مراكزهم تحرسهم من جهة البحر ولا أحد يتمكن من المجيء إليهم لحيلولة ما البحر، ولا زال حضرة الصدر العلي يدبر ذلك الأمر بفكرته الإيائية ويسدده بهممه المحمودة العباسية، وهو يرأسهم ويحذرهم ويحاورهم في كتبه وينذرهم حتى أجابوا إلى الخروج من الثغر^٢، فخرجوا من هيئته وإنقضى هول ذلك الأمر، فتسلم الثغر وأحكمه تحصيناً، وجعله في التحفظ والحرس من الأعداء شيئاً بديعاً متيناً، فأدار به السور الجديد وأنشأ الأبراج والطوابي^٣ مشحونة بكل شجاع صنديد، مملوءة

١ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٥٥، ٥٧؛ شكري: مصر في القرن ١٩، ج ٢، ص ٧٣٠-٧٣١.

٢ - كان أول شروط الصلح وقف القتال بين الطرفين وإخلاء الإنجليز للإسكندرية، وإسترجاع الأسرى الإنجليز وكان جنود محمد علي قد إستخدموهم كعبيد وباعوهم وتفرقوا في أنحاء البلاد، ورد ما إستولى عليه جيش محمد علي من مدافع ومهمات، وصدر العفو عن أهالي الإسكندرية والأجانب عموماً للخشيتهم من بطش محمد علي وتأمين أمين بيك الألفي والسماح له بالذهاب إلى جماعته بالصعيد، كما أتفقوا على رعاية المصالح التجارية الإنجليزية في مصر، والتعهد بمنع أي جيش أوروبي من غزو مصر أو السماح له بالمرور في الطريق إلى الهند، وأرسل لهم محمد علي أحد القادة ليردوا له ابن أخيه عمر بيك الذي كان بالإسكندرية وقت دخول الحملة، فأرسلوا القائد مرة أخرى لسفر ابن أخيه عمر بيك، وأرسل الإنجليز رسول إلى القاهرة في ٥ جماد ثان سنة ١٢٢٢هـ/ ١٠ أغسطس ١٨٠٧م، وسافر محمد علي إلى جسر أبي قير بالقرب من الإسكندرية ودارت هناك مفاوضات الصلح حتى ٤ رجب/ ٧ سبتمبر وتم توقيع المعاهدة في ١١ رجب/ ١٤ سبتمبر من نفس العام، وأرسلوا الأسرى إلى الإسكندرية، ودخل كئخدا بيك إلى المدينة ثم دخل محمد علي وتسلم قلعة الإسكندرية من قائد الحملة أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٥٥، ٥٦، ٥٧-٥٨، ٦٣-٦٤، ٦٥، ٦٦؛ شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر، ج ٢، ص ٧٨٠-٨٥٨.

٣ - جدد محمد علي أسوار الإسكندرية ولم ين أسواراً جديدة، كما جدد الطوابي التي تحيط بها من الشرق والغرب. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٣، ٧٥، ١٢٤، ١٣٣، ١٤٤، ٢٥٨؛

من الذخاير التي لا تحصى، وجعل مكاحل البارود مستحضرة تفوق العد والإستقصا، وهياً بها المدافع (ص ١٥٠) والنبأ الكبير، وصار أمر التحصين بذلك الثغر لا يدانيه نظير حتى صار أمر يرهب كل من تكبر، وشأناً يخيف الباغي متى توهم أن يتجبر، وإطمأن أهل الثغر بتلك الحماية، وملئت صدورهم بالسرور بهاتيك الرعاية، ثم بادر حضرة الصدر العلي صاحب العز والفخر الجلي إلى تدارك سد ما فتحه الإفرنج الإنكليز من البحر، وصمم على إعادة الطريق الذي يسلك من البر، وقد كان ما البحر الملح زاد عن الحدّ وفاق بطغيانه إلى غاية طرف الجد حيث إحتد، وكان بعيد العمق في تلك البقاع وسال مضطرباً لا يدرك غوره لإنخفاض القاع، وهال أمره على الناس وظنت أن لا يرجع الطريق الأول ولا يعرف لتداركه إلتماس لأنه أمر خرج عن معنى القياس وحوقل مسترجعاً فصحا الأجناس، وإنقطع طريق البر إلى جهة ثغر رشيد^١ ولقى الناس من ذلك التعب الشديد، فبادر حضرة الصدر بهمه الكسروية، وإنتدب بقوته وعزيمته الساسانية وأحضر الرجال وإستنهض أرباب الأعمال ولا حظهم (ص ١٥١) بتدبيره في التفصيل والإجمال، فحضرت الآلاف من الصناع وإزدحمت

عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي، ص ٤٩٧-٥٠٦؛ عبد الرحمن زكي: الحصون والقلاع، ص ٩١-٩٦.

١ - إستعمل هذا الطريق منذ أواخر العصر المملوكي لإنسداد خليج الإسكندرية منذ عصر الغوري، وعلى سبيل المثال في العصر العثماني كان الباشا العثماني عندما يصل إلى مصر عن طريق البحر ينزل في ميناء بالإسكندرية، ثم كان يمر بعدة محطات فيذهب إلى رشيد ويأخذ مركب في النيل إلى ميناء القاهرة في بولاق، ثم إلى العادلية في شمال القاهرة قبل أن يستقر أخيراً في قلعة القاهرة. وهذا الإجراء كان يستغرق أسابيع عدة، إذ يحتفى به في كل من تلك المحطات، حيث يتقابل مع أمراء الممالك وكبار موظفي الدولة العثمانية في القاهرة، ويتم تبادل الهدايا مع الباشا. والفترة التي تستغرقها الإستقبالات المذكورة تعطي سلطات القاهرة الفرصة لمحاسبة الباشا المعزول وإعداد قائمة بحساباته لتقديمه للباشا الجديد. أنظر. أحمد كتحدا عزبان الدرناشي: الدرة المصانة في أخبار الكنانة، تحقيق عبد الوهاب بكر ودانيال كريسيلىوس، القاهرة سنة ١٩٩١م.

العملة لأمره المطاع، فكانوا يأتون بالصخور والأحجار والأطيان والتراب بما يدهش من كثرته الأفكار ويزيغ الأبصار، ويرمونه في الماء العجاج ويوالون بكثرة الرمي المتواصل في ذاك الأجاج بعدما جاؤا بالعظيم الطويل من الأخشاب ما يزيد عن مراتب الآلاف في فنّ الحساب، وجعلوه بجانبه يميناً ويساراً، ونظموه ثابياً محازياً بعضه البعض أستاراً، وجعلوا الرمي بينهما جهاراً وكثروا وإسترسلوا ليلاً ونهاراً، ولا يزالون حتى يضمحل الماء ويظهر الحجر ويحجز بين الماين ويحسن الأثر، وإستداموا على ذلك نحو عامين حتى تم محكماً بلا مين، ثم أرادوا لتقويته خشية طغيان الماء عليه إذ ربما أضرب به من أحد جانبيه، فجعلوا سداً ثانياً موازياً للأول ليحسن التمام الذي عليه المعول، وألصقوا كلاهما بالآخر فأحجم ما البحر وتأخر ذلاً بعد أن فاخر، ولما كمل^١ السدين المتواصلين (ص ١٥٢) وإستحكم أمرهما متحاذين متوافقين حَجَرُوا أعلاه مرصوصاً، وتقهر الخِصَمَ بمايه المتهوج مغصوصاً، وصار الطريق على غاية الإستقامة في السلوك يسير فيه الضعيف كالقوي من الدلوك إلى الدلوك يتبخر فوقه البعير بحمله الثقيل ولا يبالي من البحر سوا في البهيم أو الضحوة أو الأصيل، وإستراح الناس من ذلك الأمر المنكر وقرت أعين المارة وكل إمراء بما رآه إستبشر، وصارت التجار والسفار يسرون هناك لنيل قضا الأوطار، وإشتهر ذلك وتسامعت به الركبان وجات لرؤيته إذ ليس الخير كالعيان، وكنت في ذلك الزمان ممن سافر لرؤيته مع رفقة من الإخوان، فشاهدته ومررت عليه فتأملت من جانبيه ومكثت سايراً راكباً نحو ساعتين ثم نزلت في آخره للراحة وتحريك الماضغين، فلما إطمأن بنا المجلس في ذلك المكان خاطبت من معي من معشر الإخوان وقلت حيث أخذني العجب وعمي السرور ومليت من الفرح (ص ١٥٣) والطرب لعمرى لو كان هذا السد قديماً ومررت عليه الآن وشاهدته مستقيماً لقلت أنه من صناعة الجن أو من فعل سابق دول الجنّ والبن، وما أظن أن الإنس تفعل ذلك في بعض الأزمان، اللهم إلا من مثل ذي القرنين

١ - في نسخة [دار الكتب] "أكمل".

إسكندر أو سيدنا سليمان، وغير هذين لا يتمكن من ذلك ولا يقدر على الوصول إلى ما هنالك، وما هذه إلا عناية ربانية وحالة بالتأييد مصحوبة، فهي عليه، فأجابوني أليس هو من صنيع صاحب العزم والزعامة والقوة والهمم والحماسة والشهامة الصدر العلي ذي العزم الجلي، فقلت نعم وكرامه، حصنته بجاه صاحب العقيق ورامه أمين^١.

ومن آثاره التي لا تضاهاى ومحاسن صنايعه التي يفتخر بها القطر ويتباهى، وهى أكبر عجائب الإقطار وأغرب ما يسمع في الممالك والديار، إنشاؤه لنهر المحمودية^٢،

١ - كان هذا السد يرمم من وقت لآخر عبر العصور، وفي فترة الاضطرابات حدث به شرح فتسربت مياه البحر المالحة للأراضي الزراعية بين الإسكندرية ورشيد حوالي سنة ١٢٠٢هـ/٨٧- ١٧٨٨م، واستمر الشرح في الزيادة حتى مجيء الحملة الفرنسية، وعندما جاءت الجيوش العثمانية والإنجليزية لطرد الفرنسيين كسره الجنرال هتشنسون من الناحية الشمالية لقطع الطرق ومحاصرة الفرنسيين بالإسكندرية، فاندفعت المياه المالحة إلى قرب دمنهور واختلطت بخليج الأشرفية وخربت الأراضي وأتلفت الزرع، ولم يصل الماء العذب إلى الإسكندرية، وبعد إستيلاء العثمانيين على مصر أرسلت الدولة صالح أفندي مع المهندس السويدي رودن Rhoden لتزيم هذا السد ومعه المعدات اللازمة من أخشاب وخلافه واستغرق العمل سنة ونصف حتى قرب من الإنتهاء فحدثت الاضطرابات بين علي باشا وأمراء الممالك فكسر علي باشا الجزائري هذا السد مرة أخرى في جهاد أولى سنة ١٢١٨هـ/أغسطس ١٨٠٣م ليتحصن بالإسكندرية، ووصل بعد ذلك فرمان سلطاني في ١ ذي القعدة ١٢١٨هـ/١٢ فبراير ١٨٠٤م بتعيين محمد صالح من رجال الدولة ومعه مهندسون لسد قطع هذا الجسر على أن تكون نفقات ذلك من خزينة مصر. وبدأ محمد علي في إعادة الجسر الذي يربط الإسكندرية برشيد في ٧ ذي القعدة ١٢٣١هـ/٢٩ سبتمبر ١٨١٦م لإنعاش حركة التجارة إلى الخارج لحاجة محمد علي الماسة للأموال لتلبية طلب الدولة العثمانية في إرسال حملة للحجاز للإنتهاء على الوهابيين، وللبداء في بناء دولة مستقرة. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٢٦٢، ج٤، ص٢٥٨؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص١٧٣؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج١، ص٣٥، ٢٠٠، ٢٠٩؛ شكري: بناء دولة، ص٤١.

٢ - سميت بذلك نسبة للسلطان محمود، وكان موقعها هو نفس الخليج الناصري (نسبة للناصر محمد بن قلاوون) و الخليج الأشرفي (نسبة للأشرف برسباي)، فأعاد محمد علي حفره مرة أخرى

وإبرازه هذه الكيفية العظيمة المزينة، فإنها من أعظم المفاتح المصروفة بكم ترك الأول للآخر، وسبب إنشائها أن أهل الأقطار من سائر السفار والتجار يسافرون (ص ١٥٤) في البحر العجاج ويخرجون من أوطانهم فيرون به الهول والإختلاج، فإذا وصلوا ثغر إسكندرية إرتاحت منهم الطوية ومكثوا فيه حسب راحتهم، ثم يرومون السير إلى مصر لنجاح بضاعتهم، فيكون طريقهم من البحر إلى رشيد نحو أربع ساعات أو أزيد بحسب الريح في التزديد، ثم لابد لهم من المرور بالبغاز المعروف، فيمر به المسافر وهو من الفزع مشغوف، لأن السلامة فيه غير مضمونة والأرواح حالة مرورها منه ليست مأمونة، فكثيراً ما تغرق به السفن والركاب^١، وطال ما شاهدوا من هوله العجيب

إبتداء من جمادى ثان ١٢٣٢هـ / أبريل-مايو ١٨١٧م ليختصر الوقت للوصول بالبضائع من داخل البلاد إلى الإسكندرية والعكس لخدمة التجارة وزيادة الانتاج الزراعي، وكان محمد علي يسافر لتفقد الأعمال بنفسه من وقت لآخر، وانتهى حفرها في ٤ ربيع أول ١٢٣٥هـ / ٢٠ يناير ١٨٢٠م، وعين كثيراً من المهندسين لمباشرة أعمال الري وحفر الترعة وعمل الجسور، وكان هذا الحدث من أهم أسباب إزدهار الإسكندرية وأقول بنجم رشيد، وظهور مدينة جديدة هي مدينة المحفودية. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٧٦، ٢٧٧، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٦-٣٠٧، ٣١١؛ كلوت بيك: لحة، ج ٢، ص ١٢، ٣٢، ٣٨-٣٩، ٤٠-٤١، ج ٣، ص ١٦٥، علي مبارك: الخطط، ج ٧، ص ٤٥، ٥٠-٥١، ج ١٩، ص ٧٥، ٨٦، ٨٧-٩٣؛ عمر طوسون: تاريخ خليج الإسكندرية، ص ٥٩-٧٢، ٧٧-٩١، ٩٥-١٥٢؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج ٢، ص ٢٥٩، ٢٦١-٢٦٢، ٢٦٤، ٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٨٤؛ علي شافعي: أعمال المنافع، ص ٢٨-٣١، ٧٧؛ حسن عبد الوهاب: قناطر محمد علي، ص ٨٥؛ شكري: بناء دولة، ص ٤٠-٤٣، ٦٩، ١٣٩، ٢٢١، ٢٩٩، ٤٩٣، ٥٠٣-٥٠٤، ٥١٧؛ ريفلين: الاقتصاد، ص ٣١٣-٣٢١؛ السروجي: تاريخ الإسكندرية، ص ٣٥٨-٣٦١؛ محمد حسام الدين إسماعيل: وجه مدينة القاهرة، ص ٥٨، ٦٠.

^١ - كان لإضطراب هذا البوغاز أكبر الأثر في تبادل الإزدهار بين مدينتي فوة ورشيد، لإضطراب السفن للرسو تارة في تلك المدينة وتارة في الأخرى حسب حالة إتجاه الريح بهذا البوغاز. أنظر:

العجاب، فكان البعض من السفن يَسْلَم والبعض يتلف غرقاً ويحرق بالراكب لها الندم، وكان هذا البغاز متلفة للمتجر ومشقة على كل بار وفاجر ولا طريق لمصر سواه، فسبحان من خلقه وسواه، فكان من أجل تدابير الصدر العلي ذي العز والفخر الجلي أن بادر بعزمه المعروف وطلب أن يصنع مع العالم البر والمعروف حفظاً للتاجر والتجارة وحرصاً على (ص ١٥٥) بنجاتهم من الغرق أو الخسارة وطلباً لراحة قلوب الناس وعناية من حضرته بالرأفة لسائر الأجناس، وصمم بعزمه الجليل وجزم بإراحة كل قبيل وأمر وأمره المطاع وإستهض الأشياء والأتباع وطلب إحضار الرجال والدواب الرفاعة للانتقال، وأن يحضروا مساحي الحديد [آلات الهندسة لإتقان هذا الإنشاء بالتحديد]^١ وأن يأخذوا إرتفاع النيل السعيد وموازنة نزوله في وسيع البيد، وأن يَحْفِرُوا من شاطي بحر النيل إلى ثغر إسكندرية في البر الطويل، ويتدوا بذلك من بلد العطف^٢ المعلومة، ويجعلوا سعة المجرى أربعين ذراعاً مقسومة، والعمق بحسب ميزان الأرض ونسبتها إلى ما النيل في الرفع والخفض^٣، فبادرت الرجال من أقطار

محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ق ٢، ج ٢، ص ١١٣-١١٤؛ طاهر الصادق وآخرون: مدن مصر ذات التبادل الحضاري، التقرير الثاني، أغسطس ١٩٩٤م، ج ١، ص ١٢-١٤.

^١ - في نسخة [دار الكتب] ما بين الحاصرتين مكتوب بالهامش الأيمن للصفحة، ومشار إليه برقم "٣" في النص وفي الهامش.

^٢ - بلدة العطف: قرية بالقرب من فوة على فرع رشيد من النيل، أصبحت منبعاً للترعة الجديدة التي أنشأها محمد علي قبل كتابة هذا المخطوط بسنوات قليلة. أنظر: محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ق ٢، ج ٢، ص ٢٦٨؛

Helen Anne B. Rivlin, The Agricultural Policy of Muhammad 'Ali in Egypt, Cambridge, Harvard University Press, 1961, 219-221.

^٣ - بدأ الحفر المهندس التركي شاكر أفندي وهو الذي قام بتصميمها وإدارة أعمال الحفر، ثم لما وجد خلل في منسوب الترعة عين المهندس الفرنسي بسكال كوست لإتمام العمل وإصلاحه في جماد أول سنة ١٢٣٤هـ/مارس ١٨١٩م، وأكمل الحفر إلى ميناء الإسكندرية الجديد. عمر طوسون: تاريخ خليج الإسكندرية، ص ٥٩-٧١؛ شكري: بناء دولة، ص ٤١.

الكنانة وإفتحوا ذلك مع المهندسين بغاية الإتقان والمتانة، وكنت في ذلك الحين بإسكندرية أخرج للتفرج على هذه الكيفية، فشاهدت همماً تعجز عنها الأكاسرة وأفعالاً لا تدرك (ص ١٥٦) القياصرة، فإن مسافة ذلك النهر يوم وليلة بالسير المعتدل، وقدمت بجانبه الأخشاب خشية وقوع جرف منخزل، والعمله نحو الثلاثمائة ألف أو يزيدون وحوهم الأمرا وكشاف الأقاليم إستنهاضاً لما يعملون^١، وكانت الرجال حين جات من البلدان معهم الطبول من كل بلد ومكان، والزمر تصحبهم مع الكؤوسات ليضربون بذلك في ساير الأوقات، فكل أهل بلدة أتت بهذه الصورة حتى صارت الكيفية في غاية العجب مشهورة، فكان إذا أسفر ضو الصباح تضرب الطبول من باب إسكندرية وتنفخ الزمر من كل أهل بلد سوية ويتواصل ذلك ويمتد إلى العطف من ذلك الحد، فيكون ذلك أمراً مستغرباً وشأناً يستغرق البال، بحيث لا يدرك شرحه معرباً حتى يتخيل للسامع أن الدنيا كانت من طبول وزمر، وربما ظن من لا يدري أن هذا هو النفخ في الصور، وهؤلاء الأمم متفرون في الأعمال لا يفترون عن الحفر والحمل في حال من الأحوال، ولكل قوم خيم وخيام يأوون (ص ١٥٧) إليها وقت النيام، ثم أفرز حضرة الصدر رجلاً مخصصة وعدداً من الآلاف منصوبة من أهالي إقليم القليوبية وضم إليهم فرقة من خدمة إسكندرية وخصهم بحفر مينه^٢ متسعة الدائرة تكون غاية لإنصباب مياه التزعة الهامة، وتقف بها المراكب التي تجي من بحر النيل ويحمد الإستقرار بها لمن يأتي من أبنا السبيل^٣، ففحروا دائرة في السعة ماتيمة وفي وقوف المراكب بها ملاحة ومنظمة، وأتقنت في شكلها البديع وكمل بفحرها حسن

^١ - الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٧٦.

^٢ - في نسخة [دار الكتب] "ميناً".

^٣ - لازالت بقاياها موجود عند كوبري التاريخ بالإسكندرية.

ذلك الصنيع^١، فإنه أمر لا يدرك معناه إلا من شاهده بنظره وليس الإخبار به كالعيان بل هوشي من أثره.

وها أنا أصف لك مجملًا صورة المجموع فيه في الأناس وأقرب لك فهم شكله بالقياس، فإني أخبرتك أن طول التزعة أعني النهر أربع وعشرون ساعة، وذكرت لك تقريباً كيفيته وأوضاعه، فإعلم أن الفجر من شاطي النيل أربعون ذراعاً بجعولة عشرة أقصاب إتساعاً فهذا سعة مجرى المياه مملوءة بالرجال العملة بالماء، ومن الجانبين رجال (ص ١٥٨) يأخذون منهم مقاطف الطين ليرفعوه في أعلى وجه الأرض لإحكام الجرف المتين، فالذين من الجانب الأيمن صاعدون ونازلون والذين في قرار النهر لا ينتقلون بل للفجر ما كثون، والذين بالجانب الأيسر يصعدون كذلك وينزلون، ثم إذا أخذوا ممن يحفر وصعدوا لا يرمون ما معهم على الشاطي المتصق بممر الماء^٢ الجاري بل يمشون عشرة أقصاب ثم في نهايتها يرمون هناك ما بأيديهم من الطين الذي هو في المقاطف والبداري، فقد عرفت أن سعة المجرى أربعون ذراعاً وبالجانب الأيمن ما يقاربها للصعود إتساعاً، وبالجانب الأيسر ما يضاهيه في موازنة السعة، فتم حينئذ من الجانبين ثمانون ذراعاً متوزعة وأربعون سعة المجرى، ومن كل جانب في السطح عند الجرف أربعون أخرى، وقد كملت مائتي ذراع بالتقريب، فهذه المائتا ذراع مشحونة بلا ترتيب مملوءة بالرجال العملة الفحارين والفعلة، فلست ترى إذا تأملت في قرارها محلاً خلياً من الرجال ولا بإحد الجانبين ولا بناحيي (ص ١٥٩) السطح العمال بل تمتد بصرك مايتي ذراع فلا يقع إلا على أجسام البشر مزدحمين صعوداً ونزولاً وسيراً وفحراً إزدحام قطر المطر، وهذا الإزدحام من شاطي النيل عند العطف التي ذكرناها، وهكذا ممتداً ذلك الإزدحام موصولاً ببعضه بعضاً إلى إسكندرية للمينا التي حررناها، فظهر أن موضع وقوف الرجال الذين لهم دخل في ذلك الصنع مقدار مايتي ذراع،

^١ - علي مبارك: الخطط، ج ٧، ص ٤٥، ٥١.

^٢ - في نسخة [دار الكتب] هذه الكلمة مكتوبة بالهامش الأيسر للصفحة ومشار إلى مكانها بالنص.

وهذين المائتي ذراع مبدؤهما من شاطئ العطف إلى باب إسكندرية، ومقدار ذلك بالسير المعتدل يوم وليلة.

إذا فهمت ذلك وتخيلت الكيفية على النمط الذي قلناه حققت إنه أمر كبير جداً وشأن لا يتأتى لغير الصدر العلي فعله، وكيف يمكن السوا أن يصنع ما يقرب من هذا ولو عرف مستعداً، وهكذا فلتكن الهمم وإلى النظر لعظيم آثاره يسعى على الرأس لا القدم.

ثم إنه أسعده الله بعد أن تم حفر المكان كله وذهب عن الصانع فيه وصبه وزال كنه أمر بفتح الباب الذي هو من جهة النيل ليدخل الما ويظهر مقدار (ص ١٦٠) جريانه الجميل، ففتحوه ودخل الما منصباً قوياً وسارت فيه السفن سيراً مرضياً وإمتلأت جميعها بالما العذب اللطيف، وكان ذلك يوماً مشهوداً بإسكندرية وخيراً عاماً للقوي والضعيف، وكان قد أمر الصدر بصنع محلات ينصرف الما منها عند وصوله للمينا ووقفوه خشية من حبسه، فربما كثر في أوقات الزيادة وطغى من الجانبين فتلف من النهر جروفه، فصنعوا تلك المصارف وأحكموها وجعلوها بالحجارة مقنطرة وجوفوها وثبتوا الأساسات بقوة وقوسوها ونزلوا بحجارة الأساس على الأرض الصحيحة وغوّصوها، فاعتدل الما في سيره وبدأ عنوان سره^١ وخيره، وبقيت إسكندرية مضروباً بها الأمثال، وصارت في المداين بديعة المثال، وناهيك بمدينة أحد جانبيها على البحر المالح وجانبيها الآخر على العذب القرات فسبحان المانع وعم أهلها السرور وذهب عنهم الكدر المدحور، وإرتاحت سائر السفار وإطمأنت على أموالها التجار، لأن التاجر الآن يأتي ببضاعته من أي مكان كان ويصعد من البحر المالح إلى نهر إسكندرية (ص ١٦١) فيجدها معمورة مشحونة بالخيرات بهية سنية، فيمكث بها ما أراد من الزمان، ثم ينزل مع تجارته من جانبها الآخر في مراكب النيل في غاية المسرة والأمان، وكفى الله الناس شر البغاز وإضمحل التلف الذي كان يجي من جهته

^١ - في نسخة [دار الكتب] "سيره".

مع الإنجاز، وطالما مسني النصب والتعب وحف بي الكرب والوصب في سابق سفري إليها من مصر إلى رشيد، ثم بعد خروجي من رشيد يعمني كل شأن مكيد، إن كان سيرى لإسكندرية من البحر المالح فلا بد لي من المرور على البغاز وأنظر وجهه الكالح، ثم إذا خرجت منه بعون الله سالماً تَضْرِبُ^١ رأسي من رائحة البحر وصناتها دائماً، ولا خلاص إلا بالوصول لإسكندرية، وهذه صورة كرب لعمرى إنها شديدة قوية، وإن كان سيرى من رشيد بطريق البرّ فذلك عندي أضرب وأدهى وأمر لأن الطريق عسر طلوعاً في الرمال ونزولاً ومروراً بجانب البحر على شاطئه زلقاً ووحولاً، ولا سيما وبه مكان تمر منه السفار يعرف بسبخة حليلة تبدو به من كثرة الزلق والوحول (ص ١٦٢) الأكدار، وبالجملة والتفصيل فطالما شاهدت في سيرى إليها الأمر الويل، فذهب ذلك جميعه وبدا الخير معروفاً سببه وصنيعه، فالحمد لله على هذه النعمة الثامة، وله الشكر على أفضاله العامة، فإن الواحد من الرجال في هذا الحين ينزل من ساحل بولاق مطمئناً مضطجعاً في سفينته وهو مسرور أمين ولا يرح مطمئناً مستريحاً خاطره حتى يصل إلى نهر المحمودية إلى إسكندرية قريراً العين ناظره، فإرتاحت كافة العباد وكثرت المكاسب للمجاورين لها وللبعيدين من البلاد، فجزى الله الصدر العلي أعظم الجزاء، وجعل خاصته من قسم الخيرات أكبر الأجزاء، والله درّه من سيد عظيم ووزير عارف بموطن إصلاح كل أمر جسيم، وأطال الله بقاءه وتأيبه وأحكم نظامه وسدد تشييده، هكذا هكذا وإلا فلا، طرق الجدد غير طرق المزاج.

ولو أردت حصر ما أنشأه من بساتين وقصور ومواضع كرخانات المصالح العامة النفع لضاقت الأوراق (ص ١٦٣) وإزدحمت السطور، وكيف ولا يخلو مكان من بلاد القطر ومدائنه من معالم معانيه، فأنى يماثله مماثل في أيّ وقت أو يقاربه ويدائيه، هذا مما لا يخطر بالبال ولا يمر بفكر ولا خيال، اللهم إلا أن يكون ذلك خطرات أو هام أو خرافات مخيلة تجي بها أضغاث أحلام، ومن هو الذي أنشأ إقليماً مستقلاً، فقد صرت

١ - في نسخة [دار الكتب] "يَضْرِبُ".

به أيده الله على ذلك مستدلاً، وهذا مسطر في هذا الكتاب ومذكور، فأنظره أيها الطالب الراغب لمحاسن كل خير مدخور.

ومن هو الذي أنشأ السفن الحربية في البحر المالح والمراكب النيلوية في البحر العذب لعامة المصالح مقدار بعض الذي أنشأه أو قارب شيئاً مما أظهره وأنشأه، فإن مقادير ذلك جاوز الألوف، فأنظره في هذا الكتاب فهو مسطور فيه وموصوف، فأيد الله ذلك الصدر وأدامه بالعز سامي القدر.

المقالة الخامسة

في إعادة دولة كتبة المسلمين

بعد إبعادهم عن (ص ١٦٤) خدم الأمرا حتى إفتقروا وصاروا في عدد الضعفا المساكين، بحيث أن كفار الأقباط إنفردوا بخدمة الأمرا وملكوا بيوتهم وحلوا في قلوبهم محلاً كبيراً، وصار الفقير من الكفار غنياً بل أميراً، وألقوا عندهم أكاذيب وإفتروا على كتبة المسلمين بأعاجيب، ولازالوا بهم حتى تمكنوا منهم غاية التمكن، وأوقعوا كراهة الكتبة المسلمين في قلوبهم وحل بهم التمسكن، وصاروا بغاية الذل والمهانة وإنحطت أقدارهم للحضيض بعد رفعة المكانة، ولم يبق بمصر منهم عند أحد الأمرا سوى رجلين أو ثلاثة: كاتب الحرمين بمنزل الوكيل، لأن كتابة الحرمين وظيفه ووراثته^١، وكاتب الصرة مع أمير الحاج في السفر^٢، وبعضهم طلب المعيشة بالقبانة^٣

١ - كاتب الحرمين: هو أحد كتاب قلم الروزنامة، وهو الكاتب المسئول عن سجلات مال الصرة المرسل سنوياً لإهالي الحرمين الشريفين وهي المبالغ النقدية والعينية التي يقوم بتوصيلها أمير الحاج في موسم الحاج. أنظر: ليلي عبد اللطيف: الإدارة، ص ٣٠٩؛

Suraiya Faroghi, Pilgrims & Sultans, The Hajj Under the Ottomans, London, 1994, 164.

وإستقر، والبعض الباقي عند الأمرا لا بد له من مدارات ومواسات الأقباط وإلا فلا يقدر على أن ينتفع بدانق ولا قيراط، وكانت الكتابة بمصر منقسمة أقساماً ثلاثة:

القسم الأول كتاب الأمرا المتكلمون على البلاد المتحكمون على المدن والقرى^١ وجميع المزارعين (ص ١٦٥) من العباد المباشرين بيوتهم المسترسلون على جميع أموالهم، وهؤلاء هم الأقباط، فالرئيس منهم مقيم بمصر يتكلم على بيوت الأمرا وتحت يده جماعة من كفرة القبط يفرقهم في ضبط حساب الجهات، مقيمون عنده بمصر ساكنون^٢ بالنهار بدار الأمير، ويتوجهون لمنازلهم بعد العصر جماعات بعد جماعات، ومنهم طائفة يرسلهم الرئيس المباشر للبلاد يعرفون بالصيارفة^٣، وهم الذين يكتبون

٢ - كاتب الصرة: هو كاتب الحاج، مسئول عن المبالغ النقدية المرسلة من القاهرة سنوياً لمعاشات سكان الحرمين الشريفين، وقد كانت مبالغ الصرة المرسلة للحرمين سنة ١٢١٢هـ/١٧٩٧-١٧٩٨م ١٦,٢٠٤,٦٦٦ بارة. أنظر:

Shaw, Organization, 254-258, 268.

٣ - القيافة: طائفة القبانين (الوزانين) طائفة كانت تقدم خدمات عامة في الأسواق والوكائل ومراكز الجمارك في مصر كلها، كما قاموا بوظيفة تسجيلية أيضاً، حيث كانوا يقومون بضبط الأوزان والأعمال التي ترد إليهم، ويتلقون أجرهم مباشرة من أولئك الذين يتلقون خدماتهم. أنظر: Shaw, Organization, 109-112, 128 (8-9).

١ - كتاب الأمراء: كان لكل أمير من أمراء الممالك كتبة من الأقباط لحفظ حساباتهم الخاصة بإيرادات الإلتزامات الزراعية أو المقاطعات الحضرية، وقد كانوا مؤتمنين على أدق أسرار أسيادهم المالية، وبالتالي فقد كان لهم نوع من التأثير في دوائر أسيادهم، ومن أمثالهم المعلم بقطر المحاسب كاتب البرديسي بيك، وغالي كاتب الألفي بيك. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٣، ص ٢٨٣.

٢ - في نسخة [دار الكتب] "ماكنون".

٣ - الصيارفة: كان نظام الصيارفة جزءاً هاماً من إدارة حصة الملتزم أو الأمير المملوكي، حيث يقوم الصراف بتحصيل الأموال المقررة على الفلاحين، كما يقوم أيضاً بدفع النفقات الإدارية الخاصة بالإلتزام، ومن ثم فقد كان الصراف جزءاً من إدارة القرية ذو دور هام، حيث يقوم بتعيين موعد جمع الضريبة أيضاً. أنظر: عبد الرحيم عبد الرحمن: الريف المصري، ص ٢٥-٢٧؛

Shaw, Organization, 53, 56.

حسابات البلاد ويضبطون إيرادها ويقبضون جميع الأموال من الفلاحين والمشايخ المتكلمين عليهم بها، وهذا معلوم معروف محقق موصوف.

القسم الثاني: كتاب الميري المسمى بالرزنامة، وكبيرهم يعرف بالرزمنجي^١، وهو رجل من المسلمين من أعيانهم ومن مشاهير العارفين بالقوانين السلطانية في أحوال البلاد جميعهم، وله أتباع من طوائف الكتبة المسلمين ورؤسا من كبارهم، وتحت يد كل رئيس أتباع من المسلمين يكتبون الأموال السلطانية في دفاترهم (ص ١٦٦) ولهم مرتبات معلومة ودراهم يأخذونها محسوبة مرقومة، وهم من أعيان مصر على الدوام ومن المعلومين بكتابة القرمة^٢ والتركبة في سائر الأيام، وهم معروفون عند الخاصة والعام ومعلوم أمرهم على توالي الأيام، إلا أن الأقباط غلبت عليهم أيضاً، فكانوا يحتاجون لمداواة الأقباط ويواسونهم أخذاً بالحرز والإحتياط خوفاً من مكرهم القبيح ورعباً من كذبهم المكثي لا الصريح^٣.

١ - كتاب الميري/ الروزنامة: هم كتاب الروزنامة الذين يقع عليهم مسئولية تدوين وحفظ حسابات ضريبة الأراضي الزراعية (الميري) الواجبة الدفع للحكومة. الروزناجي: ترتيب الديار المصرية، ص ٢٥-٢٦.

٢ - كتابة القرمة: نوع من الخط الرمزي السري، كان يحفظ به كتاب الروزنامة حساباتهم، حيث تستخدم فيه رموز معينة للإشارة إلى الأسماء أو المصطلحات الإدارية. أنظر: ليلى عبد اللطيف: الإدارة، ص ٤٦٠.

٣ - يذكر هذا الوصف في مخطوطتان من القرن ١٨ م وهما:

Ahmed Cezzar, translated and annotated by Stanford J. Shaw, Ottoman Egypt in the Eighteenth Century, Cambridge, Harvard University Press, 1962; Huseyn Efendi, translated with notes by Stanford J. Shaw, Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution, Cambridge, Harvard University Press, 1966.

والقسم الثالث شهود البلاد^١، وهم فقرا المسلمين في العباد، جعلتهم الأقباط مكرراً منهم مع الصيارف، وهم في الحقيقة شهود لهم لا عليهم عند كل عارف، وهؤلاء يرتزقون من أيدي الصيارفة ولهم بعض أشياء فارغة في البلد وزايفة، وبقيت بعض أناس من المسلمين يكتبون للتجار وهم قليلون جداً لأن أرباب القبانة يكفونهم عن الأغيار. وبالجملة فقد كانت الأقباط هم الأمرا في الحقيقة، المتمكنون من الأموال بكل طريقة لا يساويهم فيما تقدم كبير ولا صغير (ص ١٦٧) ولا يناظرهم إلا مثل أمير كبير، فلما أراد الله وهو الملك الفعال ذو الكرم والجلال والأفضال إستولى على قطر مصر حضرة أفندينا المؤيد بالجلال المحفوظ بعناية الرب المتعال طلب المسلمين وأمر بإحضارهم أجمعين، فكان منهم بقية باقية يستمدون من الأقباط كما يرد المار على الساقية، وبعضهم ملفوف في ثياب الخمول والفقر يفرون من الأقباط فرار العصفور من الصقر، فألزمهم حضرة أفندينا بتعاطي الخدمة فيما له من المصالح ليكون أمرهم مستقيماً بالوصف الناجح، ورتب لكل خدمة رجالاً لا يفرطون في شي ولو عقلاً^٢، وعليه رئيس منهم يجمعهم للخدمة وبلوازمها يأمرهم، فلقة المسلمين الحساب وكثرة الأقباط في العدد بغير حساب لزم الأمر لمشاركتهم وملازمتهم معهم ومطارحتهم، وجعل لكل كاتب كفايته، ورتب له من الأموال ما ستر حالته، وجعل للرئيس ما

^١ - شهود البلاد: من رجال الإدارة في القرية، والشاهد هو المستول عن تسجيل أطيان القرية في سجل خاص يحفظ لديه، ويسجل به مساحات الأراضي في القرية وأسماء الفلاحين اللذين يقومون بزراعتها وحصة كل منهم منها وأسماء الملتزمين، كما يسجل أيضاً المال المقرر على كل فلاح، وفلاحين كل شيخ من مشايخ البلد على حدة، ويعتبر سجل الشاهد هو الأساس الذي يقوم عليه عمل الصراف في جمع الضرائب المقررة. وتعيين الشاهد كان يتم بإختيار فلاح القرية، وموافقة الملتزم على ذلك الإختيار. أنظر: عبد الرحيم عبد الرحمن: الريف المصري، ص ٢٣؛ لبلى عبد اللطيف: الإدارة، ص ٤٤٩.

^٢ - هم رجال الدواوين الإدارية التي أنشأها محمد علي. شكري: بناء دولة، ص ٩-١٣.

يقوم به بحسب حاله، وأعطاه من الخرج^١ و الجامكية^٢ ما يقوم بأمثاله، فحسن (ص ١٦٨) حال كتبة المسلمين وإستغنوا بعد الفقر المستتين وصاروا من الأعيان وممن يشار إليه بالبنان، وشاركوا في كل الأعمال كتبة الأقباط، وبعضهم إنفرد بإتباعه المسلمين خاصة أخذاً بالضبط والحزم والإحتياط، وتفرقوا بمدينة مصر وغيرها من البلاد وبقي لهم صورة جليلة بين ساير الأمرا والأجناد، ولهم بمصر الرتبة العلية والمكانة المرضية السنية، ولهم الخدم والأتباع وإستقامت لهم الأمور والأوضاع، فلا تخلو منهم قرية ولا بلد وكتروا وصار أمرهم يزيد مع الأيد والمدد، وضبطوا الخدم الضبط الكافي وقاموا فيها القيام الوافي، حتى صاروا أرباب عز ووقار وأصحاب كرم وفخار ولاحظتهم رعايته وأعزتهم عنايته وأقبل عليهم قبوله وأثمر غصن مظهرهم وذهب ذبوله وبدا شعار سعدهم وولى حموله ودرّ غيث خصبهم^٣ وفاضت سيوله، فإستقاموا في ضبط ما لإجله أقيموا، ولذلك ثبتوا في مجال التكريم وأدعوا، ومن المقولات المشهورة (ص ١٦٩) والأمثال السائرة المدخورة الناس على دين ملوكهم، هكذا شأنهم في سبل سلوكهم، فلما شاهد أعيان مصر وظهر لهم ما أزيل عن كتبة المسلمين من الإصر وعابوا إقبال حضرة الصّدر عليهم وإنه قد أقامهم لضبط المصالح بالميل إليهم قلده في ذلك وساروا بسيرة في تلك المسالك فقلدهم كتابة إيرادهم وراوا ضبطهم المسّعف بمراهم، فحسن حال الجميع وكمل شعارهم البديع.

١ - الخرج: هو المرتبات العينية. أنظر:

Rivlin, The Agricultural Policy of Muhammad 'Ali in Egypt, 317, note 27.

٢ - الجامكية: جمعها حوامك، وهى كلمة فارسية من "جامكي"، وأصلها مرتب يصرف لشراء ملابس، وقد إستخدمت في سجلات الروزنامة العثمانية بمعنى المرتب أو المعاش الذي يعطى للموظف أو التابع من الخزينة العامة، مادام اسمه مسجلاً في دفتر الأوجاقات. ليلى عبد اللطيف: الإدارة، ص ٤٤٣.

٣ - في نسخة [دار الكتب] "خصبهم".

وهذه لحضرة الصدر من أكبر المفاخر، يشهد بذلك كل مؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر، ولعمري إن صحيفة ثوابه في هذه القضية مملوءة بالحسنات مشرقة مضيئة سنية، فهي من أجل موضوع في ميزانه، حيث لا يضاهيها صنع تكون على وزنه، كيف لا يكون كذلك وقد صير المخفوض رفيعاً، وغير خفي أن من أحيائها فكأنما أحيانا الناس جميعاً، فله دره من سيد المعني خبير بمواطن الرقايق لودعي كامل في رتبتي الذكاء والشهامة، ثابت في مضماري الشجاعة والزعامة، مشهود له (ص ١٧٠) بالسؤدد والسداد، معين لأهل الوفاق مهين لأرباب العناد، وبالجملة والتفصيل فإن كتاب المسلمين في كل قبيل رجع لهم ما كان قد ذهب، وصاروا في رونق الفضة البيضاء وصفا الذهب، أحياهم الله بعد الممات وأعادهم للنضارة بعد الذبول، بل للوجدان بعد عدهم من الرفات، وسبب ذلك همة أفندينا العلية ومعرفته بمصالح البلاد ومنافع الرعية، وتَفَطُّنه أن كتاب القبط لا ينبغي تفردهم لما يلزم ذلك من الأضرار كما سبق تمردهم، ولا يصدقون في رعاية خدمه ولا يتركون قبضة بل ولا ذرة فضلاً عن حزمه، فالله تعالى يديم عز أفندينا ويجعله ملاذاً دُنْيَاً ودِيناً آمين.

المقالة السادسة

في ذكر بعض أحوال تنبيء عن عظيم همته وكبير قوته من
إنشاء مراكب بحرية وآلات حربية، وما أنشأه من الترع
والأنهار والبلاد والديار والأقطار

فمن ذلك أن حضرة الصدر العلي لما رأى أن مصالحه لا بد من (ص ١٧١)
إنفاذها وهي متفرقة أنواعاً وأشكالاً، ويحتاج الحال في إمضائها إلى
كثير من المراكب، وحصل بذلك قلة كفاية لمشاركة مصالح العامة في تجهيزها
للمراكب أيضاً، فحصل بسبب ذلك بعض تعطيل في المصالح الخاصة والعامة، فتأمل
حضرة الصدر العلي في ذلك ودبر بفكرته الصحيحة ما هنالك، فأمر بإحضار
الأخشاب والآلات وتنجز صناعة المراكب البحرية النبلارية والحربية لتكمل المصالح
في سائر الجهات ولراحة الرعايا كذلك في مصالحهم جميع الأوقات، فحصل إمتثال
أوامره الكريمة وتنجز مضمونها من المعاني الجسيمة، فصنعت المراكب من سائر
الأشكال ونجرت في أقرب وقت على أتم الأحوال وكثر عددها وظهر نفعها ومددها،
وتحصل منها في كل قطر وبلد ما يزيد عن الحصر والعدد، فمنها ما صنع وهييء بمصر

ورفعت على الجمال بلا إصر وذهبوا بها إلى ثغر السويس^١ لعمل البحر وأشغاله، فتموها هناك سهلة كما سبق وصف مثاله وهى مراكب (ص ١٧٢) عظيمة تحمل الغلال وسائر الأشياء من الأمتعة الثمينة، فعم النفع بها هناك لزيادتها عن مراكب العامة في سابق الإشتراك، وأما التي صنعت بإسكندرية^٢ فهى مراكب بكل غرض وفيه

^١ - فيما يتعلق بسفن محمد علي التي أرسلها لمحاربة الوهابيين، فقد بنى في تسعة أشهر ترسانة في بولاق - التي أنشأها في سنة ١٢٢٤هـ/ ١٨١٠م - ١٨١١ عدة سفن حمولة كل منها من ١٠٠ إلى ١٥٠ طن، وهى التي نقلت مفككة على ظهور الجمال إلى السويس في ربيع أول سنة ١٢٢٥هـ/ أبريل ١٨١٠م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١٠٢-١٠٣؛ شكري: بناء دولة، ص ١٣٠-١٣١؛ الرافعي: عصر محمد علي، ص ٣٦٣-٤٨٠؛

Georges Durand-Viel, Les Campagnes Navales de Mohammed Aly et d'Ibrahim, Paris, 1937, Vol. I, 96-102.

^٢ - إشتري محمد علي البارحة الأمريكية المسماة واشنطن من مالطة سنة ١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م مع سفن تجارية عديدة، وبحلول سنة ١٨١٧م إكتمل له ٥٠ سفينة كبيرة، وفي سنة ١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م أمر ببناء ثلاث فرقاطات كبيرة بالإسكندرية، وفي سنة ١٢٣٨هـ/ ١٨٢٣م كان له ٢٩ سفينة تحمل ٥٤٦ مدفعاً، ثم أصدر أمراً إلى باغوص بيك الترجمان في ٥ صفر سنة ١٢٤٣هـ/ ٢٨ أغسطس ١٨٢٧م بطلب مهندسين فرنسيين ذوي خبرة من القنصل الفرنسي المسيو دروييني لتأسيس حوض لإنشاء السفن بالإسكندرية، ثم إكتمل له أنشأ دار صناعة الإسكندرية في المحرم سنة ١٢٤٥هـ/ يوليو ١٨٢٩م حتى سنة ١٢٤٧هـ/ ١٨٣١م، وأحضر المهندس الفرنسي Cerisy سريزي لإدارتها. وذكر بورنج Bowring أن حالة الأسطول المصري كانت جيدة، وأن الأسطول المصري لم يكن يختلف كثيراً عن أقوى الأساطيل الأوروبية. أنظر: كلوت بك: لحة، ج ٣، ص ٢٣٦؛ علي مبارك: الخطط، ج ٧، ص ٥٢؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج ٢، ص ٣٢٩، ٣٤٩، ٣٦٦، ٣٨٣، ٣٨٦؛ شكري: بناء دولة، ص ٤٨٤-٤٨٥؛ السروجي: تاريخ الإسكندرية، ص ٣٦٤-٣٧٥؛

Georges Durand-Viel, Les Campagnes Navales de Mohammed Aly et d'Ibrahim, Vol. II, 230-270; John Bowring, Report on Egypt and Candia, London, 1840, 53, 56-59; Georges Douin, Les Premieres Fregates de Mohamed Aly (1824-1827), Cairo, 1926.

منها مراكب الحرب الشهيرة وما بها من العساكر والميرة مشحونة بآلات الحرب والقتال، مملوءة بالجبخانة وكل ما يلزم بوقت النزال، فله أيده الله من الغلايين العظام ما يسر الناظر ويشرح الصدر ويريح الخاطر.

والفرقظون^١ الذي أنشأه بإسكندرية، فقد إحتوى على كل معنى رقيق من الصناعة البهية، كامل المعاني محكم المباني متين إلى الغاية، جميل السير في اللحج، فيأليه النهاية، به من آلات الحرب وعدد الطعن والضرب من البارود والمكاحل والبنب والمدفع الذي هو لصد العدو كافل، ثم إنه بعد تمامه وإحكامه وانتظامه أرسله إلى جهة الإفرنج الإنكليز فصفحوه من سائر جوانبه بالنحاس^٢، وخدموه بذلك إستجلاً لخطره نحوهم وطلباً للتودد إليه دون الناس، فأتموا (ص ١٧٣) صناعة ذلك الفرقظون الكبير وبقي كل قابدان إليه بالعظم والإجلال يشير، وله غيره من المراكب الجليلة المقدار التي بلغت غاية الإكثار والإشتهار ما يقارب الستين، وأما النقاير والمعلي منها فشيء كثير والأمر فيه باد شهير.

وحاصل الأمر أن المراكب الحربية الكبار مع الأوساط والصغار بالسوية نحو مائة مستعدة كاملة الأدوات والعدة، فهي زينة للنظار وبهجة للأبصار وصادة للأعداء من الكفار، قولاً معروفاً بغير إنكار، وقد ظهر للعيان وإشتهر عند جميع العامة والأعيان ما صنعه من الهمة الكبيرة والقوة والحماسة الشهيرة من إرساله تلك المراكب مشحونة بالأبطال ملائمة بالذخائر من سائر المأكولات وأنواع الغلال والأرز والأسمان والزيتون

^١ - الفرقظون: تحريف لكلمة فرقاطة، وهي كلمة إيطالية Fregata، وهو اسم طائر مائي سميت هذه السفينة بأسمه. طوبيا العنيسي: تفسير الألفاظ الدخيلة، ص ٦، ٥١.

^٢ - بنى محمد علي فرقاطة بالإسكندرية وهي التي أرسلها إلى لندن في ربيع أول سنة ١٢٢٥هـ/ أبريل ١٨١٠م وعادت إلى الإسكندرية في يناير ١٨١٢م وقد سلحت بثلاثين مدفعاً وأطلق عليها اسم افريقيا. أنظر: شكري: بناء دولة، ص ١٣٢-١٣٣؛

والزيت والأجبان والبن وجميع ما يلزم في طول الأزمان مع البرود والجبنخانا ما كثر جداً وإزداد معناه، وتوجيه ذلك كله إلى مدائن إقليم الجريد (ص ١٧٤) نفخو كنديا^١ وخانيا^٢ وغيرهما حرصاً عليهم من كيد كل كافر عنيد، وذلك في وقت هيجان الروم وخروجهم ونقضهم طاعة الخليفة وشقاق علوجهم^٣، فأرسل حضرة الصدر العلي صاحب العز والفخر الجلي أتباعه وأمراءه يصحبهم إشراقه^٤ حسن باشا طاهر عليه الرحمة والرضوان وأفيض على برزخه محاسن تلك المآثر ولم يزل حضرة الصدر العلي كل وقت ينجدهم بالرجال والذخائر ما لا يحصىه كتب ولا دفاتر ولو لم يكن منه

^١ - هي جزيرة كريت الحالية.

^٢ - أنظر: زينب راشد: كريت تحت الحكم المصري ١٨٣٠-١٨٤٠، القاهرة سنة ١٩٦٤.

^٣ - كتب هذا المخطوط سنة ١٢٣٨هـ/١٨٢١م، حيث يتضح أن الشيخ الرحي لم تكن لديه معلومات كافية عن الحرب ضد اليونانيين التي كانت قد بدأت في نفس العام تقريباً أنظر عن بناء محمد علي لإسطوله بشراء سفن حربية من أوروبا وبناء أخرى بترسانة الإسكندرية، وعن حربه ضد اليونان:

Georges Durand-Viel, Les Campagnes Navales de Mohammed Aly et d'Ibrahim.

^٤ - إشراق: حراك كلمة فارسية أدخلت إلى التركية ثم عربت بعد ذلك إلى "شراق" وتجمع "إشراقات". وتعني في الأصل التابع أو الخادم، ولكنها في التركية أصبحت تعني أيضاً الصبي أو المبتدئ، أي الغلام في الحرفة تحت إشراف معلمه. وقد دفع ذلك بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأن ذلك المصطلح عندما استخدم في النظام المملوكي كان يعني المملوك الشاب، أو الغلام المملوك. غير أن الدرداشي في الدرة المصانة قد استخدم هذا المصطلح في العديد من المواقع كمرادف لمصطلح "تابع"، حيث يشير إلى أن أحد الممالك رقي إلى رتبة الصنحية من سيد آخر غير الذي إشتراه، حيث يدين المملوك الذي رقي إلى مثل تلك الوظيفة أو غيرها من المناصب بالولاء للسيد الذي رفعه إلى المنصب المذكور. أنظر: الدرداشي: الدرة المصانة، ص ٤٦، ٢٢٨؛

Sir James Redhouse, Redhouse Yeni Turkce-Ingilizce Sozluk, Istanbul: Redhouse Yayinevi, 1968, 256 ;

أحمد السعيد سليمان: تأصيل، ص ١٦-١٧؛

Ayalon, "Studies in al-Jabarti I," 321-322.

وفقه الله هذا الصنيع لتملك الكفار مدائن الجريد وحل بالمؤمنين هناك الهول الشديد، وكذلك فعل أيضاً بناحية جزيرة قبرس المعلومة، فأرسل هناك عساكره كما صنع بالجريد فهي من الكفار مأمونة فلله در ذلك الصدر كامل المجد عالي القدر، فقد أصرف على هذه المآثر ما لا يحصى من النقود الخارجة عن الحد لقمع كل عدو وكافر، فأطال الله بقاءه عريق الفخار ولا يرح محوطاً بالعناية حامي الذمار. وقد خرجت عدة المراكب الآن البحرية الحربية والنيلاوية عن الحسبان، فإنها جاوزت الألوف (ص ١٧٥) وهذا كله مشاهد ومعروف.

وأما ما أنشأه من الترع الكبار والصغار^١ لإصلاح القرى ومدائن الأمصار فهو شيء لا يعد وصنع محاسن آثاره لا تحد، ففي كل جهة وقطر تفصح فيه آثاره بالحمد والشكر، بحيث أن العاقل اللبيب والذكيّ الفطن الأريب إذا أراد تقريب ما صرف على ذلك من الأموال داخله الدهش وحل بفكره إضطراب وظن أنه في خيال وداخله العجب المفرط، فيرجع عن الحساب ويأس ويقنط.

وأما ما أحدثه من الديار بمصر وبغيرها من مداينها الأمصار فشيء لا يقدر عليه سواه ولا يخطر بسر عظيم فيما ظنه ونواه، لأنها عمائر بالمحاسن مصورة ومباني تقرب الأمانى بإتقان الهندسة محررة، تعجز عن مثلها أرباب الهمم ولا تحوم حول حمى مقاربتها عظما الأمم، والعيان أعظم شاهد يجعل المعاند مقرأ بالعجز فلا يوجد له جاحد، وقد إتفق للسلطان الظاهر بيبرس البندقداري أنه بنى القناطر المعروفة (ص ١٧٦) عند نهر أبي المنجا^٢ فله بها ذكر جميل إلى وقتنا هذا، مع إنك إذا تتبعته ما أنشأه حضرة الصدر العلي من القناطر المفردة المتعددة، فإنك تراه شيئاً كثيراً وأمرأ

^١ - علي باشا مبارك: الخطط، ج ١٩؛ علي شافعي: أعمال المنافع، ص ٢٣-٣٤.

^٢ - قناطر أبي المنجا: تقع إلى الشمال من القاهرة، أنشأها السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م، ثم جددتها السلطان قايتباي في نهاية القرن ٩هـ/ ١٥٠٥م. المقرئزي: الخطط، ج ٢،

ص ١٥١؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣، ص ٣٣٠؛ علي مبارك: الخطط، ج ١٩، ص ٤٦.

كبيراً ولا سيما ما صنعه من القناطر المتصل ماؤها بما بحر يوسف في قصر الفيوم^١ فإنها قناطر تشرح الصدر وتجلي الغموم، محكمة البناء بادية المتانة والإعتناء، وهذا إجمال سببه العجز عن التفصيل، وكيف يفصل ما لا يحد ولا يدرك له مثيل.

وأما ما أنشأه من الأقاليم، فمن ذلك إحياءه لإقليم البحيرة بعد إندراسه وخراب معظم بلاده سوى السواحل وإنطماسه، فلأن يقال أنشأه وأحياه أولى من أن يعبر بأنه جددّه وأعاد مفناه، فقد كانت بلاد الحاجر بهذا الإقليم نقضت آثارها وهى الشهيرة سابقاً بالتعظيم، فإنه إقليم عديم^٢ النظير حوى كل مرج ومنزه نضير، جددت به الترع والمساقى وكثرت فيه البساتين والسواقي، وصار جلاء للأذهان وراحة من كلال الأبدان.

وأما إحياءه لما لم يكن له سابق ذكر (ص ١٧٧) ولا خطر ببال ولا مرّ بفكر فذلك إنشاؤه لإقليم رأس الوادي^٣ حتى صار منزهاً للرائح والغادي، فجر به السواقي العذبة فكمّل بذلك حنّ تلك الأرض والتربة، قسمه أقساماً وأتقنه إنتظاماً وجعل كل جماعة

١ - هذه القناطر كانت في الأصل من عمل السلطان الظاهر بيبرس البندقداري ثم جددّها محمد علي سنة ١٢٤١هـ / ١٨٢٥م وبنى قنطرة أخرى إلى الشرق منها سنة ١٢٦٠هـ / ١٨٤٤م. علي مبارك: الخطط، ج ١٩، ص ١٣٥.

٢ - في نسخة [دار الكتب] "عظيم".

٣ - إقليم رأس الوادي: هو ببليس من إقليم الشرقية، عاينه محمد علي في أواخر سنة ١٢٣١هـ / ١٨١٦م لعمل مزارع لإشجار التوت لتربية دودة القز، وأشجار الزيتون لعمل الصابون من زيوتّه، وأمر بحفر نحو الألف ساقية، وتم عمل مساكن وإستصلاح هذه الأراضي، وإكتملت السواقي في ربيع ثان سنة ١٢٣٢هـ / فبراير ١٨١٧م، ونُقل إليه الفلاحين المعدمين بإقليم الشرقية للإستيطان به وزراعته وتعلم تربية دودة القز وصناعة الحرير، وأحضر متخصصين في ذلك من الشام لتعليمهم وإكتمل إستصلاح أراضيها وزرع أشجار التوت لإستخراج الحرير على طريقة أهل الشام وجبل الدروز، وكان كل ذلك تحت إشراف محمد علي المباشر. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٥٦، ٢٧٤، ٢٨١، ٣٠٨؛ شكري: بناء دولة، ص ٤١٥؛ ريلفين: الاقتصاد، ص ٢٤٢.

من المنازل والدور مختصين بأرض للزراعة بها السواقي^١ تدور، وغرس به أنواع الأشجار المثمرة بمحاسن أشكال الثمار^٢، فاشتهر وظهر وعلى غيره من الأقاليم إفتخار، فهو الزاهي بأصناف الزهر الباهي منظره حيث إنه للفكر بهر^٣، تنوعت فيه اللطائف وإنشرح به صدر كل سائر وطائف عمرت أوطانه وغمرت بالخيرات قطانه، كثر به الخصب وحسن المعاش وسكن بسكانه إضطراب الجاش كله منازحه ومروج ومن دخله لا يحدث نفسه بالخروج رقصت أغصانه وتلاعبت بالصبا أفنانه، أزهرت بسائنه وأينعت بالثمر العجيب أعنابه وتينه سجت حمائمه وتفتحت عن الزهر كمائمه، كثر سكان جهاته وإستأنست بلطائف منتزهاته وقد بنيت فيه المدينة (ص ١٧٨) الأمانة المستكملة لكل حسن وزينه، عمرت أسواقها بالمتاجر من كل شيء نفيس فاخر، وانتظمت دورها وعلت قصورها وإنضمت مساكنها مع الإتساع، وجمع بها نفائس الصنائع وجهابذة الصنائع^٤.

ومن لطائفها العديمة النظر إحدائه أيده الله بها صناعة الحرير، أسكن في محلات بها جليلة صناع الحرير وأرباب الخيرة بهذه الفضيلة، فكثر الحرير بأرض مصر وقطرها^٥، كما إمتلأت بلاده من أشجار قطنها، وهذا بأمره المطاع لكافة الناس في

١ - كانت تصنع هذه السواقي الخشبية بالقاهرة ببيت الجبجي بالتبانة (هو بيت الرزاز، أثر رقم ٢٣٥)، ثم تنقل على ظهور الجمال إلى هناك. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٥٦، ٢٧٤.

٢ - جلب هذه النباتات من مناطق مختلفة من العالم، وجلب معها أناس من أهلها لتعليم الفلاحين كيفية زراعتها. شكري: بناء دولة، ص ٤٢٧-٤٢٩.

٣ - في نسخة [دار الكتب] "بهى".

٤ - هي مدينة الزقازيق الحالية، ولازال بها جامع له بجوار قناطر التسعة التي بناها لتنظيم الري بهذا الإقليم. علي مبارك: الخطط، ج ١١، ص ٩٣-٩٤؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ق ٢، ج ١، ص ٨٩-٩٢.

٥ - صناعة الحرير: حاول محمد علي أن ينشيء صناعة الحرير بمصر بإعطاء توجيهات بزراعة أشجار التوت في كل الأقاليم، فأمر محمد علي سنة ١٢٣١هـ/ ١٨١٥-١٨١٦م بإنشاء بستان

القرى والبلاد والبقاع أن يغرسوا شجر القطن الهندي^١، فبادر الكل وهو للطاعة مبادر ومبديء وجلبت من هذا الأقليم إلى مصر أنواع الفواكه والثمار، وهذا كله من تمام

برأس الوادي بيليس وغرس أشجار التوت لتربية دود القز، وذكر بورنج Bowring أنه زرع عشرة آلاف فدان من أشجار التوت، كما أمر بإحضار شوام وأتراك لتعليم الفلاحين المصريين أسرار صناعة حرير دودة القز، أصدر أيضاً أمراً في ٧ شعبان ١٢٣٣هـ/ ١٢ يونيو ١٨١٨م بتأسيس وتنظيم مصلحة الأنوال والغزل في سائر الأقاليم، وأصدر أمراً في ١٥ ربيع أول سنة ١٢٣٦هـ/ ٢١ ديسمبر ١٨٢٠م بتأسيس أماكن لتربية دودة القز بالقطر المصري، وإحضار ما يلزم لصناعة الحرير، وأمر باستدعاء الفلاحين من بلاد الشرقية الذين ليس لهم أطياف ولا عمل ليستوطنوا هذه الجهة وأن تبنى لهم كفوراً لسكنهم لزراعة هذه المنطقة، ثم أصدر أمر في ٨ جماد ثان ١٢٣٦هـ/ ١٣ مارس ١٨٢١م بمنع الأهالي عموماً من تشغيل أنوال الغزل والدبارة. وقد أنتجت هذه التجربة ٧ مليون أقة سنة ١٢٤٧هـ/ ١٨٣١-١٨٣٢م، غير أنها لم تكن حتى كافية لتغطية الاحتياجات المحلية، كما أن تكاليف إنتاجها في مصر لم تستطع منافسة نفس المنتج ذو التكلفة المنخفضة والمصنوع في سوريا. وقد إنتهى إحتكاره لصناعة الحرير في مصر في رمضان سنة ١٢٥١هـ/ ديسمبر ١٨٣٥م، وأيضاً في سوريا بعد ذلك بوقت قصير، وبحلول سنة ١٢٥٥هـ/ ١٨٤٠م كان قد تخلص عن تجربة إنتاج الحرير. وقد إنتقد Bowring سياسة محمد علي الصناعية ذات التكاليف الباهظة، وأنه كان من الأكثر نفعاً توجيه تلك العمالة إلى الزراعة، وقد لاحظ Bowring أيضاً أن التوجه الرأسمالي في سياسة محمد علي الزراعية، وإن كان قد زاد من محصول الأرض الزراعية إلا أن الفلاح لم يستفد من ذلك على الإطلاق. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج٧، ص ٣٦٧، ٣٦٨، ٤٠٠-٤٠١، ٤٦٥؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص ٢٦٤، ٢٩٠؛ عمر طوسون: الصنائع والمداين، ص ١٠؛ شكري: بناء دولة، ص ٤١٦؛

Rivlin, The Agricultural Policy of Muhammad 'Ali in Egypt, 165-166; Bowring, Report on Egypt and Candia, 21, 30, 145-146.

١ - القطن الهندي: كانت المنتجات المصنوعة من القطن الهندي معروفة في مصر منذ أمد بعيد، حيث كانت تصلها عبر طرق التجارة العديدة المارة بالبحر الأحمر، وكان شجر القطن طويل التيلة في مصر من أشجار الزينة، وإكتشف في حديقة منزل محو بيك بحارة عابدين وعممت زراعته، وأنشأ في جميع أنحاء مصر مصانع لنسج القطن تحت إشراف حومل وأخذ صناعات المصانع الأهلية

السداد وإستقامة العمار. وبالجمله فهذا الأقليم يحتاج تفصيل شرحه لكتاب يخصه يقص فيه خبره ويفصله وينصه، وهذه النبذة قطرة من وابل وبلالة من منهمر سيل هامل، فهو من المآثر الكبيرة المفصح عن الهمم الشهيرة، فأطال (ص ١٧٩) الله بقاء ذلك الصدر وأيده بالتأييد سامي القدر، وقد كان هذا الوادي في سابق الزمن قلّ أن يمر به أحد وينجو من الخن لإجتماع الأعراب هناك من كل فاجر وفتاك، وكثيراً ما إنقطعت المارة من طريقه لإضرار السائر منه بعوائق تعويقه، وطالما قتلت فيه الرجال وضاق فيه على السفار المجال، وكم نهبت هناك القوافل وهزمت بالحرب فيه كبراء المحافل، وكان الحاكم بإقليم الشرقية لا يقدر على المرور به ولو كثرت رجاله وكانت شوكته قوية، حتى أن محمد بيك الألفي^١ نذر على نفسه المرور به ثم أراد أنه بالنذر

للعمل بالمصانع الجديدة، وكان نتيجة ذلك عدم استيراد المنسوجات من أوروبا والهند، بل وأخذ في تصدير المنسوجات، وأصدر أمراً في ٤ شوال سنة ١٢٢٣هـ/ ٧ أغسطس ١٨١٨م لكاشف الغربية للإشراف على أعمال غزل الأقمشة وتنظيم ورش لها. أنظر: الأوامر والمكاتبات الصادرة من محمد علي باشا، مج ١، ص ١٩؛ الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٧، ص ٣٦٩؛ علي مبارك: الخطط، ج ١٠، ص ٥٤، ج ١١، ص ٢٣، ٩٥، ج ١٢، ص ١٤٧، ج ١٤، ص ١١٥، ١٢١، ج ١٥، ص ٩١، ٩٢، ج ١٦، ص ٥٥؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج ٢، ص ٢٥٨، ٢٨٢، ٢٨٤؛ شكري: بناء دولة، ص ٣٨.

١ - محمد بيك الألفي: إشتهر أحمد جاويش المعروف بالجنون سنة ١١٨٩هـ/ ١٧٧٥-١٧٧٦م، ثم باعه لسليم أغا الغزاوي المعروف بتمرلنك الذي أهده لمрад بيك، فأعطاه في المقابل ألف أردب من الغلال لذلك سمي بالألفي، أحبه مراد بيك وجعله حوخذاره ثم أعتقه وجعله كاشفاً بإقليم الشرقية، وأنشأ محمد بيك داراً وحماماً له في خط الشيخ غلام في تلك الفترة، ثم نفاه مراد بيك إلى الوجه البحري، فعسف بأهالي قوة وبرنبال ورشيد وما حاورها وأخذ منهم الأموال، ثم قلده الصنحية في سنة ١١٩٢هـ/ ١٧٧٨م، وكان يخافه الناس لفجره هو ومماليكه، وهدم داره القديمة ووسعها، واشترى الممالك وقلدهم الإمارة والكشوفية، ولتزم بإقطاع فرشوط وما حاورها بالوجه القبلي، وتقلد كشوفية الشرقية وأخضع عربانها، ثم طرد مع باقي الممالك إلى الوجه القبلي عند حضور حسن باشا الجزائر إلى مصر سنة ١٢٠هـ/ ١٧٨٥م ثم رجعوا ثانية سنة ١٢٠٦هـ/

١٧٩٢م، واهتم في تلك المدة بكتب الفلك والعلوم وإنعزل بيته، وعمر قصرًا بمصر القديمة أمام مقياس النيل، وقصرًا آخر شمال باب النصر بالقرب من قبة الدمرداش، كما بنى قصرًا خارج بلبس، وصنع قصرًا من الخشب ليسكنه عند تنقله بين البلاد، وأخضع عربان الشرق كلهم له، وبدأ في إنشاء قصره بالأزبكية سنة ١٢١٢هـ/ ١٧٩٧م وسكن بها في آخر شعبان ١٢١٢هـ/يناير ١٧٩٨م لمدة ١٦ يومًا ثم سافر إلى الشرقية، وجاءت الحملة الفرنسية في ١٨ محرم سنة ١٢١٣هـ/ ١ يوليو ١٧٩٨م واشترك في مقاومتها وسكن نابليون داره المذكورة، واستمر في مقاومتهم ولم يستطع الفرنسيون إصطياده حتى جلاء الحملة، ولم يتفق مع مراد بيك في صلحه مع الفرنسيين في البداية، وخرج مع الجيش العثماني إلى الشام ثم رجع عند خروج الحملة معهم بالتعاون مع الإنجليز، وولاه الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا إمارة الصعيد في سنة ١٢١٦هـ/ ١٨٠١م ثم أخرجوا له جيشًا بقيادة طاهر باشا لمحاربته، ثم ذهب إلى البحيرة واتصل بالإنجليز بالإسكندرية لمساعدته لدى الدولة العثمانية، ولم يستطع خسرو باشا مقاومته وكان ذلك سببًا لخروج العساكر على خسرو وهروبه من القاهرة، ثم سافر إلى إنجلترا عند خروج الجيش الإنجليزي من مصر في ١٥ شوال ١٢١٧هـ/ ٨ فبراير ١٨٠٣م بناء على طلب أمراء المماليك، وطلبه الذي استحسنه الإنجليز لتمتع ألفي بإحترام المماليك والعربان مما سيجلب له التمثيل القوي في لندن، ونجح في إقناع الملك جورج الثالث في التدخل لدى الباب العالي لإرجاع سلطة الأمراء المماليك كما كانت قبل دخول الفرنسيين إلى مصر، وعاد في ١ ذي القعدة ١٢١٨هـ/ ١٢ فبراير ١٨٠٤م إلى مصر عن طريق أدكو على متن السفينة الحربية الإنجليزية أراجو بقيادة الكابتن هالويل، وقد حاول عثمان بيك البرديسي وإبراهيم بيك بالتحالف مع محمد علي التخلص منه، لأنه قبل سفره أخذ صكًا مختومًا من جميع الأمراء أنه إذا حضر سالمًا يكون هو المتقدم على جميع الأمراء بمصر، فاختفى عند العربان بالشرقية حتى جمع رجاله وبدأ في مقاومة العثمانيين وإنعزل عن باقي المماليك رغم تدخل عثمان بيك حسن في الصلح بينهم، ولكن الخلافات بين المماليك استمرت، وأرسل له كل من خورشيد أحمد باشا ومحمد علي لمفاوضته على الصلح على أن تكون له ولاية جرجا ويكون لعثمان بيك حسن قنا، ليكونا معهما ضد إبراهيم بيك وعثمان بيك البرديسي، ثم أرسل خورشيد ومحمد علي عدة تجريدات لمحاربته ولكنهما لم ينجحا في هزيمته مرة واحدة، وكان مركزه في هذا الوقت في الفيوم مع عثمان بيك حسن، ثم وحده في منطقة البحيرة وخاصة حول دمنهور التي حاصرها مدة طويلة، وكان يسعى لدى الصدر الأعظم محمد باشا السلحدار مملوك

يفي فاجتمع معه من الممالك والكشاف والمغاربة^١ وطوائف الحاكم والكثير من كبار المشايخ من الأرياف حتى بلغت الممالك مع الكشاف والأغوات الصقلية^٢ ما يقارب

السلطان مصطفى -الذي كان يريد إستقرار ولاية مصر- والإنجليز الذين يريدون الإستيلاء على الإسكندرية خوفاً من عودة الفرنسيين لإعادة سلطة الممالك وعزل محمد علي، ونجحت مساعيه بالفعل ووصل أسطول عثماني بقيادة صالح باشا القبودان إلى إسكندرية في ١٠ ربيع ثمان ١٢٢١هـ/ ٢٧ يونيو ١٨٠٦م يحمل رسالة الى محمد بك الألفي تتضمن عفو الدولة العثمانية عن الأمراء الممالك وعزل محمد علي عن مصر وتولية موسى باشا على أن يدفع أمراء الممالك مبلغ من المال، ولكن حقد أمراء الممالك وتدخل محمد علي بينهم أفسد المشروع ورجع الأسطول العثماني وإستمر محمد علي في الحكم، فراسل الإنجليز لمساعدته بجيش للتغلب على محمد علي، ولكنه ما لبس أن توفي عند الجيزة في ١٩ ذي القعدة ١٢٢١هـ/ ٢٨ يناير ١٨٠٧م ودفن بمقابر الشهداء بالبهنسا قبل مجيء الحملة الإنجليزية بأربعين يوماً. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٢، ص ٨٣، ج ٣، ص ٢٦٥، ٢٧٠، ٢٧٩، ٢٨٠-٢٨٢، ٢٨٦، ج ٤، ص ١٠-١٧، ٢٦-٤٢؛ نقولا ترك: مذكرات، ص ١٥٨، ١٦٩، ١٧٣، ١٧٥، ١٧٧-١٨٠، ١٩٨، ٢٠١، ٢٠٣-٢٠٤، ٢٠٩-٢١٠؛ كلوت بك: لمحة، ج ٢، ص ٦٣، ٦٤؛

Georges Douin, "L'Ambassade d'Elfi Bey à Londres (Octobre-Décembre 1803)," Bulletin de l'Institut d' Egypte, VII, (1925), 95-120.

وأنظر أيضاً: أمين سامي: تقويم النيل، ج ٢، ص ٢٠١-٢٠٣؛ شكري: الحملة الفرنسية، ص ٢٧٣-٢٧٤، ٢٧٨؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج ١، ص ١٣، ٤٧، ١٢٩-١٣٠، ١٣١-١٣٢، ١٤١-١٤٢، ١٤٤-١٥٠، ١٦٢-١٦٣، ١٦٦، ١٨٠، ١٩٢، ٢٢٤-٢٢٩، ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٧٤-٢٨٣، ٢٩٢-٢٩٦، ٣١٣، ٣٢٥-٣٢٦، ٣٣٠، ٣٣٢-٣٣٤، ج ٢، ص ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٩١-٣٩٦، ٣٩٦-٤٩٦، ٥٨٢، ٥٨٣، ٥٩١، ٦٠٥، ٦٣١.

^١ - المغاربة: كانت بمصر طائفة كبيرة من المغاربة، ولمدة طويلة كان الممالك يستخدمون جماعات منهم لتعزيز قواتهم العسكرية. وقد أشار الجبرتي في مواضع عديدة من تاريخه إلى هؤلاء الجنود المرتزقة.

الآلفين في تلك البرية، والطوائف والشجعان من المغاربة وفرسان تلك البلدان ما يفوق عدده ويزيد على ثلاثة آلاف إنسان، ومعه الطبجية (ص ١٨٠) بالمدافع والجبخانه وكل كمي مدافع حتى كملت أتباعه نحو ستة آلاف، ثم طلب المرور فمنعه من هناك الأعراب الأجلاف، وكان قد بلغهم أنه يريد عدد سواقيهم وأخذ الأموال بصورة لا ترضيهم عن مساقيتهم، فأرسل إليهم الوسائط من أجناده العقلاء يحلفون لهم إنه لا يريد غللاً^١ ولا مالا ولا ولا، بل غرضه المرور للتفرج لا غير، ولا يكون بينه وبينهم غم ولا ضير، [وليُقَالَ أن البيك مرّ من هناك بأجنادة]^٢ فيكون له بذلك الفخر، وأنه عظيم في إستعداده، وصارت الوسائط تارة تخدعهم وتارة بالخوف منه تردعهم، ويهولون لهم كثرة عساكره ويكبرون في صدورهم صولة مناكره، ويجعلون في أغصان الكلام إنه يريد إعطاء كبارهم الكساوى الجليلة ويعمهم بأصناف برّ الجميلة، ومازلوا بهم حتى أجابوا بشرط السرعة في السير، فقالوا لهم نمرّ مرور الطير، فتنحت الأعراب من الجهتين ووقفوا بمقدار نظر العين وبقيت منهم بعض كبارهم ليسيرون معه بجوارهم، ثم أرسلت (ص ١٨١) الوسائط بهذا الخير، فركب بالعرضي وبالوادي عبر وسار والمدافع مستحضرة على العجل، ومشيت الطبجية بها تجاه العساكر على عجل، وإستحضرت جميع الممالك مستعدة بالسلاح وكذلك الكشاف وسائر الأجناد مستعدين للكفاح، وذلك خوفاً من غدر الأعراب، إذ ربما وقع منهم خلاف الصواب، ومازالوا هكذا سائرين حتى وفى بنذره بالجلس والتخمين، ثم رجع إلى

^٢ - الأغوات الصقلية: يبدو أنهم قواد وحدة من القوات الخاصة من بين العديد من الطوائف العسكرية في تلك الفترة المضطربة، إذ يشير الجيرتي إليهم كأحدى الطوائف العسكرية ذات القوايق وتظهر في مواكب الباشا. الجيرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ١٧٧.

^١ - في نسخة [دار الكتب] "غللاً".

^٢ - ما بين الحاصرتين مكتوب في نسخة [دار الكتب] في الهامش الأيمن للصفحة ومشار إليه في النص برقم "٣".

مصر وقد أرتفع عمن معه ما كان يظنه من الإصر، أمر أتباعه أن يشيعوا خبر مرورة من الوادي وإنه كان عنوة وقهراً على رغم سكان تلك البوادي، وإنه أخذ الأموال الكثيرة وتقادم الإبل والخيول النفيسة الشهيرة، فكان يقال بمصر أن البيك الألفي حكم على عربان الوادي وعبر ومكث الأيام بذلك النادي، وما هو إلا ما ذكرته ورقمته، كما صرح به ثقة النقلة منهم حين سأله^١.

فأنظر أيها المتأمل في هذا الكتاب إلى هذا الفخر من ذلك الرجل بالمين والإرتياب، وكيف لا يخجل من الكذب مع أولئك (ص ١٨٢) الآلاف وهم مشاهدون لما كان من الأعراب الأجلاف، أيفتخر عاقل بذلك، أقول لا ولا بإقل ما يعجبه ما هنالك، وأين هذا من مملوك حضرة الصدر العلي ذي العز والفخر الجلي وهو إنه من بعض

١ - لم يذكر الجبرتي مثل هذه الحادثة، وعن محمد بيك الألفي بالذات، الذي حالفه عربان أولاد علي والهنداء وعربان الشرق في حروبه مع الباشاوات العثمانيين حتى محمد علي، وقال عنه الجبرتي "ومن عجيب أمره ومناقبه التي انفرد بها عن غيره إمتثال جميع قبائل العربان الكائنين بالقطر المصري لأمره، وتسخيرهم وطاعتهم له لا يخالفونه في شيء، وكان له معهم سياسة غريبة ومعرفة بأحوالهم وطباعهم، فكأنما هو مربى فيهم أو ابن خليفتهم أو صاحب رسالتهم يقومون ويقعدون لأمره مع إنه يصادرهم في أموالهم وجواهرهم ومواشيهم ويحبسهم ويطلقهم ويقتل منهم، ومع ذلك لا ينفرون منه، وقد تزوج كثيراً من بناتهم ٠٠ فلما بلغ العرب موته اجتمعت بنات العرب وصرن يندبنه ٠٠ والعجب منه رحمه الله إنه لما كان في دولتهم السابقة وينزل في كل سنة إلى شرقية بلبيس ويتحكم في عربانها ويسومهم سوء العذاب بالقبض عليهم ووضعهم في الزناجير ويتعاون على البعض منهم بالبعض الآخر يأخذ منهم الأموال والخيول والأباعر والأغنام ويفرض عليهم الفرض الزائدة ويمنعهم من التسلط على فلاحي البلاد، ثم لما رجع من بلاد الإنجليز وتعصب عليه البرديسي والعسكر وأحاطوا به من كل جانب فاختفى منهم وهرب إلى الوادي عند عشية البدوي فأواه وأخفاه وكنم أمره ٠٠ وهذا من العجائب، حتى كان كثير من الناس يقولون إنه يسحرهم أو معه سر يسخرهم به، فلما مات لم يجتمعوا على أحد بعده وذهبوا إلى أماكنهم، وبعضهم طلب من الباشا الأمان". الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٣٧، ٣٩.

مأموراته، وما إتفق له في وقت من أوقاته أن جزم على مملوكه حسن بيك^١ بالسير حتى يخرج عن المزارع والأبيك ويمارز إقليم البحيرة يسير جهة الغرب إلى مدينة بسيوى^٢ الشهيرة فإن أجابوا إلى السلم فإجرح لها وإلا فخذها عنوة، وها قد أنفذتك لها فبادر مسرعاً، وسار بجيشه متتابعاً وكانت أجناده المماليك وغيرهم نحو الخمسمائة رجل جميعهم وإنضم إليه من أعراب^٣ من البحيرة ما يتم الألف أو زيادة يسيرة، حتى

^١ - حسن بيك الشماشرجي: أحد أتباع محمد علي باشا، وزوج ابنة سليم كاشف الأسيرطي، زوجه بها محمد علي في نهاية شعبان ١٢٢٠هـ/مايو ١٨٠٥م، جمع له محمد علي جيشاً من عرب الحويطات والعائد والأرنود، أمضى معظم فترته في تسليم (تهدة) أعراب غرب الدلتا وخاصة أولاد علي، عين في رجب ١٢٢٤هـ/أغسطس ١٨٠٩م كاشفاً للمنوفية، ثم حكم إقليم الفيوم سنة ١٢٣١-١٢٣٢هـ/١٨١٥-١٨١٦م، وصرف عنه حيث أرسله الباشا لمحاربة قبائل أولاد علي في دارنه في صفر ١٢٣٢هـ/ديسمبر-يناير ١٨١٦م، فحاربهم عند سيوة وهزمه الخارجين عن الطاعة وانسحب إلى مصر وأخذ جيشاً آخر بالإضافة إلى الطائعين من أولاد علي وذهب إلى سيوة مرة أخرى في جماد أول سنة ١٢٣٥هـ/فبراير-مارس ١٨٢٠م وهزم باقي أولاد علي بمساعدة العريان واستولى على سيوة، كما كان حسن بيك الشماشرجي حاكماً لولاية البحيرة. أُنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٣٤٦؛ ج٤، ص٧-٨، ٨٢، ١٠٠، ١٥٠، ٢٦٩، ٢٧٢، ٢٧٣-٢٧٤، ٣٠٧، ٣٠٨.

^٢ - سيوة: تقع غربي الفيوم، اسمها القديم سَنْتِرِيَّة، وقال عنها ياقوت أنها آخر أعمال مصر وتعد من نواحي واح الثالثة، وهى قصبتها، وقال عنها ابن الجيعان أنها غربي الإسكندرية، وذكر ابن دقماق أنها من أيام الفراعنة وأنها خربت بمرور الزمن ثم بُني مكانها حصناً. كانت تسمى عند الفراعنة واحة أمون لوجود معبد له بها، ثم عرفت أيام البطالسة بواحة جوبيتر (أي المشتري)، ثم عرفت باسم سيوة في القرن ١١هـ/١٧م. محمد رمزي: القاموس، ق٢، ج٤، ص٢٥٨.

^٣ - في نسخة [دار الكتب] "الأعراب".

^٤ - عرب البحيرة (العريان): ظل عرب البحيرة مصدرًا مستمر لإثارة القلاقل ضد هيمنة محمد علي على كل الأقاليم المصرية، وبينما سألته بعض قبائل الأعراب مثل هنادي وأولاد جهينة، ظل

قرب من أرض سيوى ونزل هناك للراحة والإيواء، وقد بلغ أهل مدينة سيوى الخير فكل منهم تأجج حمماً وإستعر وإستحضرُوا كما أخبرني بذلك المخبر بإسكندرية وإجتمعوا بنحو سبعين ألف مكحلة بارود رجالاً سوية، فراسلهم البيك فما أجابوا بل إستعدوا له وما ثابوا، (ص ١٨٣) فقام على ظهر جواده كالليث الطالب للفريسة في طرده، وأمر أجناده وحمل فحملوا معه حملة منكراً، فولوا من تجاههم كحمر مستنفرة فرّت من قسورة، مع أن الطريق كله نخيل لا يحصى ومتداخل مع بعضه فما أجدى لتلك الآلاف حرصاً، وما زال البيك حتى وصل إلى البلد وأمنهم فأجابوا ممثلين وما أحد شرد^١، وهذا لعمرى هو الفخار بعينه لا ما فعله الألفي بكثرة مينه.

هذا فعل بعض ممالك حضرة الصدر العلي ذي العزّ والفخر الجلي فإن أولئك الرجال أهل سيوى مع كثرتهم وقوة عزمهم وشهرة شجاعتهم قد وقفوا بخلال النخيل المشبكة وهى لهم حصن وظلالها عليهم محتبة مستعدون بأرضهم مزدهمون من الكثرة في طولهم وعرضهم، والطريق هناك صعبة السلوك على الداخل لكثرة النخيل التي لا تحصى بتلك المداخل والمسافة بينها وبين مصر بعيدة السير بخلاف الوادي الذي دخله الألفي مع الخوف من الضير لا يحجزه (ص ١٨٤) نخيل عن العبور ولا يعيقه صعوبة الأرض في المرور مع كونه أقرب لمصر من سيوى بكثير، بحيث لو إحتاج لنجدة فإنها تدركه في الزمن اليسير، ومع ذلك فما دخله إلا بالخداع والحيلة، ولم يصادف فيه من النفع ما يوازي فتيله، بل هو الذي أعطى كبار الأعراب الملابس والأموال لإجل أن يقال إنه حكم في الوادي بالزور والمحال. وهذا حسن بيك مملوك حضرة الصدر العلي ما صنع سوى الجد بعزمه الجلي، وجاء من تلك الجهات بما لا يحصى من الأبل والشاء، فالله يؤيد بنصره ويحف بتأييده من يشاء.

أولاد علي بصفة خاصة مصدراً للمتاعب، وقد أرسل إليهم العديد من الحملات التي قاد بعضها حسن بيك الشماشرجي.

^١ - أنظر ما ذكره الجبرتي عن هذه الحادثة. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٧٣-٢٧٤.

وبالجملة فهذا الإقليم المعروف برأس الوادي صار من ألطف الأقاليم وأخصبها
وأكثرها أمناً بعد أن كان مملوئاً بفجار البوادي عمنه المحاسن وجرى ماؤه المعين غير
آسن، ولقد صدق القائل شعراً

وإذا نظرت إلى البقاع وجدتها تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

المقالة السابعة

في الشأن الأكبر والتدبير الباهي الأبهري في ذكر
(ص ١٨٥) إختراع حضرة أفندينا للعساكر الجهادية
وما في ذلك من جليل الخزم وعظيم المزية

إعلم أيها الناظر في هذا المرقوم العارف بقضايا المنطوق والمفهوم أن الملة المحمدية أشرف الملل قد شرفها الله وصانها عن مواطن الزلل لا يضاهي شعارها ولا يضطرب منارها ولا يطفأ نورها ولا تغرب شمسها ولا تأفل بدورها، ومن المعلوم أن لها قوانين وشروطاً ولكل شرط وقانون حداً مضبوطاً، ولها أركان معلومة مقررة مفهومة، ولكل ذلك أساس كبير واصل محقق بغير نكير لا بد لها من وجوده مستديماً إما بالفعل وإما بالقوة تنويها برفعة قدرها وتكريماً واجب أن يدوم إحكامه ومتحتم شرعاً أن تتبين للعيان أحكامه وحكامه، وهو الجهاد في الكفار وفي معشر الطغاة من البغاة والفجار ونحو فرق الخوارج الضالين وجميع المفسدين في الأرض من الفاسقين، لا بد من إقامة هذا الأمر وإلا تسلط زيد على عمرو، ولا يمكن (ص ١٨٦) إهماله في سائر الأوقات تارة بالفعل وتارة بوجود الاستعدادات، قال تعالى "وجاهدوا في الله حق جهاده"^١، أمر بهذا محمداً وكافه القادر من عباده، وقال تعالى "وأعدوا لهم ما

^١ - سورة الحج، آية رقم ٧٨.

إستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم"^١، وقال جل وعزّ "إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص"^٢، وقال تبارك وتعالى "إن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين"^٣، وقال جل اسمه "إن الله يشتري من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيُقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فإستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم"^٤ [صدق الله العظيم]^٥.

فأنظر أيها الموفق لمفهوم هذه الآية الشريفة العظيمة وما تضمنته من الأمر العظيم والخير النفيس الجسيم، فإنه سبحانه قد إشتري نفس المجاهد في سبيله المخلص في أمور دينه بقاله (ص ١٨٧) وقيله بثمن عظيم وهو جنة النعيم، فجعل الجنة ملكاً للمجاهد يتمتع بنعيمها الدائم ولذاته الأقدس على الدوام يشاهد، متمكناً للحوار والولدان متصرفاً في كل ذلك أينما كان في مقابلة بذل نفسه وإذهابها في سبيله قدوماً لرمسه، فلا يزال المؤمن يقاتل ويُقتل حتى يُقتل فيربح بالنصيب الأوفر والجزاء الأجل، وإلتزم سبحانه وتعالى بذلك وأكد على ذاته الكريمة الوفاء بما هنالك، فقال "وعداً" أي ذلك الثمن الذي هو "الجنة" جعله "وعداً عليه حقاً"، أي لا يمكن تخلفه بوجه أصلاً فهم متحققون بتملك الجنة، فياها من المالك أعظم عطية وأسنى منه، وذلك الوعد الحق الذي لا شبهة فيه مذكور على لسان رسوله وكليمه موسى في التوراة، وعلى لسان عبده ورسوله وكلمته عيسى في الإنجيل، وعلى لسان حبيبه وعبده ورسوله محمد

١ - سورة الأنفال، آية رقم ٦٠.

٢ - سورة الصف، آية رقم ٤.

٣ - سورة الأنفال، آية رقم ٦٦.

٤ - سورة التوبة، آية رقم ١١١.

٥ - ما بين الحاصرتين غير موجود في نسخة [سوهاج].

صلى الله عليه وسلم في القرآن، وكل هذا منه تعالى تكرم بتأكيد وتحقيق بذل ذلك الثمن الذي هو الجنة، وإنه أخير بذلك أنبياءه (ص ١٨٨) المذكورين وكل من تبع موسى من الأنبياء والصالحين، ومن تابع عيسى من الحوارين وطائفة الموحدين، ومن تبع ملة محمد من الخلفاء والأئمة وسادات المؤمنين أجمعين، فهو أمر مشهور وفي هذه الكتب الجليلة مذكور، ثم قال تعالى "ومن أوفى بعهده من الله" نقول نحن لا أحد أوفى منك يا رب، بل لا يذكر منا وفاء مع وفائك الجليل فضلاً أن يمثل الأمر بأفعل التفضيل، فسبحانك ما أكرمك وعبادك ما أرحمك، ثم أخير بأمرنا بالإستبشار وأن هذا هو الذي عليه المدار، حيث أنه هو الفوز العظيم، فسبحانك لا نحصى ثناء عليك يا منان يا وهاب يا كريم.

وقال تعالى في حق الفاسقين من البغاة والفجار المفسدين "إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو ينفوا من الأرض"^١ الآية، والآيات في شأن الجهاد والمجاهدين كثيرة مقروءة ومعروفة وشهيرة.

وأما ما جاء في السنة الشريفة من حديثه عليه الصلاة (ص ١٨٩) والسلام، فهو شيء لا يحصى ولا يحصر بالإستقراء والإستقصاء، وحسبك ما كان له من الغزوات والسرائيا وما ترتب على ذلك من الخيرات والمزايا، وإن لم يكن سوى قوله المشهور المعروف "الجنة تحت ظلال السيوف" لكان كفاية، وأي كفاية وغاية في الحفظ والجهاد أعظم غاية.

ثم أن هذه الأزمان ظهرت فيها محاربة الكفار وقد نقضوا العهود والمواثيق بغير إنكار، وبدا أيدٌ معشَرِ الفجار وكثر الإضطراب في الأقطار وانتشرت الأعداء براً وبحراً نهراً وسحراً، وقد تعدوا على جهات معروفة مشهورة موصوفة، وإستولوا على جليل من البقاع والأراضي، وصار لهم الحال القوي والجيش الجري والعزم الماضي، ولست

^١ - سورة المائدة، آية رقم ٣٣.

أعد ما أخذوه من البلاد ولا من أذلوه من أعيان العباد، لأن ذلك شيء يحزن النفوس ويستجلب الكدر والبؤس، وبقيت جهات في نفوسهم منها ما فيها إلا أن الله سبحانه أعزها وصانها بمن تحكم فيها، من أعظم هذه الجهات على الإطلاق (ص ١٩٠) وأجلها عند العالم بالإتفاق مصر وأقطارها المصونة المحروسة، الكنانة المأمونة صانها الله بوجود السيد الصدر كبير المهّم عالي القدر، مركز دائرة السياسة، ومعدن الشجاعة والحماسة، سيد الوزراء وكفيل الأمراء حضرة أفندينا المشار إليه المعول في كلّ المهمات عليه أيده الله بالعناية، وأحاطه بالحفظ وكأله بالرعايه فهو الذي حمى هذا القطر أجمع وصانته وأهله من كيد عدوّ يفجع مع أنه أقرب الجهات للأعداء، وليسوا غافلين ولا إنهم منه بُعداء، لكنهم عارفون بهمة صاحبه الجالد وقوة ماله الوزير المجاهد، ولوله لسطوا على الكنانة وزالت منها كما وقع من الفرنسيين معالم الديانة، فهو أيده الله بنصره وأهلك عدوه بأسره ذو الهمة الصادقة والسطوة التي تفوق الصاعقة لا يهمل التأمل في حفظ الثغور، ولا يغفل عن إخماد نار الكفور قد شحنها بالعساكر وملاها بأصناف الذخائر مستديم لما يرهب أرباب العناد وملازم (ص ١٩١) على ترويع كل ذي إفساد، فهو أيده الله سور أمن وسرور أحاطت ظلال أنسه بأهل الكنانة فأمنوا من كيد كل فجور، لكنه أبقاه الله أمعن نظره في أهل هذا الوادي فوجدهم لا يجيبون في مواطن الحرب من ينادي، ولا يمنعون عدوّاً يفجأهم، ولا يصدون مغيباً يفجعهم، لا يدرون ما الشجاعة ولا يقدرّون على الصبر لحظة من ساعة، لا يمكنهم صيانة أماكنهم ولا يدفعون من رام خراب مساكنهم، مع أن القطر مشحون بالعدد الكثير ومملوء بمتمين الألوف، فهم الجماء الغفير في عدد الرمل والحصى لا يحصرون بطريق الإستقصاء، فلما رأهم أفندينا بهذه الشئون وعلى صفات لا يقبلها ذوا المهّم المؤمنون تدارك فسادهم وطلب أن يروج كسادهم وأحب إنقاذهم من الجبن ومذمتهم وإخراجهم من ذل الهون بعلي همته، فأرسل إلى القرى والبلاد وجمع

الشبان أولى القوة الشداد^١، وأمر أن يجيؤا من كل جهة بعدد ليجتمع منهم ما يكون صالحاً للمدد، وقصد أن يعلمهم طرائق (ص ١٩٢) الحرب ويوقفهم على إدراك كفيات الطعن والضرب، وصمم على هذا الأمر الجسيم وجزم بأن يجعل لهم من قمع الأعداء أوفى قسيم، وأحضر رؤس أهل التعليم والرجال العارفين بهندسة الفراسة والتفهيم وأمرهم بتعليم أولئك الشبان أنواع الحروب وكيفية تفاصيل ضرب مكاحل النيران، وأرسل إلى عظيم أتباعه من لا ينفك عن أغراضه وإتباع أوضاعه المستديم على حبه العاكف على وده وقربه محمد بيك ككتخداي حضرة أفندينا سابقاً دام علاه

١ - لم يذكر المؤلف هنا محاولة محمد علي لتنظيم الجنود الأرئود والدلاة على نظم الجيوش الحديثة في شعبان سنة ١٢٣٠هـ/يوليو ١٨١٥م وفشله بل ومحاولة قادة العسكر قتله ونهبهم لمدينة القاهرة، ثم فشله في تجنيد السودانيين في المعسكر الذي أعده لتجميعهم بفرشوط وغيرها بعد إحضارهم من السودان وأعد لهم مكاناً للتدريب في بني عدي بالقرب من منفوط، حيث أراد أن يتخذ منهم جنوداً، ولكن سرعان ما فشى الموت بينهم لتغير الجو وعدم استعدادهم للتدريبات العسكرية، ثم إتجأه بعد ذلك لتجنيد المصريين. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٤، ص ٢٢٢-٢٢٥، ٢٢٧؛ كلوت بيك: لمحة، ج ٣، ص ٢١٤-٢١٥؛ شكري: بناء دولة، ص ١٤٩، ١٥١-١٥٢؛ عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي، ص ١٥٨-١٦٢؛ علي شلي: المصريون والجنديّة، ص ١٧-٣١.

٢ - محمد بيك لاظ أغلي: شغل منصب "سلحدار" محمد باشا خسرو سنة ١٢٢٠هـ/١٨٠٦م، ثم "كتخدا بيك" له إعتباراً من صفر سنة ١٢٢١هـ/أبريل ١٨٠٦م، كما شغل أيضاً منصب "قائمقام" أثناء غياب محمد علي باشا في حملته بالحجاز، كما كان عدواً لدوداً لأمرء المماليك. وقد ذكر الجبرتي في حوادث سنة ١٢٣٣هـ/١٨١٧م أنها إستهلّت ومحمد بيك لاظوغي كتخد بيك وقائمقام محمد علي باشا في غيابه وحضوره، وإنه المتصدر في الأحكام الكلية والجزئية وفصل الخصومات، ومباشر الأحوال. وقد عزله محمد علي من منصب الكتخدائية في ٢٠ ربيع ثان سنة ١٢٣٤هـ/١٨١٩م، وفي سنة ١٢٣٧هـ/١٨٢٠م أرسله إلى الصعيد على رأس جيش إلى الشلال وبلاد النوبة للتحضير لغزو السودان وإستقبال العبيد المرسلين من هناك في أسنا لتجنيدهم بالجيش المصري، ويجهز الجنود المسافرين إلى السودان، وتولى نظارة الجهادية في المحرم سنة ١٢٣٧هـ/أكتوبر ١٨٢١م كما أطلق عليه ناظر النظام العسكري، توفي في ٢٢ رمضان سنة ١٢٤٢هـ/١٩ أبريل

فخاطبه أفندينا في تنجيز هذا المعنى وأن يكون متولياً إقامة وتشيد ذلك المبنى ، وأمره أن يصقل سيف عزيمته وينتضي حسام رأيه وسورة شهامته، وأكد عليه وأبرم وفوض

١٨٢٧م، ولازال مدفنه موجوداً تعلوه تركيبة رخامية بالزاوية أسفل العقار رقم ١٠٠ شارع القصر العيني، بعد أن هدمت وزارة الأوقاف قبته وقبة الشيخ يوسف المجاورة لها وأحلت محلها عمارة سكنية حديثة. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٧، ١٨، ٢٤٢، ٢٦٩، ٢٨٧، ٣٠١، ٣٠٤، ٣٠٨، ٣٢٠؛ كلوت بك: لحة، ج٣، ص٦٩، ٧٠؛ علي مبارك: الخطط، ج٣، ص٩٢، ٩٣، ١١٩؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٢٥٣، ٣٠٤، ٣٢٧؛ شكري: بناء دولة، ص١٧٧، ١٩٨؛ عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي، ص١٦١، ١٦٢؛ محمد حسام الدين إسماعيل: وجه مدينة القاهرة، ص١٤٢.

١ - مدرسة أسوان: أمر بإنشاء مدرسة أسوان الحربية بعيداً عن القاهرة في ٩ ذي القعدة سنة ١٢٣٦هـ/ ٨ أغسطس ١٨٢١م وعين بها عدة معلمين على رأسهم سليمان باشا الفرنساوي وأرسل الى هناك ١٠٠٠ جندي من الممالك ليصبحوا ضباطاً، كما أرسل محمد علي برسالة إلى محمد بيك "ناظر العسكرية" في ٦ محرم سنة ١٢٣٧هـ/ ٣ أكتوبر ١٨٢١م يبلغه بتعيين أمين أفندي المعماري وأحمد باشا متصرف جرجا لبناء قشلاقات أسوان، على أن يسع كل منها ألف جندي، ويعد كل منها عن الآخر مسافة ربع ساعة، على أن يحدث ذلك على وجه السرعة، وأصدر أمراً في ٢ جماد الأول سنة ١٢٣٧هـ/ ٢٥ يناير ١٨٢٢م بتعيين محمد بيك ناظراً للمدرسة، وأرسل يبلغ تلاميذه أنه معين لتنظيم شئون المدرسة ورعايتهم كالوالد ويجب عليهم طاعته والاجتهاد في تحصيل العلوم والفنون المختلفة لترقيتهم، ثم أرسل إلى محمد بيك في ٢٤ جمادى الأولى/ ١٦ فبراير من نفس العام يبلغه بتعيين سليمان أغا (سليمان باشا الفرنساوي) مدرساً لديه، ويأمره بإختيار المدرسين اللازمين وترقية التلاميذ المتقدمين إلى رتبة "حوايش أغاسية" أو "بلوك باشية" و"بكباشية" على العبيد لتحفيز باقي التلاميذ على التقدم. كلوت بيك: لحة، ج٣، ص٢١٢-٢١٣؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٢٩١، ٢٩٣، ٢٩٤؛ شكري: بناء دولة، ص١٥١؛ عبد الرحمن زكي: التاريخ الحرب، ص١٦٠-١٦٢؛ علي شليبي: المصريون والجندي، ص٢١-٢٦. عن النظام الجديد أنظر:

David Farhi, "Nizam-i cedit - Military Reform in Egypt under Mehmed 'Ali," Asian and African Studies 8 (1972), 151-183; Weygand, Histoire Militaire de Mohammed Aly et des ses Fils, Vol. I, 159-173, 185-203.

إليه الحكم فيما يلزم، فاشتهر ذلك عند العالم وحمدته عليه عقلاء بني آدم، وظهر للخاص والعام أن ذلك إذا تم من أكبر الإنعام، وتأملت الأذكىاء في ثمراته وفوائده ومحاسن فنونه وفرائد عوائده، فالتزم ذلك حضرة (ص ١٩٣) الأمير الجليل وقام بكل اللوازم من كثير وقليل، وذهبت الرسل إلى البلاد والقرى لإحضار الشبان وحثو المسير وأحسنوا الثري، وتوجه حضرة محمد بيك إلى ثغر أسوان فأقام به متفرداً في العصر والأوان، وأحضر عنده كبار المعلمين وأرباب المعارف الذين هم بإتقان النظام عالمين^١، وحضرة الصدر العلي ذي العزم والفخر الجلي يرسل إليه كلما لزم له الحال وجميع ما يحتاجه بتلك الجهات والمحال، وفي كل حين يرسل له الأوامر ويحضه على تنجيز ذلك الشأن فيمثل ويبادر، ووالى عليه إرسال الشبان أنواعاً وأجناساً متواصلين أناساً يتلون أناساً، فرسموا بأسم "العساكر الجهادية" واشتهروا بذلك، فحبذا الأسم ونعمت الشهرة السنية، وجعلهم في مكان رحيب فسيح خصيب، وأقام لهم المؤنة وأكثر لهم أنواع المعونة، وأعطى كل رجل مكحلة بارود محكمة القوام حتى يستعد للحرب أولئك الأقوام، ولزمتهم الرؤسا للتعليم وسأستهم بالتدرب على هذا الأمر الجسمي، (ص ١٩٤) وشددوا عليهم في إتقان تلك المعاني والمدارك ليكونوا من أرباب الحروب والمعارك، وجعلوهم صفوفاً صفوفاً، وعلموهم الضراب أشكالاً وصنوفاً وإستداموا معهم مجتهدين وبتفهمهم الدقائق مجدين تارة صفوفاً وتارة دوائر، والحرب لا يزال على تلك الصفات دائر والصفوف أشكال مختلفة والدوائر كذلك، وكلها منسجمة متألفة صناعات في أشكال الحروب عجيبية، ونكات من فنون الفراسة غريبة، بحيث إذا وقف منهم صف وهو مائة إنسان وحاربوا بتلك الصناعة فلا يلاقيهم الألف من الفرسان وإذا سار منهم ألف رجل للحرب لا يثبت تجاههم من الآلاف الكثيرة أحد كان من الشرق أو من الغرب لأنهم على قوانين معلومة موصوفة مركوزة وراسخة فيهم ومعروفة، لا تختل صفوفهم ولا تضطرب صفوفهم، ولا يتأخر رجل عن رجل،

١ - يشير هنا الكاتب مدرسة أسوان الذي أنشأها محمد علي لتخريج الضباط.

يفعل القليل منهم ذلك والجل ولا يزال يجاهد في تدريبهم وتخليقهم بصناعة (ص ١٩٥) الحروب وتجربهم كل يوم صباحاً ومساءً مستروحاً بشأنهم ومستأنساً حتى حصل الغرض الأكمل بقدم حضرة السيد الأفضل صاحب السيف والقلم وأمير البنود والعلم، الشجاع الغضنفر والوزير القصور مولانا وسيدنا إبراهيم باشا نجل الصدر العلي ذي العز والفخر الجلي^١ فلما قدم تمت بقدمه الأمور وساسهم بتدبيره المأثور ولازم إدمان تعليمهم وأكثر عنايته لتدريبهم حتى أتقنوا هذه الصناعة، وربحت تجارة تلك البضاعة وأحكموا المقصود والغرض وتحققوا بعرفان ما أوجبه عليهم وإفترض، وبقي لهم ذلك طباعاً وأخلاقاً حتى ألفوه بل أشربوا حبه كأساً دهاقاً وأقاموا شعار الشجاعة وإنضموا عليه به وفاقاً، وساد البيض والسمر على كل من سواهم وزادوا وفاقاً، وكثر جمعهم والتأم مع السياسة والحماسة شملهم، ومازال حضرة أفندينا إبراهيم باشا يسوسهم بتدبيره ويجمعهم على التعليم بحقائق فنونه وتحريره ضابطاً لهم الضبط الكامل حتى (ص ١٩٦) إنتظم الأمر بالعرفان الشامل، فقد قام بذلك أتم القيام ولازم تعريفهم تلك القوانين وأكد لهم الإلزام، فهو أبقاء الله أكبر عضد لهم وأعظم من أعانهم على ذلك ودلهم، وهذه الحالة من أعظم الأحكام وأكبر المفاسد، والله القائل "كم ترك الأول للآخر"، وهذا شروع في ذكر الأدلة على وجوب إتخاذ العساكر الجهادية، وهي على طرق خمسة محررة شرعية^٢:

حفظ الثغور الإسلامية وتحصينها بالعساكر الجهادية
لإرهاب الأعداء المحاربين وإدخال قلوبهم هيبة المسلمين،

الدليل الأول

- ^١ - أرسل محمد علي ابنه إبراهيم للتعلم هناك لحث الجنود على إجادة التعليم.
- ^٢ - وقد قاوم الفلاحون الإلتحاق بالجندية ووصل الأمر بهم إلى إحداث عاهات مستديمة بأجسادهم ليتجنبوا التجنيد، وذكر أحد العمال الإنجليز بعد رحلته إلى الصعيد أن الفلاح كان يفضل أن يقطع أحد أطرافه على أن يصبح جندياً، ولاحظ في رحلته أيضاً أن كثيراً من الفلاحين يقوم بفقاً عينه اليمنى أو قطع عصب يده اليمنى أو خلع أسنانه من الجهة اليمنى. أنظر:

واجب شرعاً وفرض محتوم أصلاً وفرعاً إذ لو لم يلحقهم من المؤمنين رهبة ولم يخشوا منهم لحوق كربة ولا نكبة لسطوا على الثغور والبلاد وأضرروا بالقطر وسكانه الأبحاد وإستولى على ديار الإسلام أهل الأحاد وتملكوا أولادهم ونساءهم وأموالهم وإستباحوا محارمهم ونفوسهم وأعراضهم، ودليل ذلك ما وقع منهم مراراً وفعلوه بالمخارية (ص ١٩٧) مع المؤمنين جهاراً كما صنعوا بجزائر الغرب وأوقعوا بهم على حين غفلة الهول والكره^١، وكما إتفق للفرنسيين بمصر وما ألحقوه بأهلها من الضر والإصر^٢، وكما جاءتهم الإنكليز وأخذوا ثغر إسكندرية وإستردوها منهم حضرة أفندينا بهمته العلية^٣، ولا يخفى الذي تملكوه من الهند وبلادہ لضعف سلطانه وإضطراب أجناده^٤، ولا أذكر ما ملكوه من ذلك ولا أنقله لمعرفة الناس له بحيث لا أحد يجهله، وناهيك بهذه الأوقات وما تجدد بها من للكفار من المنابذات والمخاريات، وما صاروا عليه من القوة والكثرة، عافانا الله من أن يلم بنا من جهتهم مزلة أو عثره، وإذا كان كذلك فيلزم حاكم القطر شرعاً تجديداً ما تعطل من الفروسية وإقامة جند يتعرفون ما جهلوه من أنواع الحروب بكل كيفية، لأن في ذلك حفظ البلاد وإرهاب أهل الطغيان والعناد.

وقد بسطت فيه مقال البيان ليكمل الإيضاح والتبيان، (ص ١٩٨)

لدليل الثاني

^١ - أنظر عن إحتلال الفرنسيين للجزائر في صفر سنة ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢م الجبرتي: عجائب الآثار،

ج ٣، ص ٢٢٢.

^٢ - الحملة الفرنسية: جاءت إلى مصر في سنة ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م وخرجت منها في سنة

١٢١٦هـ/ ١٨٠١م.

^٣ - حملة فريزر Fraser سنة ١٢٢٦هـ/ ١٨٠٧م.

^٤ - إحتلال الإنجليز للهند: جاء إلى مصر في شعبان سنة ١٢٠٢هـ/ ١٧٨٨م رسول من حيدر

بيك معه إذن من السلطان عبد الحميد بتجنيد عسكر لمقاومة الإنجليز. الجبرتي: عجائب الآثار، ج ٢

ص ١٦٠.

قد جعل الله للواحد من المؤمنين إثنين من الكفار، وللمائة مائتين وللألف ألفين نصاً في الكتاب بلا إنكار، ولا تحفى كثرة المؤمنين ولا تنكر معرفتهم لذلك أجمعين، ومع هذا فقد غلبت الكفار وإستولت على كثير من الأقطار مع توفر المؤمنين في العدَد والعُدَد وكثرة ما عندهم من المعونة والمدد، ولم يستنقذوا من هؤلاء بلداً ولا قرية، كما هو محقق بلا مرية ولا سيما وسطوة الأعداء في البحر لا تنكر ومحاربتهم ظاهرة مع القوة في البر الأقفر، وهم الآن يرغبون في الإستيلاء على أجل البقاع، ويطلبونه عنوة وينافسون في تلك الشؤون والأوضاع، وغاية أمر المؤمنين أن يتمكنوا من إبعادهم بطريق الإستدفاع، ويكثرون في تفكر ذلك من الحوقلة والإسترجاع، فما السبب في هذا الأمر؟ وما الذي أوجب وقود ذاك الجمر؟ فأقول في الجواب أن الله سبحانه جعل هذا الأمر مرتبطاً ومقترناً بحالة الصبر، والصبر له أسباب معلومة وإلتزام عدم الإنفكاك حالة الحرب له أوضاع مفهومة، (ص ١٩٩) فما لم تكن الأسباب موجودة وأوضاع كفيات الحرب معروفة ومحدودة لا يتفق هذا المعنى ولا يتشيد ذاك المبنى، وليست أسبابه الأكيدة وموجباته الحميدة سوى إرتباط القلوب بعضها ببعض، ولزوم المجاهدين في العيان كل جماعة للآخري في العرض وفي السير في الأرض، وأن لا يتخلف الرفيق عن الرفيق ولا يتخالفا في القتال بالتفريق وطاعتهم لكبرائهم وموافقتهم أوامر وأغراض أمرائهم، وترتيبهم في الأماكن والصفوف وفي أشكال الحروب حسبما هو عندهم معروف، وأن يواصلوا الطعن والضرب حتى لا يكون فيه خلل في مواقيت الحرب، ولا يفتروا عن إستدامة ذلك ليمتنع إقدام العدو عليهم هنالك، ويكونوا متأملين النصره محرصين على إنتهاز الفرصة في العشية والبيكرة، فمتى كانوا بهذه الأوصاف فهم السروات والأشراف لا يقاومهم أحد في مواطن الحروب ولا يقوم بهم أثر من متاعب (ص ٢٠٠) الخطوب، وتأمل لما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وما كان يفعله أنصاره وأتباعه وأحزابه،

١ - في نسخة [دار الكتب] "حانة".

فقد كانوا يقفون في الحروب صفوفاً ولا يتخالفون آن ميثاً وأن ألوفاً ملازمون على تنفيذ أوامره محرصون على وعظه منزجرون بزواجره راغبون فيما يرضيه مطيعون لما يقضيه، لو أمرهم أن يلجوا النار لولجوها أو يخوضوا البحار لخاضوها، وحسبك ما قاله له بعض أصحابه في مكالمته له في شأن الحرب وحسن خطابه يا رسول الله لا نقول لك كما قال أصحاب موسى: أذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، بل نقول: أذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، وكانوا يتراصون في موطن الحرب ولا يتزلزلون عن مواطنهم إلا لغرض من أغراض الطعن والضرب، وأنظر لما أمر الرسول الرماة أن لا ينتقلوا عن مكانهم وقال لا تنتقلوا إن كانت^١ لنا أو علينا وأحمونا بالنبال، فإنكم ما دمتم كذلك لا يمسننا نصب ولا يلحقنا وبال أو ما هذا معناه، (ص ٢٠١) ولا يخفاك أن كل مرة إنهمزم المسلمون بها لم يأتهم ذلك إلا من التخالف الذي قام بها، وما أصابهم الوهن إلا من إضطراب بعضهم مع بعض وعدم الانقياد لأمرهم ونبد أمره بالغض وقلة المعونة والنجدة وعدم القيام بكفائتهم بأن لم يكن عند الأمير جده، فهذه أسباب للخلل وما سبق أسباب لإزالة الوجلل، وتأمل كيف وقع التخالف في أجناد مصر حيث أذلهم الفرنسيين، وما ذاك إلا من إضطرابهم وعدم طاعة الرئيس، وحيث كان الأمر على هذه الصورة وعرفت أسباب الخذلان مضبوطة محصورة وخشيننا على بلاد الإسلام وخفنا من أضرار يدخل على الآنام، فوجب حتماً وفرض جزمياً أن يكون للقطر الإسلامي أجناد متفقة، لهم في معرفة صناعة الحروب خبرة وهم منها على ثقة يتصافون متفقين ويتراصون مؤتلفين يعرفون أصناف الحروب، ويدرون تخالف أشكالها، إذ هي أقسام وضروب، لا ينفكون عن جماعتهم ولا يتفرقون عن رفقتهم، (ص ٢٠٢) مطيعون لأمرائهم، منافسون في تنجيز أثر أربهم، فمتى أمكن تحصيلهم كذلك وكان متأبياً سلوك هذه المسالك وجب على أمير القطر تحصيله وقام بهذا المهم شرعاً هو أو وكيله، بحيث إذا

^١ - في نسخة [دار الكتب] "كان"

ترك ذلك كان آثماً ولعالم^١ الإسلام ولشعاره مبطلاً وكاثماً، ووجب على المؤمنين السعي لمن أمكنه أن يسعى والتسبب في إيجاد ذلك فرادى وجمعاً بالقول وبالعمل ليوافق السلف الأول، ومن لم يكن لهذا الأمر مادحاً ومثيلاً على وجوده ثناء صالحاً فهو في غفلة عن الدين وبعد عن حب إظهار شعاره المتين، وليس معدوداً من الموفقين ولا مذكور بالخير بين المؤمنين، ومن لم يرض بإقامة شعار هؤلاء العساكر فقد باء بالإثم الكبير وضرب به في الذم المثل السائر، ومن يرغب في ذلك وحضر عليه ومال بلسانه وقلبه إليه فهو مؤمن حقاً وتقي صدقاً، وهو ممن رضي الله عنه ورسوله ويبلغ بفضل الله في الدنيا والآخرة مناه وسؤله. (ص ٢٠٣)

الدليل الثالث

فشأ في جميع المسلمين وإشتهر عند كافة الموحدين تركهم تعليم الفروسية وتعلمها وإهمالهم عرفان أصناف كفايات الحروب وتأملها، فلا يدرون الرمي وأنواعه ولا صور إمتداد الصف وأوضاعه، فقد كانوا في سالف الزمن مقدمة وساقه وكميناً لإضرار العدو أعدّه الرئيس وساقه وقلباً وجناحين إستعداداً لدفع الحين، وصفوفاً متفقة ورفقة ببعض مرتفقة متفقة على الإقدام قلوبهم متساوية على الأرض مواقفهم، متحاذية أجسامهم يميلون على العدو كما يميل البحر، وينزل طعنهم وضربهم عليه كما ينزل من العلو الصخر، ولذلك غلبوا على الأعداء وقهروهم بالحرب في البيداء وملكوا ديارهم وأزالوا آثارهم، وكتب الفراسة مشحونة برقم الصفوف وتنويعها إذ هي أشكال وصنوف هندستها الأوائل وأهمها الأواخر^٢،

^١ - في نسخة [دار الكتب] "لعالم".

^٢ - من أمثلة كتب الفروسية:

- الكلبي: أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها، تحقيق أحمد زكي، القاهرة سنة ١٩٦٥.
- محمد بن منكلي، ٧٨٤هـ/١٣٨٢م: الأدلة الرسمية في التعابي الحربية، تحقيق محمود شيت خطاط، بغداد سنة ١٩٨٨.

فبدت بإهمالها أهوال الغوائل، وليس أمرها في (ص ٢٠٤) المؤمنين مبتدعاً ولكن تركوا صنع السلف فلا ترى أحداً من الأواخر لهم متبعاً، وقد رجعت للأعداء البلاد الكثيرة وتملكوا الأقطار الشهيرة بعد أن كانت بأيدي المسلمين، وما ذاك إلا لجبتهم بتركهم معرفة الحروب أجمعين حتى صارت العساكر المعدودة لهذا المعنى، إذا ساروا جموعاً فرادى ومثنى وقابلهم العدو المحارب يضطرب كل طاعن وضارب لإنهم يزدحمون بلا ترتيب في الضرب ويتكاثرون مع بعضهم بغير إنتظام في الحرب، فإذا ضربوا مكاحلهم أول مرة وأرادوا إعادة الضرب كرة بعد كرة يكون بين الضربتين والضربات ابطال وخلو من الحرب درجات، والأعداء لا تبطل مكاحل بارودهم لإحكام صفوفهم وإمكان مواصلة إصدارهم عن الضرب وإيرادهم، ولا تبطل موالاة نيرانهم أبداً ولا يقع خلل في تواصلها سرمداً، فيقع في خلال تلك الفترات ووسط هذه المهلة والسكنات إضرار كبير وقتل ذريع وإضطراب وهول يريب (ص ٢٠٥) ويرى، فإلى أن يضربوا أول مرة ثم يعودوا إليه بعد السكنة كرة يكون قد قتل منهم ما لا يحصى عدداً، فيضطربوا رهباً ويختلوا مدداً، وسببه معرفة أولئك بكيفيات المعارك، فلا يختل ولا يتعب منهم رجل معارك، فلهذا وقع الضرر بإهمال هذه الصناعة وترك تعلم أشكالها حتى جهلوا الأمر وكلهم اضاعه، فقويت الأعداء بمعرفة الصناعة التي أهملها المسلمون وكان عليها سلفهم الصالح أجمعون.

وحيث كان الشأن ذلك وأمكن الأمير إعادة ما دثر من تلك المسالك وتعليم طوائف من المؤمنين صناعة الفروسية وتعريفهم أشكالها وإختلاف الصور وإتقان هذه الكيفية، فقد وجب عليه شرعاً المبادرة إلى هذه الصناعة وحرم عليه أن تأخر وأبدى إمتناعه، وله إذا أقدم على هذا الشأن الجليل الرضوان من الرحمن مع الثواب الجزيل،

- محمد مصطفى: مخطوط في تعليم فنون القتال والفروسية في أواخر عصر المماليك الجراكسة، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، مارس-ابريل سنة ١٩٦٩م، ثلاثة أجزاء، القاهرة سنة

وما أنفق على المتعلمين لصناعة الجهاد وما بذله في هذا الوطن للإستعداد من مرتب رزق (ص ٢٠٦) وإطعام وإيصال البر لهم والإكرام وكسوة ومؤنة وإسعاف لهم بإصناف المعونة وآلات حرب وقتال، وكل ما قواهم في مواطن النزال بمجموع في ميزانه أمثال الجبال، ومقوم في صحيفة أعماله مضاعفاً بالتفصيل والإجمال، ولكل من له مدخل في ذلك بأيّ سبيل من ساع في أسبابه ومعين لإربابه كرئيس أو وكيل ما لا يحصى من جزيل الثواب والإنعام بعق الرقاب من رب الأرباب لما جاء في خير صلى الله وسلم على قائله أن الدال على الخير كفاعله، ومن خالف في هذا الأمر المذكور فعاقبته الويل والثبور [والهلاك والجور]^١.

الدليل الرابع

كان المؤمنون فيما مضى من البعثة الشريفة إلى زمن السلطان قانصوه الغوري^٢ يتعلمون الرماية بالسهم، ويلازمون صناعتها على توالي الأيام، وجاء الأمر بتعلمها وتعليمها في السنة الشريفة على لسان الرسول الأكرم والسيد الحبيب السند الأفخم محمد صلى الله عليه وسلم، فقد مر على قوم [من العرب]^٣ يرمون بالسهم ويتعلمون (ص ٢٠٧) إصابة الغرض على التمام، فقال صلى الله عليه وسلم لهم آمراً ولصنيعهم راضياً رميةً بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً، وجاءت فيه الأخبار العديدة حتى إنه من اللهو الذي تحضره الملائكة، وكانت عساكر الموحدين وأبطال المسلمين يتقنون ذلك إتقاناً محكماً ويرمون الأعداء رميةً مصيباً مستحكماً، وكانت المقاتلة ممن لا يدري الرمي يفزعون من الرماة ويفرون بين أيديهم إذا لاقوهم بفلاة، هذا مع معرفتهم بأحكام صفوفهم وترتيب صفوف مئينهم وألوفهم

^١ - ما بين الحاصرتين غير موجود في نسخة [سوهاج].

^٢ - الغوري: حكم من ١ شوال سنة ٩٠٦هـ / ٢٠ أبريل ١٥٠١م إلى ٢٥ رجب سنة ٩٢٢هـ / ١٤ أغسطس ١٥١٦م.

^٣ - ما بين الحاصرتين مكتوب في نسخة [دار الكتب] في الهامش الأيسر للصفحة ومشار إليه في النص.

كما تقدم ذكره وشرحه سابقاً، ونتممه في البيان لاحقاً، فلما رأت الكفار ذلك وهاهم الأمر في المعارك إخترعوا صناعة مكاحل البارود ولازموا تعلم صناعة رمية مع بذل المجهود في سائر أزمئتهم وفي القيام والقعود، وأتقن هذا الأمر أهلاً للحدود، فصار يسمع صوت المكاحل الخارجة بالنيران القاتلة للأبطال والفرسان، وهو صوت هائل جسيم يدهش من (ص ٢٠٨) لا يعرفه فيرجع بحال الوجل السقيم، ولا سيما إذا كثر عدد الضاربين وإصطفوا على الأشكال التي بها موسومين، ودام الضرب بلا إنفصال وإستحكم تواليه بلا إحتلال، فحصل الإضطراب بهذا الصنيع وهابت فرسان المؤمنين ذلك الأمر الشنيع وقوى الكفار بهذا السبب وظهروا مُستحْكَمِينَ أشكاله بحال عجب، فإقتضى الحال ولزم المؤمنين من خشية النكال تعلم ذلك وإصطناعه ولزومه دواماً وإتباعه ومكنوا مدة يتعلمونه ويحضرون آلاته ويتعرفونه، فأدركوا طرفاً جيداً من أعماله وعرفوا كيفية إصطلاحه في إمتلائه ثم إرساله، فحصل لهم بعض القوة وعاد لهم شيء من الفتوة، إلا إنهم لصعوبة تعاطيه وكثرة الدخان وثقل الحديد وحموه بالنار في يد راميهِ تكاسلوا بسبب ذلك عن الترتيب وأهملوا عملهم الأول في الإصطفاف الذي يصد العدو المريد المريب، وأهملوا صناعته الهندسية المربحة الرافعة للتعَب وللوهن^١ مزيجة لإنهم يرسلونها (ص ٢٠٩) أدواراً ويوالونها مراراً، كل صف إذا أرسل صير وتوقف ليضرب الآخر تلوه ولكيد الخصم يتلقف، وصار أجناد المؤمنين وجيش الموحدين يجتمعون ألوفاً ولدى الضرب يختلفون صفوفاً ويزدحمون مع بعضهم البعض ويضطربون في فسيح الأرض وربما أصابهم من أنفسهم الضر بالإزدحام والعرض، مع أن الأعداء لعنهم الله إذا إجتمعوا وأظهروا ترتيب ما صنعوا يجعلون مع ذلك طبولاً لهم، وهى في الحقيقة كأنها زلازلهم، فإذا ضربوا مكاحلهم المعروفة ضربوا طبولهم الموصوفة فيكون دَوِيٌّ عظيم وحال مريع جسيم تفر منه الوحوش والطيور ويرجع السامع وهو هائم مذعور، ويساعد هذا مزاسيرهم ونفخهم فيها وزئيرهم

^١ - في نسخة [دار الكتب] "للوهن".

فيزداد الدوي المهول كأنه الرعود تسوق السيول ونيران البنادق كالصواعق والأمر متزايد متلاحق، ويثور العثير مصاحباً للدخان ويغشى الأبصار حتى يغطيها، فلا عينان بل ولا فكرة تبقى حيث (ص ٢١٠) تلتف الأذهان، وهذا شيء لا ينقضي حتى تحصل الهزيمة، وهم على تلك الصورة بهذه العزيمة، فلما قوى العدو بإدمان هذه الصناعة وضعف المؤمنون بترك هذه الصناعة حصل الضرر والإضرار، وبدت المناوبات والمناضلات من الكفار، وحينئذ فيخشى على الأماكن والدور من سطوات أهل الجحود والفجور وكذلك الثغور المعلومة التي هي لأذهانهم وأبصارهم مشاهدة مفهومة، وحيث كان الأمر على ما قلناه وبجسب ما ذكرناه ورقمناه، فإنه يجب على أعيان المسلمين وأهل الحل والعقد من الموقفين أن يخاطبوا أمير القطر في تحصيل أجناد ترهب الأعداء وترهقهم بالحرب إذا تواقفوا بالبيداء بتعليمهم كيفية الحروب وأشكالها إذ هي ضروب، حيث تميزت الأعداء بهذه الصناعة العظيمة وملكوا بها الجهات الجسيمة، فيلزم حينئذ أن يتعلمها أجناد المؤمنين ويتقنوا عرفانها أجمعين، ليدرؤا الشر بمثله ويصادرون العدو بوزان صنعه وشكله (ص ٢١١) ومن تأخر عن ذلك فقد باء باثم كبير، وناداه لسان الشريعة المحمدية بالنكير.

الدليل الخامس

حفظ الدين والنفوس والأعراض والأنساب والعقول والأموال واجب شرعاً، وذلك متوقف على القوة لسرد الأعداء الصائلين على الأموال والنفوس، ولا سيما إذا كانوا كفاراً فيزداد عند ذلك الخوف على الدين والعرض مع المال والنفوس، ولا شك إنه إذا وقع الخلل في الدين والعرض والمال تلف العقل أو كاد، وضاعت النفوس والأنساب في الأماكن والبلاد، فكان الخوف من الكفار جامعاً لكل خفيف ومتلفاً لكل سيد تقيّ عفيف، فإذا ظهرت من الخوف أسبابه وطغى العدو وسال عبايه وضعفت الأجناد عن مقاومته ومضاربه ومصارعته، وجب على الأمير بالقطر إحضار جند معلمين عارفين بصناعة حرب الكفار مقاومين يدرون الصفوف وصنوفها وترتيب ضربات وصروفها، ووجب

عليهم تعلم صناعة حرب (ص ٢١٢) الكفار إن لم يكن لهم بها إلمام وتذكّار ليدراً الشر بمثله وينقمع العدو بطبق صنعه وشكله، وهذا محتم في الوجوب وفرض لازم على هذا الأسلوب لتوقف حفظ ما تقدم عليه، وما توقف عليه الواجب فهو واجب يعول عليه.

خاتمة

إعلم أيها الناظر في هذا الكتاب، المتأمل لما فيه من فصل الخطاب أن إتباع الشرع الشريف شعار المؤمنين والإقتداء بالسنة المطهرة شأن الموفقين، ومن ذلك ما نحن فيه هنا من إتخاذ العساكر الجهادية وتعليمهم تلك الصناعة التعلّيمية^١ وإدمانهم على ملازمة هذه الكيفية وأمرهم بمباشرة أوضاعها البادي نفعها فهي عليه موافق ذلك كما تقدم للكتاب والسنة ومطابق لما عليه سلف سادة الأمة، فهو أمر شرعي المظهر والقول بحقيقته وفرضه من الشمس أظهر، ثم أن هنا سؤالاً ينبغي النظر في جوابه وتبيين القول فيه خطأه أو صوابه حاصله إذا قال قائل أن (ص ٢١٣) العساكر الجهادية جماء غفيرة وجمهورهم شهير وعدد آلافه كثير، وهؤلاء أخلاقهم الأصلية جافية وطباعهم الغريزية خشنّة ليست بمقام العرفان وافية، فهم عن طريق الصواب غافلون وعن أشكال رسوم الأدب غائبون بسبب الجهل الغريزي وجفاء الأخلاق الطبيعي، وهؤلاء بهذه الأخلاق مع هذه الكثرة قد تداخلهم شئون شيطانية وربما غرتهم شهامتهم الظاهرية والباطنية، فقد يقع منهم أهمال في خاصة صناعتهم أو يصدر من بعضهم زلة ومخالفة لجماعتهم بأن يقع منهم التعدي على الغير بالإيذاء أو على رفقته، أو يكون منه بعض منابذة لأمره بمخالفته أو إرتكب ذنباً لا يلايم أو أهمل في بعض الأوقات قانونه اللازم، وربما قلّد بعضهم بعضاً في هذه الشؤون فيدخل عليهم الخلل من حيث لا يشعرون، وكان تركهم على هذه الأحوال [فيه]^٢ ضرر

^١ - في نسخة [دار الكتب] "العَلِيَّة".

^٢ - ما بين الحاصرتين ليس في نسخة [سوهاج]، وفي نسخة دار الكتب مكتوب في الهامش الأيمن من الصفحة ومشار إليها في النص.

ظاهر وخلل كبير يفضي إلى إضرار ومناكر، بل ربما حصل بسبب ذلك فساد في الناس كلاً أو بعضاً، وإضطرب (ص ٢١٤) الحال بهذا السبب رفعاً وخفضاً، فهل للأمير إذا تحقق أن أهملهم مجلبة للخلل، وأن العفو في مثل هذه المعاني من أعظم أدوات الضرر والوجل أن يسعى في ضبطهم بسياسته ويقوم في سد خللهم بعرفانه وحماسته، وهل إذا كانت جزئيات الذنوب غير مضبوطة ولا تحررت في كتب الفروع الفقهية مربوطة أو كان بعضها غير مقول فيها أو لكثرة الأفراد كان البعض غير منقول عن مؤلفيها يسوغ للأمير حينئذ أن يرتب قوانين لضبط شأنهم ويحرر بحسب فطنته أنواعاً من التعازير لترتيب وتنظيم جمعهم وله والحالة هذه ضبطهم بتلك القوانين^١، حيث رتبها كافلة بأوضاعهم وتأديبهم، وكافية بأنواع صناعتهم وتعليمهم، وكيف يكون الحال فالغرض بيان ذلك بأين مقال، قلت ينبغي أن تعلم قبل ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الدين النصيحة، قلنا لمن يا رسول الله، قال الله ولكتابه ولرسوله ولإئمة المسلمين وعامتهم إنتهى. (ص ٢١٥) قلت أما النصيحة لله ورسوله وكتابه فظاهرة بالإيمان بالله ونفي الشريك عنه وترك الإلحاد في صفاته وطاعته كما هو مقرر شهير، وأن القرآن كلام الله لا كلام البشر وإنه لا قدرة لإحد على الإتيان بمثل أقصر سورة منه، إلى آخر ما هو معروف ومشهور، وأن يصدق برسوله جازماً بحقية كل ما جاء به ونصرته حياً وميتاً وجهه وحب آل وصحبه حسبما هو منصوص معلوم في كتب السنة. أما النصح لإئمة المسلمين فهم الخلفاء ونوابهم من الوزراء والأمراء والعلماء بطاعتهم في الحق والجهاد معهم وترك الخروج على

١ - اتخذ محمد علي من القانون العسكري الفرنسي - قانون نابليون - قانوناً للجيش "السياسة نامة" سنة ١٢٣٥هـ/ ١٨٢٠م، وكان يبغي من تنظيم الجيش الحديث القضاء على الفتن التي كان يسببها النظام القديم في جمع الجنود، واختضاع الجميع للقانون وليس للمال الذي ينفق عليهم كلوت بك: لحة، ج ٢، ص ٩٧، ج ٣ ص ١٧٥، ٢٢٤؛ شكري: بناء دولة، ص ١٤-١٧، ١٨٣، ١٨٤، ٢٧٣،

الخلفاء والوزراء والأمراء وجميع نواب الخلفاء، فلا يجوز الخروج عليهم وإن جاروا وعسفوا بل للآزم علينا الدعاء لهم بالصالح والتوفيق ومعاونتهم في مقام الإصلاح، وتذكيرهم بالله وأحكامه بالرفق معهم والتلطف. وأما النصيحة للامة فذلك بإرشادهم لأمر دنياهم وآخرتهم، وسد الخلل عنهم ودفع المضار والذب عن أعراضهم وأنفسهم وأموالهم، وتحصيل أسباب الأمن التي يعمهم بها الإطمئنان ويتم لهم بها (ص ٢١٦) سكون الجنان. إنتهى [بحمد الله].^١

وهذا الذي ذكرناه من الأصول التي ينبني عليها الجواب عما ذكر من السؤال السابق كما سنوضحه قريباً، وأيضاً من القواعد الأصولية الشهيرة أن درء المفسد مقدم على جلب المصالح، ومن ثم سوما في ترك الواجب بإدنى مشقة تحصل كترك القيام في فرض الصلاة لمن مسه ضرر يبيح، وكفطر رمضان في نحو السفر ولمن لم يطقه لعجز طارئ، وكفطر الحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما كما هو مفصل في كتب الفروع، وكالعدول عن الوضوء إلى التيمم للعذر المعروف المبيح. ومن القواعد أيضاً قول الإمام الشافعي رضي الله عنه وقد سئل عند دخوله مصر عن أواني الفخار المصنوعة بالنجاسة [فقال ثم إذا ضاق الأمر إتسع وكما إذا وقع الذباب على النجاسة]^٢ ثم وقع على الثوب ونحو ذلك، [المشقة تجلب التيسير]^٣. ومن القواعد كذلك إذا تعارض مفسدتان روعي أعظمهما ضرراً بارتكاب أخفهما.

فإذا كان الأمر كما ذكر وخيف أن يلحق بالعساكر الضرر والخلل إذا أهملوا في شأن شيء مخصوص لو لم يزجروا بسببه (ص ٢١٧) ويعزروا من أجله، ولم يكن لخصوص ذلك الفرد من الذنوب ذكر في الفروع ولا تقييد نوع تعزير خاص له

^١ - ما بين الحاصرتين غير موجود في نسخة [سوهاج].

^٢ - ما بين الحاصرتين غير موجود في نسخة [دار الكتب].

^٣ - ما بين الحاصرتين وارد في نسخة [دار الكتب] في الهامش الأيمن للصفحة، ومشار إليه في النص والهامش برقم "٣".

وخيف من الإهمال ترتب خلل بتجاريهم على أمثال تلك الأشياء الضارة وإضطراب في هؤلاء الجماعات يحصل بسببه خلل فيهم أو في الرعية أو أفراد من الناس أو جهة من الجهات، فإن للحاكم حينئذ تنظيم وترتيب أمور من التعازير وكتابتها متى ترتب على ذلك الصلاح وتوقف عليه طريق النجاح، وله أن ينوع الأقوال في ذلك بما يراه مصلحة وإعانة على ضبطهم وإنسجامهم، وتأديباً وزجراً لمن خالف من كبيرهم وصغيرهم، وهذا كله راجع إلى تلك الأصول المذكورة من الأحاديث والقواعد المرقومة آنفاً، فإن في ذلك حفظاً للرعية متضمناً للكف والذب عما يريعههم ومبعداً عما عساه يطرأ من إضرارهم في أموالهم وأعراضهم وأنفسهم، فإن صلاحهم في ذلك متوقف على إعتدال شأن الأمير وضبط أحواله وسداد أقواله وأفعاله، وذلك موقوف على ضبط أولئك الأجناد وعلى طاعتهم بالبعد^١ عما يوجب الإفساد والخلاف (ص ٢١٨) والعناد، وبتحصيل ما ذكرناه يحصل الأمن والطمانينة للعباد والبلاد، فمن أعظم المصالح للرعية إظهار شعار الشهامة والشجاعة للأعداء من الأمير وجنده ولاسيما في أوقات ظهر فيها للعدو خروج على الخليفة وشقاق ومناظرة له ولوزرائه وكافة دولته وعلى الخصوص مثل حضرة أفندينا الصدر العلي أبقاه الله فإنه وقع بينه وبين أولئك الأعداء مقاومة كبيرة وحروب شهيرة، وقد ضبط إقليم جريد ومدائنه بعساكره وقوة عزمه، ولولاه لحصل هناك من الكفار من الإضرار ما لا يدخل تحت ميزان ولا عيار، وكذلك صنيعة بقرس، وبالجملة فقد جعله الله تعالى في هذه الأزمان سداً بين أهل الإيمان وأهل الكفر والطغيان، ورادعاً لما يقوم بأوهامهم من الإقدام على قطر الكنانة في أي زمان، وحاجزاً عظيماً لكل باغ ومنتعد أينما كان، بحيث أن الله جلّت قدرته أودع قلوب أولئك الأعداء مع إختلاف أجناسهم وكثرة عدد ناسهم وظهور بأسهم ما ملأها منه مهابة وإجلالاً وإرتداعاً من (ص ٢١٩) عظيم هممه وكبير قوته الظاهرة لهم تفصيلاً وإجمالاً، فنسأل الله أن يزيده سداداً وعزة وقوة،

١ - في نسخة [دار الكتب] "البعيدة".

ويديعه محفوظاً بالتأييد والحفظ والفتوة، وعلى كل احتمال فترتيب تلك القوانين على النمط الذي ذكرناه غير خارج عن القواعد في كل حال، إلا أنه مقيد بما سيأتي بيانه ويظهر لك بالتحقيق عرفانه، وأما رجوعه لقاعدة إذا تعارض مفسدتان روعي أعظمها ضرراً بإرتكاب أخفهما، فذلك ظاهر لا مرية فيه ولا شبهة تعتريه، فإن تعزير أولئك الجنود بما ينص عليه إن قيل إنه مفسدة كان ترك التعزير بالإهمال أشد ضرراً لما يلزمه من تجاريهم وإقدامهم على المخالفات وإرتكاب المحظورات وتعاطي القبائح وعدم المبالاة بالخلل وأسبابه، وهذا كما لا يخفى يجرّ إلى الوبال ويفضي بالنكال ويكون به إضطراب الأمير والمأمور وإختلال العامة والخاصة بإختلال ذلك الجمهور، فتعين حينئذ ضبطهم بذلك الترتيب المعلوم وتحتّم تقريره لهم وإبرازه إلى الوجدان بالوجه المفهوم، فهو في الحقيقة مصلحة لهم كبيرة (ص ٢٢٠) لا مفسدة على المجاز حيث هي في إنسجامهم كشمس الظهيرة.

ومن المعلوم أن هناك أموراً وأنواعاً من جزئيات الوقائع الكثيرة غير مصرح بخصوصها ولا معنون عن أشخاصها في كتب الفروع الشرعية، وأمثلة ذلك غير محصورة ولا سيما في مثل ما يتعلق بالعساكر المذكورة، فإن أحدهم ربما أهمل شيئاً من لوازم التعليم أو تأخر بلا عذر عن أوقات التفهيم أو خالف فريقه في نوع من الأنواع، أو حصل منه تعدٍ على أحد أو إرتكب خلاف تلك الأوضاع في إقامة وسفر وسير وحرب وسلم ونحو ذلك مما لا يحصى، فإنه والحالة هذه إذا أهمل وجد الخلل سريعاً وبدا الفشل وربما عمهم جميعاً، فللأمير ضبطهم بما يراه مصلحاً وله أن يجعل للذنب نوعاً خاصاً من التعازير متى كان ضبطهم به واضحاً، بل ينبغي أن يرتب لهم من يذاكرهم في تفهّم ذلك بالتلاوة عليهم ليتمكنوا من عرفانه، وينبغي له أن يذكر في قوانينه كلما لزم لتلك الصناعة من أسباب وكيفيات وطرق للتعليم لهذه الصناعة الجليلة، بحيث إذا تذاكروا (ص ٢٢١) فيه إنطبع في أفكارهم ورسم في أذهانهم فيكون ذلك إعانة لهم وأيّ إعانة.

وبالجملة فلا ينبغي إهمالهم عن تعريفهم هذه القوانين، فإنها صالحة لهم وبها ضبطهم وكمالهم وإنسجامهم ما لم يترتب على ذلك إبطال لحكم شرعي أو إرتكاب منهي عنه مصادم للنص الصريح ومنابد للإجماع، فما لم يخالف ذلك من سائر أنواع التعازير ولم يطل به قاعدة شرعية فذلك كله لا ضرر فيه ولا حرج على فاعله شرعاً، ولا يخفى أن أهل الشرع ذكروا أن التعزير يختلف أنواعه بحسب الأشخاص، فقد يكون التعزير لشخص بضره مائة سوط، وإذا وقع مثله من شخص آخر فإنه يعزر بنقل الشال من كتفه الأيمن إلى كتفه الأيسر، وكثير من الأشياء الموجبة للتعزير لم ينصوا على شيء في خصوصها يعزر به فاعل ذلك الشيء، مع إنه لا يصح إهماله عن التعزير، فلذلك حكموا في الكثير منها باختلافه بحسب صغر الجرم وكبره، وبحسب الشخص حقارة وعظماً، وقالوا^١ الأمر في ذلك راجع لما يراه الحاكم العارف باختلاف أجناس الناس، فقد يكون (ص ٢٢٢) تعزير شخص بما يغيظه ويكربه ويلحق به غاية التكدير، ويكون هذا بعينه إذا وقع لشخص آخر يعد إكراماً له كما ذكرنا ولا سيما وشأن الجند عجيب وحالهم في الأخلاق غريب، وخاصة إذا كانوا عريقين في غلظ الطباع وفي خشونة الأخلاق كالعبيد، فإنهم لا تنكر صعوبة طباعهم وغلظ أفهامهم وأخلاقهم، ويلحق بهم أجناس الفلاحين مع إنهم مختلفون ومتفاوتون في الأخلاق، فمعظمهم غليظ الطبع جامد الخلق ويندر فيهم ضد ذلك، فإنه مشاهد فيهم، وقد رأينا في الفلاحين من ضرب ألف سوط ولم يتأثر سوى الضارب بوجع يده، ولا تستغرب ذلك فإنني قد شاهدت من ضرب ثلاثة آلاف كرباج ولم يتأوه قط، وكان هذا المضروب فلاحاً وكان ابن شيخ بلد عندي وكان الضارب له رجل يقال له عثمان أغا شقيق لاجين بيك وقصد بذلك غمي وتكديري، ثم بعد ذلك أخذ الحصاة مني نهياً وإستولى عليها ظلماً، قبحه الله وسر بله بالعذاب، فإنه كان من أكبر الظالمين، وأشد الخاسرين.

١ - في نسخة [دار الكتب] "فانوا".

وحاصل القول فيما ذكرناه أن الأمر راجع لما يراه الأمير (ص ٢٢٣) على النمط الذي شرحناه، وأنه لا يصح إهمال هؤلاء الأجناد أصلاً قولاً واحداً فإعلم ذلك وحقيقه، والضابط الجامع لذلك ولكل ما سواه قوله صلى الله عليه وسلم إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرئ ما نوى، فمتى كان القصد الإصلاح والمحافظة على الجهاد وإيجاد الأمن للرعية والذب عن القطر وأهله وإقامة الشعائر الإسلامية، كان هذا مجلبة للثواب وأعظم سبب لرضا رب الأرباب، ودليل على السعادة الكبرى وبرهان على التأييد والعز في الدنيا وفي الآخرة. نسأل الله أن يديم حضرة الصدر العلي ويوفقه لكل خير جلي، ويسدد أحواله وشؤونه بالإسعاف والإنحاف والتأييد والحفظ والألطاف.

تتمة ينبغي التأمل في شأن العساكر الجهادية، فإنه مهم كبير ينبغي الإعتناء به في سائر الأوقات والحرص على تحصيله في جميع الحالات، فإنها صناعة أشكها بديعة متقنة، والهيبة معها ثابتة محكمة، فإن من لطائفها إذا كان العدو مقبلاً في أرض أو جهة من الجهات وسار (ص ٢٢٤) الفريقان كلاهما طالب للفريق الآخر وقاصد إرهابه في حركات المحاربات، فينبغي تفريقنا وجماعتنا رفع أرجلهم ووضعها وهم بمكانهم ثابتون لا يسرون عنه خطوة ولا يتقلون، فإن فريق الأعداء يرى أنهم سائرون إليه ويظن أنهم يقاصدون لما يظهر في الشخص من حركة رجله الشبيهة بحركة الماشي، ولا يرى سوى ذلك من توالي الوهم الغاشي، فيكون فريق من جماعتنا مستريحون^١ وفريق الأعداء هم بتعب السير يختلجون، إذ ربما وقعت عين فريق على الفريق الآخر وبينهما نصف ساعة أو أكثر، وأحدهما مأسار ولا بادر فتكون هذه راحة كبيرة وزيادة إستعداد وثبات في مواطن الحرب والجلاد والطراد، ولا سيما إذا كان فريقنا مستديراً لهم بظهره، فإن الأعداء يظنونهم فارين، فرموا هرولاً مسرعين هذه المسافة فيرجع تعب كل شخص منهم عليه وكيد في نحره، فإذا قاربوا فريقنا في

^١ - في نسخة [دار الكتب] "المستريحون".

المكان فيلتفت فريقنا لفترة واحدة وهو بالراحة مصان ويضربونهم حيثئذ بالمكاحل الحاضرة، فيكر ذلك العدو من التعب (ص ٢٢٥) رجوعاً كرة خاسرة.

وبالجملة فهذه الصناعة يجب الإحتفال بها وإستجلاب الموحدين إلى معرفة ضروبها، ثم إنه ينبغي التأمّل في هؤلاء العساكر بما يصلح أبدانهم، وذلك يكون بالغذاء وإصلاحه، فالملايم لهم أن يجعلوا لهم في الأسبوع يوماً أو يومين يأكلون فيه خبز الذرة البيضاء المسمى بالبتاو، وذلك مع الجبن والبصل في وقت الضحوة وقت الغذاء المعلوم المسمى بالفطور تارة وبالغذاء بفتح الغين تارة، ويكون عشائهم ذلك اليوم مثل الببصار ونحو العدس، أو يوم هذا ويوم هذا مع البتاو والبصل، ثم بعد اليوم أو اليومين يطعمون الشريد باللحم والأرز ويكون بلحم عجول الجاموس لا البقر، وهكذا في كل أسبوع يصنعون لهم ذلك وهذا فيه لإبدانهم غاية الصلاح ونهاية القوة، لأن أبدانهم قد إعتادت ذلك بحسب نشأتهم، وألفته بداعية عاداتهم الدائمة والغالبة، وقد قالت أساطين الأعلام عود وأكل جسد بما إعتاد، فلا بد من إصلاح غذائهم على هذا المنوال والنمط الذي رقمناه، فإنه نافع لجميعهم نفعاً بيناً، والحذر كل الحذر من معالجة (ص ٢٢٦) أمراضهم بقانون طب براكلسوس الذي يعانيه الإفرنج، فإنه ضار بهم غاية الضرر، ومهلك لإبدانهم، وإنما الذي يوافقهم العلاج بقانون الطب القديم طريقة ابن سينا والمسيحي وداود الأكمه وأنظارهم، فمتى حصل لإحدهم برد وقشعريرة فلا أنجح له من بعده عن الزفر وأكلة دقة الكسفرة الناشفة المحمصة يسيراً مع قليل النعنع والملح وشوربة الأرز خالية عن السمن والزفر،

^١ - من أمثلة كتب الطب القديم:

- داود بن عمر الأنطاكي: تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجائب، جزآن، القاهرة، سنة ١٩٥٢م.

- الطب العربي في القرن الثامن عشر من خلال الأرجوزة الشفرونية، تحقيق وتعليق بدر التازي، القاهرة سنة ١٩٨٤م.

بشرط التدني والتدثر في مكان حار، فإنه بهذه الصورة يبرأ بعد ثلاثة أيام غالباً [بإذن الله]^١، وإذا غلبت عليه الصفراء فهذه الدقة غذاؤه، ويشرب بعض غسل ممزوجاً بمخل يسير، فإنه يبرأ ويلاصهم في كل شهر سفوف السنا المكي المنقى من عوده كلياً، ويجعل عليه ليمونة من المالح مقطعة أربع قطع ويوضع الماء فوق الكل، والأوقية ونصف تكفي الرجل فيبقى عليه الماء ستَّ عشر ساعة ثم يصفى بأجمعه في إناء ويحلى بشيء من نحو غسل ويشرب، فإنه نافع لهم غاية النفع.

وأما في مثل أوقات الرباء فينبغي أن لا يختلطوا بغيرهم أبداً ولا يأكلون ذلك الوقت شيئاً من أنواع الحلوى أصلاً، ويكثرون من أكل (ص ٢٢٧) البصل والحاذق ونحو القثاء والخيار والخس، ويبخرون أماكنهم في الصباح داخلاً وخارجاً بمثل تراب اللوبان ونحو المسكة^٢ الصيفية، فإن ذلك يطرد عفونة الرباء [إن شاء الله]^٣.

وعلى كل حال فالواجب إبعادهم عن العلاج بطب براكلسوس، فإنه لا يوافق إلا أهل الأقطار الباردة كالروم والشام وحلب ونحوها، أما أهل قطر مصر جميعه فلا. وبالجملة والتفصيل فلا ينبغي إهمال أولئك الأجناد، ونسأل الله أن يوفقهم للسداد ويعينهم ويقويهم ويجعل عقباهم إلى الخير وبطيل بقاء حضرة سيدنا الصدر العلي ذي العز والفخر الجلي، ويديم حفظه مع العز والسداد والتأييد والإسعاف بالقصد والمراد، والله أعلم^٤.

١ - ما بين الحاصرتين ليس موجود في نسخة [سوهاج]، وفي نسخة [دار الكتب] مكتوب في الهامش الأيسر من الصفحة ومشار إليه في النص.

٢ - في نسخة لأدار الكتب [المسكة].

٣ - ما بين الحاصرتين غير موجود في نسخة [سوهاج]، مكتوب في نسخة [دار الكتب] في الهامش الأيمن للصفحة ومشار إليه في النص.

٤ - إلى هنا ينتهي نص نسخة [سوهاج]، وباقي النص المنشور من نسخة [دار الكتب]، وسنستعمل أرقام صفحاتها.

تمت كتابته آخر يوم
 من شعبان سنة ١٢٩٣
 ثلاثة وتسعين
 ومائتين
 بعد
 الألف^١

(ص ١٩٨)

^١ - هذا التاريخ هو تاريخ نسخة دار الكتب.

فائدة

مراسلة من قران الروسية إلى مولانا السلطان عبد المجيد

العزة لله، قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، إعلموا أننا جند خلقنا الله تعالى من سخطه، وسلطانا على من حل عليه غضبه، لا نرق لشاكي ولا نرحم عيرة باكي، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا، فالويل لمن لم يكن من حزيننا، قد خربنا البلاد ويتمنا الأولاد وأظهرنا فيها الفساد، وخیولنا سوابق ورماحنا خوارق وسهامنا بوارق وسيوفنا صواعق وليوثنا سواحق، وعددنا كالرمال وقلوبنا كالجبال، من رام سلمنا سلم ومن لم يدخل حزيننا ندم، فملكنا لا يرام وجارنا لا يضام، فإن أنتم قبلتم شروطنا كان لكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن أنتم أبيتم وعلى بغيكم تماديتم فلا تلوموا إلا أنفسكم (ص ١٩٩) فالتحصن من أيدينا لا يمنع والعساكر لقتالنا لا تضر ولا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يستجاب ولا ينجع، لأنكم أكلتم الحرام وإرتكبتم الآثام وضيعتم الجمع وغرقتم في بحار الطمع وسلكتم طريق العدوان، فأبشروا بالمدلة والهوان اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون، لقد ثبت عندكم إننا كفرة وقد ثبت عندنا أنكم فجرة، قد سلطنا عليكم إله بيده أمور مقدرة وأحكام مدبرة، فعزیزكم لدينا ذلیل وكثیركم لدينا قليل، فإننا قد ملكنا الأرض شرقاً وغرباً

وأخذنا كل سفينة غصبا، وقد أوضحنا لكم طريق الصواب فأسرعوا إلينا برد الجواب قبل أن يكشف الغطاء ويقع الحرب والسطاء وتوقد الحرب نارها وترمي عليكم شرارها، ولم يبق لكم باقية، وينادي عليكم منادي الفنا هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا.

قد أنصفناكم حيث راسلناكم، ونشرنا عليكم جواهر هذا الكلام والسلام.

جواب حضرة الخاقان الأعظم والدستور المكرم

(ع ٢٠٠)

قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير، وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً.

وصل الكتاب المخير عن الحضرة الإنجائية والسُّدة العظيمة القانية، تقولون إنكم مخلوقون من سخطه ومسلطون على من حل عليه غضبه، ولا ترقون لشاكي ولا ترحمون عبدة باكي، قد نزع الله الرحمة من قلوبكم، فذلك أكبر عيوبكم، وهذه من صفات الشياطين لا من صفات السلاطين، وكفى بهذه الشهادة عليكم و[هى] أعظم ما وصفتكم به أنفسكم [وكفى بقول الله أمراً ونهياً]، قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين، ففي كل كتاب لعنتم وبكل قبحة وصفتكم وعلى لسان كل رسول ذكركم وعند الأحبار من حين خلقتهم، وزعمتم أنكم كفر، ألا لعنة الله على الكافرين، ومن تمسك بالأصول لا ييالي بالفروع، فنحن المؤمنون حقاً والقائلون صدقاً لا يدخلنا عيب ولا يصدر عنا ريب، القرآن على لسان نبينا نزل وهو رحيم بنا لم

^١ - ما بين الحاصرتين مكتوب في الهامش الأيسر للصفحة ومشار إليه في النص.

^٢ - ما بين الحاصرتين مكتوب في الهامش الأيسر للصفحة ومشار إليه في النص.

يزل، وتحققنا من شريعته إنما النار (ص ٢٠١) لكم خلقت وجلودكم أضمرت، والجحيم لكم سرعت إذا السماء انفطرت، ومن أعجب العجب تهديد الرتوت بالتوت والسباع بالضباع والكماة بالكراع، فنحن خيولنا رقية وسيوفنا يمانية ورماحنا خطية وسهامنا خلنجية ولتوتنا مصرية وأكتافنا شديدة المضارب وصفاتنا في المشارق والمغارب، إن قتلناكم فنعم البضاعة، وأن قُتلنا فبيننا وبين الجنة ساعة ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون، وأما قولكم قلوبنا كالجبال وعدنا كالرمال، فالقصاب لا يبالي من كثرة الغنم، وإن كثيراً من الحطب يكفيه قليل من الضرم، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين، الفرار الفرار من الرزية لا من المنية، فنحن عندنا المنية إن عشنا سعداء وإن متنا شهداء، ألا إن حزب الله هم الغالبون، أبعد أمير المؤمنين [يقول إن] ^١ تريدوا منا الطاعة، لا سمعاً لكم ولا طاعة، وطلبتم أن نسلم أمرنا قبل أن يكشف الغطاء ويقع الحرب والسطاء، هذا الكلام في نظمه تركيب وفي سلكه تفكيك، لو كشف الغطاء لبان النقصاء بعد التبيان أكفر [تم] ^٢ بعد إيمان لأنكم اتخذتم (ص ٢٠٢) إلهاً ثانياً، لقد جئتم شيئاً إداً تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً.

قل لكاتبكم الذي وصف مقالته وصل كتابك فما هو إلا كصرير باب أو طنين ذباب، سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً.

^١ - ما بين الحاصرتين مشطوب عليه في النص.

^٢ - ما بين الحاصرتين مشطوب عليه في النص.

المصادر والمراجع

أولاً: المخطوطات

- ١- الأوامر والمكاتبات الصادرة من محمد علي باشا، ج ١، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٤٨٤ تاريخ تيمور.
- ٢- البكري، محمد بن أبي السرور، ت سنة ١٠٨٧هـ/١٦٧٦م: قطف الأزهار من الخطط والآثار، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٤٥٧ جغرافيا.
- ٣- عبد الحميد بك نافع: ذيل المقرئ، مخطوط بمكتبة الجامع الأزهر، رقم ٦٧٠٣.

ثانياً: المصادر العربية

- ١- آدى شير: الألفاظ الفارسية المعربة، القاهرة، الطبعة الثانية، دار العرب للبستاني، القاهرة سنة ١٩٨٨م.
- ٢- آمال العمري: دراسات في وثائق داود باشا، القاهرة سنة ١٩٨٦م.
- ٣- أحمد الحته وآخرون: جهود إبراهيم باشا في خدمة الزراعة والصناعة والتجارة، ضمن كتاب ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا، ١٨٤٨-١٩٤٨، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة سنة ١٩٤٨م.
- ٤- أحمد السعيد سليمان: تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م.
- ٥- أحمد شلبى بن عبد الغنى، ت ١١٥٠هـ/١٧٣٧م: أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات، الملقب بالتاريخ العيني، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٧٨م.

- ٦- أحمد عبد الرحيم مصطفى: عصر حكيان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة سنة ١٩٩٠م.
- ٧- أحمد عزت عبد الكريم: تاريخ التعليم في عصر محمد علي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة سنة ١٩٣٨م.
- ٨- أحمد كتخدا عزبان الدمرداشي: الدرة المصانة في أخبار الكنانة، تحقيق عبد الوهاب بكر ودانيال كريسيليوس، القاهرة سنة ١٩٩١م.
- ٩- أحمد فارس عبد المنعم: السلطة السياسية والتنمية (منذ ١٨٠٥ وحتى الآن)، مؤسسة الأهرام، القاهرة سنة ١٩٩٣م.
- ١٠- أمين سامي، تقويم النيل، الجزء الثاني، الجزء الثالث (٣ مجلدات) وملحق، الجزء الثاني: مطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٢٨، الجزء الثالث: مطبعة دار الكتب، القاهرة سنة ١٩٣٦، ملحق: مطبعة دار الكتب، القاهرة سنة ١٩٣٦.
- ١١- أندريه رمون: فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية، ترجمة زهير الشايب، روز اليوسف، القاهرة ١٩٧٤م.
- ١٢- ابراهيم حليم: تاريخ الدولة العثمانية العلية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت سنة ١٩٨٨.
- ١٣- ابن اياس، محمد بن أحمد الحنفي، ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ٥ أجزاء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة سنة ١٩٨٢-١٩٨٤.
- ١٤- ابن عبد الظاهر، محيي الدين: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور "المنصور قلاوون" ٦٧٨-٦٨٩هـ، تحقيق مراد كامل، القاهرة سنة ١٩٦١م.
- ١٥- ابن عبد الظاهر، محيي الدين: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض سنة ١٩٧٦.
- ١٦- الان ريتشاردز: التطور الزراعي في مصر (١٨٠٠/١٩٨٠)، ترجمة أحمد فؤاد سيف النصر، كتاب الأهالي رقم ٣٤، القاهرة سنة ١٩٩١م.
- ١٧- الياس الأيوبي: تاريخ مصر في عهد الخديوي اسماعيل باشا، من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٧٩، مجلدان، مطبعة دار الكتب، القاهرة سنة ١٩٢٣.
- ١٨- بريس دافين: ترجمة أنور لوقا، (أدريس أفندي في مصر)، مذكرات بريس دافين (١٨٠٧-١٨٧٩)، أخبار اليوم، القاهرة سنة ١٩٩١م.

- ١٩-البغدادي، إسماعيل باشا: إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، استانبول سنة ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م.
- ٢٠-البغدادي، إسماعيل باشا: هدية العارفين - أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، استانبول سنة ١٩٥١م.
- ٢١-الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن، ت ١٢٤٩هـ/٢٤-١٨٢٥م: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ٤ أجزاء، الطبعة الأولى، بولاق سنة ١٣٢٢هـ.
- ٢٢-الجبرتي: مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين، تحقيق حسن محمد جوهر وعمر الدسوقي، لجنة البيان العربي، القاهرة سنة ١٩٦٩م.
- ٢٣-جورج حندي وحاك تاجر: إسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة سنة ١٩٢٣.
- ٢٤-حسن عبد الوهاب: العمارة في عصر محمد علي باشا، مجلة العمارة المجلد الثالث سنة ١٩٤١، العدد ٣-٤.
- ٢٥-حسن عبد الوهاب: قناطر محمد علي، مجلة العمارة، المجلد الثالث سنة ١٩٤١، العدد ٣-٤.
- ٢٦-حسن عبد الوهاب: مسجد الخانقاه، مجلة العمارة، المجلد الثالث سنة ١٩٤١، العدد ٣-٤.
- ٢٧-حسن عبد الوهاب: المصانع، مجلة العمارة المجلد الثالث سنة ١٩٤١، العدد ٣-٤.
- ٢٨-حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية، جزءان، مطبعة دار الكتب، القاهرة سنة ١٩٤٦.
- ٢٩-حسن قاسم: المزارات الإسلامية والآثار العربية في مصر والقاهرة المعزية، القاهرة سنة ١٩٤٢.
- ٣٠-الحموي، ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي: معجم البلدان، ٥ أجزاء، دار الكتاب العربي، بيروت (د.ت).
- ٣١-حسين أفندي الروزناجي: ترتيب الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية، تحقيق محمد شفيق غربال، بعنوان "مصر عند مفترق الطرق ١٧٩٨-١٨٠٠م"، حوليات كلية الآداب، جامعة فواد (القاهرة)، مجلد ٤ جزء ١، سنة ١٩٣٦م.
- ٣٢-الحشاش، إسماعيل: خلاصة ما يراى من أخبار الأمير مراد، حققه وترجمه وعلق عليه حمزة عبد العزيز ودانيال كريسيليوس، القاهرة سنة ١٩٩٢م.
- ٣٣-داود بن عمر الأنطاكي: تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجائب، جزآن، مكتبة مصطفى الباني الحلبي، القاهرة، سنة ١٩٥٢م.
- ٣٤-دانيال كريسيليوس: جذور مصر الحديثة، ترجمة عبد الوهاب بكر، القاهرة سنة ١٩٨٥م.

- ٣٥-الدمرداشي، الأمير أحمد الدمرداشي كتنخدا عزبان، القرن ١٢هـ/١٨م: الدرة المصانة في أخبار الكنانة، تحقيق دانيال كريسيلىوس وعبد الوهاب بكر، دار الزهراء للنشر، القاهرة ١٩٩٢.
- ٣٦-رجب حراز: المدخل إلى تاريخ مصر الحديث، دار النهضة العربية، القاهرة سنة ١٩٧٠م.
- ٣٧-رد حاوس: كتاب معاني لهجة، بيروت ١٩٨٧م.
- ٣٨-الرشيدى، الشيخ أحمد ت ١١٧٨هـ/١٧٦٤م: حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولى اماره الحاج، تحقيق لىلى عبد اللطيف أحمد، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٠م.
- ٣٩-زينب راشد: كريت تحت الحكم المصري ١٨٣٠-١٨٤٠، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية القاهرة سنة ١٩٦٤م.
- ٤٠-سعاد ماهر: مشهد الإمام علي في النجف وما به من الهدايا والتحف، دار المعارف، القاهرة، سنة ١٩٦٩م.
- ٤١-السكري، علي بن جوهر: الكوكب السيار إلى قبور الأبرار، تحقيق ودارسة ونشر محمد عبد الستار عثمان، سوهاج سنة ١٩٩٢م.
- ٤٢-السيد السيد أحمد توفيق دياب: السياحة في مصر خلال القرن التاسع عشر، دراسة في تاريخ مصر الإقتصادي والإجتماعي، القاهرة سنة ١٩٩٤م.
- ٤٣-السيد محسن الأمين: كشف الإرتياب في أتباع محمد بن عبد الوهاب، كتبخانة برزك اسلاه (د. ت).
- ٤٤-الشجاعى، شمس الدين: تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده، تحقيق برباره شيفر، القاهرة سنة ١٩٧٨م.
- ٤٥-صلاح الدين المختار: تاريخ المملكة العربية السعودية، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت سنة ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م.
- ٤٦-طاهر الصادق وآخرون: مدن مصر ذات التبادل الحضاري، التقرير الثاني، أغسطس ١٩٩٤م.
- ٤٧-الطب العربي في القرن الثامن عشر من خلال الأرحوزة الشقرونية، تحقيق وتعليق بدر التازي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة سنة ١٩٨٤م.
- ٤٨-طوبيا العيسى: تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية، دار العرب للبستاني، القاهرة سنة ١٩٦٤م.
- ٤٩-عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة سنة ١٩٨٢م.

- ٥٠- عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي لعصر محمد علي الكبير، الجمعية الملكية للدراسات التاريخية، القاهرة سنة ١٩٥٠م.
- ٥١- عبد الرحمن زكي: الجيش المصري في عهد محمد علي، مطبعة حجازي، القاهرة سنة ١٩٣٩م.
- ٥٢- عبد الرحمن زكي: الحصون والقلاع، مجلة العمارة، المجلد الثالث سنة ١٩٤١، العدد ٣-٤.
- ٥٣- عبد الرحمن زكي: قلعة مصر من السلطان صلاح الدين إلى الملك فاروق، القاهرة سنة ١٩٥٠م.
- ٥٤- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: الريف المصري في القرن الثامن عشر، مطبعة جامعة عين شمس، القاهرة سنة ١٩٧٤م.
- ٥٥- عبد الرحيم عبد الرحمن: الإدارة في البلاد العربية في العصر العثماني، مجلة الدارة، العدد الأول - السنة التاسعة، الرياض سنة ١٩٨٣م.
- ٥٦- عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت، ١٥١٦-١٧٩٨م، دمشق سنة ١٩٦٨م.
- ٥٧- علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة وبلادها القديمة والشهيرة، ٢٠ جزء، الطبعة الأولى، بولاق، القاهرة سنة ١٣٠٦هـ.
- ٥٨- علي شافعي: أعمال المنافع العامة الكبرى في عهد محمد علي الكبير، الجمعية الملكية للدراسات التاريخية، القاهرة سنة ١٩٥٠م.
- ٥٩- علي شليبي: المصريون والجندية في القرن التاسع عشر، دار الكتاب الجامعي، القاهرة سنة ١٩٨٨م.
- ٦٠- عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب، دمشق سنة ١٩٤٩م.
- ٦١- عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، دمشق ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م.
- ٦٢- عمر طوسون: صفحة من تاريخ مصر في عهد محمد علي، الجيش البري والبحري، دار الكتب المصرية، القاهرة سنة ١٩٤٠م.
- ٦٣- عمر طوسون: الصنائع والمدارس الحربية في عهد محمد علي باشا، الطبعة الثالثة، الاسكندرية سنة ١٩٣٥م.
- ٦٤- عمر طوسون: تاريخ خليج الاسكندرية القديم وترعة المحمودية، الاسكندرية سنة ١٩٤٢م.
- ٦٥- عمر عبد العزيز: تاريخ مصر الحديث (١٥١٧-١٩١٩)، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية سنة ١٩٩٣م.

- ٦٦-العيني، بدر الدين: السيف المهند في سيرة الملك المؤيد "شيخ الحمودي"، تحقيق فهد محمد شلتوت، القاهرة سنة ١٩٦٧م.
- ٦٧-كلوت بيك: لمحة عامة الى مصر، ترجمة محمد مسعود، ٤ أجزاء، دار الموقف العربي، القاهرة سنة ١٩٨٢-١٩٨٤م.
- ٦٨-الكلبي: أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها، تحقيق أحمد زكي، القاهرة سنة ١٩٦٥.
- ٦٩-ليلي عبد اللطيف أحمد: الادارة في مصر في العصر العثماني، مطبعة جامعة عين شمس، القاهرة سنة ١٩٧٨م.
- ٧٠-محمد حسام الدين اسماعيل عبد الفتاح: منطقة الدرب الأحمر، دراسة للقسم الثالث من ظاهر القاهرة القبلي، دراسة أثرية تسجيلية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية آداب سوهاج، جامعة أسيوط، سنة ١٩٨٦.
- ٧١-محمد حسام الدين اسماعيل عبد الفتاح: بعض الملاحظات على العلاقة بين مرور المراكب ووضع المباني الأثرية في شوارع القاهرة، حوليات إسلامية، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، مج ٢٥، سنة ١٩٩٠م.
- ٧٢-محمد حسام الدين اسماعيل عبد الفتاح: وجه مدينة القاهرة من ولاية محمد علي حتى نهاية حكم اسماعيل ١٨٠٥ - ١٨٧٩م، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب جامعة أسيوط، قسم الآثار الإسلامية، سنة ١٩٩٤م.
- ٧٣-محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥، قسمان، ٥ أجزاء، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة سنة ١٩٩٤م.
- ٧٤-محمد زكريا عناني: مراسلات متبادلة بين الشريف غالب بن مساعد وبين نابليون بونابرت ورجال حملته على الشرق (إضافات)، مجلة الدارة، عدد ٤، السنة ٢١، الرياض سنة ١٤١٦هـ.
- ٧٥-محمد شفيق غربال: محمد علي الكبير، دار الهلال، القاهرة سنة ١٩٨٦م.
- ٧٦-محمد عبد الكريم الوافي: في تاريخ العرب الحديث، يوسف باشا القرماني والحملة الفرنسية على مصر، طرابلس سنة ١٩٨٤م.
- ٧٧-محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وظهور محمد علي، مطبعة المعارف، القاهرة د.ت.
- ٧٨-محمد فؤاد شكري وآخرون: بناء دولة، مصر محمد علي، دار الفكر العربي، القاهرة سنة ١٩٤٨م.

- ٧٩- محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر ١٨٠١-١٨١١، ثلاث أجزاء، مطبعة جامعة القاهرة، القاهرة سنة ١٩٥٨م.
- ٨٠- محمد فؤاد شكري: مصر والسودان، تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر ١٨٢٠-١٨٩٩، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٣م.
- ٨١- محمد محمود السروجي وآخرون: الإسكندرية منذ أقدم العصور، الإسكندرية سنة ١٩٦٣م.
- ٨٢- محمد محمود السروجي وآخرون: البحرية المصرية في العصر الحديث، ضمن تاريخ البحرية المصرية، مطبعة جامعة الإسكندرية، الإسكندرية سنة ١٩٧٤م.
- ٨٣- محمد محمود السروجي: الجيش المصري في القرن التاسع عشر، دار المعارف، القاهرة سنة ١٩٦٧م.
- ٨٤- محمد مصطفى: مخطوط في تعليم فنون القتال والفروسية في أواخر عصر المماليك الجراكسة، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، مارس-أبريل سنة ١٩٦٩م، ثلاث أجزاء، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة سنة ١٩٧١م.
- ٨٥- محمد بن منكلي، ٧٨٤هـ/١٣٨٢م: الأدلة الرسمية في التعايي الحربية، تحقيق محمود شيت خطاب، المجموع العلمي العراقي، بغداد سنة ١٩٨٨.
- ٨٦- محمود الشرقاوي: مصر في القرن الثامن عشر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة سنة ١٩٥٧م.
- ٨٧- محمود محمد فتحي الألفي: العمارة الإسلامية في مصر خلال القرن التاسع عشر، أسرة محمد علي بالقاهرة ١٨٠٥-١٨٩٩م، رسالة دكتوراة غير منشورة، قسم العمارة، كلية الهندسة، جامعة القاهرة سنة ١٩٨٥م.
- ٨٨- المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي، ت سنة ٨٤٥هـ/١٤٤١م: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط، جزآن، بولاق سنة ١٨٥٤م.
- ٨٩- ناهد عبد العال محمد السويدي: ديوان الخديوي في عهد عباس الأول، دراسة وثائقية أرشيفية للوثائق والسجلات العربية في الفترة من ٢٧ ذي الحجة ١٢٦٤هـ - ١٨ شوال ١٢٧٠هـ، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم المكتبات والوثائق، كلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٨٨م.
- ٩٠- نيبور، كارستين: رحلة إلى مصر ١٧٦١-١٧٦٢م، ترجمة مصطفى ماهر، القاهرة سنة ١٩٧٧م.

- ٩١- نيقولا الترك: مذكرات، ترجمة جاستون فييت، حوليات مصر (١٧٩٨-١٨٠٤)، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، القاهرة، سنة ١٩٥٠م.
- ٩٢- هنري دودويل: محمد علي مؤسس مصر الحديثة، ترجمة أحمد محمد عبد الخالق وعلي أحمد شكري، الطبعة الثانية، مكتبة الآداب، القاهرة د.ت.
- ٩٣- هيلين آن ريفلين: الاقتصاد والإدارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر، ترجمة أحمد عبيد الرحيم مصطفى ومصطفى الحسيني، دار المعارف، القاهرة سنة ١٩٦٨م.

ثالثاً: المصادر الأجنبية

- 1- Abu-Lughod, Janet L., Cairo: 1001 Years of the City Victorious, New Jersey, 1971.
- 2- Arnaud, Jean-Luc, Observatoire Urbain du Caire Contemporain, Cartographie de l'Egypte, Cairo, 1989.
- 3- Ayalon, David, "Studies in al-Jabarti I, Notes on the Transformation of Mamluk Society in Egypt under the Ottomans," Journal of the Economic and Social History of the Orient III (1960), 148-174, 275-325.
- 4- Baer, Gabriel, A History of Landownership in Modern Egypt: 1800-1950, London, 1962.
- 5- Baer, Gabriel, Egyptian Guilds in Modern Times, Jerusalem, 1964.
- 6- Baer, Gabriel, "Fellah Rebellion in Egypt and the Fertile Crescent," in Gabriel Baer, Fellah and Townsman in the Middle East, London, 1982, 253-323.
- 7- Bakr, 'Abd al-Wahhab, "Administrative and Judicial Rules Relating to Land and Property in Ottoman Egypt in the Eighteenth Century," Majallat Kuliyat al-Adab, Zagazig University, Vol. II, 1988, 1-20.
- 8- Behrens-Abouseif, Doris, "An Unlisted Monument of the Fifteenth Century: The Dome of Zawayat al-Damirdash," Annales Islamologiques, XVIII, 1982, 105-115.
- 9- Behrens-Abouseif, Doris, Azbakiyya and its Environs From Azbak To Isma'il: 1476-1879, Le Caire, 1985.
- 10- Behrens-Abouseif, Doris, Islamic Architecture in Cairo, An Introduction, Cairo, 1989.
- 11- Bowring, John, Report on Candia and Egypt, London, 1840.

- 12-Cezzar, Ahmed, translated and annotated by Stanford J. Shaw, *Ottoman Egypt in the Eighteenth Century*, Cambridge, Harvard University Press, 1962.
- 13-Crecelius, Daniel, *The Roots of Modern Egypt. A Study of the Regimes of 'Ali Bey al-Kabir and Muhammad Bey Abu al-Dhahab, 1760-1775*, Chicago, 1981.
- 14-Crecelius, Daniel, "The Waqf of Muhammad Bey Abu al-Dhahab in Historical Perspective," *International Journal of Middle East Studies* 23 (February, 1991), 89-102.
- 15-Crecelius, Daniel, "The Waqfiyyah of Muhammad Bey Abu al-Dhahab," *Journal of the American Research Center in Egypt* XV (1978), 83-105 ; XVI (1979), 125-146.
- 16-Cuno, Kenneth M., *The Pasha's Peasants*, Cambridge, Cambridge University Press, 1992.
- 17-Douin, Georges, "L'ambassade d'Elfi Bey à Londres (Octobre-Décembre 1803)," *Bulletin de l'Institut d'Egypte* VII (1925), 95-120.
- 18-Douin, Georges, *Les Premières Frégates de Mohamed Aly (1824-1827)*, Cairo, 1926.
- 19-Douin, Georges, and C.E. Fawtier-Jones, *l'Angleterre et l'Egypte: La Campagne de 1807*, Cairo, 1928.
- 20-Douin, Georges, and C.E. Fawtier-Jones, *L'Angleterre et l'Egypte: La politique mameluke, 1801-1803*, Cairo, 1929.
- 21-Driault, Edouard, *Mohamed Aly et Napoléon, 1807-1814*, Cairo, 1925.
- 22-Durand-Viel, Georges, *Les Campagnes Navales de Mohammed Aly et d'Ibrahim*, Paris, 2 volumes, 1937.
- 23-Enkiri, Gabriel, *Ibrahim Pascha (1789-1848)*, Cairo, 1948.
- 24-El-Gawhary, *Ex-Royal Palaces in Egypt From Mohamed Aly To Farouk*, Cairo, 1954.
- 25-Farhi, David, "Nizam-i Cedid - Military Reform in Egypt under Mehmed 'Ali," *Asian and African Studies* 8 (1972), 151-183.
- 26-Faroqi, Suraiya, *Pilgrims & Sultans, The Hajj Under the Ottomans*, London, 1994.
- 27-Hautecoeur, Louis, and Gaston Wiet, *Les Mosquées du Caire*, Vol. I, Paris, 1932.
- 28-Holt, P.M., "The Beylicate in Ottoman Egypt during the Seventeenth Century," *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* XXIV, 1961, 214-248.
- 29-Holt, P.M., *Egypt and the Fertile Crescent*, Ithaca, 1992.

- 30-Holt, Peter, "The Pattern of Egyptian Political History from 1517-1798," in P.M. Holt, ed., *Political and Social Change in Modern Egypt*, London, 1968, 79-90.
- 31-Huseyn Efendi, translated with notes by Stanford J. Shaw, *Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution*, Cambridge, Harvard University Press, 1966.
- 32-Jaubert, A. "Nomenclature des Tribus Arabes," *Description de l'Egypte, Etat Moderne*, Paris, 1821-1829, Tome XVI, 110-137.
- 33-Lane, Edward W., *An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians*, London, 1860.
- 34-The National Archives of the United States, *despatches from United States Consuls in Alexandria*, Roll 1, Volume 1.
- 35-Raymond, André, *Artisans et Commerçants au Caire au XXVIII^e siècle*, 2 vols., Damascus, 1973-74.
- 36-Rivlin, Helen Anne B., *The Agricultural Policy of Muhammad 'Ali in Egypt*, Cambridge, Harvard University Press, 1961.
- 37-Scharabi, Mohamed, *Kairo: Stadt und Architektur im Zeitalter des europäischen Kolonialismus*, Tübingen, 1989.
- 38-Shaw, Stanford J., *The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517-1798*, Princeton, 1962.
- 39-Tagher, Jacques, ed., *Mémoires de A.-B. Clot Bey*, Cairo, 1949.
- 40-Weygand, General Maxime, *Histoire Militaire de Mohammed Aly et des ses Fils*, 2 vols., Paris, 1936.
- 41-Wiet, Gaston, *Mohammed Ali et les Beaux-Arts*, Cairo, 1948.
- 42-Wiet, Gaston, *Nicolas Turc: Chronique d'Egypte*, Cairo, 1950.

الفهارس

٢٧١

إستانبول، ١٢٤، ١٢٥، ١٣٨، ١٤٣، ١٥١،
١٩٧، ١٦٤
الإسكندرية، ١١، ١٥، ٢٦، ٢٩، ٣١، ٤٦-
٤٨، ٥٠، ٥١، ٧٥، ١٣٢، ١٣٧، ١٨٩،
١٩٦-١٩٩، ٢٠١-٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢١٦-
٢١٨، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٨، ٢٢٩
إسلامبول، ٧٧، ٨٧، ١٣٨، ١٤١ انظر إستانبول
إسماعيل الزعلوك، ١٧٤
إسماعيل باشا، ١٢٤، ١٢٨، ١٣٢-١٣٤، ١٣٧،
١٣٨، ١٤٣، ١٥٦
إشراق، ٢١٨
الإفراجات، ٦٣
الإمام الحسين، ١٤٠، ١٩٤
الإمام الشافعي، ١٢٨، ١٣٢، ١٥٥، ١٩٤،
١٩٥
الإنجليز، ٢٢، ٤٠، ١١٦، ١٤١، ٢٢٤، ٢٢٧،
٢٣٨، ٢٣٩ انظر الإنكليز
الإنكشارية، ١٢٦، ١٢٨
الإنكليز، ١٩٣، ١٩٦، ١٩٩، ٢١٧، ٢٢٤،
٢٣٩
ابن زغلول، ١٧٠
ابن سعود، ١٥١، ١٥٩، ١٦١، ١٦٤
ابن مضيان، ١٢٤، ١٤٤
اسماعيل كاشف الطوبجي، ١٩٧
باب الغريب، ٧٣
باب اللوق، ٧٣
البارجة الامريكية، ٢١٦
البارود، ٧١، ١٣٢، ١٤٦، ١٩٢، ١٩٩، ٢١٧،
٢٤٥
باش طيجي، ١٤٥
باغوص بيك، ٢١٦

آل سعود، ١٢٠، ١٢٤، ١٥٧
أبي المنجا، ٢١٩
الأتراك، ٨، ٢٨، ٣٩
أحمد أغا الخازندار، ١٩٧
أحمد الطحطاوي، ١٣٤
أحمد باشا الجزائر، ١١٥
أحمد باشا، ٢٩، ١١٥، ١٢٦
أحمد بن حنبل، ١١٧
الأرنؤوط، ٨، ٣٩، ١٢٦
الأزبكية، ٧٠، ٧٣، ٩٥، ٢٢٤
الأزهر، ٨، ١٠، ١١، ١٧، ١٩، ٢٨، ٢٩، ٣٤،
٤٠، ٥٦، ٥٨، ٦٣، ٦٦، ٧٣، ٨٥، ٩٧، ١١١،
١٣٤
الأسطول المصري، ٢١٦
أسنا، ٢٣٥
أسيوط، ١٩٠
الأشقم، ١٧١
أشمون جريس، ٥٦
أغا الانكشارية، ٦٩، ١١٤
أغات المفتاح، ١٢٤
الأغوات الصقلية، ٢٢٥، ٢٢٦، ١٣٦
الأقباط، ٤٩، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٤
أمير الحاج، ١٦٨، ٢٠٩
الأميرية، ٣٩
أولاد علي، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩
إبراهيم باشا، ١٢، ٣٧، ٥٣، ١١٨، ١٤٢،
١٥٤، ١٥٦، ١٥٧، ١٦٣، ٢٣٨
إبراهيم بيك الكبير، ٣٣، ١٢٦
إبراهيم بيك، ٢٧، ٦٠، ٦٣، ٦٤، ٦٨، ٧٥،
٧٨، ٩٤، ٩٧، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٧،
١١٢، ١١٣، ١١٤، ٢٢٤

- البحر الأحمر, ١٢٥
بحر يوسف, ٢٢٠
البحيرة, ١٧١, ١٧٩, ٢٢٠, ٢٢٤, ٢٢٨
البرديسي, ٧٦, ٧٨, ٨٠, ١٠١, ١٠٥, ٢١٠, ٢٢٤, ٢٢٧
بركة الفيل, ٦٣
برينبال, ١٥٣
برينبال, ١٣٢
بغداد, ١١٥
بلاد الحاجر, ٢٢٠
بلاد الحرمين, ١١٥, ١٢٣, ١٢٩, ١٥٠, ١٥٦
انظر الحرمين الشريفين
بليس, ٢٢٠, ٢٢٢, ٢٢٤, ٢٢٧
بليي, ١٧٣
بني سويف, ١٩٠
بورنج, ٢١٦, ٢٢٢
بولاق, ١٣, ١٧, ٢٤, ٣٧, ٣٩, ١٣١, ١٣٢, ١٣٧, ١٧٨, ١٩٠, ١٩٣, ١٩٩, ٢٠٧, ٢١٦
بونابارته الخازندار, ١٣٧
بيبرس البندقداري, ٢١٩, ٢٢٠
ترسانة, ١٣١, ٢١٦
الترغ, ٢١٥, ٢١٩, ٢٢٠
الترعة البولاقية, ١٧٨
ترعة الممودية, ٢٤, ٢٦, ٤٧, ٤٨
التقاسيط السلطانية, ٦٣
تلا, ١٦٦
تهامة, ١٢٤
الجامكية, ٢١٣
الجبخانة, ٢١٧, ٢٢٦
الجزيرتي, ١١, ١٥, ١٨-٢٥, ٣٠-٣١, ٣٤-
٣٩, ٤١, ٤٣-٤٦, ٥٠-٥٤
- جدة, ١١٦, ١٢٥, ١٢٦, ١٢٩, ١٣٠, ١٣٧,
١٣٩, ١٤١, ١٤٩, ١٥٠, ١٥٤
جرجا, ١٦٨, ١٧٩, ١٩٠
الجزيرة العربية, ١١٥, ١١٨, ١٥١, ١٥٧
جزيرة بدران, ٣٩
الجمالية, ٤٠
الجيزة, ٦٤, ٧٦, ٨٤, ٩٨, ٩٩, ١٠١, ١٠٣,
١٠٨
الجيش المصري, ١٢٥, ١٣٠
الحاج, ١٦٨, ١٨٦, ٢٠٩, ٢١٠ انظر الحج
حاكم ولاية جرجا, ١٦٨
الحج, ٣٦, ٤٩
الحجاز, ١١٦, ١٢٠, ١٢٣, ١٢٥, ١٢٨,
١٣٠, ١٣١, ١٣٢, ١٣٤, ١٣٥, ١٣٦, ١٣٧,
١٤٢, ١٥٢, ١٥٤, ١٥٦, ١٦٤
ححو بيك, ١٩٧
حرام, ١٦٦, ١٧٢
الحرمين الشريفين, ٣٣, ٣٤, ٣٨, ٤٩, ١٢٣,
١٢٩, ١٥١, ٢٠٩, ٢١٠
الحريز, ٢٢٠, ٢٢١
حسن أغا سر ششمه, ١٣٨
حسن باشا الجزايرلي, ١٠٤
حسن باشا القبطان, ٦٠, ٦٤
حسن باشا طاهر, ٣٢, ٧٨, ١٠١, ١٠٢, ١٠٦,
١٠٩, ١٩٧, ٢١٨
حسن بيك الأرندودي, ١١١
حسن بيك الجداوي, ١٠٤
حسن بيك الشماشجي, ٢٦
حسن بيك, ٢٢٨, ٢٢٩
حسين باشا القايدون, ٧٦, ٩٤
الحكام, ١٧٨, ١٧٩

- الحمد، ٢٢، ١٩٧
- حمایات، ٧١
- الحملة الإنجليزية، ٢٢، ١٥٤، ٢٢٥
- الحملة الفرنسية، ٨، ٢٧، ٦١، ٦٥، ٦٩، ٧١، ٧٦-٧٨، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ١٠٠، ١٢٥، ١٣٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٣٩
- الحملة المصرية، ١٢٤
- حملة فريزر، ٢٣٩
- حوران، ١١٦
- الحويطات، ١٧٣، ١٧٤، ٢٢٨
- حانيا، ٢١٨
- الخراج، ١٨٠
- الخرج، ٢١٣
- الخرنفش، ٤٠، ١٩١
- خمسرو باشا، ٢٨، ٧٥، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨١، ٩٨، ١٠١، ١٠٥
- خشد اشية، ٦٦
- الخليج الأشرفي، ٢٠١
- الخليج الناصري، ٢٠١
- خليل آغا، ١٣٧
- خورشيد باشا، ٢٨، ٦١، ٧٩، ٨١، ٨٤، ٩٨، ١٠١، ١٠٥، ١١٦، ٢٢٤
- دارد باشا، ١٣٠
- دهوس أغلي، ٣٣، ١٣٨ انظر محمد بيك
- الدرعية، ٣٣، ٣٤، ٣٧، ١١٥، ١١٧، ١١٨، ١٢٠، ١٢١، ١٤٢، ١٥٦، ١٥٨، ١٦٢، ١٦٣
- دسوق، ١٧٤
- الدغردار، ٥٠
- الدلاة، ٢٨، ٣٩، ١٣٧
- دمهور، ١٩٠، ٢٠١، ٢٢٤
- دمياط، ١١٥، ١٢٦، ١٣٣، ١٨٩، ١٩٧
- الدولة العثمانية، ٨، ١٣، ٣٩
- ذو الفقار، ٢١، ٣٣
- رأس الوادي، ٢٢٠، ٢٣٠
- الرزنجي، ٢١١ انظر الروزناجي
- رسلان، ١٦٦، ١٦٧
- رشيد، ٦٠، ٦٥، ٧١، ٧٨، ٩٨، ١٣٢، ١٥٣، ١٨٩، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٧
- الروزنامه، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٣
- الروزناجي، ٤٩
- الرياض، ١١٨، ١٢٠، ١٢٦
- الزاوية الحمراء، ٣٩
- زعيم أوغلي، ١٢٤
- زفته، ١٩٠
- الزقازيق، ٢٢١١٨٨
- سالونيك، ١٣٨ انظر سلاتنيك
- سبخة حليلة، ٢٠٧
- سراي عابدين، ١٦٨
- سراي، ٦٣، ٩٥
- سريزي، ٥٠، ٢١٦
- سعد، ١٦٦، ١٧٢، ١٩٦
- سعود الأول بن محمد، ١٢٠
- سعود بن عبد العزيز، ١٢٤
- سعود، ١١٥، ١١٧، ١٢٠، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٦، ١٢٧، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٢، ١٥١، ١٥٤، ١٥٦
- ١٥٨، ١٦١، ١٦٣، ١٦٤
- السعوديين، ١٢٠
- سعيد آغا، ٢٨، ٨١
- سلامة شديد، ١٧٣
- سلانيك، ١٢٥
- السلطان عبد الحميد، ٢٣٩
- السلطان قانصوه الغوري، ٢٤٤

- السلطان محمود, ٤٧, ١٢٨, ١٢٩, ١٦٤
السلطان مصطفى, ٢٢٤
سليم بيك المخرمجي, ٣٢, ١٠٢
سليمان أغا, ١٣٧
سليمان باشا الفرنساوي, ٢٣٦
سليمان باشا حاكم بغداد, ١١٥, ١١٦
سليمان بيك البواب, ١٠٨, ١٠٩
السواقى, ٢٢٠, ٢٢١
سوباشا, ٦٩
السودان, ٩٢, ١١٢, ٢٣٥
سوق السلاح, ٤١
السويس, ٢٤, ٣٧, ١١٦, ١٢٦, ١٢٩, ١٣١
١٣٣, ١٣٧, ١٥٣, ٢١٦
سويقة العزي, ١٢٥
السيد محمد المخرمقي, ١٢٥, ١٣٠
سيوة, ٢٢٨ انظر سيوى
سيوى, ٢٢٨, ٢٢٩
الشارع السلطاني, ٧٠
الشام, ٢٢, ٥١, ٦١, ٦٢, ٦٤, ٧٥, ٩٢, ٩٤, ١١٤, ١١٦, ١٢٦, ١٢٨, ١٤١, ٢٢٠, ٢٢٤
شاهين بيك الألفسي, ٣٢, ٣٣, ٨٤, ٩٧, ٩٩
١٠٩, ١٠٤
شبرا, ١٩, ٤٥, ١٣٤, ١٤٣, ١٥٥, ١٧٨
١٨٦, ١٩١
شبه الجزيرة العربية, ١١٥, ١٥٧
شبين الكوم, ١٩٠
شرخية, ١٥٩
شريف أغا, ١٢٤
شريف باشا, ١١٦, ١٢٦
الشريف راجح, ١٢٥
الشريف سرور, ١٢٥, ١٣٩
الشريف عبد المعين, ١١٥
الشريف غالب, ١٢٤, ١٢٥, ١٢٦, ١٣٨
١٣٩, ١٤٢
شريف مكة, ١١٦, ١٢٤, ١٣١, ١٣٥, ١٣٨
١٣٩, ١٤٣
الشغسية, ١٣٦, ١٤٤
شهود البلاد, ٢١٢
الشيخ الأمير, ١٧
شيخ البلد, ٦٠, ٦٢, ١٠٥, ١٣٣, ١٧٩
صالح أغا السلحدار, ١٢٤, ١٣٧
صالح باشا القبودان, ٢٢٥
صالح بيك الصغير, ١٠٥
صالح بيك الكبير, ١٠٥
صالح قوج, ٣٣
الصديق, ١٧١
الصعيد, ١٧, ٢٢, ٥٦, ٦٠, ٦٤, ٧٥, ٧٧
٧٩, ٨٠, ٨٤, ٩٠, ٩٤, ٩٥, ٩٧, ١٠١
١٠٢, ١٠٣, ١٠٤, ١٠٦, ١١٢, ١١٣, ١٥٤
١٥٦, ١٦٨, ١٨٨, ٢٢٤, ٢٣٥, ٢٣٨
الصفراء, ١٢٤, ١٣٠, ١٣٧
صناحق, ٦٤, ٦٧, ١٧٩
صناعة الحرير والقطن, ١٩٠
صناعة القماش الكتان, ١٩٠
صنحق بيك, ١٧٩
صنحق, ٦٧, ٦٨
الصيارفة, ٢١٠, ٢١٢
الطائف, ١١٥, ١٢٣, ١٢٤, ١٢٥, ١٣٩
١٤١, ١٤٢
الطاعون, ١٢٥, ١٨٨
طامي, ١٢٤, ١٤٣
طاهر باشا, ٦١, ٧٨, ٩٨, ١٠١, ١٢٦, ٢٢٤

- انظر حسن طاهر باشا
الطبيعية، ٢٢٦
طرابلس، ١٣٨
طربة، ١٤٢
الطريق الصخري، ٢٤، ٤٥، ١٨٤
طسن باشا، ١٣٢، ١٣٥، ١٤٣، ١٤٩، ١٥٠
١٥٢ انظر طوسون باشا
طندتا، ١٨٩
طهطا، ١٩٠
طوسون باشا، ٣٧، ٤٧، ١٢٤، ١٢٥، ١٣٠
١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٤٢، ١٣٥، ١٥١
١٥٣، ١٧٣
عابدين بيك، ٣٣، ١٢٥، ١٩٧
عبد الحميد خان، ٣٨
عبد العزيز بن سعود، ١١٥، ١٢٦
عبد العزيز بن محمد بن سعود، ١٢٠
عبد العزيز، ٧، ١٤، ٢٤، ٣٤، ٤٦، ١١٥
١٢٠، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٦
عبد الله الشرقاوي، ١٣٤
عبد الله بن سعود، ١٤٢، ١٥٤، ١٥٦، ١٥٨
١٦٣، ١٦٤
عبد المجيد، ١٣، ٤٥، ١٨٨، ٢٥٧ انظر السلطان
عبد المجيد
عبد الوهاب، ٣٤، ٣٦، ٣٧، ١١٥، ١١٧
١١٩، ١٢٣، ١٢٤، ١٤٠
عثمان آغا، ٢١، ٣٣
عثمان بن عبد الرحمن المضايقي، ١٢٤
عثمان بيك البرديسي، ١٢٦
عثمان بيك حسن، ٧٩، ١٠٤، ١٠٧، ١١١
٢٢٤
العراق، ٣٥، ١١٦، ١٤٠، ١٤١
- عرب حرب، ١٣٥
العرب، ٢٧، ٧١، ٨٦، ١٠٤، ١١٤، ١٦٦
١٧٣، ١٧٤، ٢٢٧، ٢٤٤ انظر العربان
العربان، ٢٤، ٢٥، ٢٧، ٣٤، ٤٢، ١٢٢، ١٢٥
، ١٢٤، ١٣٠، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٥، ١٥٦
١٥٧، ١٦٦، ١٧١، ٢٢٤، ٢٢٧
العساكر الجهادية، ١٢، ٥٢، ٥٣، ٢٣١، ٢٣٧
٢٣٨، ٢٤٧، ٢٥٣
العسير، ١٢٤
العطف، ٢٠٣، ٢٠٥
عقبة إيليا، ١٢٨
العقبة، ١٢٨
علي باشا الجزائري، ١١٦، ١٢٦
علي باشا الكيخيا، ١١٥
علي بن أبي طالب، ١٤٠
علي بيك الكبير، ٦٤، ٦٦، ٩٦، ١٠٥
عمر بيك، ١٩٧، ١٩٨
عمر مكرم، ١١١، ١٣٣
عين شمس، ٦١، ٧٥
العينية، ١١٧
غاثم الرشيدى، ٥٠
فرشوط، ١٩٠
الفرقطن، ٢١٧
الفرنسيس، ٧، ٢٨، ٣٩، ٥٧، ٦١، ٧٥، ٩٤
١١٤، ٢٣٤، ٢٤١
الفلاحون، ١٥، ٢٣، ٢٧، ٢٨، ٣٨، ٤٣، ٤٨
٥٨، ٧١، ٧٤، ٧٨، ٨٩، ٩٣، ١٦٦، ١٧١
١٧٢، ١٧٧، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٢، ٢١٠، ٢١١
٢١٢، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٣٨، ٢٥٢
فُوة، ١٨٩
الفيوم، ٢٢٠، ٢٢٤، ٢٢٨

- قائم مقام, ٦٣
قائم مقام, ٦٠, ٦٣, ٦٤, ٧٨, ٩٨, ٢٣٥
القانون العسكري الفرنسي, ٥٤
القبانة, ٢٠٩, ٢١٠, ٢١٢
القبة الشريفة, ٣٥
قبرس, ٢١٩
قبرص, ٥١
القرافة, ٧٠, ٧٣
قران الروسية, ٢٥٧
قربانه, ١٦٩
القسيم, ١٢٠
قصر العين, ١٢٦
قصر المغارة, ٤٥
قصر شيرا, ١٩
القصير, ١٣٦, ١٥٠, ١٥٧, ١٦٤
القطن الهندي, ٢٢٢
القلعة النجمية, ٤٥
القلعة, ٢٤, ٤٥, ٦٠, ٦٣, ٧٠, ٧٣, ٧٦, ٧٩
٩٥, ٩٦, ١٠٠, ١١٠, ١١٤, ١٢٤, ١٣٤
١٧٠, ١٨٤, ١٨٥, ١٩٣, ١٩٢, ١٩٤, ١٩٥
١٩٩, ١٩٨
قليوب, ١٨٩
القليوبية, ١٧٠, ١٧٨, ٢٠٤
قنا, ١٣٦, ١٩٠
القناطر, ٤٥, ٥٢, ١٨٧, ١٨٨, ١٩٥, ١٩٦
٢٢٠, ٢١٩
قنفذة, ١٢٤
قوص, ١٣٦
كاتب الحرمين, ٢٠٩
كاتب الصرة, ٢٠٩, ٢١٠
كتاب الأمراء, ٢١٠
كتاب المسلمين, ٢١٤
كتاب الميري, ٤٩, ٢١١
كتابة الصرة, ٤٩
كتابة القرمة, ٢١١
كتخدا بيك, ٨٩, ٩١, ١٢٤, ١٢٥, ٢٣٥
كربلاء, ١١٥, ١٢٠, ١٤٠
الكرك, ١١٦
كريت, ٥١, ٢١٨
الكشاف, ٦٨, ٢٢٥
كلوت بيك, ٩, ١٠, ١٧, ١٨, ٣١, ٤٤, ٥٠
٥١
كليبر, ٦١, ٦٥, ٧٥, ٧٨, ٩٥, ٩٦
كنديا, ٢١٨
لطيف باشا, ١٢٥, ١٣٨
لطيف بيك, ١٢٤
مالطة, ٢١٦
المحتسب, ٦٨
الحلة, ١٨٩
محمد أفندي سليم, ٥٠
محمد الدواخلي, ١٧
محمد الشنواني, ٥٦
محمد العروسي, ١٢, ١٧, ١٩, ٥٦
محمد المهدي, ١٣٣, ١٣٤
محمد باشا أبو مرق, ١١٦
محمد باشا والي حدة, ١١٦
محمد بن سعود, ١١٥, ١١٧, ١٢٠
محمد بن عبد الوهاب, ١١٥, ١١٧
محمد بيك أبو الذهب, ٦٠, ٦٤, ٦٦, ١٠٥
محمد بيك الألفي, ٢٥, ٣٢, ١٣٤, ٢٢٣
٢٢٧, ٢٢٩
محمد بيك المبدول, ١٦٨

- محمد بيك دبوس أغلي, ١٩٧ انظر دبوس أغلي
 محمد بيك لاط أغلي, ٥٣, ٢٣٥
 محمد علي, ٧-١٢, ١٤-٢٦, ٢٨-٣٤, ٣٦-
 ٣٨, ٤٠, ٤٢-٥٢, ٥٤, ٥٦, ٥٨, ٦١, ٦٣,
 ٧٦, ٧٨-٨١, ٨٤, ٨٨, ٨٩, ٩١, ٩٦-١٠٦,
 ١٠٨-١١٤, ١١٦, ١١٨, ١٢٤-١٢٦, ١٢٨-
 ١٣٤, ١٣٦, ١٣٧, ١٣٩, ١٤٢, ١٥٠, ١٥١,
 ١٥٣, ١٥٤, ١٥٦, ١٦٣, ١٦٤, ١٧٣,
 ١٧٨-١٨٠, ١٨٢, ١٨٤, ١٨٧, ١٨٨-١٩٢,
 ١٩٤, ١٩٥-١٩٨, ٢٠١, ٢٠٣, ٢١٢, ٢١٦-
 ٢١٨, ٢٢٠, ٢٢١, ٢٢٣, ٢٢٤, ٢٢٧, ٢٢٨,
 ٢٣٥-٢٤٨
 الحمل المصري, ١١٦
 محمود بيك, ١٢٤
 محمود خان, ٣٨
 المحمودية, ٢٠١, ٢٠٢, ٢٠٧
 محو بيك, ٣٣, ١٣٧
 مدائن الجريد, ٢١٩
 المدافع, ١٨٥, ١٩٢, ١٩٩, ٢١٧
 مدرسة أسوان, ٢٣٦, ٢٣٧
 المدرسة البيطرية, ١٨٧
 مدرسة الزراعة, ١٨٧
 المدينة المنورة, ٣٤, ٣٥, ٣٨, ١١٥, ١١٧,
 ١٢٥, ١٢٧, ١٣٠, ١٣٢, ١٣٥, ١٦١
 المذبح السلطاني, ٧٣
 مذبح القلعة, ٢١, ٣٢
 مذبح الممالك, ٦١, ١٠٩, ١١٠
 مراد بيك, ٢٧, ٦٠, ٦٤, ٧٥, ٧٨, ٩٤, ٩٥,
 ١٠٢, ١٠٤, ١٠٥, ١٠٧, ١٦٨
 مراد كاشف, ١٦٨
 المراكب, ٢١٥, ٢١٦, ٢١٧
 المزيروب, ١٢٨
 المسجد النبوي, ٣٥
 مسعود, ١٢٣
 مسيلة, ١٢٥
 مشايخ البلد, ٢١٢
 مشايخ البلدان, ١٧٩
 مصطفى بيك دالي, ١٣٧
 المضايقي, ١٢٤, ١٤٣, ١٥١
 المطرية, ٣٩
 المغاربة, ٣٧, ١٣٧, ١٣٨, ١٥٦, ٢٢٥
 المقابر, ١٧١, ١٩٥
 المقطم, ٢٤, ٤٥, ١٨٤
 المكاحل, ٢١٧, ٢٤٥
 مكة المكرمة, ٣٤, ١١٥, ١١٧, ١٢٤, ١٢٥,
 ١٢٦, ١٢٧, ١٢٩, ١٣١, ١٣٢, ١٣٥, ١٣٩,
 ١٤١, ١٤٣, ١٥٤, ١٥٧
 المترمين, ١٧٩, ٢١٢
 المساليك, ٨, ١٧, ٢١-٢٨, ٣٢, ٣٣, ٣٧,
 ٣٩, ٤١, ٥٦, ٦١-٦٤, ٦٦-٦٨, ٧١, ٧٥-
 ٧٨, ٨٠, ٨١, ٨٤, ٩٣, ٩٥-١٠١, ١٠٣-
 ١٠٦, ١٠٩-١١٤, ١١٦, ١٣٣, ١٤٦, ١٦٦,
 ١٦٨, ١٧٩, ١٩٧, ١٩٩, ٢٠١, ٢١٠, ٢١٨,
 ٢٢٣, ٢٢٥, ٢٢٨, ٢٢٩, ٢٣٥, ٢٣٦, ٢٤٣
 المنيا, ١٩٠
 منية السمرج, ٣٩
 منية غمر, ١٩٠
 المهندسخانة, ١٨٨
 موسى, ١٨٨
 المويلح, ١٢٤, ١٢٩, ١٣٠, ١٣٥, ١٥٠
 نابليون بونابرت, ٦١, ٦٢, ٧١, ٩٦, ١٢٥,
 ٢٢٤, ٢٤٨

- نجد، ١١٨، ١٢٠، ١٢٣، ١٣٥، ١٣٩، ١٤٢،
 ١٥٧، ١٦٤
 التحف الأشرف، ١١٦
 نصار شديد، ١٧٤
 النظام الجديد، ١٠، ١٧، ٥٢
 الهناد، ٢٢٧
 الوزانين، ٢١٠
 وفا النيل، ١١١
 الوحييون، ٢٤، ٣٣-٣٨، ٤١، ١١٥، ١١٧،
 ١١٨، ١٢٤-١٢٨، ١٢٩، ١٣١، ١٣٥، ١٣٦،
 ١٣٩، ١٤١-١٤٤، ١٤٩-١٥٢، ١٥٦، ١٥٧،
 ١٥٩، ١٦١، ١٦٣-١٦٥، ١٧٣، ١٧٤، ٢٠١
- اليمن، ٣٤، ١٢٣، ١٢٥، ١٤١
 ينبع، ١١٦، ١٢٦، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٥، ١٣٧،
 ١٥٠، ١٥٧
 يوسف باشا المعدني، ١١٦
 يوسف باشا، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٩٤، ١١٣، ١١٤،
 ١١٦، ١٢٨، ١٤١
 يوسف ضيا باشا، ١٤١
 اليونان، ٥١

رقم الإيداع ٩٦ / ٩٥٨٨

الترقيم الدولي 977-5727-01-4

يكتسب هذا الكتاب أهميته من إنه يقدم سيرة ذاتية موجزة لمحمد علي وإصلاحاته العديدة، خطها أحد علماء الأزهر الذين عاصروا تلك الإصلاحات، وهو الشيخ خليل بن أحمد الرجي، الذي يقدم لنا في مؤلفه هذا رأياً مؤيداً لإصلاحات محمد علي، مبيناً أنها تتفق وأحكام الشريعة الإسلامية، وتؤدي إلى صالح البلاد والعباد.

وعلى الرغم من النظرة الواحدة التي كتب بها الرجي متحيزاً لمحمد علي، فإن هذا المخطوط يحتوي على كثير من المعلومات المهمة عن الحالة الأمنية في مدن مصر وقراها قبيل محمد علي وفي الفترة الأولى من حكمه، وعن حروبه ضد الوهابيين، وكذلك عن سياسته الزراعية، وبناء الأسطول والجيش المصري الحديث وغير ذلك من الإصلاحات والنشاطات التي كان الرجي شاهداً عياناً عليها.

ولإلقاء مزيد من الضوء على هذا المخطوط وأهميته، فقد عمدنا إلى المقارنة بين آراء كل من الرجي والجبرتي، فوجدنا أنفسنا أمام رأيين متناقضين تماماً في محمد علي وإصلاحاته، كلاهما من علماء الأزهر، وكلاهما معاصر لمحمد علي.

الناشر